الجامعة الإسلامية بغـزة
عمادة الدراسات العليـــا
كليـــة أصـــول الـــديـــن
قسم التفسير وعلوم القرآن

مكتبة الجامعة الإسلامية بغزة

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الرسائل الجامعية

منهج الشعراوي في التفسير

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب / إبراهيم عيسى إبراهيم صيدم

إشراف الدكتور / عصام العبد زهد

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة

333
مكتبة الجامعة الإسلامية بغزة
الرقم العـــام : 333
الرقم الخاص : 227
التـاريـــخ : 14 MAR 2001

العام الجامعي

1421هـ ـ 2000م

الجامعة الإسلامية - غزة
THE ISLAMIC UNIVERSITY OF GAZA

2000/10/29

الموافق 2 شعبان 1421هـ

Ref. .... الرقم:

Date .... التاريخ:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناء على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **إبراهيم عيسى إبراهيم صيدم** المقدمة لكلية أصول الدين لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، وموضوعها:

منهج الشعراوي في التفسير

وبعد المناقشة العلنية التي تمت يوم الأحد 2000/10/29م الموافق 2 شعبان 1421هـ الساعة 12 ظهراً، **اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة المكونة من الأساتذة:**

1 - د. عصام زهد مشرفاً ورئيساً.

2 - د. جمال الهوبي عضواً .

3 - د. زكريا الزميلي عضواً .

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث/ **إبراهيم عيسى إبراهيم صيدم** درجة الماجستير في **كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن.**

والله ولي التوفيق ،،،

توقيع أعضاء اللجنة:

12 - د. عصام زهد ....

2 - د. جمال الهوبي ....

3 - د. زكريا الزميلي ....

نتيجة الحكم على أطروحة - - 38 Winword - مناقشين - نتائج المناقشة

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine Tel:(+972-7)286 3554 هاتف Fax : (+972-7) 286 3552 فاكس ص.ب. 108 الرمال- غزة- فلسطين
Web Site: www.iugaza.edu e-mail: public@mail.iugaza.edu بريد إلكتروني

إهــــداء

إلى والدي ووالدتي الأعزاء .

إلى الإخوة والأخوات والأهل الفضلاء .

إلى أستاذي ومشرفي ، ولطالما أسدى إليّ توجيهاته البنَّاءة السديدة .

إلى أساتذتي الأفاضل .

إلى زملائي الأكارم .

إلى كل من ساهم في إخراج هذا البحث إلى النور .

إلى المسلمين في كل مكان .

أهدي إليهم ثمرة جهدي ، هذه الأطروحة المتواضعة .

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، تبصرة وذكرى لأولي الألباب ، وأودعه من فنون العلم والحِكَم العجب العجاب ، وجعله أجلَّ الكتب قدراً ، وأغزرها علماً ، وأعظمها نظماً . فوالله ، لقد تقاصرت عن الوفاء بوصفه بلاغة البلغاء ، وعجزت عن محاكاته فصاحة الفصحاء ، فهو كلام لا تحيط به العقول علماً ، ولا تدرك كنهه البشرية فهما . فالاعتراف بالعجز أمامه أولى بالمقام ، وأوفق بما يقتضيه الحال من الإعظام .

وأصلي وأسلم على النبي المصطفى ، والرسول المرتضى ، والحبيب المجتبى ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الغرّ الميامين ، ومن سار على هديه بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن أشرف العلوم على الإطلاق ، وأولاها بالفضل والاستحقاق ، وأرفعها قدراً بالاتفاق ، العلم بكتاب الله تعالى ، ولا عجب ، فإن شرف العلم بشرف المعلوم .

تعريف بتفسير الشعراوي :

يجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن تفسير الشعراوي كتب بعنوان (خواطر إيمانية حول القرآن الكريم) ، من أول سورة الفاتحة إلى نهاية الآية 47 من سورة الحجر . وقد عُرض هذا الجزء من التفسير ــ قبل طباعته ــ على الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة في الأزهر الشريف ، فأجازوا لمطابع أخبار اليوم طباعته على نفقتهم الخاصة في تاريخ 1411/10/19هـ الموافق 1991/5/4م ؛ وذلك لأن هذا التفسير ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية .

وقد قام الإمام الشعراوي بالإشراف عليه بنفسه . وقام بمراجعة أصله ، وخرج أحاديثه الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم ــ نائب رئيس جامعة الأزهر آنذاك ــ ، وساعده في ذلك فضيلة الشيخ محمد السنراوي ، والأستاذ عادل أبو المعاطي .

أهمية هذا الموضوع :

تكمن أهمية هذا الموضوع في الأمور الآتية :

1 ــ لغة الخطاب عند الشعراوي ، والأسلوب المتميز في تفسير القرآن الكريم . وهذا الأمر يعطي دفعة لمن أراد أن يستفيد من أسلوب الشيخ في الدعوة والإصلاح ، وطريقته في تفسير القرآن الكريم . إن الشعراوي اتخذ طريقاً في تفسير القرآن الكريم ، شدَّ إليه قلوب السامعين ، وأصغى إليه آذانهم ؛ وذلك باللغة المتميزة في مخاطبة الجمهور ، والتي تجعل ذهن السامع أو القارئ وكأنه يعايش روح التفسير مع الشيخ ، ويواكب الأحداث التي يطرحها

لا يفوته منها حدَث .

2 ـ القضايا المختلفة التي طرحها الإمام الشعراوي في تفسيره ، كالقضايا اللغوية والبيانية والاجتماعية والعلمية وغيرها من القضايا التي كان لها دور واضح في تفسير القرآن الكريم.

3 ـ كيفية ربط الشعراوي هذه القضايا المتنوعة بآيات القرآن الكريم ، وهذا يفيد الدعاة وأهل العلم في مجال معرفة قواعد الربط بين القرآن والواقع ، أو بين القرآن والقضايا المختلفة ، وخاصة المعاصرة .

سبب اختيار الموضوع :

الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب ، هي :

1 ـ مكانة هذا التفسير في نفسي ، وحبي للبحث عن مناهج المفسرين .

2 ـ نظراً لحداثة هذا التفسير ، فإنه لم يتنبه إليه أحد بالكتابة في منهجه . فالدراسة حول هذا الموضوع تعتبر جديدة ، غير مسبوقة من أحد .

3 ـ التأييد الواضح الملموس من قِبَل أساتذتي الأفاضل ، الذين شجعوا وأيدوا الكتابة في منهج الشيخ الشعراوي ، حيث إن تفسيره من التفاسير الحديثة .

4 ـ وأعظم من كل ذلك ، فإنني أبتغي من وراء عملي هذا وجه الله تعالى ، سائلاً المولى ﷻ أن ينفعني به ، وينفع به طلبة العلم ، وجميع المسلمين .

أهداف البحث :

الهدف من وراء هذا البحث عدة أمور ، وهي :

1 ـ إبراز معالم شخصية الإمام الشعراوي من خلال بيان منهجه في التفسير .

2 ـ إخراج منهج الإمام الشعراوي إلى النور ، وإثراء المكتبة الإسلامية .

3 ـ فتح آفاق جديدة أمام الدارسين للاستفادة من منهج هذا الرجل في الدعوة والإصلاح .

4 ـ إبراز أهميته ، وبيان مكانته بين التفاسير عن طريق إلقاء الضوء عليه .

5 ـ بيان ما له وما عليه من خلال الدراسة المنهجية الاستقرائية لتفسيره .

الجهود السابقة :

تعتبر الكتابة عن منهج الإمام الشعراوي جديدة ، وذلك بسبب قُرْب وفاة الشيخ . بينما الشئ الذي كثر البحث فيه هو الكتابة عن شخصية هذا الرجل ، وفكره الموسوعي الفسيح ؛ كما فعل الدكتور محمد رجب البيومي ، حيث ألف كتاباً بعنوان : (الشيخ محمد متولي الشعراوي .. جولة في فكره الموسوعي الفسيح) ، وقد ضمَّنه بعض الأمور التي تتعلق بتفسير الشيخ . وكتب الدكتور أحمد عمر هاشم كتاباً بعنوان : (الشعراوي مفسراً وداعية)

وهو كُتَيّب صغير ، تكلم فيه عن إشارات مقتضبة عن منهج الشعراوي في التفسير ، في حدود عشر نقاط ، فيما لا يتجاوز الأربع صفحات .

هذا ، وقد تناول أحد طلبة العلم فكر الإمام الشعراوي حول القضايا المعاصرة ، وآخر اختص في الجانب البياني عند الشيخ (1). هذا ما توصلتُ إليه ، أما الكتابة عن منهجه ــ رحمه الله ــ فتعتبر غير مسبوقة .   والله أعلم

المشاكل التي واجهت الباحث :

لقد كان البحث ميسَّراً ــ بفضل الله ــ إلا أن هناك بعض الصعوبات واجهت الباحث أثناء البحث .

ــ فقد حالت الصعوبات والعراقيل والحواجز بيني وبين أخذ المعلومات الكافية من مصادرها الرئيسية في جمهورية مصر العربية مسقط رأس الشيخ الشعراوي .

ــ عدم إمكانية الالتقاء بأحد من أبناء الشعراوي ؛ لسبب أو لآخر .

ــ ومن هذه الصعوبات أيضاً أنني حاولت تحصيل أشرطة فيديو من (شركة رؤية) ، التي أعدت برنامجاً فيه عظيم الفائدة سواء عن حياة الشيخ ، أو عن مكانته العلمية . لكن التكلفة كانت كبيرة . مما حال بيني وبين ذلك .

فهذه أهم الصعوبات التي واجهتها أثناء البحث .

عملي في هذا البحث :

1 ــ قام الباحث باستقراء تفسير الشعراوي .

2 ــ قام بذكر الأمثلة ، ثم التعليق عليها إما بالمناقشة والرد ، أو باستنباط الفوائد منها ، أو نحو ذلك مما بدا له أثناء الكتابة .

3 ــ بيان ــ منهج الشيخ ــ رحمه الله ــ في تفسيره ؛ الأسلوب الذي سار عليه ، والرأي الذي اقتنع به واعتمده ، والجديد الذي تميز به .

4 ــ القيام بتوضيح معاني المفردات اللغوية التي احتاجت إلى بيان في الحاشية .

5 ــ عزو الآيات إلى مواضعها في سورها .

6 ــ قام الباحث بتخريج الأحاديث الواردة في الرسالة من كتب السنة ، على أن الحديث الذي ورد في الصحيحين أو في أحدهما اكتفى بتخريجه منهما ، أما الحديث الذي لم يرد فيهما أو في أحدهما فقد قام بتخريجه من مصادر أخرى . مع ذكر اسم الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث .

---

(1) لم أقف على أسماء هذين الباحثين .

7 ـ أورد الباحث حكم الناس على الأحاديث الواردة في الرسالة ما استطاع .

8 ـ القيام بعمل تراجم للأعلام والبلدان الغير معروفة .

الرموز المستخدمة في البحث :

أضع بين يدي القارئ الكريم مدلول الرموز التي استخدمتها أثناء كتابة البحث :

أ : أستاذ .

ب : باب .

ت : توفي .

تر : الجامع الصحيح (سنن الترمذي)

ج : مجلد .

جـ : جزء .

جه : سنن ابن ماجه .

ح : حديث .

حم : مسند الإمام أحمد بن حنبل .

خ : صحيح البخاري .

د : دكتور .

دو : سنن أبي داود .

دي : سنن الدارمي .

س : النسائي في سننه .

ص : صفحة .

ط : الناشر .

طأ : موطأ مالك .

ك : كتاب .

م : ميلادي .

مس : صحيح مسلم .

هـ : هجري .

خطة البحث :

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة ، وقد جعلتُ لكل فصل مقدمة موجزة تتضمن موضوعاته ، ثم أردفته بخلاصة ، ثم ختمت البحث بخاتمة أتبعتها بخمسة فهارس وملخص للرسالة مترجم باللغة الإنجليزية .

التمهيد : تحدثت فيه عن تعريف علم التفسير ونشأته ومناهج المفسرين .

الفصل الأول : وهو عبارة عن ترجمة للشيخ الشعراوي ، ضمَّنتُ فيه القضايا الآتية :

اسم الشعراوي وكنيته ولقبه ، عقيدته ومذهبه الفقهي ، شيوخه وأقرانه وتلاميذه ، نشأته وحياته العلمية والدعوية ، مكانته العلمية وثناء العلماء عليه .

الفصل الثاني : يتحدث عن التفسير بالمأثور عند الشعراوي منهجه وأصوله : ويتكون من مبحثين :

المبحث الأول : منهجه في التفسير بالمأثور : وضحت فيه منهج الشعراوي في تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالسنة ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

المبحث الثاني : أصول التفسير بالمأثور عند الشعراوي : وضحت فيه منهجه في كيفية إنزال القرآن وأسباب النزول ، والقراءات القرآنية ، وترتيب القرآن وتحزيبه ، والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني ، وما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، والمحكم والمتشابه ، والمبهمات ، والقصة ، والسيرة ، والإسرائيليات .

الفصل الثالث : يتحدث عن منهجه في التفسير بالرأي ، ويتكون من ثلاثة مباحث ، وهي كالآتي :

المبحث الأول : أصول التفسير بالرأي عند الشعراوي : وضحت فيه منهجه في المناسبات والمشكل في القرآن ، وفواتح السور وخواتمها ، والإعجاز البياني .

المبحث الثاني : التفسير اللغوي عند الشعراوي : وضحت فيه بيان الشعراوي للمفردات اللغوية واشتقاقها ، والنحو والإعراب ، وعنايته بالشعر .

المبحث الثاني : لغة الخطاب عند الشعراوي : وقد وضحته من خلال سلوك الشعراوي لطريق التمثيل ، وطرح التساؤلات ، واستعانته بالقصص والحكايات ، ورجوعه إلى التاريخ ، ومزج تفسيره بالتوجيهات الدعوية وما يُستفاد من الآيات ، والأمثلة الشعبية .

الفصل الرابع : تفسير الشعراوي لآيات العقيدة : ويتكون هذا الفصل من خمسة مباحث ، وهي كالآتي :

المبحث الأول : منهجه في التوحيد : وضحت فيه منهجه في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات .

المبحث الثاني : منهجه في الغيبيات : وضحت فيه منهجه في الملائكة والجن والسحر وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث والحساب ، والجنة والنار .

المبحث الثالث : منهجه في القضاء والقدر .

المبحث الرابع : منهجه في الرسل .

المبحث الخامس : منهجه في عرض المسائل الكلامية .

الفصل الخامس : التفسير الفقهي والاجتماعي : ويتكون من مبحثين : وهما :

المبحث الأول : التفسير الفقهي عند الشعراوي : وقد بينت منهجه فيه من خلال عدة أصول ، هي : الأحكام الفقهية (العبادات ـ المعاملات ـ الأحوال الشخصية ـ الحدود ـ الأيمان) ، والإعجاز التشريعي في علاج مشاكل المجتمع ، وبيان علة التشريع ، والخلافات الفقهية بين العلماء ، ومقارنة التشريع الإسلامي بالقانون الوضعي ، وفتاوى الشعراوي حول بعض القضايا المعاصرة .

المبحث الثاني : التفسير الاجتماعي عند الشعراوي : وضحت فيه موقفه من الأنظمة الحديثة وموقفه من المستشرقين والحاقدين ، والحُكم ، وإفساد اليهود للمجتمعات ، وموقفه من قضية المرأة وقضية التقليد ، ونقده للبدع والعادات الاجتماعية السيئة .

الفصل السادس : منهجه في التفسير العلمي : ويتكون من ثلاثة مباحث ، وهي كما يلي :

المبحث الأول : موقفه من التفسير العلمي .

المبحث الثاني : العلوم الطبيعية : وضحت فيه منهجه ـ رحمه الله ـ في علم الفلك والأحياء والجغرافيا والبحار والفيزياء .

المبحث الثالث : العلوم التجريبية : وضحت فيه منهجه في علم الطب والكيمياء وعلم النفس.

الفصل السابع : تفسير الشعراوي أثره ومكانته : وهو عبارة عن نتائج تفصيلية للبحث تتضمن أثر تفسير الشعراوي في التفسير والدعوة ، ومكانته العلمية .

وأخيراً جعلت خاتمة البحث عبارة عن خلاصة عامة له ، متضمنة بعض التوصيات والدعوات ، وأتبعت الخاتمة بخمسة فهارس كالآتي :

1 ـ فهرس الآيات القرآنية .

2 ـ فهرس الأحاديث النبوية .

3 ـ فهرس التراجم .

4 ـ فهرس المراجع .

5 ـ فهرس الموضوعات .

وآخراً وضعت ملخصاً للبحث مترجماً باللغة الإنجليزية .

والله الموفق والمستعان

شكر وتقدير

الحمد لله أولاً وآخراً ، وأثني عليه الخير كله ، فهو الهادي إلى سبيل الرشاد ، والموفق للخير والسداد ، ولولا توفيقه ما خرج هذا البحث إلى النور ، فهو أهل للشكر والثناء .

وأتوجه بالشكر والتقدير إلى الجامعة الإسلامية ، والدراسات العليا . وأخص بالشكر كلية أصول الدين ، وقسم التفسير وعلوم القرآن . وأشكر أساتذتي في القسم ، وأقول لهم : هذه ثمرة من ثمار جهودكم .

وأتوجه بالشكر والثناء إلى مدرسي ومشرفي فضيلة **الدكتور عصام زهد** ، وكم قدم لي من نصائحه السديدة ، وتوجيهاته الرشيدة ، من أجل إثراء هذا البحث ، وإخراجه في أحسن صورة .

وأتوجه بالشكر الخالص لأستاذيَّ اللذيْن تفضلا بمناقشة هذه الرسالة :

فضيلة **الدكتور زكريا الزميلي** .

وفضيلة **الدكتور جمال الهوبي** .

واللذيْن أتحفاها بملاحظاتهما القيمة .

كما وأشكر الإخوة طلاب الماجستير في قسم التفسير والحديث والعقيدة ، وأدعو لهم بالتوفيق والرشاد . وأشكر الإخوة العاملين في مكتبة الجامعة .

وشكري الجزيل للأخت الفاضلة سهام ، التي عانت من وعثاء السفر من أجل الحصول على تفسير الشيخ الشعراوي .

والشكر الخاص لابن عمي العزيز عماد ، فقد كان له دور كبير في مواجهة عناء السفر، وهو أهل للمصاحبة .

وأشكر كل من ساهم في إخراج هذا البحث .

والله الموفق والمستعان

الباحث

تمهيد

تعريف علم التفسير، ونشأته، ومناهج المفسرين

أولاً : معـــنـــى التفـســـير :

====================

في اللغة :

التفسير في اللغة : الإيضاح والتبيين ، ومنـــه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَـاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) ﴾ (سورة الفرقان) ، أي بياناً وتفصيلاً ، وهو مأخوذ من الفَسْـر : وهو الإبانة والكشف .

قال ابن منظور : " الفَسْر البيان ، فَسَرَ الشيء يفْسِرُه ــ بالكسر ــ ويفْسُرُه ــ بــالضم ــ فَسْراً أي أبانه وأوضحه ، وفسَّره : أبانه . والتفسير : مثله ... والفَسْر: كشف المغطــى ، والتفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل "[1] .

وقال الفيروزآبادي : " الفَسْر : الإبانة وكشف المغطـى كالتفسـير ، والفعـل كضـرب ونصر ... "[2] .

وقال أبو حيان : " وينطلق أيضاً التفسير على التعرية للانطلاق ، قال ثعلب(٭) : تقـول : فسَرْتُ الفرس : عريته لينطلق فـــي حصره ، وهو راجع لمعنى الكشف ، فكأنـــه كشـف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري "[3] .

وبهذا يتبين أن التفسير يدور حول معنيين : معنىً حســـي ، وآخـر معنـوي . واسـتعماله في الثاني أظهر[4] .

في الاصطلاح :

عرفه أبو حيان بقوله : " علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتهـا ،

---

(1) لسان العرب ـــ جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرّم بـن علـي بـن منظـور (ت711 هــ) : ج5 ص3412 .

(2) القاموس المحيط ـــ للعالم العلامة الشيخ مجد الدين محمـد بـن يعقـوب الفيروزآبـادي الشـيرازي (ت817 هــ) ج2 ص110 .

(٭) ثعلب : هو أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار ، أبو العباس الشيباني مولاهم ، الملقــب بثعلـب . إمـام الكوفيين في النحو واللغة . مولده في سنة مائتين ، سمع محمد بن زياد الأعرابي ، والزبـير بـن بكـار ، والقواريري . وعنه ابن الأنباري ، وابن عرفة ، وأبو عمرو الزاهد . وكان ثقة حجة ، ديِّناً صالحاً مشهوراً بالصدق والحفظ . وذكر أنه سمع من القواريري مائة ألف حديث . (ت29هــ) .

البداية والنهاية ـــ لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت774هــ) : ج6 جـ11 ص104 .

(3) البحر المحيط ـــ محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي (754هــ) : ج1ص13 .

(4) انظر التفسير والمفسرون ـــ د . محمد حسين الذهبي : ج1ص15 .

وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمّات لذلك "(1) .

وعرفه الإمام الزركشي : " التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على محمد ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه "(2) .

وقال بعضهم : التفسير في الإصطلاح : علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامّها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها " (3) .

وعرفه الزرقاني بأنه : " علم يبحث فيه عن القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية " (4) .

هذه جملة من التعريفات لعلم التفسير ، وهي وإن اختلفت في ظاهرها ، إلا أنها تتحد في مضمونها ومدلولها ، فبعضهم فصّل في تعريفه ، وبعضهم أوجز فيه ، وهذا يعتبر اختلاف تنوع وليس اختلاف تناقض ، فهي ـــ إذن ـــ تأتلف ولا تختلف .

ثانياً : نشأة علم التفسير :

لقد مر التفسير في مراحل متعددة ، وكان لكل مرحلة ما يميزها عن غيرها إلى أن استقر على هذا الوجه ، حيث أصبح فناً مستقلاً كغيره من الفنون ، له شكله المميز وطابعه الخاص . وإذا ما تتبعنا جذوره وجدناه يمتد إلى عصر النبي ﷺ . ويمكن بيان ذلك من خلال المراحل الآتية :

1 ـــ التفسير في عصر النبي ﷺ .

2 ـــ التفسير في عهد الصحابة .

3 ـــ التفسير في عهد التابعين .

4 ـــ التفسير في عصر التدوين (من العصر العباسي إلى العصر الحديث) .

---

(1) البحر المحيط : ج1ص13 .

(2) البرهان في علوم القرآن ـــ للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت749هـ) : ج1 ص33 .

(3) انظر الإتقان في علوم القرآن ـــ جلال الدين السيوطي الشافعي (ت911هـ) : ج2ص462 .

(4) مناهل العرفان في علوم القرآن ـــ للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : ج2 ص4 .

المرحلة الأولى : التفسير في عصر النبي ﷺ :

نزل القرآن الكريم على نبي أمي ، وقوم أميين ، اشتهروا بالبلاغة في القول ، والفصاحة في اللسان . وجرياً على سنة الله تعالى في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فقد أنزل القرآن بلسان العرب . ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾ (سورة يوسف) . فألفاظ القرآن عربية ، إلا ألفاظاً قليلة اختلفت فيها أنظار العلماء ، وهي الألفاظ المعرَّبة . وقد استعمل القرآن في أساليبه ما سلكته العرب في أساليبها ، لكن بطريق لا يبلغها أحد مهما بلغ ، ليحصل بذلك التحدي ، ويتحقق الإعجاز . وكان من الطبيعي أن يفهم النبي ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً ؛ لأن الله تعالى تكفل له بذلك : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) ﴾ (سورة القيامة) ، كما كان طبيعياً أن يفهم الصحابة الكرام القرآن في جملته دون التفصيل ، فما كان يشكل عليهم يرجعون فيه إلى النبي ﷺ [(1)].

المرحلة الثانية : التفسير في عهد الصحابة :

لقد اشتمل القرآن على المشكِل والمتشابه والمجمل ؛ ولذلك كانت تعرض لصحابة رسول الله ﷺ إشكالات في بعض الآيات ، ومن هنا فقد اعتمدوا في التفسير على مصادر أربعة :

1 ــ القرآن الكريم .

2 ــ النبي ﷺ .

3 ــ الاجتهاد وقوة الاستنباط .

4 ــ أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

أما اعتمادهم على القرآن نفسه ، فلأن القرآن اشتمل على الإيجاز والإطناب ، والإطلاق والتقييد ، والإجمال والتبيين ، والعموم والخصوص . فما أوجز في مكان فقد يُبسط في مكان آخر ، وما أطلق في موضع قد يُقيد في موضع آخر ، وما أجمل في ناحية قد يلحقه التبيين في ناحية أخرى ، وما كان عاماً في آية قد يُخصص في آية أخرى .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ (من الآية 1 سورة المائدة) ، فهذه الآية الكريمة قد جاءت مجملة ، فصلت فيما بعد بقوله سبحانه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ [(2)] ﴾ (من الآية 3 سورة المائدة) .

---

(1) التفسير والمفسرون : ج1ص35 ــ 36 مختصراً .

(2) معنى : **أُهِل لغير الله به** : أي رفع الصوت لغير الله عند الذبح ، و**الموقوذة** : التي قُتِلت ضرباً =

وأما اعتمادهم على النبي ﷺ فقد لجأوا إليه في تفسير ما أُشكِل عليهم ولم يعرفوا معناه .
من ذلك : حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ (من الآية 82 سورة الأنعام) ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " **ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه :** ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) ﴾ [سورة لقمان] **إنما هو الشرك** "(1) .

وأما اعتمادهم على الاجتهاد وقوة الاستنباط ، فكانوا يلجأون إليه في حال عدم تيسّر أخذ التفسير من القرآن الكريم ، أو من السنة المطهرة ، وحينئذٍ يجتهدون حول النص .

وقد كانوا يلجأون إلى هذه الطريق مستعينين على ذلك بما يأتي :

ــ معرفة اللغة العربية وخصائصها وأساليبها وأسرارها .

ــ معرفة عادات العرب .

ــ معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وقت نزول القرآن .

ــ قوة الفهم وسعة الإدراك .

ــ معرفة أسباب النزول .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ... (189) ﴾ (سورة البقرة) ، لا يمكن فهم المراد من الآية الكريمة إلا بعد الوقوف على عادات العرب في الجاهلية ، أو معرفة أسباب النزول .

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله هذه الآية (2) .

= والمتردية : هي التي تقع من مكان عالٍ أو في بئر فتموت ، و**ذكيتم** : أي أدركتم فيه الروح فذبحتموه ، و**النصب** : جمع نصاب وهي الأصنام ، و**الأزلام** : جمع زلم ــ بفتح الزاي وضمها مع فتح اللام ــ قدح صغير وكانت سبعة عند سادن الكعبة عليها أعلام ، وكانوا يحكمونها ، فإذا أمرتهم ائتمروا ، وإن نهتهم انتهوا .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ــ للإمام الآلوسي (ت1270هـ) : ج4جـ6ص86 .
وتفسير الجلالين ــ جلال الدين السيوطي (ت911هـ) وجلال الدين المحلي (ت864هـ) : ص140 .

(1) خ : ك الإيمان / ب ظلم دون ظلم ، ج1جـ1ص16 (ح32) وك التفسير / ب ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ (من الآية 82 سورة الأنعام) ج3جـ5ص23 (ح4629) .
مس : ك الإيمان / ب صدق الإيمان وإخلاصه ، ج1ص114 (ح124) .

(2) خ : ك تفسير القرآن / ب ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ ... ج3جـ5 (ح4512) .

وأما اعتمادهم على اليهود والنصارى فقد كان بعد إذْن الرسول ﷺ لهم بالأخذ عن أهل الكتاب . وصح عن أبي هريرة ﷺ قال : قال ﷺ : " **لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم** ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ (من الآية 46 سورة العنكبوت) "[1] .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال : " **بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ...** "[2].

والقصة في القرآن لم تذكر بجميع تفصيلاتها في مكان واحد ، فما جاء في مكان قد يُفَصَّل في مكان آخر . ومن جانب آخر اقتصر القرآن من القصص على موضع العبرة ، وهذا بخلاف التوراة والإنجيل اللذَيْن فصلا فيها وذكراها بجزئياتها .

ولما كانت الطباع تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء ، جعل بعض الصحابة يرجعون في استيفاء تفاصيل هذه القصص التي لم يتعرض لها القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل في دينهم من أهل الكتاب ، أمثال عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار وغيرهم من علماء اليهود والنصارى .

وحسبك أن تعلم أنهم لم يرووا كل ما سمعوه على أنه مسلمات ، وإنما وقفوا أمام هذه الإسرائيليات موقف الناقد البصير ، لا يقبلون منها إلا ما وافق الدين ، أما ما ناقضه فالدين هو الحق ، وما سواه فباطل .

فمن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري ، أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال : " **فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه** " وأشار بيده يقللها [3] .

فقد اختلف الصحابة في تعيين هذه الساعة ، وهل هي باقية أو رفعت ؟ وإن كانت باقية فهل هي في جمعة واحدة أو في كل جمعة ؟ فنجد أبا هريرة ﷺ يسأل كعب الأحبار عن ذلك ، فيجيبه كعب : بأنها في جمعة واحدة من السنة ، فيرد عليه أبو هريرة قوله ، ويبين له أنها في كل جمعة ، فيرجع كعب إلى التوراة ، فيرى أن الصواب مع أبي هريرة ، فيرجع إليه .

---

(1) خ : ك الإعتصام / ب قول النبي ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » ، ج4جـ8ص202 (ح7362) ، و ك التوحيد / ب ما يجوز من التوراة وغيرهما من كتب الله ... ، ج4جـ8ص267 (ح7542) .

(2) خ : ك الأنبياء / ب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ج2جـ4ص175 (ح3461) .

(3) خ : ك الجمعة / ب الساعة التي في يوم الجمعة ج1جـ1ص253 (ح935) .

كما نجد أبا هريرة أيضاً يسأل عبد الله بن سلاّم عن تحديد هذه الساعة ، ويقـــول لـــه : أخبرني ولا تضنّ عليّ ، فقال عبد الله بن سلاّم : هي آخر ساعة في يوم الجمعة . قال أبـــو هريرة : كيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ : " **لا يصادفها عبـد مسلم وهو يصلي** " وتلك الساعة لا يُصلى فيها ؟ فقال عبد الله بن سلاّم : ألم يقل رســول الله ﷺ : " **من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة** " ؟ قلت : بلى . قال : فهو ذاك(1) .

فيتبين ــ إذن ــ أن الصحابة لم يقبلوا كل ما ورد عـــن أهـل الكتـاب إلا بعـد التحـري والتمحيص ؛ ولهذا لم يكن أهل الكتاب مصدراً رئيسياً في التفسير عند الصحابة .

المفســرون مــن الصحــابــة :

قال الإمام السيوطي : " اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعـــة ، وابـــن مسعود ، وابن عباس ، وأُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبـــد الله ابن الزبير" (2) وأشهر هؤلاء العشرة ابن عباس ، وعليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وأبي ابن كعب ــ رضي الله عنهم ــ . وهناك مَن تكلم في التفسير مثل أنس بن مــــالك ، وأبـــي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبـــد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعائشة غير أن ما نُقِل عنهم في التفسير قليل جداً (3) .

مميــزات التفســير فـــي هــذه المرحلة (4) :

امتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

1 ــ لم يشمل التفسير جميع آيات القرآن ، وإنما كان لبعضٍ منه ، وهو ما غمض فهمه .

2 ــ قلة الاختلاف بين المفسرين من الصحابة ، ولعل السبب في ذلك هو أن العلوم العقليـــة والكونية والطبيعية ، ومذاهب المتكلمين والفقهاء لم تكن قد ظهرت في عصرهـــم ، ولا فـــي

---

(1) **دو** : ك الصلاة / ب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ، ج1ص274 (ح1046) .

تر : ك أبواب الصلاة / ب ما جاء في الساعة التي ترجى في يوم الجمعة ، ج2ص362 (ح491) وقـال : هذا حديث حسن صحيح .

س : ك الجمعة /ب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ج2جـ3ص113 (ح1430) .

طأ : ك الجمعة /ب ما جاء في الساعة التي في يوم الجمعة ج1ص108 . وروايتي النســائي ومـــالك أتـم وأشمل من سابقتيهما .

(2) الإتقان : ج2ص493 .

(3) انظر التفسير والمفسرون :ج1ص64 .

(4)انظر المرجع السابق : ج1ص97 ــ 98 .

عصر التابعين بعدهم ، وإنما كان جلّ فَهم الكتاب مُنْصَباً على ما في القرآن نفسه ، أو ما سمعوه من النبي ﷺ ، أو ما اجتهدوا فيه واستنبطوه بعقولهم . وهذه الأخيرة هي التي كان فيها الخلاف بينهم أكثر ما يكون ، خاصة في استنباط الأحكام الفقهية من آياتها ، كما في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (من الآية 11 سورة النساء) فقد اختلفوا في مفهوم الثلث من قوله تعالى في الآية : ﴿ **فلأمه الثلث** ﴾ في حالة ما إذا وجد مع الأبوين زوج ، فهل تأخذ الأم ثلث التركة ، أم ثلث الباقي من التركة بعد نصيب الزوج ؟ فعلى الأول ابن عباس ﷺ ، وعلى الثاني زيد بن ثابت ﷺ . علماً بأن مسألة المواريث فيها خلافات كثيرة غير هذا [1] .

3 ـــ اكتفاؤهم بالمعنى الإجمالي دون التفصيلي ،مثل تفسير ابن عباس لقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) ﴾ (سورة الطارق) ، قال : صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما [2] .

4 ـــ كانوا كثيراً ما يقتصرون على المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ ، على شاكلة تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) ﴾ (سورة الذاريات) ، قال ابن عباس : " « قتل الخراصون » أي لعن المرتابون "[3] .

5 ـــ ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية ؛ إذ لم يكن غرضهم آنذاك معرفة أسرار التشريع والوقوف على علّته . كذلك عدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله ، نظراً لاتحادهم في العقيدة ، ولأن الاختلاف المذهبي لم يقم إلا بعد عصر الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ .

6 ـــ لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر ، لأن التدوين كان في القرن الثاني . نعم ، أثبت بعض الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ بعض التفسير في مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التي نزل بها من عند الله تعالى .

7 ـــ اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث ، ولم يتخذ له شكلاً منظماً ، بحيث ينفصل في باب مستقل ، وإنما بقي ممزوجاً مع أحاديث الأحكام والجهاد والصيام ... وغيرها من

---

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن ـــ لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي (ت 671هـ) : ج5ص55 وما بعدها .

(2) تفسير القرآن العظيم ـــ للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء البصري ، الدمشقي ، الفقيه الشافعي (ت774هـ) : ج4ص499 .

(3) المرجع السابق : ج4ص234 .

الأحاديث .

وبهذا يتبين لنا من خلال هذا العرض السريع للتفسير عند الصحابة ، كيف أنه مهد لقيام المرحلة الثالثة ، وهي التفسير في عصر التابعين .

المرحلة الثالثة : التفسير في عصر التابعين :

نظراً لأن الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ عاصروا النبي ﷺ ، ووقفوا على أسباب نزول الآيات ، وامتازوا بالصلاح في الدين والتقوى ، وعلموا من اللغة العربية بالسليقة ما لم يتمكن منه المتأخرون ؛ لذلك فهم أدرى الناس بكتاب الله .

ثم جاء من بعدهم التابعون ، فساروا على منوال سلفهم الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ في التفسير ، معتمدين على القرآن نفسه وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وعلى ما رووه عن الصحابة أنفسهم ، وعلى اجتهادهم واستنباطهم ونظرهم في القرآن ، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب ــ يهوداً ونصارى ــ .

ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن هناك عدد من الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ جلسوا يعلِّمون الناس ما حفظوه عن رسول الله ﷺ وما وعوه من العلم ، وذلك بعد أن فتحت الفتوح ، وازدادت رقعة الدولة الإسلامية ، وانتشر الصحابة في البلدان ، ثم كون بعض الصحابة مدارس للتفسير ، تتلمذ فيها عدد من التابعين .

مدارس التفسير في عصر التابعين :

الذين أنشأوا مدارس للتفسير ، وتتلمذ على أيديهم عدد من التابعين ، وهم : عبد الله بن عباس ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود . وهذه المدارس هي :

أولاً : مدرسة التفسير بمكة :

قامت مدرسة التفسير بمكة على يد عبد الله بن عباس ﷺ ، وقد تتلمذ في هذه المدرسة جمع من التابعين الذين كانوا يجلسون إلى عبد الله ، ينتهلون من علمه الجم ، ويأخذون عنه التفسير(1) .

ومن أشهر تلاميذها :

ــ سعيد بن جبير (✿) .

---

(1) انظر : مناهل العرفان : ج2ص16 . والتفسير والمفسرون : ج1 ص104 .

(✿) وهو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم ، أبو محمد ، ويقال : أبو عبد الله الكوفي . روى عن ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر . وعنه ابناه عبد الملك وعبد الله ، وعلي بن حكيم ، ويعلى بن مسلم . كان فقيهاً عابداً فاضلاً ورعاً ، قال عمرو بن ميمون عن أبيه : لقد مات سعيد وما على ظهر =

ــ ومجاهد (٭) .　　　ــ وعكرمة البربري (٭٭) .

ثانياً : مدرســة التفســير بالمــدينــة :

قامت هذه المدرسة على يد أبيٍّ بن كعب وبعض الصحابة . وقد تتلمذ بــها كثــير مــن التابعين يتعلمون منهم تفسير القرآن . وإنما نُسبت هذه المدرسة إلى أبيٍّ من دونــهم ؛ لأنــه كان أكثرهم شهرة في التفسير . ودليل ذلك كثرة النقل عنه دون غيره (1) .

ومن أشهر تلاميذها :

ــ أبو العالية الرياحي (٭٭٭) .

= الأرض أحدٌ إلا هو محتاج إلى علمه . وقال أبو القاسم الطبري : هو ثقة إمام حجة على المسلمين ، قتـل في شعبان سنة خمس وتسعين . وقد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي .

تهذيب التهذيب ــ تصنيف الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852 هــ) : ج2ص10 وطبقات الحفاظ ــ للإمام جلال الدين السيوطي (ت911هــ) : ص38 .

(٭) هو مجاهد بن جبر المكي المخزومي المقري . روى عن : ابن عباس ، وابن مسعود ، وسعد بن أبــي وقاص . وروى عنه : عطاء ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار . كان ثقة فقيهاً ، عالماً ، ورعاً ، عابداً ، متقناً كثير الحديث . قال : قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله : فيم نزلت وكيف كانت ؟ . وقال عبد الله بن حرب ، عن خُصَيْف : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد . وفي وفاته خلاف : فقيــل مات سنة مائة ، وقيل إحدى ، وقيل : مات بمكة سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد .

تهذيب التهذيب : ج4 ص25 ــ 26 . وسير أعلام النبلاء : ج4ص449 وما بعدها .

(٭٭) وهو عكرمة البربري ، أبو عبد الله المدني ، مولى ابن عباس . روى عن : ابن عبــاس ، وعلــي ، وأبي هريرة . وعنه : إبراهيم النخعي ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وقتادة . اتُهِم بالكذب على ابن عباس ، وقال يحيى بن سعيد : كان كذاباً . وأنسب ما يُقال فيه ما قاله أبو عبد الله محمد بن نصر المَــرْوزي : قــد أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة . واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بــالحديث من أهل عصرنا . منهم : أحمد بن حنبل ، وابن راهويه ، ويحيى بن معين وأبو ثور . قال : وعكرمة ثبتت عدالته بصحبته ابن عباس وملازمته إياه ، وبأن غير واحد من العلماء قد رووا عنه وعدّلوه . قال : وكــل رجل ثبتت عدالته لم يُقبل فيه تجريح أحدٍ حتى يبيِّن ذلك عليه بأمرٍ لا يحتمل غير جرحه .

وذهب إلى هذا الرأي غير واحد ، منهم الإمام الطبري ، وأبو عبد الله الحاكم ، وأبو عمر بن عبد البر . هذا وقد قال الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وقال قتادة : أعلمهم بالتفسير عكرمة . وفــي وفاته خلاف : قيل سنة 104 ، وقيل 105 ، وقيل غير ذلك .

تهذيب التهذيب : ج3 ص134 ــ 138 . والجرح والتعديل ــ للإمام الحــافظ ابــن أبــي حــاتم الــرازي (ت327هــ) : ج7ص7 .

(1) انظر التفسير والمفسرون : ج1ص116 .

(٭٭٭) هو رفيع بن مهران ، أبو العالية الرياحي مولاهم ، البصري . أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة =

ـ ومحمد بن كعب القرظي (٥) .

ـ وزيد بن أسلم العدوي (٥٥) .

ثالثاً : مدرسة التفسير بالعراق :

منشئ هذه المدرسة هو عبد الله بن مسعود ﷺ ، الذي أقام في العراق يدرس العلم والتفسير للتابعين . ورغم وجود عدد من الصحابة في العراق يدرسون التفسير ، إلا أن أشهر من ورد عنه التفسير هو عبد الله بن مسعود ؛ ذلك أنه كان وزيراً ومعلماً لأهل العراق بأمر أمير المؤمنين عمر ﷺ . وأهل العراق يمتازون بأنهم أهل رأي ، ويقول العلماء : إن ابن مسعود هو الذي وضع هذا الأساس في الاستدلال ، ولذلك نجد كثرة الخلاف عندهم في المسائل الاجتهادية التي تعتمد على الاستنباط (1) .

ومن أشهر أعلامها :

ـ علقمة (٥٥٥) .

= النبي ﷺ بسنتين . روى عن : علي ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب . وروى عنه : خالد الحَذَّاء ، وداود ابن أبي هند ومحمد بن سيرين . وهو تابعي ثقة . قال ابن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية وقال ابن عدي : له أحاديث صالحة . مات سنة 90 ، وقيل : سنة 93 ، وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب : ج1 ص610 . وطبقات الحفاظ : ص29 .

(٥) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي ، أبو حمزة ، وقيل : أبو عبد الله ، المدني ، من خلفاء الأوس ، وكان أبوه من سبي قريظة ، سكن الكوفة ثم المدينة . روى عن علي بن أبي طالب ، وابن مسعود وعمرو بن العاص . وعنه أخوه عثمان ، والحكم بن عتبة ، يزيد بن أبي زياد . كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً صالحاً . قال عنه عون بن عبد الله : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن منه . مات سنة 118 ، وقيل : 117 وقيل غير ذلك . تهذيب الهذيب : ج3 ص684 ـ 685 . والثقات : ج5ص351 .

(٥٥) هو زيد بن أسلم العدوي ، أبو أسامة ، ويقال : أبو عبد الله ، المدني ، الفقيه ، مولى عمر . روى عن سلمة بن الأكوع ، وعائشة ، وأنس . وروى عنه : أولاده الثلاثة : أسامة وعبد الله وعبد الرحمن ، ومالك ، وابن جريج . كان ثقة كثير الحديث . قال يعقوب بن شيبة : ثقة من أهل الفقه والعلم ، وكان عالماً بتفسير القرآن ، مات سنة 136 . وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب ج1 ص658 . وتقريب التهذيب : ص350 .

(1) انظر : التفسير والمفسرون : ج1ص67 .

(٥٥٥) هو علقمة بن قيس بن مالك بن علقمة ، أبو شبل النخعي الكوفي . ولد في حياة رسول الله ﷺ . وروى عن : عمر ، وعثمان ، وعلي . وروى عنه : ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن قيس ، وابن أخته إبراهيم بن يزيد النخعي وإبراهيم بن سويد النخعي . وكان ثقة من أهل الخير . عن مرة الهَمْداني : كان علقمة من الربانيين . وقال : قابوس بن أبي ظَبْيَان ، عن أبيه : أدركت ناساً من أصحاب النبي ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه . مات سنة إحدى وستين ، وقيل : سنة 62 ، وقيل غير ذلك .

تهذيب التهذيب ج3ص140 ـ 141 . ومعرفة الثقات : ج2ص145 ـ 148 .

ـــ ومسروق بن الأجدع (٭) .

ـــ والشعبي (٭٭) .

فهؤلاء مشاهير المفسرين من التابعين ، وليس التفسير مقتصراً عليهم ، بل هناك عدد من التابعين فسروا من الآيات ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ ، أو ما كان من اجتهاد الصحابة ، أو ما كان من اجتهادهم أنفسهم ، أو ما رجعوا فيه إلى أهل الكتاب . وقد ذكر الإمام الزركشي عدداً من هؤلاء التابعين (1) ، ومع هذا فإن تفسيراتهم لم تكن لآيات القرآن كلها ، وإنما كان لما غمض فهمه على أهل عصره .

مميزات التفسير في عصر التابعين (2) :

امتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

1 ـــ دخول كثير من الإسرائيليات في التفسير .

لقد فُتحت الفتوح ، ودخل كثير من أهل الكتاب في دين الله ، وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم

(٭) هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهَمْداني الوادعي الكوفي العابد ، أبو عائشة الفقيه . روى عن الخلفاء الأربعة . ومعاذ بن جبل ، وخباب بن الأرت . وعنه ابن أخيه محمد بن المُنْتَشِر بن الأجدع ، والشعبي ، وإبراهيم النخعي . قال الشعبي : ما رأيت أطلب للعلم منه . وقال أحمد بن حنبل ، عن ابن عيينة : بقي مسروق بعد علقمة لا يُفضل عليه أحد . وكان ثقة له مناقب كثيرة . قال وكيع وغيره : لم يتخلف مسروق عن حروب علي . مات سنة 63 ، وقيل : سنة 62 .

تهذيب التهذيب : ج4 ص59 . ومعرفة الثقات : ج2ص273 ـــ 274 .

(٭٭) هو عامر بن شراحيل ، وقيل : عامر بن عبد الله بن شراحيل الشعبي الحِمْيَري ، أبو عمرو الكوفي من شَعْب هَمْدان . روى عن : علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد . وعنه أبو إسحاق السبيعي ، وسعيد بن عمرو بن أَشْوَع ، وقتادة . وكان ثقة ذا أدب وفقه وعلم . قال أبو إسحاق الحبّال : كان واحد زمانه في فنون العلم . وقال مكحول : ما رأيت أفقه منه . وقد نعى الحسن الشعبيَّ فقال : كان واللهِ كبير العلم ، عظيم الحِلم ، قديم السلم ، من الإسلام بمكان . مات سنة عشر ، وقيل سبع ، وقيل : خمس ومائة . وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب : ج2 ص264 ـــ 265 . والكاشف : ج2ص49 .

(1) يقول الإمام الزركشي : " وقد حكوا ـــ أي المفسرين ـــ في كتبهم أقوالهم ؛ كالضحاك بن مزاحم ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبي العالية الرياحي ، والحسن البصري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل ابن سليمان ، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني ، ومرة الهمداني ، وعلي بن أبي طلحة الوالبي ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبي بكر الأصم عبد الرحمن بن كيسان ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطية العوفي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعبد الله بن زيد بن أسلم . فهذه تفاسير القدماء المشهورين ، وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة " . البرهان : ج2ص174 ـــ 175 .

(2) انظر التفسير والمفسرون : ج1ص131 ـــ 132 .

من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية ، كأخبار بدء الخلق ، والقصص . فتساهل بعض التابعين في أخذها وروايتها دون تحر أو نقد ، واختلطت بالتفسير .

وأكثر من روي عنهم في ذلك :

ـ عبد الله بن سلام (٭) . ـ وكعب الأحبار (٭٭) .

ـ وهب بن منبه (٭٭٭) . ـ وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (٭٭٭٭) .

إن رواية الإسرائيليات دون تحر أو نقد ، وإدخالها في التفسير مما سبب في ضعف التفسير ولذلك اعتبرت روايتها دون تدقيق مأخذا يؤخذ على التابعين وعلى من جاء بعدهم .

2 ـ بقي التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية ، إلا أنه لم يكن تلقيا شاملا كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه ، وإنما كان تلقيا موسوما بطابع الاختصاص ، إذ إن أهل كل مصر كانوا يتلقون عن إمام مصرهم .

(٭) هو عبد الله بن سلام بن الحارث ، أبو يوسف ، من ذرية يوسف ﷺ ، الإسرائيلي ثم الأنصاري . روى عنه : أبو هريرة ، وعبد الله بن معقل ، وابنه يوسف . وهو من بني قينقاع . أسلم أول ما قدم النبي ﷺ المدينة . وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . وهو عاشر عشرة في الجنة . مات سنة ثلاث وأربعين . الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت463هـ) : ج3ص53 ـ 54، والإصابة في تمييز الصحابة ـ للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) : ج4ص102 ـ 104 .

(٭٭) هو كعب بن ماتع الحميري ، أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار . يقال : أدرك الجاهلية وأسلم أيام أبي بكر ، وقيل : في أيام عمر . روى عن النبي ﷺ مرسلا ، وعن عمر ، وصهيب ، وعائشة . وروى عنه أبو هريرة ، ومعاوية ، وعطاء بن أبي رباح . وهو من تابعي أهل الشام ، كان على دين يهود فأسلم ، وقدم المدينة ثم خرج إلى الشام ، فسكن حمص حتى توفي بها سنة ثنتين وثلاثين ، وقيل : أربع وثلاثين .
تهذيب التهذيب : ج3 ص471 . والثقات : ج5ص333 ـ 334 .

(٭٭٭) هو وهب بن منبه بن كامل الصنعاني النماري ، أبو عبد الله الأنباري ، فارسي الأصل . روى عن أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وابن عباس . وعنه ابناه : عبد الله وعبد الرحمن ، وابنا أخيه : عبد الصمد وعقيل ابنا معقل بن منبه . وكان ثقة . اتهم بشئ من القدر ثم رجع عنه . مات سنة عشر ومائة ، وقيل : سنة ثلاث عشرة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : ست عشرة .
تهذيب التهذيب : ج4 ص332 . ومعرفة الثقات : ج2ص345 .

(٭٭٭٭) وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم ، أبو الوليد وأبو خالد المكي ، أصله رومي . روى عن عطاء بن أبي رباح ، وإسحاق بن أبي طلحة ، وزيد بن أسلم . وروى عنه : ابناه : عبد العزيز ومحمد ، والأوزاعي ، والليث . قال يحيى بن سعيد : كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة ، وإن لم يحدثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به . وقال : ابن معين : ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب . وقيل : كان يدلس . مات سنة تسع وأربعين ومائة . وقيل : سنة خمسين ، وقيل : سنة إحدى وخمسين .
تهذيب التهذيب : ج2 ص616 ـ 617 . والجرح والتعديل : ج5ص356 ـ 358 .

فالمكيون يتلقون عن ابن عباس ، والمدنيون يتلقون عن أبي ، والعراقيون عن ابن مسعود والمصريون عن عمرو بن العاص .... وهكذا .

3 ــ ظهور نواة الخلاف المذهبي ، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب ، فنجد مثلا قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى القدر ، ويتهم بأنه قدري[1] ولا شك أن هذا أثر في تفسيره ، في حين نجد أن الحسن البصري قد فسر القرآن على إثبات القدر ، وقال : من كذب بالقدر فقد كفر[2] .

4 ــ زيادة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة ، مع قلته بالقياس لما وقع بعده ، حيث زاد الخلاف بين المفسرين فيما بعد .

وبهذا يتبين أن الاختلاف بين المرحلتين الثانية والثالثة اختلاف يسير بالمقارنة لما وقع بعد هاتين المرحلتين من الخلاف ، ويزيد كلما بعد الناس عن عصر النبي ﷺ .

المرحلة الرابعة : التفسير في عصر التدوين :

تمتد هذه المرحلة من بداية عصر التدوين في القرن الثاني الهجري إلى عصرنا الحالي . ويمكن تقسيم ذلك إلى أربع فترات :

أولا : تدوين التفسير وكيفيته :

لقد بدأ تدوين التفسير في مراحله الأولى على نمط الحديث ، فكان الواحد من هؤلاء العلماء يطوف في البلدان ليجمع حديث رسول الله ﷺ ، وكان التفسير جزءا من تلك المرويات التي يجمعها هؤلاء العلماء ، على أنهم ميزوا بين روايات التفسير وغيرها ، فأفردوها على حدة مع ذكر سندها . يقول الإمام السيوطي : " ثم بعد هذه الطبقة ــ يعني طبقة التابعين ــ ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين ، كتفسير سفيان بن عيينة (✪)،

---

(1) انظر تهذيب التهذيب :ج3ص317 .
والقدرية :هم القائلون بأنه لا قدر ، وأن الله تعالى لم يقدر الشر ، وأن العبد يخلق فعل نفسه ، وأن الله تعالى لم يشأ ما يقع من العبد ، وبعض هذه الطائفة قد نفى علم الله السابق على وجود الأشياء . تقريب التدمرية ــ للشيخ محمد بن صالح ابن عثيمين : ص149 ــ 150 .

(2) انظر تهذيب التهذيب : ج1ص391 .

(✪) وهو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي ، كنيته أبو محمد ، من أهل الكوفة . روى عن الزهري وزيد بن أسلم ، وعمرو بن دينار . وعنه الشافعي ، وابن المديني ، وابن معين . قال ابن المديني : ما في أصحاب الزهري أتقن من ابن عيينة . وقال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . (ت198هـ) . الثقات : ج6ص403 . وطبقات الحفاظ : ص119 .

..كيع بن الجراح (*) ، وشعبة ابن الحجاج (**) ويزيد بن هارون (***) ، وعبد الرزاق (****) ، وآدم بن أبي إياس (*****) ... " [1] . ومجئ هؤلاء كان قبل منتصف القرن الثاني الهجري ، علما بأن التفسير لم يكن لجميع سور القرآن وآيه ، وإنما صار لجميع سور القرآن وآيه فيما بعد ، حيث جاء من المفسرين من فسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، متبعا في ذلك ترتيب المصحف .

(*) وهو وكيع بن الجراح ، أبو سفيان الرؤاسي . كوفي ثقة صالح أديب من حفاظ الحديث . روى عن الأعمش وهشام بن عروة ، وعنه أحمد وإسحاق وإبراهيم بن عبد الله القصار . قال أحمد : ما رأيت أوعى للعلم منه ولا أحفظ . (ت197هـ) .
معرفة الثقات ـ للعجلي : ج2ص341 . والكاشف ـ للإمام الذهبي : ج3ص208 .

(**) وهو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي مولاهم ، أبو بسطام الواسطي ثم البصري . سمع من معاوية ابن قرة ، والحكم وسلمة بن كهيل . وروى عنه : غندر ، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الباهلي ، وعلي ابن الجعد . كان ثقة حافظا متقنا . وكان الثوري يقول : هو أمير المؤمنين في الحديث ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال ، وذب عن السنة . وكان عابدا (ت160هـ) .
الكاشف : ج2ص10 . وتقريب التهذيب : ص436 .

(***) وهو يزيد بن هارون بن زاذي ، ويقال : بن زاذان السلمي مولاهم ، أبو خالد الواسطي ، أحد الأعلام الحفاظ المشاهير . قيل : أصله من بخارى . روى عن عاصم الأحول ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ومحمد بن إسحاق . وعنه : آدم بن أبي إياس ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه . وهو ثقة ، حافظ متقن . قال زياد بن أيوب : ما رأيت له كتابا قط ، ولا حدث حديثا إلا حفظا . توفي سنة مائتين .
تهذيب التهذيب : ج4 ص431 ـ 433 . وتاريخ بغداد ـ للحافظ أبي بكر أحمد بن علي ، الخطيب البغدادي (ت463هـ) : ج14ص337 وما بعدها .

(****) وهو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم ، أبو بكر الصنعاني ، أحد الأعلام . روى عن أبيه ، وابن جريج ، ومعمر ، وعنه أحمد ، ومعتمر بن سليمان ، وابن المديني . ثقة حافظ ، مصنف شهير ، قال أحمد : أتيناه قبل المائتين وهو صحيح البصر ، ومن سمع منه بعدما ذهب بصره فهو ضعيف السماع (ت211هـ) .
طبقات الحفاظ : ص158 ـ 159 . وتقريب التهذيب : ص607 .

(*****) هو آدم بن أبي إياس ، واسمه عبد الرحمن ، بن محمد ، ويقال : ناهية بن شعيب الخراساني ، أبو الحسن العسقلاني . نشأ ببغداد ، وارتحل في الحديث ، فاستوطن عسقلان إلى أن مات . روى عن شعبة وحماد بن سلمة ، والليث . وروى عنه البخاري ، والدارمي ، وأبو حاتم . وهو ثقة مأمون ، متعبد ، من خيار عباد الله . مات سنة 220 . وقيل : سنة 221 .
تهذيب التهذيب : ج1ص101 ـ 102 . وطبقات الحفاظ : ص172 .

(1) الإتقان : ج2ص500 بتصرف .

مميزات التفسير في هذه الفترة :

تميز التفسير في هذه الفترة بالآتي :

1 ــ التفسير لم يكن مستقلاً بمؤلف خاص به ، بل كان باباً من أبواب الحديث الشريف .

2 ــ لم يقتصر التفسير على المأثور عن النبي ﷺ ، بل اشتمل على تفسير مـــا جـــاء عـــن الصحابة والتابعين .

3 ــ كانوا يروون الروايات في تفسير القرآن بأسانيدها [1] .

ثانياً : انفصال التفسير عن الحديث :

بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث ، وأصبح له مصنفاته الخاصة ، واتبع العلماء فيـــه تفسير القرآن حسب ترتيبه ابتداءً من سورة الفاتحة ، وحتى سورة الناس . وقد ذكر الإمـــام السيوطي عدداً من هؤلاء العلماء أمثال : ابن ماجه (ت273هـ) ، وابـــن جريـــر الطـــبري (ت310هـ) ، وابن المنذر (ت318هـ) [٭] ، وابن أبي حاتم الرازي(ت327هـ) [٭٭][2] .

مميزات التفسير في هذه الفترة :

تميز التفسير في هذه الفترة بالمميزات الآتية :

1 ــ كان التركيز في تلك الفترة على التفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ والصحابة والتـابعين

2 ــ كانوا يكتبون التفسير بالأسانيد المتصلة إلى صاحب التفسير المروي عنه .

3 ــ لم يعتنوا بالنقد وتحري الدقة في صحة الرواية أثناء التفسير ، بل كانوا يذكرون كل مـــا جاء حول الآية من روايات صحيحة وسقيمة ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن من أسند فقد أبرأ ذمته وأحال إلى غيره ...

---

(1) التفسير ومناهج المفسرين ــ د . جمال الهوبي ، د . عصام زهد : ص72 .

(٭) هو الإمام الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام ، أبو بكر ، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه . له تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً ، وله غيره تصانيف كثيرة (ت318هـ) .

سير أعلام النبلاء ــ للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت748هـــ) : ج14ص490 ــ 492 .

(٭٭)هو عبد الرحمن بن أبي حاتم ، محمد بن إدريس بن المنذر الحافظ العلم الثقة ، أبو محمد بن الحـــافظ الجامع التميمي الرازي . سمع من أبيه ، ومحمد بن مسلم الرازي ، وأبي زرعة . وعنه أبو الشيخ بن حبـان ويوسف المَيَانَجِيّ وخلائق كثير . كان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال ، صنف في الفقه واختلاف الصحابـة والتابعين وعلماء الأمصار ، وكان عابداً زاهداً يعد من الأبدال (ت327هـ) .

طبقات المفسرين ــ للسيوطي : ص52 ــ 53 . وشذرات الذهب : ج1جـ2ص308 ــ 309 .

(2) انظر الإتقان : ج2ص500 .

4 ــ دخل التفسير الكثير من الروايات الإسرائيلية ، وأصبحت جزءاً منه [1] .

ثالثاً : حذف الإسناد :

في هذه الفترة ، وبعد أن دون جمع من العلماء التفسير بالأسانيد ، جاء بعدهم مَن حذف الأسانيد ، ونقل الأقوال غير معزوة لقائليها ، ولم يتحر الصحة فيما يروي ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل . وهذه في الحقيقة نقطة تحول خطيرة في تاريخ التفسير ، إذ إن المغرضين ، وأصحاب الأهواء دخلوا من هذا الباب ليبثوا سمومهم باسم التفسير ، وكثر ــ بناءً على ذلك ــ الخلاف ، حتى إنهم اختلفوا فيما لا خلاف فيه . فقالوا ــ كما نقل الجلال السيوطي ــ في قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7) ﴾ (سورة الفاتحة) نحو عشرة أقوال ، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ ، حتى لقد قال ابن أبي حاتم : لا أعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين [2] .

مميزات التفسير في هذه الفترة :

تميز التفسير في هذه الفترة بما يلي :

1 ــ دخل فيه الضعف ، وكثر فيه الخلط بين الصحيح والضعيف ؛ وذلك بسبب حذف الأسانيد التي مهما ضعفت فإنها تظل ضابطة لتلك المرويات .

2 ــ الاتساع في التفسير بالرأي المعتمِد على الاجتهاد .

3 ــ فُتح الباب واسعاً أمام الاجتهاد ، والقول بالرأي . حتى اختلفوا فيما ثبت تفسيره عن النبي ﷺ ، كما في تفسير : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7) ﴾ (سورة الفاتحة) .

4 ــ دخول الأفكار الغريبة المخالفة للإسلام في التفسير من قِبَل المغرِضين ، بسبب حذف الأسانيد من الروايات .

رابعاً : انقسام التفسير إلى عقلي ونقلي :

استمر التفسير مقتصراً على الجانب المنقول إلى أن بدأت بذور التفسير العقلي تظهر ، وقد بدأ ذلك أولاً على هيئة محاولات فهم شخصي ، وترجيح لبعض الأقوال على بعض . وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلي فيه إلى حدود اللغة ، ودلالة الكلمات القرآنية . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما

---

(1) التفسير ومناهج المفسرين : ص73 .

(2) الإتقان : ج2ص500 .

يجمع أشياء كثيرة ، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم [1] .

ويمكن تقسيم الاتجاهات التي مرّ بها التفسير – من حيث توجيه المفسرين له – إلى اتجاهين رئيسين :

– اتجاه سار فيه أصحابه على نهج أسلافهم ، وهو التفسير بالمأثور .

– واتجاه سار فيه أصحابه نحو الاجتهاد والرأي ، مستعينين في ذلك بمطلق اللغة من شعر ونحو وصرف وغيرها مما يعين على فهم الآيات وبيان دلالاتها . بجانب معرفتهم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يحتاج إليه المفسر ، وهذا هو الرأي الجائز أو المحمود .

أما الوجهة الثانية في الرأي ، وهي التي اتبع فيها أصحابها أهواءهم ، ولووا عنق الآيات لتوافق مذاهبهم . فصرفوا الآيات عن معانيها الظاهرة إلى معاني باطلة ، لا توافق صريح القرآن ولا صحيح السنة ، وهذا هو التفسير بالرأي المذموم .

ونبين فيما يلي هذه الاتجاهات :

الاتجاه الأول : التفسير بالمأثور :

يقصد بالتفسير بالمأثور ، ما جاء في القرآن نفسه من آيات تبين وتفصل آيات أخرى ، أو ما جاء من تفسير عن النبي ﷺ ، أو عن الصحابة والتابعين . وهذا التفسير هو أصح التفسير وأحسنه على الإطلاق . وفي ذلك يقول ابن كثير – رحمه الله – في مقدمة تفسيره : " فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ (فالجواب) أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِل في مكان فإنه قد بُسِط في موضع آخر . فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنة ، فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له ... وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح والعمل الصالح ..... إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ..." [2] .

تدرج التفسير بالمأثور في عصر التدوين :

علمنا فيما سبق أن التفسير كان شيئاً من الحديث ، وكان رواية مسندة إلى الرسول ﷺ ، أو الصحابة أو التابعين ، وقد أُفردت روايات التفسير في هذه المرحلة على حدة .

---

(1) التفسير والمفسرون : ج1ص148 .

(2) تفسير ابن كثير : ج1ص4 – 5 بتصرف .

ثم وجد من ألف تفاسير لآي القرآن كلها متتبعا في ذلك الرواية المسندة . وامتاز التفسير في هذه المرحلة بأنه انفصل عن الحديث ، وأفرد في تأليف خاص .

أشهر التفاسير بالمأثور :

لقد فسر القرآن بهذه الطريقة جمع من العلماء القدامى والمحدثين ، وقد سلكوا في ذلك طرقا ثلاثة :

أولا : طريق الرواية : وقد اقتصر أصحاب هذه الطريق فيها على الروايات المرفوعة إلى النبي ﷺ ، والموقوفة على الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ، والمسندة إلى التابعين . وممن فسر القرآن بهذه الطريقة :

ــ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت310هـ) ، وقد سمى تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) .

ــ ابن أبي حاتم الرازي (ت327هـ) في تفسيره المسمى (تفسير القرآن العظيم) .

ثم جاء بعد ذلك من العلماء من اختصر الأسانيد ، مكتفيا بالمنقول فقط مع تخريج كل رواية ، وذكر مصدرها ، كالإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت911هـ) فألف تفسيره المشهور (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) .

فهذه التفاسير اقتصر أصحابها فيها على المأثور فقط غير أن الطبري مزج تفسيره ببعض التوجيهات والاستنباطات ، ولكنها إذا ما قيست بالجانب المنقول فإننا نجدها قليلة .

ثانيا : طريق تفسير القرآن بالقرآن :

في هذه الطريقة كان يقف المفسر عند الآية ، فيحشد حولها الآيات التي تفسرها ، ويمزج ذلك ببعض التوجيهات والاستنباطات . وهذه الطريقة في التفسير ــ بهذا الشكل الذي يتبع فيه المفسر القرآن حسب ترتيبه ، من أوله إلى منتهاه ــ لم تظهر في القرون الماضية ، إنما ظهرت منذ فترة قريبة .

فممن ألف في هذا الجانب الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، فقد ألف تفسيرا أسماه (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) .

وألف الأستاذ عبد الكريم الخطيب (التفسير القرآني للقرآن) .

وفي هذا يقول صاحب كتاب (اتجاهات التفسير في العصر الراهن) : " وهذا التفسير حديث العهد ، فقد جاء الخامس من حزيران سنة 1967م والمؤلف لايزال يكتب هذا التفسير "(1) .

---

(1) اتجاهات التفسير في العصر الراهن ــ للدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب : ص71 .

ثالثا : عدم التزام المنهج النقلي البحت :

هناك من المفسرين من سلكوا طرقا أخرى في التفسير ، فمنهم من اختصر الأسانيد مكتفيا بذكر اسم الذي نقل عنه :

ـــ فقد ألف الإمام أبو الليث السمرقندي (✿) تفسير (بحر العلوم) .

ـــ وألف أبو إسحاق الثعلبي(✿✿) تفسير (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) ، وقد ذكر أسانيده عن الذين سينقل عنهم ، وذلك في أول تفسيره ، ويبدو أنه حذفها أثناء التفسير اختصارا واكتفاء بذلك (1).

ـــ وألف ابن عطية الأندلسي(✿✿✿) تفسير (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) .

ومنهم من جمع في تفسيره المأثور عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين ، وبجانب ذلك وقف عند الآيات ، فحشد حولها الآيات الأخرى التي تفسرها وتوضح المراد منها ، مثل ما فعل الحافظ ابن كثير (ت774هـ) في تفسيره ـــ (تفسير القرآن العظيم) ـــ ، ونظرا لأن ابن كثير محدث ، فقد ظهرت الصبغة الحديثية على تفسيره ، حيث كان يعزو الأحاديث لرواتها من أصحاب كتب السنة ، وينقد رجال السند ، ويحكم على الأحاديث أحيانا .

ثم جاء من المتأخرين من سار على منوال أسلافهم ، فألف محمد جمال الدين القاسمي (ت1332هـ = 1914م) تفسيره المعروف (محاسن التأويل) .

(✿) وهو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه ، أبو الليث المعروف بإمام الهدى . تفقه على يد أبي جعفر الهنداوي ، وهو الإمام الكبير صاحب الأقوال المفيدة ، والتصانيف المشهورة ، منها : (النوازل) في الفقه ، و(خزانة الفقه) وتفسيره المعروف . (ت373هـ) .

الجواهر المضية : ج3ص544 ـــ 545 . وطبقات المفسرين ـــ للداوودي : ج2ص346 .

(✿✿) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، أبو إسحاق الثعلبي ، المفسر . روى عن أبي طاهر محمد ابن الفضل بن خزيمة ، وأبي محمد المخلدي ، وأبي بكر بن هانئ . وعنه أخذ الحسن الواحدي . كان أوحد زمانه في علم القرآن ، وكان حافظا واعظا رأسا في العربية والتفسير . له تصانيف قيمة منها : تفسيره المعروف ، و(ربيع الذاكرين) و(العرائس في قصص الأنبياء عليهم السلام) . (ت427هـ) .

العبر في خبر من غبر : ج2ص255 . وطبقات المفسرين ـــ للداوودي : ج1ص66 ـــ 67 .

(1) انظر التفسير والمفسرون : ج1ص223 .

(✿✿✿) وهو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم ، وقيل : عبد الرحمن ، وقيل : عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية الغرناطي الأندلسي ، أبو محمد الحافظ القاضي . كان فقيها جليلا ، عارفا بالأحكام والحديث والتفسير ، نحويا لغويا أديبا ، بارعا شاعرا . روى عن أبيه ، وأبي علي الغساني ، والصفدي . وعنه ابن مضاء ، وأبو القاسم بن حبيش وجماعة . (ت546هـ) .

بغية الوعاة : ج2ص73 . وطبقات المفسرين ـــ للسيوطي : ص50 .

وهكذا يظهر لنا كيف سار التفسير بالمأثور ، وكيف أنه انتهى بظهور لون جديد ، مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، له شكله المميز ، وطابعه الخاص ، وهو تفسير القرآن بالقرآن ، كتفسير الشنقيطي وعبد الكريم الخطيب . ولم يكن التفسير بهذه الصورة إلا منذ عهد قريب .

الاتجاه الثاني : التفسير بالرأي :

التفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر للتفسير بالمأثور ، وعلوم القرآن ، وعلوم الدين ، وعلوم اللغة ، وغير ذلك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر (1) .

والعلوم التي يحتاج إليها المفسر خمسة عشر علما : اللغة ــ النحو ــ التصريف ــ الاشتقاق ــ المعاني ــ البيان ــ البديع ــ علم القراءات ــ أصول الدين ــ أصول الفقه ــ أسباب النزول والقصص ــ الناسخ والمنسوخ ــ الفقه ــ الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم ، وعلم الموهبة .

قال ابن أبي الدنيا(*) : وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له .

قال : فهذه العلوم ــ التي هي كالآلة للمفسر ــ لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها ، فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه (2) .

ومن هنا فقد انقسم التفسير بالرأي إلى قسمين :

ــ تفسير بالرأي الجائز (المحمود) .

ــ وتفسير بالرأي الغير جائز (المذموم) .

وفيما يلي نعطي تصورا لكلا النوعين ، فنقول :

أولا : التفسير بالرأي الجائز :

حتى يكون التفسير بالرأي جائزا مقبولا ومحمودا ، لا بد للمفسر أن يكون على دراية بالعلوم التي يحتاج إليها مثله ، وقد سبقت الإشارة إليها .

---

(1) التفسير و المفسرون : ج1ص246 .

(*) وهو عبد الله بن عبيد بن سفيان ، أبو بكر بن أبي الدنيا ، الحافظ المصنف في كل فن ، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة ، في الرقاق ، وغيرها . وهي تزيد على مائة مصنف . سمع ابن أبي الدنيا إبراهيم بن المنذر الخزامي ، وخالد بن خراش ، وعلي بن الجعد . وقال فيه صالح بن محمد جزرة : إلا أنه كان يروي عن رجل يقال له محمد بن إسحاق البلخي ، وكان هذا الرجل كذابا يضع للأعلام إسنادا ، وللكلام إسنادا . ويروي أحاديث منكرة . مات سنة 181هـ .

البداية والنهاية ــ للحافظ ابن كثير (ت774هـ) : ج6 جـ11 ص76 .

(2) انظر الإتقان : ج1ص477 ــ 479 .

أضف إلى ذلك أنه ينبغي عليه أن يأخذ التفسير من مصادره ، وهي خمسة :

ـــ الرجوع إلى القرآن نفسه .

ـــ النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

ـــ الأخذ بقول الصحابي .

ـــ الأخذ بمطلق اللغة .

ـــ التفسير بالمقتضى من معنى الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع . وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس بقوله : " **اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل** " . وفي لفظ : " **اللهم علمه الكتاب** " (1) .

ثم إن هناك قواعد يجب على المفسر أن لا يخالفها ، وأمورا لا بد له أن يتحراها في تفسيره ، وهي :

ـــ مطابقة التفسير للمفسر .

ـــ مراعاة المعنى الحقيقي والمجازي .

ـــ مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام ، والمؤاخاة بين المفردات .

ـــ مراعاة القضايا اللفظية من جهة اللغة ، والتصريف ، والاشتقاق ، والإعراب ، والمعاني والبيان والبديع ، والاستنباطات ، والإشارات .

ـــ معرفة أسباب النزول .

ـــ مراعاة المناسبة .

ـــ تجنب ادعاء التكرار في القرآن .

ـــ مراعاة نظم الكلام الذي سيق له .

ـــ على المفسر بعد هذا أن يكون يقظا فطنا ، حتى يتحاشى الوقوع في الخطأ (2) .

ما يحذره المفسر :

يجب على المفسر لكتاب الله ـــ تعالى ـــ أن يجتنب أمورا في تفسيره ويحذرها تلافيا

---

(1) انظر البرهان : ج2ص137 وما بعدها . والإتقان : ج2ص472 وما بعدها . والتفسير والمفسرون : ج1ص261 ـــ 262 .

والحديث أخرجه **خ** : ك الوضوء / ب وضع الماء عند الخلاء ج1جـــ1ص51 (ح143) ، وك فضائل أصحاب النبي ﷺ /ب ذكر ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ ج2جـــ4ص262 .

مس : ك الفضائل / ب فضائل عبد الله بن عباس ج4 ص1927 (ح2477) .

(2) انظر البرهان : ج1ص60 ، ج2ص190 ـــ 194 ، والإتقان : ج2ص488 ـــ 490 ، ومناهل العرفان : ج2ص44 ، والتفسير والمفسرون : ج1ص265 ـــ 266 .

للوقوع في الخطأ .

وقد ذكر السيوطي خمسة منها ، عزاها لابن النقيب (٭) ، قال : " وقال ابن النقيب : جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال :

أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

الثاني : تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

الثالث : التفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا ، فيرد إليه بأي طريق أمكن ، وإن كان ضعيفا .

الرابع : التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل .

الخامس : التفسير بالاستحسان والهوى " (1) .

وبهذا يتبين لنا الأصول التي يجب على مفسر كتاب الله أن يتحلى بها ولا يحيد عنها ، حتى يكون تفسيره جائزا مقبولا . وكل هذه الأمور تحتاج إلى تفصيل وبيان ، وإنما أشرنا إليها إشارة ؛ لئلا يطول البحث ، فمن أرادها فليرجع إلى ما دللناه عليه في الحاشية .

أشهر كتب التفسير بالرأي الجائز :

لقد صنف في التفسير بالرأي الجائز قوم اختلفت مناحيهم في ذلك بحسب الفن الذي برع فيه كل مفسر ، والوجهة التي قصد إليها في تفسيره ، فمن ذلك :

ـــ تفسير (مفاتح الغيب) العلامة فخر الدين الرازي (٭٭) ، وقد اهتم في تفسيره بالمناسبات والعلوم الرياضية والفلسفية والأصول والنحو والبلاغة .

(٭) هو محمد بن سليمان بن الحسن البلخي ثم المقدسي ، المفسر ، أبو عبد الله الفقيه الزاهد ، عرف بابن النقيب ، مولده بالقدس سنة إحدى عشرة وستمائة ، له كتاب في التفسير ، وله شعر حسن . روى عن يوسف ابن المخيلي ، وحدث ، ودرس بمدرسة العاشورية بالقاهرة . سمع منه البرازيلي ، وأبو شامة . توفي بالقدس سنة ثمان وتسعين وستمائة .

الجواهر المضية في طبقات الحنفية ـــ لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد القرشي الحنفي (ت775هـ) : ج3 ص165 ـــ 166 .

(1) الإتقان : ج2ص482 .

(٭٭) وهو فخر الدين الرازي العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل ، الشافعي المفسر المتكلم ، صاحب التصانيف الكثيرة . كان إذا ركب مشى معه نحو الثلثمائة مشتغل على اختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغير ذلك . وكان ذا باع طويل في الوعظ . (ت606هـ) .

العبر : ج3ص142 . وطبقات المفسرين ـــ للداوودي : ج2ص215 .

ـ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للإمام البيضاوي (٭) .
ـ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للنسفي (٭٭) .
ـ (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي الغرناطي(٭٭٭) .
ـ (تفسير الجلالين) للإمامين الجليلين : الإمام جلال الدين المحلي الشافعي(٭٭٭٭) ، وجلال الدين السيوطي (ت911هـ) .
ـ (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للإمام الآلوسي (٭٭٭٭٭) .

(٭) وهو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، أبو الخير القاضي ناصر الدين البيضاوي . كان إماما علامة عارفا بالفقه والتفسير والعربية والمنطق ، نظارا صالحا متعبدا زاهدا شافعيا . من مصنفاته : مختصر الكشاف ، والمنهاج في الأصول ، وتفسيره المشهور . (ت685هـ) .
طبقات الشافعية الكبرى : ج8ص157 ـ 158 . وطبقات المفسرين ـ للداوودي : ج1ص248 ـ 249 .
(٭٭) وهو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، علامة الدنيا ، أبو البركات ، أحد الزهاد ، وصاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول . له كتاب المستصفى في شرح المنظومة ، والوافي ، والعمدة في الأصول ، وتفسيره المعروف . (ت710هـ) .
الدرر الكامنة : ج2ص247 .
(٭٭٭) وهو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام ، أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي النفري . نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه . أخذ القراءات عن أبي جعفر بن الطباع ، والعربية عن أبي الحسن والأبذي ، وأبي جعفر بن الزبير وغيرهما . وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو أربعمائة وخمسين شيخا . له من التصانيف : البحر المحيط، والنهر الماد مختصره ، وإتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب ، وغيرها من المصنفات (ت745هـ) .
بغية الوعاة : ج1ص280 وما بعدها . وطبقات المفسرين ـ للداوودي : ج2ص287 ـ 291 .
(٭٭٭٭) وهو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد ، الإمام العلامة ، أوحد الأئمة ، جلال الدين المحلي الشافعي . أخذ عن محمود الأقصرائي ، والبرهان البيجوري ، والعلاء البخاري . ولي تدريس الفقه بالمؤيدية ، وكان متقشفا في ملبوسه ومركوبه ، ويتكسب بالتجارة ، وقد ظهرت له كرامات كثيرة . له تصانيف جليلة منها : جمع الجوامع في الأصول ، وشرح المنهاج في الفقه ، وشرح الورقات في الأصول (ت864هـ) .
طبقات المفسرين ـ للداوودي : ج2ص84 ـ 85 .
(٭٭٭٭٭) وهو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، شهاب الدين ، أبو الثناء . مفسر محدث أديب مجتهد من المجددين ، من أهل بغداد . مولده ووفاته فيها . تقلد الإفتاء ببلده ثم اعتزله وانقطع للعلم . رحل إلى الموصل والآستانة وماردين وسيواس ، فغاب 21 شهرا . له تصانيف قيمة ؛ في التفسير ، وغرائب الاغتراب ، ودقائق التفسير . (ت1270هـ) .
الأعلام : ج7ص176 .

ـ (التحرير والتنوير) محمد الطاهر بن عاشور (٭) .
وهذه التفاسير غلب عليها الطابع اللغوي .
ومنها ما اعتنى فيها صاحبها بالربط بين الآيات والسور ، على أن يجعل القرآن كالسلسلة المنظومة من الدرر ، كما فعل برهان الدين البقاعي (٭٭) ، الذي ألف تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) فربط بين كل آية وآية ، وكل سورة وسورة من بداية المصحف إلى نهايته .
ومنها تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للإمام القرطبي(٭٭٭) .
وتفسير (أحكام القرآن) للحافظ أبي بكر بابن العربي(٭٭٭٭) .
وهذان التفسيران من التفاسير الفقهية التي عنيت بذكر المذاهب الفقهية ، ونقل الآراء المتشعبة ، والأقوال الواردة في مسائل الأحكام .
ومنها تفسير (في ظلال القرآن) للأستاذ الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ ، وتفسير (المنار) للشيخ محمد رشيد رضا . وقد غلب عليهما اللون الاجتماعي .
فهذه سلسة لكتب التفسير بالرأي الجائز ، اقتصرنا على ذكرها كأمثلة ، علما بأن هناك

(٭) وهو محمد الطاهر بن عاشور . رئيس المفتين المالكيين بتونس ، شيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس مولده ووفاته ودراسته بها . عيين شيخا للإسلام مالكيا ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة . له مصنفات مطبوعة أشهرها : مقاصد الشريعة الإسلامية ، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، والتحرير والتنوير في التفسير . (ت1393هـ) . الأعلام : ج6ص174 .

(٭٭) وهو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي ، برهان الدين أبو الحسن البقاعي . قرأ على التاج بن بهادر في الفقه والنحو ، وعلى ابن الجزري ، وأخذ عن التقي الحصني الشامي . تكلم فيه ، حتى لقب بابن عويجان مصغر أعوج . (ت885هـ) . الضوء اللامع : ج1جـ1ص101 وما بعدها .

(٭٭٭) وهو محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي ، أبو عبد الله القرطبي . سمع من ابن رواج والجميزي وعدة . وروى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أحمد . قال الذهبي : إمام متفنن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته ، وكثرة اطلاعه ووفور فضلة ؛ منها : تفسيره المعروف المشهور والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة . (ت671هـ) .
طبقات المفسرين ـ للسيوطي : ص79 . وطبقات المفسرين ـ للداوودي : ج2ص69 ـ 70 .

(٭٭٭٭) وهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بابن العربي ، المعافري الأندلسي الأشبيلي الحافظ المشهور . رحل إلى المشرق مع أبيه ، ودخل الشام وبغداد والحجاز ومصر ، والتقى بجماعات من العلماء ، فاستفاد منهم وأفاد . ثم رجع إلى الأندلس بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة . له مصنفات قيمة منها : عارضة الأحوذي في شرح الترمذي ، وتفسيره في أحكام القرآن . (ت543هـ) . وفيات الأعيان ـ لابن خلكان (ت681هـ) : ج4ص296 ـ 267 .

كتباً أخرى تدخل في هذا النوع من التفسير لم نذكرها تجنباً للإطالة .

ثانياً : التفسـير بالـرأي غير الجائز (المذموم) :

لو أردنا تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها التفسيرات بالرأي المذمـوم ، لوجدناها ترجع إلى فترة ظهور الفرق المبتدعة في الإسلام ، كالشيعة والمعتزلة والخوارج والصوفية وذلك في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

لأن ظهور هذه المذاهب جعل كل مذهب منها يؤول القرآن حسب ما يوافق مذهبه ، فأخرجوا بذلك معاني القرآن ، ومدلولات ألفاظه عن معناها الصحيح ، وصرفوها إلى معاني توافق أهواءهم وبدعهم ، ومنهم من جعل للقرآن تفسيرين ، ظاهراً وباطناً ، ومنهم من حرَّف في تفسير الآيات ؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تجاوز هؤلاء لحدود الشرع والمنقول ، وتوسعهم في الناحية العقلية والاجتهادية .

وفيما يلي نعرض لبعض الفرق التي فسرت القرآن ، ونرى كيف أنهم طوّعوا النصوص لتوافق مذاهبهم :

أ) المعتزلـة :

فرقة المعتزلة ظهرت على يد واصل بن عطاء(✿) بالبصرة [1] ، حينما اعتزل مجلس الحسن البصري – رحمه الله – .

يقول شارح العقيدة الطحاوية : " والمعتزلة : هم عمرو بن عبيد(✿✿) وواصل بن عطاء الغزّال وأصحابهما ، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري – رحمه

(✿) وهو واصل بن عطاء البليغ الأفوه ، أبو حذيفة المخزومي مولاهم ، البصري الغزال . كان يلثغ بالراء غينا ، فلاقتداره على اللغة وتوسعه يتجنب الوقوع في لفظة فيها راء كما قيل . وخالف الراء حتى احتال للشعر . وهو وعمرو بن عبيد رأسا الاعتزال . طرده الحسن عن مجلسه لما قال : الفاسق لا مؤمن ولا كافر ، فانضم إليه عمرو ، واعتزلا حلقة الحسن ، فسموا المعتزلة . وقيل : لواصل تصانيف منها مؤلَّف في التوحيد ، وكتاب المنزلة بين المنزلتين . وقيل : كان يجيز التلاوة بالمعنى ، وهذا جهل . قيل : مات سنة إحدى وثلاثين ومائة . سير أعلام النبلاء : ج5ص464 – 465 .

(1) البصرة : مدينة في العراق ، سميت (بصرة) لغلظها وشدتها ، وقيل لأن فيها حجارة سوداء صُلْبة . معجم البلدان – للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت626هـ) : ج1ص510 .

(✿✿) هو عمرو بن عبيد الزاهد العابد القدري كبير المعتزلة وأولهم ، أبو عثمان البصري . روى عن أبي العالية ، وأبي قلابة ، والحسن البصري . وعنه الحمادان ، وعبد الوارث ، وابن عيينة . قال النسائي : ليس ثقة . وقال حفص بن غياث : ما لقيت ازهد منه ، وانتحل ما انتحل . وقال ابن المبارك : دعا إلى القدر فتركوه . وقال معاذ بن معاذ : سمعت عمرا يقول : إن كانت تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما لله =

الله ــ ، في أوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معتزلين ، فيقول قتـــادة وغـيره : أولئـك المعتزلة ، وقيل : إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهـــب المعتزلـة ، وتابعــه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري ... وبنـــى مذهبه علـــى الأصـــول الخمســة ، التـي سموها : العدل ، والتوحيد ، وإنفاذ الوعيد ، والمنزلة بين المـــنزلتين ، والأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكر ، ولبسوا فيها الحق بالباطل " (1) .

ولسنا الآن بصدد مناقشة أصولهم ، فمن أراد ذلك فلينظر كتب السلف في العقائد كـــابن تيمية وابن القيم وأبي العز الحنفي وغيرهم ، فإنهم تصدوا لهم ، وفندوا أقوالهم ، وقعدوا لـــهم كل مرصد . والمهم أن نعلم أن مذهبهم وبدعتهم كان لها بالغ الأثر في منحاهم التفسيري .

أشهـــر تفاســير المعتــزلـــة :

ذكر الدكتور الذهبي أنه لم يصلنا من تفاسير المعتزلة إلا مصنفـــات ثلاثــة(2) . وأذكـــر المشتهر من هذه المصنفات :

1 ــ (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار (*) . وهذا التـــأليف ليــس بتفســير للقرآن كله بآيه وسوره ، وإنما هو عبارة عن مسائل يطرحها المؤلف ، كـــل مســألة منـــها تتضمن إشكالاً وجواباً ، مبتدئاً في ذلك بسورة الفاتحة منتهياً بسورة الناس . ومن تفســيراته الزائغة تفسير قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّـــهَا نَـــاظِرَةٌ (23) ﴾ (ســورة القيامة) قال : " وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَـــى رَبِّـــهَا نَـــاظِرَةٌ

= على ابن آدم حجة ، وسمعته ذكر حديث الصادق المصدوق ، فقال : لو سمعت الأعمش يقوله لكذبتـــه ، إلى أن قال : ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول لرددته . وذكر محمد بن عبد الله الأنصاري أنه رأى عمرو بن عبيد في النوم قد مُسِخ قرداً . له كتاب العدل والتوحيد وكتاب الرد على القدرية ــ يريد السنة ــ . مات سنة ثلاث . وقيل : سنة أربع وأربعين ومئة . سير أعلام النبلاء : ج6ص104 ــ 106 .

(1) شرح العقيدة الطحاوية ــ للعلامة صدر الدين ، محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت731هـ) : ص521 . وانظر تقريب التدمرية : ص146-148 .

(2) انظر التفسير والمفسرون : ج1ص368 .

(*) وهو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ، أبو الحسن الأسدابادي . سمع من علي بن إبراهيـــم ابن سلمة القزويني ، وعبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهاني ، والقاسم بن أبي صالح الهمداني . وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع ، ومذهب المعتزلة في الأصول . كان ثقة في حديثه لكنه داعٍ إلـــى البدعـــة ، لا تحل الرواية عنه . ولي قضاء الري وقزوين وغيرهما . وله مصنفات كثيرة ؛ في التفسير وعلـــم الكـــلام . منها : تنزيه القرآن عن المطاعن ، والأمالي ، وشرح الأصول الخمسة . (ت415هـ) .
تاريخ بغداد : ج11ص113 ــ 115 . ولسان الميزان ــ للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852هـــ) : ج3ص472 ــ 473 .

(23) ﴾ (سورة القيامة) أنه أقوى دليل على أن الله تعالى يرى في الآخرة ؟ وجوابنا أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم فإنا لا ننازعه في أنه يرى ، بل وفي أنه يصافح ويعانق ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم ، وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح ؛ لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشئ طلبا لرؤيته ، وذلك لا يصح إلا في الأجسام . فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه ، وهو الثواب "(1).

وهذا تأويل صريح في إنكار رؤية الله في الآخرة ، التي ثبتت بصريح القرآن والمتواتر من السنة (2) .

2 ـ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) الزمخشري (٭) .

وهو بجانب التفسير الاعتزالي يكثر فيه الناحية اللغوية من بلاغة وبيان وإعراب وشعر وأدب ، مما لفت إليه الأنظار ، وعلق به القلوب ، وجعلوه مرجعا في البلاغة ، مع الاحتراز من تلك الاعتزاليات التي تضمنها هذا التفسير .

ب) الشيعة :

الشيعة هم الذين شايعوا عليا ﷺ ، وغالوا في ذلك حتى ألهه بعضهم . واعتقدوا أن الإمامة تبقى في أولاده لا تخرج عنهم ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده .

وكان مبدأ ظهور فرقة الشيعة في زمن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ .

وقد افترقت الشيعة زمن خروج زيد بن علي بن الحسين إلى رافضة وزيدية ، فإنه لما سئل زيد عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما ، رفضه قوم ، فقال لهم : رفضتموني ! فسموا رافضة لرفضهم إياه ، وسمي من لم يرفضه زيديا لانتسابهم إليه .

---

(1) تنزيه القرآن عن المطاعن ـ للقاضي عبد الجبار (ت415هـ) : ص442 .

(2) قال أبو العز الحنفي في شرح الطحاوية : " وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه ، الدالة على الرؤية فمتواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن " . شرح العقيدة الطحاوية : ص193 .

(٭) هو محمود بن عمر بن أحمد العلامة ، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المفسر الملقب جار الله ؛ لأنه جاور بمكة زمانا . كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، متقنا في كل علم ، معتزليا قويا في مذهبه ، مجاهرا به ، داعية إليه ، حنفيا علامة في الأدب والنحو . صنف التصانيف المفيدة ، منها : الفائق في غريب الحديث ، وأساس البلاغة ، وتفسيره المشهور . (ت538هـ) .

طبقات المفسرين ـ للسيوطي : ص104 ـ 105 ، وطبقات المفسرين ـ للداوودي : ج2ص314 ـ 315

ومن حماقاتهم ــ أي الرافضة ــ أنهم يجمعون بين الصلوات ، فيصلون في ثلاثة أوقات ، وأنهم يَنْجُسون لأبدان غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب ، ويحرمون ذبائحهم ، ويستعملون التقية ، ويظهرون خلاف ما يبطنون ، ويكرهون العدد عشرة في كلامهم وأفعالهم ، لكونهم يبغضون الصحابة المشهود لهم بالجنة ، وهم عشرة ... إلى غير ذلك من حماقاتهم ، لكن هذا كله لا يكون في الإمامية الاثنا عشرية ولا في الزيدية .

والشيعة فرق وأقسام ، فمنها الاسماعيلية ، والنصيرية ، والإمامية الاثنا عشرية ، وغيرها من الفرق (1) .

والذي يهمنا هنا ما يتعلق بجانب التفسير ، لنرى فيما يلي أهم المصنفات في التفسير عند الشيعة :

أشهر تفاسير الشيعة :

انقسمت الشيعة إلى طوائف وفرق لكل فرقة اعتقاداتها وآراؤها ، وإن كانوا جميعاً يتفقون في أمور هي أصول في المذهب الشيعي . ثم أخذت كل فرقة تروج لمذهبها وأفكارها ، واتخذوا من التفسير مطية لذلك . فكان أشهر هذه الفرق والطوائف ما يلي :

1 ــ الإمامية الاثنا عشرية :

نظراً لأنها نالت نصيباً من جهود علمائها الذين لم يدخروا وسعاً ، ولم يضنوا بشئ من علومهم في خدمة مصلحة مذهبهم

ــ فقد قام محيي الشيعة وحافظها الإمام أبو جعفر الطوسي (٭) بتأليف تفسيره المشهور (التبيان في تفسير القرآن) .

---

(1) للاستزادة من خبر الشيعة انظر : منهاج السنة النبوية ــ لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت728هــ) . والفصل في الملل والأهواء والنحل ــ للإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت456هــ) : ج5 ص35 وما بعدها . وتلبيس إبليس ــ للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي (ت597هــ) : ص91 ومابعدها . وتقريب التدمرية : ص155 ــ 156 .

(٭) وهو الإمام محمد بن الحسن بن علي أبو جعفر الطوسي ، فقيه الشيعة ومصنفهم . قرأ الأصول والكلام على أبي عبد الله محمد بن محمد النعمان ، وحدث عن هلال الحفار ، وروى عنه ابنه أبو علي الحسن . قدم بغداد ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وله مصنفات كثيرة في الكلام على مذهب الإمامية . وله تفسيره المعروف . (ت671هــ) .

طبقات المفسرين ــ للسيوطي : ص80 . وطبقات المفسرين ــ للداوودي : ج2ص130 ــ 131 .

ـ وكذلك الإمام الطبرسي (٭) الذي ألف تفسيره المسمى بـ (مجمع البيان في تفسير القرآن) ، وكلاهما ينتصر لمذهبه في تفسيره فيقولان بإمامة علي ، وعصمة الأئمة ، وكلاهما يرد الإجماع ، ويقرر خبر الواحد [1] ، إلى غير ذلك مما يقررانه تطويعا للنصوص لتوافق مذهبهما .

ـ ومنها (تفسير الصافي) ـ للمولى الكاشاني (٭٭) ، وهو تفسير مختصر لا يطيل فيه صاحبه إلا في المواضع التي يجد فيها ما يخدم مذهبه ، فتجده يغالي في أهل البيت إلى حد كبير ، ويروي الأحاديث الموضوعة في ذلك [2] .

2 ـ الباطنية :

الباطنية قوم تستروا بالإسلام ، مع مباينتهم له ، وبعدهم عنه بالكلية . وقد سموا بذلك ؛ لأنهم يدعون أن للقرآن ظاهرا وباطنا . ولهم أسماء متعددة : منها الإسماعيلية نسبة إلى زعيم لهم يقال له محمد بن إسماعيل ابن جعفر ، ويزعمون أن الإمامة انتهت إليه ؛ لأنه سابع . ومنها السبعية : لقبوا بذلك لاعتقادهم أن دور الإمامة سبعة سبعة ، وأن تعاقب هذه الأدوار لا آخر له ، أو لأن تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة : زحل ، ثم المشتري ، ثم المريخ ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم عطارد ، ثم القمر . وسموا بالبابكية نسبة إلي رجل يقال له بابك الخرمي . ولهم أسماء غير ذلك [3] . وأهم الأمور التي ينبغي علمها كونهم جعلوا للقرآن ظاهرا وباطنا ، وهذا يوحي لأول وهلة بالتفرقة بين تفسير وتفسير ، ومن ثم التفرقة بين جماعة وجماعة وبناء عليه فرقوا بينهم وبين السلف ، فجعلوا

(٭) وهو الإمام الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، أمين الدين ، أبو علي ، مفسر محقق لغوي . من أجلاء الإمامية . ونسبته إلى طبرستان . له مصنفات عديدة ؛ منها : (مجمع البيان في تفسير القرآن) ، و(جوامع الجامع) وهو في التفسير ، و(تاج المواليد) وغيرها من المصنفات . (ت548هـ) .
الأعلام : ج5ص148 .

(1) انظر تفسيريهما للآيات : 55 من سورة المائدة ، 33 من سورة الأحزاب ، 59 من سورة النساء ، 6 من سورة الحجرات .

(٭٭) هو محسن بن مرتضى بن فيض الله محمود الكاشي ، مفسر من علماء الإمامية ، وجاءت نسبته (الكاشي) و(الكاشاني) و(القاشاني) من أهل كاشان . ويقال له : ملا محسن فيض الكاشي ، وينعت بالمتأله الحكيم . قرأ كتب أبي حامد الغزالي وتأثر به ، وسلك منهجه في كثير من تصرفاته وتطرفاته . له نحو من 80 مصنفا أكثرها رسائل . منها : (الصافي) في تفسير القرآن ، و(الأصفى) و(الوافي) . (ت1090هـ) .
الأعلام : ج5ص295 . ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ـ سركيس : ج2ص1540 .

(2) انظر تفسيره للآية 59 من سورة النساء ، والآية 136 من سورة البقرة .

(3) انظر تلبيس إبليس : ص96 ـ 99 .

السلف أهل الظاهر ، وجعلوا أنفسهم أهل الباطن ، لزعمهم أنهم يعلمـــون أســرار القــرآن وبواطنه وما ترمز إليه آياته ، وهذا كفرٌ بواح ، وبُعد عن الحق والصــواب ، وطعــن فــي الإسلام .

آثار الباطنيـــة فـــي التفســير :

لم أقف على تفسير لهم ينتظم القرآن سوره وآياته . إنما نتاجهم فــي التفســير لمقــاطع متفرقة ، وآيات مبعثرة في ثنايا الكتب . وقد قال الدكتور محمد حسين الذهبي : " ولعل السر في ذلك : أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم آية آية ، ولو أنهم حاولوا ذلــك لاصطدمــوا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها ، ولا يقدرون على التخلص منها " (1) .

وأذكر فيما يلي بعض تأويلاتهم الباطلة كنماذج تصور لنا مذهبهم :

ــ ما قاله بعضهم في البقرة : إنه إنسان يبقُر عن أسرار العلوم . وفي الهدهد : إنــه إنســان موصوف بجودة البحث (2) .

ــ تأويلهم للكعبة بأنها النبي ، والباب هو علي ، والصفا هو النبي أيضاً ، والمــروة علــي ، والتلبية إجابة الداعي ، والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة الســبعة (3) إلى غير ذلك من التأويلات الفاسدة الباطلة ،التي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلــة ، ولا تنتــج إلا عن قلب أغلف ، وحقد دفين .

وحديثاً جاءت فرقة تبنَّت الفكرة الباطنية ووجدت فيها مرتعاً متسعاً للطعن في ديــن الله ، ألا وهي البهائية ، وقد انطلقت من مدينة شيراز (4) على يد بهاء الله (✿) . وكان ذلــك فــي

---

(1) التفسير والمفسرون : ج2ص231 .

(2) البرهان في علوم القرآن : ج2 ص196 .

(3) العقيدة الإسلامية وأسسها ــ تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ص701 .

(4) مدينة شيرَاز : بلد عظيم مشهور معروف مذكور ، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث (في إيران حالياً) . معجم البلدان : ج3ص431 .

(✿) وهو حسين علي نوري بن عباس بن بزرك ، الميرزا ، المعروف بالبهاء ، أو بهاء الله . رأس البهائيــة ومؤسسها . إيراني مستعرب ، اعتنق دعوة كان علي بن محمد الشيرازي الملقب بالباب قد قام بها ، ظاهرها الإصلاح الديني والاجتماعي ، وباطنها تلفيق عقيدة جديدة من أديان ومبادئ مختلفة . وقُتــل البــاب رميــاً بالرصاص في تبريز ، فخلفه البهاء في دعوته . وكان كلما دخل بلد أحدث ضجة في أوساط المسلمين بسبب دعوته الباطلة ، مما يثير عليه علماء المسلمين ، فيُنفى إلى بلد آخر ، إلى أن أُرسِل إلى سجن عكة بفلسطين عام 1868م ، ثم أُفرج عنه ، فانتقل إلى البهجة (من قرى عكة) والتف حوله مريدوه ، وتوفي بها ودفن فــي حيفا سنة 1309هــ = 1892م . من آثاره كتاب (الأقدس) و(الإيقان) و(الهيكل) .
الأعلام : ج2ص248 ــ 249 .

سنة 1260هـ [1] .

وعلى أيٍّ حال ، فإن حقدهم على الإسلام جعلهم يلحدون في آيـــات الله ، وإن فكرتـــهم الباطلة جعلت لهم ساتراً أخرقاً ليتمادوا من خلفه في كفرهم وإلحادهم ، فلبئس ما قدمت لـــهم أنفسهم لو كانوا يعلمون .

3 ــ الزيدية :

تعتبر الزيدية فرقة من فرق الشيعة ، سموا بذلك نسبة إلى زيد بن علي [*]. وهم أقـــرب الفرق إلى أهل السنة .

والزيدية فرق ثلاث يجمعها القول بإمامة زيد بن علي في أيام خروجه .

ومن عقائدهم أنهم ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم .

ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول في وجود الفاضل ، فقد كانوا يرون أن علياً ﷺ أفضـــل الصحابة ، ومع ذلك فُوِّضت الخلافة إلى أبي بكر للمصلحة [2] .

أشهر كتب التفسير عند الزيدية :

قد نص الدكتور الذهبي على أنه التقى مع وفد يَمَني فيه الكثير من علماء الزيديـــة سـنة 1945م ، وسأل أحد أعضائه البارزين ــ وهو القاضي محمد بن عبد الله العامري الزيـدي ــ عن مؤلفات الزيدية في التفسير ؟ فأخبره أن للزيدية كتباً كثيرة في التفسير ، منها ما بقي ،

---

(1) انظر : التفسير والمفسرون : ج3 ص125 ــ 127 . والعقيدة الإسلامية وأسسها : ص710 ــ 711 .

(*) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ القرشي الهاشمي ، أبو الحسين المدني ، ثقـــة . روى عن أبيه ، وأخيه أبي جعفر محمد بن علي الباقر ، وعروة بن الزبير . وروى عنه ابنه حسين ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري . سئل عيسى بن يونس عن الرافضة والزيديـــة فقال : أما الرافضة فأول ما ترفضت ، جاءوا إلى زيد بن علي حين خرج ، فقالوا : تبرأ من أبي بكر وعمر حتى نكون معك ، فقال : بل أتولاهما وأبرأ ممن تبرأ منهما . قالوا : فإذاً نرفضك . فســـميت الرافضـــة . قال : وأما الزيدية فقالوا نتولاهما ونبرأ ممن يتبرأ منهما . فخرجوا مع زيد ، فسميت زيدية . قُتِل بالكوفـــة سنة اثنتين وعشرين ومائة .

الثقات : ج4ص249 ــ 250 . وتهذيب الكمال : ج10ص95 ــ 98 . وتقريب التهذيب : ص355 .

(2) انظر : الفرق بين الفرق ــ تأليف عبد القاهر بن طاهر البغدادي الإسفرائيني التميمي (ت429هـــ) : ص21 ــ 22 . والملل والنحل ــ تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمـــد الشهرســـتاني (ت548هـ) : ج1ص154 ــ 162 . وموسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ــ د . عبد المنعـــم الحفني : ص236 ــ 239 .

ومنها ما اندثر ، وما بقي منها إلى اليوم لايزال مخطوطاً وموجوداً في مكاتبهم [1] .

ثم سأله عن الحائل الذي حال دون طبعها ونشرها ؟ فأجابه بأن السر في ذلك أمران :

أحدهما : عدم تقدم فن الطباعة عندهم .

ثانيهما : أن كل اعتمادهم في التفسير على كتاب الكشاف ــ للزمخشري ، نظرا للصلة التي بين الزيدية والمعتزلة ، مما جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير [2] .

فهذه بعض كتب الزيدية في التفسير . والناظر في السبب الثاني الذي ذكره القاضي الزيدي يدرك أن المذهب الزيدي متأثر تأثرا كبيرا بالمعتزلة . ولعل السبب في ذلك هو أن الإمام زيد بن علي تتلمذ على واصل بن عطاء شيخ المعتزلة [3] .

ومن الكتب المشتهرة بين أهل العلم ، المتداولة بين أيديهم تفسير (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) ــ للإمام الشوكاني (✡). وهو تفسير جمع فيه صاحبه بين المأثور والمعقول .

ورغم تأثر الزيدية بالمعتزلة إلا أننا نرى الشوكاني شديد النقد لهم [4] . وتعجب حينما تراه يسوق الأحاديث الموضوعة ــ خاصة في فضائل أهل البيت ــ [5] وهو المحدث ، البارع في علم الحديث . ويمر على تلك الروايات دون أن ينقدها ، أو ينبه عليها .

---

(1) ذكر من هذه التفاسير : شرح الخمسمائة آية (تفسير آيات الأحكام) ــ لحسين بن أحمد النجري ، من علماء الزيدية في القرن الثامن عشر .

ــ الثمرات اليانعة (تفسير آيات الأحكام) ــ للشيخ شمس الدين يوسف بن أحمد بن عثمان ، من علماء الزيدية في القرن التاسع الهجري .

ــ (منتهى المرام شرح آيات الأحكام) ــ لمحمد بن الحسين بن القاسم ، من علماء الزيدية في القرن الحادي عشر الهجري .

ــ تفسير القاضي ابن عبد الرحمن المجاهد ، أحد علماء الزيدية في القرن الثالث عشر الهجري .

التفسير والمفسرون : ج2ص272 .

(2) انظر التفسير والمفسرون : ج2ص272 .

(3) انظر الملل والنحل : ج1ص155 .

(✡) وهو محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني . فقيه مجتهد ، من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء . ولي قضاء صنعاء ، ومات حاكما بها . له مائة وأربعة عشر مؤلفا ، منها : تفسيره المشهور ، ونيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار ، والبدر الطالع بمحاسن القرن السابع . (ت1250هـ) . الأعلام : ج6ص298 .

(4) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ الآيتين 22 ، 23 من سورة القيامة .

(5) انظر تفسيره للآية 55 من سورة المائدة .

وبهذا يتبين لنا من هذه الإشارات المقتضبة للمذهب الشيعي ، والتفاسير التي ألفوها ، كيف كان للاعتقاد الفاسد انعكاسه الواضح على تأويلات النصوص القرآنية ، وإخراجها عن ظاهرها ، وصرفها إلى معاني توافق أصولهم ، وتؤيد بدعتهم .

ج) الخوارج :

الخوارج : كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً ، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة في كل زمان . ثم أطلقت الخوارج على الخارجين على أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ في صفين بعد قبول التحكيم . وقد اجتمعت الخوارج على أمرين لا مزيد عليهما : **أحدهما :** تكفيرهم لعلي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وكل من رضي بهما . **ثانيهما :** قولهم : إن كل من أذنب ذنباً من أمة محمد ﷺ فهو كافر ، ويكون في النار خالداً مخلداً ، إلا طائفة منهم قالت : إن الفاسق كافر على معنى كفران النعمة . وقد اختلفت الخوارج فيما بينها ، فصارت عشرين فرقة ، كل واحدة تكفر غيرها [1] .

وأضرب بالإباضية مثلاً ؛ لأنها هي الفرقة التي امتد وجودها إلى الآن ، وأبدأ بتعريف لهذه الفرقة . فأقول : الإباضية هم أصحاب عبد الله بن إباض (✿) . وقد افترقت إلى : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية . ومن مقالات اليزيدية : إن الإسلام سينسخ بنبي من العجم يأتي بدين الصابئين ، وبقرآن آخر يتنزل عليه جملة واحدة [2] .

قال ابن حزم : " إلا أن جميع الإباضية يكفِّرون من قال بشئ من هذه المقالات ، ويبرأون منه ويستحلون دمه وماله "[3] .

ومما أُثر عنهم : قولهم بأن كفار هذه أمة ـ يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الأمة ـ براء من الشرك والإيمان ، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ، ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وحرَّموا دماءهم في السر ، واستحلوها في العلانية .

ومن ذلك ـ أيضاً ـ تحريمهم لطعام أهل الكتاب ، ويوجبون القضاء على من نام ،

---

(1) انظر في ذلك : الفرق بين الفرق : ص20 . الملل والنحل : ج1ص114 وما بعدها . والفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية : ص215 ـ 219 .

(✿) وهو عبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي ، من بني مرة بن عبيد بن مقاعس ، رأس الإباضية ، وإليه نسبتهم . كان معاصراً لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ . عاش إلى أواخر أيام عبد الملك بن مروان . (ت86هـ) . الأعلام : ج4ص61 ـ 62 .

(2) انظر : الفرق بين الفرق : ص279 ـ 285 .

(3) الفصل :ج5ص51 .

ويتيممون في وجود الماء ، وغيرها[1] .

آثارهم في التفسير :

من آثارهم في التفسير :

ــ (تفسير كتاب الله العزيز) لِهُود بن محكِّم الهوَّاري (*). وهو تفسير مطبوع ومتداول وهو تفسير بالمنقول ، لكنه يحذف السند .

ومن ضلالاته قوله بزواج المتعة [2] ، وإنكار رؤية الله في الآخرة [3] .

وقد ذكر صاحب كتاب (رسالة في كتب الإباضية) من تفاسير الإباضية :

ــ تفسير الخمسمائة آية في الحلال والحرام ــ لأبي المؤثر البهلوي [4] .

ــ تفسير القرآن ــ لابن رستم (**) [5] .

د) الصوفيـــــة :

التصوف علم بأصول يعرف بها إصلاح القلب وسائر الحواس . وفائدته : صلاح أحوال

---

(1) انظر الفرق بين الفرق : ص103 . والفصل : ج5ص51 . والملل والنحل : ج1ص134 ــ 135 .

(*) هو هود بن مُحَكِّم بن هود الهواري من قبيلة هوارة بجبل أوراس بالجزائر . أخذ العلم عن أبيه الشيخ محكم بن هود الهواري . وقد ذكر بالحاج بن سعيد شريفي ــ محقق تفسير هود ــ في مقدمة التفسير أنه ليس لديه أي علم بأسماء شيوخه إذا ما استُثني أباه . وذكر أنه حاول جاهداً على أن يجد إشارة إلى بعض شيوخه في ثنايا تفسيره فلم يعثر على أي واحد منهم . أما عن سنة وفاته فقد أشار إلى أنه لم تُذكر أيضاً بالتحديد في أي مصدر من المصادر التي بين يديه . ويقدر أنها كانت في العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجري أي حوالي ثمانين ومائتين .

انظر تحقيق وتعليق بالحاج بن سعيد شريفي في مقدمة تفسير هود بن محكم الهواري : ج1ص8 وما بعدها .

(2) انظر : ج2ص367 ــ 368 من تفسيره .

(3) انظر : ج4ص444 من تفسيره .

(4) انظر كتاب دراسة في تاريخ الإباضية وعقيدتها مع (رسالة في كتب الإباضية لأبي الفضل أبو القاسم ابن إبراهيم البرادي (ت810هـ) : دراسة وتحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب ، وأحمد عبد التواب عوض : ص61 . ولم أقف للبهلوي على ترجمة ، غير أنه جاء في حاشية هذه الكتاب ــ رسالة في كتب الإباضية ــ عند ذكر هذا المفسر ما نصه : " أبو المؤثر الصلت بن خميس الخروصي البهلوي ، وكان ضريراً وكان من أجل فقهاء الإباضية بعُمان . قُتِل في وقعة العشب " . نفس الصفحة .

(**) وهو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، وهو فارسي الأصل مؤسس مدينة تاهرت بالجزائر ، وأول ملك من الرستميين ، وكان من فقهاء الإباضية بإفريقية . معروفاً بالزهد والتواضع ، وكان جده بهرام من موالي عثمان ﷺ . (ت171هـ) . الأعلام : ج3ص306 .

(5) انظر كتاب دراسات في تاريخ الإباضية وعقيدتها : ص66 .

الإنسان لما فيه من الحث على تصفية الاعتقاد وكمال الأعمال بالسداد [1] . واختلف في سبب تسميتهم :

ـ قيل : نسبة إلى رجل يقال له صوفة بن بشر بن أد ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة منذ زمن بعيد ، ينسب إليهم النساك ، وهذا وإن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ ، فإنه ضعيف ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ؛ لأنه لم يظهر هذا اللفظ ـ الصوفية ـ في القرون الثلاثة الأولى ، إنما اشتهر به التكلم فيما بعد ، ولأن غالب من تكلم باسم (الصوفي) لا يعرف هذه القبيلة ، ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام .

ـ وقيل : نسبة إلى أهل الصفة . وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صفي .

ـ وقيل : لأنهم في الصف الأول بين يدي الله بارتفاع همتهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه . وهو غلط أيضا ؛ فلو كان كذلك لقيل : صفي .

ـ وقيل : نسبة إلى الصوف ، وهو المشهور .

ـ وقيل : نسبة إلى صوفة القفا ، وهي الشعرات النابتة في مؤخره .

ـ وقيل : نسبة إلى الصفاء [2] .

ولقد مر التصوف بأدوار متعددة ، خير من صورها لنا الدكتور عمر فروخ في كتابه (التصوف في الإسلام) . ثم عد لكل دور رجاله مع بيان نقاط التحول والاختلاف بين كل دور وسابقه .

ونستطيع هنا أن نتجاوز الكلام عن هذه الأدوار ، وإنما كانت الإشارة إليها لمن يرغب التوسع من معرفة أخبار الصوفية [3] .

والتصوف منه المحمود ومنه المذموم . فهو محمود إذا كان زهدا وتقشفا وعبادة موافقة لأصول الشريعة ، أما إذا كان في التصوف مخالفات شرعية فهو تصوف مذموم ، وهذا الذي قصدته هنا ؛ لأن له بالغ الأثر في التفسير . فقد أخرج الصوفية النصوص عن ظاهرها

---

(1) شرح جوهرة التوحيد ـ للعلامة الشيخ إبراهيم اللقاني (ت1041هـ) المسماة تحفة المريد ـ تأليف العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري (ت1277هـ) : ص209 .

(2) انظر : تلبيس إبليس : ص153 ـ 154 ، و شرح جوهرة التوحيد : ص209 ـ 210 ، والتصوف والصوفية ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ) : ص9 ، وموسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية : ص279 ـ 280 .

(3) انظر : كتاب التصوف في الإسلام ـ للدكتور عمر فروخ : ص59 وما بعدها .

المراد ، فتعرضوا بذلك لنقد العلماء . حتى أخرج بعضهم التفسير الصوفي من التفسير .
وبعضهم قال : إن قصدوا من مقالاتهم حول القرآن التفسير ، فقد سلكوا مسلك الباطنية .
وبعضهم قال : النصوص على ظاهرها ، والعدول عنها إلى معانٍ يدعيها أهل الباطن الحاد [1] .

آثارهم في التفسير :

لو بحثنا عن تفسيرات الصوفية لوجدناها إشارات لآيات متفرقة من سور القرآن .
ـ فتفسير التستري (٭) ـ مثلاً ـ لم يفسر فيه القرآن كله ، وإنما هو تفسير لآيات مقتطفة من سورها ومجموعة في جزء صغير ، يعطي فيه إشاراتٍ مقتضبة حول تلك الآيات دون الخوض في تفاصيلها.

من ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) ﴾ (سورة آل عمران) قال : " أي حررته وأعتقته من رق الدنيا من متابعة هواه ومرادات نفسه وجعلته خادماً لعباد بيت المقدس خالصاً لله تعالى "[2] .

ومن ذلك ـ أيضاً ـ تفسيره لقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ (من الآية 85 سورة غافر) ، قال : " السنة مشتقة من أسماء الله تعالى والسين سناؤه والنون نوره والهاء هدايته فقوله سنة الله أي فطرته ، جبل خواص عباده عليها هداية منه إياهم فهم على سنن الطريق الواضح إليه والله سبحانه وتعالى أعلم "[3] .

هـ) تفسيرات الفلاسفة :

نشأ التفسير الفلسفي منذ بدأت ترجمة الكتب الفلسفية الواردة من بلاد الهند واليونان وغيرهما . لقد اتسع الفتح الإسلامي ، وامتد حتى دخل بلاد الهند واجتاح فارس وبلاد اليونان وغيرها من البلدان ، ومعلوم أن الهند واليونان كانت مشتهرة قبل الإسلام بالدراسات الفلسفية ، فلما وصلها الإسلام وتم فتحها ، تم ترجمة هذه الكتب ونشرها بين المسلمين . ولما قرأ المسلمون هذه الكتب وقفوا إزاءها موقفين : منهم من رفضها وردها بحجة تعارضها مع

---

(1) انظر : الإتقان : ج2ص485 .
(٭) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التُّستَرِي الصالح المشهور ، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات ، وكان له اجتهاد وافر ، ورياضة عظيمة ، (ت283هـ) .
انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ لابن خلكان (ت681هـ) : ج2 ص429 ـ 430 .
(2) تفسير القرآن العظيم ـ للتستري : ص38 .
(3) المرجع السابق : ص128 ـ 129 .

الدين والعقيدة الصحيحة ، منهم الإمام الغزالي والفخر الرازي . ومنهم من رأى إمكانية التوفيق بينها وبين الدين . وهؤلاء الموفِّقون قد نالوا الرد من المعارضين لهم ؛ لعدم صلاح توفيقهم ، إذ كيف يمكن التوفيق بين متناقضين ؟ (1) .

آثارهم في التفسير :

إن تفسير الفلاسفة كان لبعض الآيات من القرآن ، لا للقرآن كله ، وهذه الآيات كانوا يرون فيها خدمة لنظرياتهم الفلسفية . فتفسيرهم – إذن – كان على حساب القرآن .

ومن هؤلاء الفلاسفة أبو نصر الفارابي ، محمد بن محمد بن طرخان التركي (ت339هـ) في كتابه (فصوص الحكم) ، وابن سينا ، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا (ت428هـ) في رسائله ، وإخوان الصفا (*) في رسائلهم (2) .

واضرب مثلاً من رسائل إخوان الصفا فبعد ذكر الآيات : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) ﴾ (سورة الجن) ، ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) ﴾ (سورة الجن) ، ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) ﴾ (سورة الجن) ، قال : " واعلم يا أخي أن تأويل هذه الآيات سرٌّ دقيق ، وعلمه بحر عميق ، والقول في ذلك بالتصريح صعبٌ جداً ، ولكننا نقول بحسب الأمانة لأن الأمانة هي أن أصحاب شريعة العقل ، لما رأوا بدو ناموس النفس ، وأن ذلك بموجب الحكمة كائن لابد منه ، انقادوا لأمره ، وخضعوا له ، فاستجابوا للأشخاص المؤيدة بالوحي ، وأن التماسهم السماء قبل ذلك هو تلقيهم الفوائد العقلية . فلما ظهرت الشرائع الناموسية النفسانية غلقت تلك الأبواب ، وتعذرت تلك الأسباب ، وصارت تلك الشهب المحرقة بالمرصاد ، وهم جنود الشريعة ، وحفاظ الناموس بالشهب المحرقة ، والصواعق الملهبة ، بالأوامر والنواهي ، كما قال الله سبحانه توكيداً لما قضاه ، وإحكاماً لما براه ،

---

(1) انظر : التفسير والمفسرون : ج2ص399 وما بعدها .

(*) هم جماعة مؤلفة من العديد من صفوة علماء العصر ، الذين درسوا نظريات السابقين من فلاسفة الإغريق والهند وفارس ، وأحاطوا بها . ولما صفت نفوسهم ، تآلفوا فيما بينهم ، وتآخوا على البر التقوى ، وقرروا رأيهم على أن يؤلفوا لهم هيئة علمية وأخلاقية تتعاون على نشر الثقافة العالية من إلهيات ورياضيات وطبيعيات وتصوفات بأسلوب أدبي سلس تفهمه العامة . ومن هنا أطلقوا على أنفسهم (إخوان الصفا وخلان الوفا) .

انظر : التنسك الإسلامي منشأه وتطوره ومذهبه ورجاله – تأليف د . محمد غلاب : ص147 .

(2) انظر : المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

مخاطباً للعالمين من الجن والإنس : ﴿ يَا مَعْشَرَ الإِنسِ وَالْجِنِّ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ، لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ (من الآية 33 سورة الرحمن) ، ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ (من الآية 35 سورة الرحمن) ، وهذا خطاب منه لمن ظن أنه يتخلص من أحكام الشرائع النبوية ، والأوامر ، والنواهي الشرعية ، أنه لا يقدر على ذلك ، ولا يستطيع النفوذ منه إلا بسلطان ، وإن لم يكن معه سلطان أرسل عليه شواظ من نار ونحاس . فلا سلطان إلا ما هو وعد به سبحانه من عود الحق إلى أهله ، والزمان إلى أوله ، إذا دار الفلك الدورة الثانية ، وآن وقت العرض الثاني ، وبرزت النفس الكلية لفصل القضاء بين النفوس الجزئية . فالبرهان قد بان أن الجن هم طائفة متعلقون بالآيات الفلسفية ، والعلوم العقلية " [1] .

و) التفسير الإلحادي :

لقد لعبت الأهواء دوراً ملحوظاً في عالم التفسير ، مما جعل بعض أهل الهوى والضلال والانحراف يتلاعبون بنصوص القرآن ، ويميلونها عن معناها الصحيح ، إلى معانٍ إلحادية كفرية .

ولعل الغاية التي يهدف إليها هؤلاء الملحدون هي الطعن في الدين ، أو لقصد الشهرة والصيت ، أو من أجل عَرَض زائل . لكن الله قيض لدينه من يفند تلك الشبه ، ويدحض تلك الدسائس على كتاب الله ، ويرد الكيد على أصحابه ، ويميز الخبيث من الطيب .

آثارهم في التفسير :

من آثارهم في التفسير :

ـ تفسير الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن ـ لأبي زيد الدمنهوري . وهذا التفسير قد أحدث ضجة كبرى في أوساط علماء الأزهر ، حيث أنكروا عليه منهجه المنحرف في التفسير ، وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب ، والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال .

وقد أورد الدكتور محمد حسين الذهبي ـ رحمه الله ـ أمثلة في كتابه تبين زيغ هذا المنحرف ، كإنكاره للمعجزات وبعض الأحكام الفقهية ، وحمله على المفسرين ، وغيرها من المباحث الإلحادية [2] .

---

(1) الرسالة الجامعة ، تاج رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ـ تأليف الإمام المستور أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق : ص196 ـ 197 .

(2) انظر التفسير والمفسرون : ج2ص509 وما بعدها .

ومن التفسير المنحرف تفسير الدكتور مصطفى محمود ، وهي تفسيرات عصرية مجانبة للصواب [1]. علماً بأن الدكتور مصطفى محمود قد تاب وأناب ورجع عن تلك التفسيرات وأصبح من كبار أهل العلم والدعوة .

ثالثاً : التفسير من حيث مناهجه العامة

=================================

يتنوع التفسير من حيث مناهجه العامة إلى أربعة أقسام :

الأول : التفسير التحليلي : وهو الذي يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف ، فيشرح جملة من الآيات ، أو سورة ، أو القرآن كله على هذا النمط الموضعي ، ويبين ما يتعلق بكل آية من : مناسبتها ، وسبب نزولها ، ونحو ذلك مما يتقرر به معناها . وقد يفسر القرآن مرتباً حسب ترتيب النزول .

الثاني : التفسير الإجمالي : وهو الذي يبين فيه المفسر خلاصة الآية أو الآيات التي يفسرها ، ويبرز مقاصدها ، ويشرح الدقيق من ألفاظها ، وسبب نزولها حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول في تفاصيل كثيرة .

الثالث : التفسير الموضوعي : وهو الذي يجمع فيه المفسر الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع واحد ، على مستوى القرآن كله ، أو مجموعة من سوره « كالحواميم مثلاً » ، أو سورة واحدة ، يؤلف منها موضوعاً واحداً ، مترابط العناصر .

الرابع : التفسير المقارن : وهو الذي يتتبع فيه المفسر آية من القرآن ، أو جملة من الآيات ، ليستطلع آراء المفسرين فيها ، ويقارن بين أقوالهم ، ويستخلص نتائج المقارنة سواء من معاني الآيات الكريمة ، أو من كلام المفسرين . وذلك كآيات الحج في سورته ، أوآية الصيام في سورة البقرة . إذا عرضت على أقوال المفسرين سلفاً وخلفاً ، وفي كتب المأثور ، أو الرأي المحمود [2] .

وبعد ، فهذا عرض موجز حول معنى التفسير ونشأته ومناهج المفسرين ، ولو أردنا الإلمام بهذه الموضوعات ، وإعطاءها حقها في الدراسة والبحث ، لاستغرق ذلك منا مجلدات ومجلدات . فما هذا الجهد إلا لإعطاء فكرة عامة حول التفسير والمفسرين .

---

(1) انظر كتاب أصول التفسير وقواعده ــ تأليف الشيخ خالد عبد الرحمن العك : ص255 ــ256 .

(2) المدخل إلى التفسير الموضوعي ــ للدكتور عبد الستار سعيد : ص16 ــ 17 بتصرف .

الفصل الأول

ترجمة الشيخ الشعراوي

ويتكون من النقاط التالية :

أولاً : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه .

ثانياً : عقيدة الشعراوي ومذهبه الفقهي .

ثالثاً : شيوخه وأقرانه وتلاميذه .

رابعاً : نشأته وحياته العلمية والدعوية .

خامساً : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه .

أولاً : اســم الشعــراوي ونسبــه وكنيتــه ولقبــه :

أ) اســم الشعــراوي ، ونسبــه ، وكنيتــه :

هو السيد الشريف محمد بن السيد متولي الشعراوي ، أبو سامي ، الحسيني نسباً . ووالـدة الشيخ (واسمها حبيبة) ينتهي نسبها من ناحية والدها إلى الإمام الحسين بن علي ــ كـرم الله وجهه ــ [1].

إذن فهو من سلالة أهل البيت ، وهو ينتسب إلى الطريقة البازية ــ كما سيأتي ــ ، وهـي طريقة خاصة بنسب الأشراف الذين هم من نسل الحسن والحسين [2].

والشعراوي نسبه إلى مضيق في السعودية اسمه مضيق الشعراوي ، كان أجداده قد قدموا منه فنُسِبوا إليه [3].

ومن أسماء الشعراوي (أمين) أسمته به جدته لأمه ــ وقد كانت حافظة لكتاب الله ــ[4] ثـم أقبلت زوجة عمّه ، وحملت الطفل الصغير ، وكان لديها ابن يسمى محمد ، وكانت تحبه حبـاً شديداً ، فذهبت إلى عامل الصحة في القرية ، وأعطته عشرة قروش ، وكانت وقتــها مبلغـاً كبيراً جداً ، وكتبت اسمه محمد ، ومن هنا عُرف الشيخ لفترة طويلة باســم أميــن [5]. وقـد سمعت بعضهم في قرية دقادوس يسمونه أمين .

ب) لــقـبـــه :

ذاع صيته ، واشتهر أمره بين الناس باسم بلدته التي نُسب إليها وهــو (الشــعراوي) ، فإذا أُطلق اسم (الشعراوي) فلا يكاد ينصرف عنه . لقد اعتاد الناس علــى تسـميته بــهذا اللقب ، ولو نظرتَ مثلاً إلى المؤلفات التي تناولت الشــعراوي بالدراسـة ، فســوف تجـد أصحابها يسمونه بهذا اللقب [6] ، ولو استمعتَ إلى كلام العامة عندما يأخذهم الحديــث إلــى الكلام عن الشيخ فستجدهم يطلقون عليه اسم « الشعراوي » . وهذا يدلل على أن هذا اللقب

---

(1) من القرية إلى العالمية ــ محمد محجوب حسن : ص7 ــ 8 ، والشعراوي أنا من سلالة أهل البيـت : سعيد أبو العينين : ص9 .

(2) انظر الشعراوي : أنا من سلالة أهل البيت : ص7 .

(3) انظر المرجع السابق : ص10 .

(4) انظر مذكرات إمام الدعاة : ص26 .

(5) الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص10 .

(6) انظر مثلاً كتاب (الإمام الشعراوي مفسراً وداعية) للدكتور أحمد عمر هاشم ، وكتاب (محمد متولي الشعراوي .. جولة في فكره الموسوعي الفسيح) للدكتور محمد رجب البيومي .

هو الدارج على ألسنة الناس .

وقد كان يُلقب أيضاً « أمين » ، وهذا اللقب دارج عند أهل قريته التي نشأ فيها — كما سبق بيانه — .

ثانياً : عقيدة الشعراوي ومذهبه الفقهي :

أ) عقيدته :

من خلال النظر في تفسير الإمام الشعراوي أو كتبه سواء التي تتحدث عن حياته ، أو المؤلفة في مجالات أخرى ، سنجد عقيدته بجلاء ووضوح .

بداية أذكر ما ذكره هو عن نفسه في هذا الجانب ، وسوف أسوق مقتطفات من الحوار الذي دار بينه وبين الأستاذ سعيد أبو العينين — وهو صحفي يعمل بدار أخبار اليوم — (1) .

يقول الأستاذ سعيد أبو العينين : " وتطرق الحديث إلى الطرق الصوفية وأقطابها في مصر ، الطريقة الأحمدية ، والطريقة البرهامية ، والطريقة الشاذلية ، والطريقة الرفاعية . وكان السؤال الذي طرحته على الشيخ : إلى أي من هذه الطرق ينتسب الشيخ الشعراوي ؟

قال الشيخ : طريقتنا هي «الطريقة البازية» أصحاب العمائم الخضراء .

قلت : لم أسمع — يا مولانا — عن هذه الطريقة من قبل ! فهل هي إحدى اشتقاقات الطرق الصوفية المعروفة ؟ الأحمدية أو البرهامية أو الشاذلية أو الرفاعية ؟

قال الشيخ : إنها ليست من اشتقاقات الطرق التي تتكلم عنها . إنها خاصة بالأشراف . فهي «نسب الأشراف» . قلت : زدني إيضاحاً يا فضيلة الشيخ ؟ قال الشيخ : إنها تضم الأشراف فقط . الأشراف الذين هم من نسل الحسن والحسين . أي من سلالة أهل البيت ..."

وقد سأله الأستاذ سعيد عن صورة شيخ يرتدي عمامة خضراء لينشرها مع حديث له كان قد أشار فيه إلى الطريقة البازية فقال : " إنه شيخنا .. شيخ الطريقة البازية ، الشيخ أحمد سعود الذي تتوارث أسرته المشيخة ، أما أسرتنا فتتوارث النقابة ، فنحن النقباء ، يعني نوابهم ".

وقال الأستاذ أيضاً : " وسألت أحد المقربين من الشيخ عن هذا الكلام الذي سمعته ؟ فقال : إنه يعرف ذلك ، لكن الشيخ لا يجاهر به عادة ، ولا يتكلم عنه ، وقد جاء كلامه لك في لحظة من لحظات التجلي .

---

(1) دار أخبار اليوم : هي دار للطباعة والنشر بالقاهرة — جمهورية مصر العربية ، قامت بطباعة تفسير الشعراوي ، كما قامت بطباعة ونشر العديد من مؤلفات الشيخ — رحمه الله — .

وأطلعني الرجل على سطور مكتوبة عن نسب الشيخ تقول : « إن الشيخ الشعراوي ولد من أسرة متوسطة الحال ، طيبة الأصول ، يمتد نسبها إلى أهل النبوة ، فالشيخ الشعراوي هو السيد الشريف محمد بن السيد متولي الشعراوي الحسيني نسباً ، ووالدة الشيخ « واسمها حبيبة » ينتهي نسبها من ناحية والدها إلى الإمام الحسين بن علي كرم الله وجهه » .
وأضاف الرجل : لا أحد ممن كتبوا عن الشيخ الشعراوي أشار إلى ذلك ! أي إلى أنه من سلالة الحسن والحسين ..... وقال عبد الرحيم الشعراوي (٭) : إن الطريقة البازية تنسب إلى مؤسسها الشيخ شمس الدين الباز ..... وقال : أجدادنا جاءوا من السعودية . وهناك في السعودية مضيق اسمه « مضيق الشعراوي » "(1).

إذن هذا كلام الشعراوي حول نسبه والطريقة التي ينتسب إليها ، ولعمري إنها إحدى الطرق الصوفية ، مثلها مثل أي طريقة من طرقهم . إذ إن هذا دأب المتصوفة ، كل صوفي له طريقة .

ولنا أن نقف وقفة قصيرة مع مدى انتساب الشعراوي إلى أهل البيت . وكان لي أمل في أن ألتقي بأحد أبناء الشيخ الشعراوي ، لكن رفضهم لاستقبالي بطريقة أو بأخرى – حال بيني وبين ذلك . والذي أريد أن أقوله : إن نسبة الشعراوي إلى أهل البيت مسألة تحتاج إلى تثبت ؛ لأن إثبات ذلك لا يكون إلا بوجود سلسلة النسب التي تربط بينه وبين الحسن من جهة ، وبينه وبين الحسين من جهة أخرى . هذا على الأقل . والأمر موقوف على ذلك .
والقاعدة تقول : إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعياً فالدليل .

والذي يهمنا – في هذا المقام – مدى تأثر الشعراوي بالصوفية . هل الشعراوي صوفي أم سلفي ؟

كي نجيب عن هذا السؤال لا بد أن ننظر إلى مفهوم الصوفية عند الشعراوي .

مفهوم الصوفية عند الشعراوي :

يقول الإمام الشعراوي : " نقول فلان هذا « الصوفي » أي « الذي صوفي » ... والصوفي هو الذي صوفي من الله " . على أن (أل) في كلمة الصوفي ليست للتعريف ، وإنما هي بمعنى الذي . واستدل بقول الشاعر :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

(٭) الشيخ عبد الرحيم هو نجل الشيخ محمد متولي الشعراوي .

(1) الشعراوي .. أنا من سلالة أهل البيت : ص6 – 10 بتصرف . ولم أقف على مكان مضيق الشعراوي الذي ينتسب إليه الشيخ .

أي : الذي ترضى حكومته .

قال : " والصفاء هو كونك تصافي الله ، وكل إنسان وصل إلى الله بطريق من الطرق أو صيغة من الصيغ يعتقد أن الطريق الذي سلكه إلى الله هو أقصر الطرق ". وعن معنى طرق الصوفية يقول : " إن أناساً وصلوا إلى الصفاء من الله سبحانه وتعالى ، وجاءتهم الإشراقات والعلامات التي تدل على ذلك في ذواتهم فعلموا أولاً : أن الطريق الذي سلكوا فيه إلى الله صحيح ، وهذه شهادة لنفس المنهج الإيماني بأنه منهج صحيح ، فبعد أن تطوع الصوفي بالعبادة فوق ما افترضه الله عليه ، ووجد لها ثمرة في ذاته كأن يرى ما لا يراه غيره فهذا معناه أن الحق سبحانه وتعالى يقول له : إن الطريق الذي سلكته طريق صحيح ، وكلما زاد في العبادة زاد في العطاء ... والتصوف رياضة ، ومعنى أنه رياضة أنه يُلزم الإنسان نفسه بمنهج تعبدي لله فوق ما فرضه عليه ، ولكن من جنس ما فرضه "[1].

إذن ، هذا هو مفهوم الشعراوي عن الصوفي ، والطرق الصوفية ، والهدف الذي يسعى الصوفي من أجله ، وصفات الطريق التي يتبعها ليصل إلى مرضاة الله . وكلامه فيه اتسام بالغموض ، إذ إنه يدل على أكثر من فهم ، فمثلاً قوله : « يرى مالا يراه غيره » ، يدل على رؤية الله في الدنيا ، وهذا ما قال به الضالون من الصوفية ، فإن قصد منه هذا الفهم فهو مردود عليه ؛ لأن الله لا يُرى في الدنيا . وإن قصد منه جريان الكرامات على يد هذا الصوفي الذي تطوع بالعبادة فوق ما فرضه الله عليه من جنس ما فرضه عليه فلا بأس ، بشرط ألاَّ يجعل الأمر قاصراً على الصوفي ؛ لأن الكرامات تجري أيضاً على يد المقربين والشهداء والصالحين والزهاد والعبَّاد . لكن ربما يقصد به الكرامات ؛ لأن طريق التعبد كما يُفهَم من كلامه طريق صحيح ، إذ هو من جنس ما فرضه الله ، وأهل الضلال من الصوفية يسلكون طريقاً مبتَدعاً لا أصل له في الشريعة الإسلامية . وليت الشعراوي تجنب مثل هذه العبارات .

وعلى أيَّة حال فإن المطلع على كتابات الإمام الشعراوي يجد أنه سلفي [2] فيه شئ من التصوف ، وتصوفه ليس مذموماً بالكلية ، وإنما هو تصوف بمعنى الزهد والتقشف . لكن لا يخلو من شوائب المتصوفة ، فهو يجيز التوسل بالنبي ﷺ حياً أو ميتاً ، وبمن يمت إلى النبي ﷺ بصلة ــ على ما سيأتي الكلام عنه أثناء البحث بإذن الله ــ [3].

---

(1) انظر : عالم عصره في عيون معاصريه ــ محمد يس جزر : ص80 ــ 84 .

(2) مما يثبت سلفيته أنه سلك منهج السلف في اعتقاداتهم كالأسماء الحسنى والصفات ونحوها . انظر مثلاً : ج5ص2846 ، ج12ص7126 .

(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج1ص309 ، وج5ص3107 ــ 3108 .

هذا وقد ورد في كتبه ومصنفاته بعض الألفاظ التي يستعملها المتصوفة مثل : السود الإلهي ، والتجلي ، وغيرها من الألفاظ ، لكن بالنظر إلى المقام الذي وردت فيه نجد أنه لا يحتمل كونها ألفاظ متصوفة ، وإنما هي ألفاظ جاءت عابرة في سياق الكلام ، ومثلها لا يقدح في عقيدة الرجل .

ثم إن كلام أهل بلدته يدلنا على أنه كان زاهداً في حياته ، حتى لقد قال لي الشيخ عبد العظيم عبد الباري(*) : « إن الذي في يده ليس له ، الذي معه ليس ملكه » ، وأعماله الخيرية كذلك .. وغيرها ، كل ذلك يدلنا على مدى زهده في هذه الحياة الفانية ، وعدم ركونه إليها .

وجملة القول في عقيدة الشعراوي أنه سلفي تأثر بالصوفية . والله أعلم بالسرائر .

ب) مذهبه الفقهي :

من خلال اطلاعي على مصنفات الإمام الشعراوي ، وجدت أنه متأثر بالمذهب الحنفي . لكن هل مذهبه حنفي ؟ هذا الذي لم أقف عليه . صحيحٌ أنه ينقل أقوال الأئمة الأربعة ــ أحيانا ــ لكن دون ترجيح ، ودون تعصب لأحد . أما عن الأدلة التي تبين تأثره بالمذهب الحنفي فهي :

أولاً : اجتهاده في النصوص ــ أحياناً ــ واستنباط الأحكام منها . وأبو حنيفة ــ رحمه الله ــ كان يجنح إلى العقل أكثر ؛ والسبب في ذلك كثرة الوضع على رسول الله ﷺ ؛ مما جعله لا يثق بكثير من الأحاديث ، خصوصاً وأن التدوين لم يكن قد بدأ ؛ كي ينتقي الصحيح منها . إذ هو من التابعين . فدعاه ذلك إلى الاجتهاد والجنوح إلى العقل . والإمام الشعراوي أخذ من طريقته في استنباط بعض الأحكام ، خاصة في الأمور المستجدة فله فيها رأي .

ثانياً : استدلاله بمذهب أبي حنيفة أكثر قليلاً من المذاهب الأخرى [1] .

ثالثا : حصوله على منحة تفوق دراسية مخصصة لفقهاء المذهب الحنفي ، وذلك أثناء الدراسة [2] .

فهذه الأسباب جعلته يتأثر بالمذهب الحنفي ، ولكنه غير متحيز لمذهب بعينه . وسيأتي مزيد في الفصل الخامس .

(*) هو أحد زملاء الشيخ الشعراوي الذين حفظوا القرآن معه في الكتاب . ولد في قرية دقادوس سنة 1911م .

(1) انظر مثلا كتابه : زكاة الورعين : ص14 ، ص52 ، وتفسيره : ج6 ص2400 ، ج4 ص2096 .

(2) من القرية إلى العالمية ــ محمد محجوب حسن : ص18 .

ثالثاً : شيــوخــه وأقرانه وتلاميـــذه :

أ) شيــوخـــه :

لقد مر الشعراوي في تعليمه بمراحل متعددة ، اعتمد فيها علـــى التلقـي مــن شـيوخه وأساتذته ، مبتدئاً بمرحلة الكتّاب ، منتهياً بالحصول على درجة العالمية في قسم اللغة العربية بالأزهر الشريف . وكان لكل مرحلة من هذه المراحل أساتذة مخصصين أخذ عنـــهم العلـم بأنواعه ، من الصعب حصرهم . وأرى أن أذكر فيما يلي ما وقفت عليهم من خلال اطلاعـي في طيات الكتب .

في مرحلة الكتّاب حفظ القرآن على يد الشيخ عبد الرحمن الشهابي .

وقد أخبرني الشيخ عبد العظيم عبد الباري مش أنهم كانوا يحفظون القرآن على يد الشيخ عبـد المجيد باشة .

ثم أنشئت المدرسة الأولية في القرية ، ولحق الشيخ بها ، ودرس فيها على يد الشـيخ أحمـد الطويل ، والشيخ محمد أبو عمارة ، والشيخ حسن زغلول .

وأخذ الشعر والأدب عن الشيخ أبي عبد الرحمن البياضي .

وبجانب الدراسة في المدرسة الأولية كان يتلقى القرآن عن الشيخ عبد اللطيف جودة ، والفقـه عن شقيقه الشيخ كفافي جودة (1) .

ومن شيوخه في مرحلة الثانوية الأزهرية الشيخ محمد علي الشرقباني ، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

ومن شيوخه في التعليم العالي الشيخ أحمد يوسف نجاتي ، والشيخ أحمد عمـــارة ، والشـيخ سليمان عمارة (2) .

ب) أقــرانـــه :

لم يكن الشعراوي أوحد دهره في العلم ، فقد ازدهر هذا القرن بعلماء مسلمين كُـثر فـي شتى أنحاء المعمورة . وهؤلاء العلماء لا يقلُّون علماً وثقافة من الإمام الشـــعراوي ، ومـن هؤلاء الأستاذ حسن البنا والشهيد سيد قطب وعبد الحميد كشك والإمام الشنقيطي ــ رحمـــهم الله ــ ، والشيخ يوسف القرضاوي وعبد الكريم الخطيب . أضف إلى ذلك أقرانه من الأساتذة في شتى الجامعات بما فيها الأزهر الشريف بمصر ، أمثال الدكتور أحمـــد عمــر هاشــم ،

(1) انظر الإمام الشعراوي وحديث الذكريات ص16 ــ 17 ، ومذكرات إمام الدعاة ص25 ، ص43 .
(2) انظر من القرية إلى العالمية : ص17 ــ 18 .

والدكتور محمد رجب البيومي من جامعة الأزهر . والدكتور فضل حسن عباس ، وإبراهيم زيد الكيلاني من الجامعة الأردنية ، إلى غير ذلك من العلماء . كل هؤلاء وغيرهم كثير يعتبرون أقران للشيخ الشعراوي .

ج) تلاميذه :

إن الشعراوي تتلمذ على يده العدد الكثير من المسلمين ؛ ذلك أنه عمل مدرساً في أكثر من بلد ، وفي أكثر من دولة ؛ فتتلمذ على يديه فئات من أهل العلم في طنطا ، حيث عمل مدرساً في معهدها الديني . وكذا في الاسكندرية والزقازيق ثم في السعودية في معهد الأنجال ، ثم في كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز ، وهكذا كلما درَّس في بلد أصبح له فئات من التلاميذ يصعب حصرهم .

إضافة إلى ذلك استمراره على إلقاء الدروس في التفسير في بعض المساجد (1) ، وقد اعتاد كثير من الناس المداومة على حضور درسه ، فيمكن أيضاً أن نعتبر هؤلاء تلاميذ له بل تعدى الأمر هؤلاء التلاميذ إلى المريدين ، فهم كثير في شتى أنحاء العالم ، وأغلبهم لم يحصل بينهم وبين الشعراوي لقاء ، وإنما عرفوه عن طريق بعض الوسائل الإعلامية ؛ كالشريط والمذياع والفيديو والتليفزيون والمجلات ونحو ذلك .

رابعاً : نشأته وحياته العلمية والدعوية :

نشأ الشعراوي في ظل ظروف بيئية ، وأوساط سياسية ، وأحوال اجتماعية ، وعوامل نفسية مضطربة ، مما أثر على فكره واتجاهه الدعوي . والتفصيل كما يلي :

أ) البشارة والمولد :

ولد الشعراوي في قرية دقادوس بمركز ميت غمر ، محافظة الدقهلية بمصر . وكان لمولده قصة .

كان للشيخ متولي خال اسمه صابر قد وهب نفسه لله ، وزهد في الحياة الدنيا ، ولزم المساجد والعبادة ، وفي الليلة التي وُلِد فيها الإمام الشعراوي كان الشيخ متولي قد تأخر قليلاً عن صلاة الفجر ، فنظر الشيخ صابر خلفه في المسجد ، وتفحص الحاضرين ، وقلَّب بصره فيهم

---

(1) مثال ذلك مسجد الشيخ سليمان بالهرم – شارع فيصل – القاهرة ، وهو على مقربة من مسكن الشعراوي .

فلم يبصر ابن أخته متولي . ولم يمض وقت طويل حتى دخل متولي المسجد في عَجَل ، والمؤذن يقيم الصلاة ، فلما فرغ الناس من صلاتهم ، وانصرفوا إلى مشاغلهم ، أقبل إلى ابن أخته متسائلاً : ما الذي أخَّرك يا متولي عن صلاة الفجر ؟ فأجاب قائلاً : إن زوجتي تلد في البيت يا خالي . تبسم الشيخ صابر وقال : لقد رأيت لك الليلة الماضية رؤيا طيبة . قال الحاج متولي بلهفة وشغف : ما هي يا خالي ؟ قال الشيخ صابر : رأيت في المنام كتكوتاً صغيراً يقف فوق المنبر خطيباً ، فسألت : من هذا ؟ قالوا لي : هذا ابن متولي الشعراوي .

فعرفت أن زوجتك ستضع ولداً ، وسوف يكون من العلماء .

لقد سعِد متولي بما رآه خاله ، وهرول مسرعاً إلى البيت ، وعندما دخل البيت طارت إليه البشارة بالمولود السعيد ، صاح الحاج متولي : لقد تحققت الرؤيا .. لقد تحققت الرؤيا .

وكان ذلك في الخامس عشر من أبريل لسنة *1911*م [(1)].

وفعلاً كان الشعراوي فارساً للمنبر ، ورئيساً في الوعظ والإرشاد ، ومفسراً لكتاب الله تعالى .

ب) الكُتَّاب :

ربما كان لتلك الرؤيا – رؤيا الكتكوت على المنبر يصيح – بالغ الأثر في نفس الشيخ متولي ، فكانت دافعاً قوياً وحافزاً مؤثراً في صدره ليدفع بولده محمد إلى تحصيل العلم والمعرفة . ومن هنا بدأ ينشئه التنشئة الدينية الصحيحة منذ صغره ، ويعده إعداداً يؤهله لأن يكون عالِماً . وكانت عادة الناس آنذاك أن يرسلوا أولادهم إلى الكتاب ؛ ليتعلموا القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وتجويده . ولما بلغ محمد متولي الشعراوي الخامسة من عمره أخذه والده إلى كتاب الشيخ عبد الرحمن الشهابي ، وأسلمه له وقال : هذا ابني ، اكسر له ضلعاً وأنا أعالجه . ومن هنا كان الشيخ عبد الرحمن شديداً على الإمام الشعراوي دون غيره ، ولا شك أن هذا انعكس إيجاباً على الشيخ الشعراوي ، وكان له أثره الملموس في حياته العلمية والدعوية .

وكان الشعراوي قد حفظ القرآن في العاشرة من عمره ، وجوده في الرابعة عشرة [(2)].

ج) المدرسة الأولية :

أنشئت في القرية مدرسة أولية ، وهي تختلف عن الكُتَّاب ، حيث هناك ناظر المدرسة ، والمدرسين كلٌّ له فصل ونظام مدرسي ، فأرسل الشيخ متولي ابنه محمد إلى هذه المدرسة

---

(1) انظر : الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص9 – 10 .

(2) انظر : المرجع السابق : ص11 – 12 ، والشعراوي الذي لا نعرفه – سعيد أبو العينين : ص13 .

بعد أن وجد فيها ما يخدم غرضه ، وأصبح الشعراوي موزعاً بين الكتاب والمدرسة ، الأمـر الذي سبب له إرهاقاً لا يرجع عليه بفائدة ، مما جعل والـده يستبـدل الكتـاب بالشيـخ عبد اللطيف جودة ، الذي كان يحفظه القرآن ، وشقيقه الشيخ كفافي جودة الذي كان يعلمه الفقه . ومن مدرسيه في المدرسة الأولية الشيخ أحمد الطويل ، والشيخ محمد أبو عمارة ، والشـيـخ حسن زغلول .

وهكذا أخذ الفتى ينتهل من المدرسة تارة ، ومن شيخيه عبد اللطيف وكفافي تارة أخرى (1).

د) التحاقــه بالأزهــر :

كان الشيخ الشعراوي رافضاً الالتحاق بالأزهر ، وكانت رغبته لا تعدو أن يكون فلاحـاً يعمل في حقل والده ، لكن والده أصر على تعليمه ، فجهزه ليلحقه بمعهد الأزهر الديني فـي الزقازيق . وفعلاً ألحقه به ، فدخل الابتدائي الأزهري مكرهاً .

لقد استخدم الشعراوي كل سبل الخلاص ، وكل طرق المكر من أجل الهروب فلـم يفلـح ، وضع الشطة في عينيه كي تتورم لينجو من الفحص الطبي ولا يُقبل فلم يفلـح . وحـاول أن يتظاهر بعدم الحفظ للقرآن أمام لجنة الامتحان كي يرسب ، فلم يفلح كذلك . ودخل الأزهـر رغماً عن أنفه . ولما كانت السنة الدراسية الثالثة فكر في حيلة أخـرى للـهروب ، فمـاذا حدث ؟ . لقد أرسل إلى والده ليحضر إليه في الزقازيق ليشتري له كتب السنة الثالثة ، وقبـل أن يحضر أبوه ذهب إلى محمد زكي ــ صاحب مكتبة كان يتعـامل معـها كـل تلاميـذ الأزهر ــ ووقع بصره على كتب كبيرة ، فسأله : ما هذه الكتب ؟ قال : هذه مراجع كبـيرة للعلماء . فقال له : إن والدي على وشك المجئ من البلد ، وسنأتي إليك ، وعندما يقول لـك : احضر كتب سنة ثالثة قدم له هذه الكتب . وقد كان ذلك ، مما أدهش والده ، وجعله يسـأل : هل هذه الكتب مقررة عليكم في السنة الثالثة ؟ فقال : نعم .

لقد افتعل الفتى كل ما لديه من حيل الصبيان كي يهرب من الأزهر ، وكان يحالفه الفشل فـي كل ذلك ، ويأتيه أبوه من حيث لا يشتهي . ولما كان اليوم التالي رجع أبوه إلى البلد ، ومـن وقتها أصبح الفتى طالب علم فعلاً (2).

وقد حصل على الابتدائية الأزهرية سنة 1930م (3) ، وقيل سنة 1932م (4) .

---

(1) انظر : الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص16 ــ 17 .

(2) انظر : المرجع السابق ص12 ــ 13 ، ومذكرات إمام الدعاة : ص44 ــ 47 ، ومن القرية إلـى العالمية : ص13 ــ 15 ، والشعراوي الذي لا نعرفه : ص17 ــ 19 .

(3) الشعراوي الذي لا نعرفه : ص27 .

(4) الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص7 .

بعد أن أنهى الشعراوي مرحلة الابتدائية التحق بالثانوية الأزهرية ، في الزقـــازيق أيضــاً ، وأنهى الدراسة فيها عام 1936م .

ثم التحق بعد ذلك بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، وتخرج منها عام 1941م ، وحصـــل على إجازة العالمية ، من بعدها نال درجة التخصص من الكلية نفسها عـــام 1943م ، وقـــد حصل على منحة تفوق دراسية مخصصة لفقهاء المذهب الحنفي [1] .

هــ) الظروف البيئيــة وأثرهــا على الإمام الشعراوي :

لقد نشأ الإمام في وسط بيئي محفوف بالتدين ، بعيد عن الانحراف . كان لوالده مســـاحة من الأرض الزراعية يحصل منها على معاشه وقوته ، فشب الطفل موزعـــاً بيـــن دراســـته ومزرعة أبيه حيث الطبيعة الهادئة ، والمناظر الموحية ، يقضي بينها وقت فراغه .

وقد حدثني الشيخ عبد العظيم عبد الباري أنه كان يخرج مع الشعراوي إلى الحقـــل ، وكانـــا يقضيان وقتهما في تسميع القرآن ، ومراجعة حفظه . قال : وكـــانت هوايـــة الشـــيخ عمـــل التماثيل من الطين ، وتشكيلها جملاً أو حماراً أو كلباً أو غيرها . وكان يقـــوم بدهـــان هـــذه التماثيل بسائل لزج يستخرجه من الجميز يشبه اللبن ، فكان إذا جف هذا السائل على التمثـــال بدا له لمعة جميلة ، وبريق ساطع .

كانت هذه هوايته ــ رحمه الله ــ في صغره ، وكان محباً للزراعة أيّما حُب . وهذا ما جعلـه يفضل الحقل على التعليم ، وجعله يفكر في الهروب من الدراسة الأزهرية أكثر من مرة .

فلا أظن أن أحداً تحيطه بيئة كهذه يمكن أن ينحرف ، أو يقلع عن دينه .

ثم إن الشعراوي تزوج مبكراً ، وهذا تغليق لأكبر باب يمكن أن ينحرف بسببه الشباب ، فقـــد تزوج الشعراوي بعد الابتدائية . يقول الإمام الشـــعراوي : " ... بعـــد أن حصلـــت علـــى الابتدائية الأزهرية ، حدث أن جاء والدي لزيارتنا يوماً في الغرفة بالزقازيق ، فوجـــد ابنـــة صاحب البيت الذي نسكنه تجلس معنا ، وكانت تلميذة صغيرة صعب عليـــها حـــل مســـألة رياضية ، فلجأت إلينا ، وأفهمناها الحل ، وكانت على وشك الانصراف ، لكن والدي دخـــل علينا ولا أعرف ماذا دار في ذهنه ؛ لأنه بعد أن عُدت إلى قريتي فوجئت به يصـــر علـــى زواجي "[2] . وقد نزل الشعراوي عند رغبة أبيه ، فتزوج وأنجب من الولد خمسة ؛ ثلاثـــة ذكور (سامي ، وعبد الرحيم ، وأحمد) ، ومن الإناث اثنتين (فاطمة ، وصالحة) .

فالزواج ــ خصوصاً في مثل هذه السن المبكرة ــ كان خير واقٍ من الانحراف أو الانجراف

---

(1) انظر من القرية إلى العالمية : ص17 ــ 18 .

(2) مذكرات إمام الدعاة : ص92 .

وراء الرذيلة . ثم كفالة الشيخ متولي بأعباء التعليم ، وقيامه بـالضغط علـى ولـده محمـد لمواصلة مشوار التعليم كان له أثره الواضح والملموس في تحصيل أكبر كـم ممكـن مـن المعلومات ، واتساع الدائرة الثقافية لدى الشيخ الإمام ، حتى وصل الحـال بوالـده إلـى أن يقترض النقود في بعض الأحيان لئلا يوقف مسيرة تعليم ولده ، خصوصاً أنه وجد أن جـهده مثمر .

ومن ناحية أخرى فإن الشعراوي نشأ في ظل ظروف سياسية قاسية ، حيث الاسـتعمار الإنجليزي لمصر ، والمواجهات القائمة بينه وبين الشعب ، والقتل والتشريد والقلـق وعـدم الاستقرار النفسي الذي ينتاب الجميع . هذا الأمر ينشئ لدى عامة الشعب ــ سواء الشـعراوي أو غيره ــ الروح الدينية والوطنية ، ويصقل في القلوب الحماس ، ويلقي في النفـوس حـب التضحية بالأموال والدماء والأرواح من أجل تحرير الوطن . نعم ، هذا هو شعور كل فـرد احتل وطنه . ومن هنا نشأ في صدر الشـعراوي ــ منـذ صغـره ــ الحميـة والحمـاس والوطنية ، فجاهد بقلمه وعبر بلسانه عن مشاعره ومشاعر شعبه ، ودوّى صوته بين زملائـه بإشهار كلمة الحق ، وإسماعها لكل أذن . لقد كان زعيماً لاتحاد الطلبة في المعهد الأزهـري بالزقازيق ، ودوّت بياناته الموهوبة بين الأساتذة والطلاب ، حتى أصبح مرصـد العيـون ، ومحط الأنظار ، واعتُقل إثر ذلك ، وسُجن ثلاثين يوماً . كل هذا كان العـامل فيـه الوسـط السياسي الذي نشأ فيه الشيخ ــ رحمه الله ــ [1] .

و) العمـل والكسـب :

عرفنا أن الشعراوي أنهى الدراسة الجامعية من كلية اللغة العربية ، وحصل على العالمية مع إجازة التدريس عام 1943م ، فعمل في البداية مدرسًا في معهد طنطا الديني ، ثم معـهدي الاسكندرية والزقازيق ما يقرب من ثمان سنوات [2] . ولما تقلد الشيخ حمروش مـهام شـيخ الأزهر ، وزاره الإمام الشعراوي ليهنئه متمنياً له التوفيق والسداد ، عرض الشـيخ إبراهيـم حمروش على الشعراوي أن يعمل مدرساً في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وكان ذلك عـام 1950م . ذلك أن السعودية كانت قد أنشأت كلية الشريعة ، وأرسلت إلـى الأزهـر تطلـب ترشيح عشرة للعمل بالتدريس بالكلية ، واختار الأزهر العشرة ومن بينهم الشيخ الشعراوي ،

---

(1) للاستزادة من الأحداث السياسية التي مر بها الشيخ انظر : الشعراوي الـذي لا نعرفـه : ص27 ومـا بعدها ، ومذكرات إمام الدعاة ص30 ــ 33 ، ص85 وما بعدها ، الشيخ الشـعراوي وحديـث الذكريـات ص23 ــ 24 ، ص26 ــ 28 .

(2) انظر : الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص7 .

ومكث عاملاً في التدريس حتى عام 1963م [1] .

وفي عام 1964م تولى مشيخة الأزهر الشيخ حسن مأمون ، فاختار الشعراوي لجواره مديـراً لمكتبه . ثم قضى بعد ذلك ست سنوات في الجزائر ، وعاد مرة أخرى إلى مصـر مديـراً لأوقاف الغربية ، ثم بعدها وكيلاً للدعوة والفكر فترة من الوقت .

يقول ــ رحمه الله ــ : " وحينما ساءت علاقة مصر مع المملكة العربية السعودية في عـهد عبد الناصر ، انقطعت صلتي العلمية بالمملكة ، وشاء الله أن تستقل الجزائر في تلك الفـترة ، فذهبت إليها على رأس بعثة الأزهر ، ومكثت هناك ست سنوات ، حتى عادت الميـاه إلـى مجاريها بين مصر والمملكة ، فعدت إلى السعودية أستاذاً في جامعة الملك عبد العزيز بمكـة وجدة ، ووجدت حينذاك نهضة كاملة مستوعبة بإمكانيات ميسرة . وظللت هناك إلى أن عدت إلى مصر لعمل رسمي "[2].

وهذا العمل الرسمي الذي عاد الشعراوي من أجله إلى مصر هـو تولـي وزارة الأوقـاف وشئون الأزهر ، وكان ذلك عام 1976م .

ز) تقلده وزارة الأوقاف والشئون الدينية :

ويروي الشيخ كيف تلقى نبأ الوزارة ؟ . يقول : " كنت وقتها أعمل أستاذاً بكلية الشريعة فـي مكة المكرمة ، فاتصل بي السفير المصري في السعودية تليفونياً يخبرني بأني مطلوب فـي مصر . وسألته : من الذي يطلبني ؟ قال : الرئاسة ! تعال إلى مكتبي وسوف يحدثونك فـي التليفون . ورحت إلى السفارة في جدة ، وقابلت السفير المصري وكان اسمه أحمـد ثـابت ، وجلست في مكتبه في انتظار المكالمة التليفونية من القاهرة . وجـاءت المكالمـة ، وكـان المتحدث هو ممدوح سالم الذي كان يقوم بتشكيل الوزارة الجديدة . قال لي ممـدوح سـالم : إنهم اختاروني لوزارة الأوقاف . فحاولت أن أتعذر عن عدم قبولي للـوزارة شـاكراً لـهم تفضلهم باختياري ، وتكلمنا طويلاً ، وشرحت له ظروفي ، وقلت له : إننـي غريـب عـن مصر منذ 26 عاماً ، وليس لي جَلَد على مثل هذا العمل .

فرد بعبارات طيبة مشجعاً لي على قبول تولي الوزارة للنهوض بها وبرسالتها السامية .

فقلت له موضحاً الأسباب التي تجعلني لا أقبل عملاً في ظل ظروف وأوضـاع تحـول دون تحقيق ما هو مطلوب لإنجاز تلك المهمة السامية التي يتكلم عنها ... فقال : تعـال واكتـب المذكرة التي تريدها في هذا الخصوص لتصحيح الوضع كما تراه ، وأعاهدك بأنني سـوف

---

(1) انظر : الشعراوي الذي لا نعرفه : ص87 ، ومن القرية إلى العالمية : ص20 .

(2) انظر : من القرية إلى العالمية : ص21 .

أدافع عن وجهة نظرك وأقف جانبك "[1] .

إذن الشعراوي كان في بداية الأمر متردداً في قبول منصب الوزارة وعدم القبول . والأسباب التي كان رافضاً الوزارة من أجلها كتب فيها مذكرة ، وقدمها للشيخ ممدوح سالم ـــ رئيس الوزراء ـــ ، ورفعها إلى الرئيس السادات . وكانت تتضمن هذه المذكرة المطالبة بأن يكون شيخ الأزهر نائباً لرئيس الجمهورية ، وألا يُحال إلى المعاش مهما تقدمت به السن ، وأن لا يقيله أحد من منصبه .

فجعلوا ـــ فيما بعد ـــ شيخ الأزهر بدرجة رئيس الوزراء ، وأخذوا بعدم إحالته إلى المعاش مهما تقدمت به السن ، وسكتوا وأغمضوا عيونهم عن الإقالة . وقد علل مطالبته بهذه الأمور بأن شيخ الأزهر يصبح بدرجة رئيس الوزراء ، وعندما يصبح كذلك لا بد أن تنتقل إليه التبعية من وزير الأوقاف وشئون الأزهر إلى رئيس الوزراء ، ويصبح رئيس الوزراء هو الذي يقوم بإقرار ما يريده شيخ الأزهر وليس الوزير [2].

لقد أراد الشعراوي أن يرفع من شأن الأزهر ، وأن يجعل له وزنه وكيانه داخل الحكومة ، وأن يكون لشيخ الأزهر الشريف سلطة إصدار القرار ، في حين كان لأي وزير سلطة أعلى من سلطة شيخ الأزهر .

ولا بد أن نعلم هنا أن الوزارة لم تأت للشعراوي بناءً على طلبه ، وإنما جاءته من حيث لا يدري ؛ لأن بعض المغرضين قد اتهم الشيخ بأنه صاحب مناصب ، وأنه يسعى إلى الكراسي . نقول : لا ، لو أن الشعراوي كان طامعاً في منصب الوزارة لما تلكأ في قبولها حينما عُرِضت عليه ، ولما قدم استقالته منها بعد مرور أقل من سنتين .

وقد قال ـــ رحمه الله ـــ : " سألت نفسي : ما الذي جعلهم يفكرون فيَّ ؟ ما الذي جعلهم يطلبون الإنسان البعيد عنهم ، ولا صلة له بواحد منهم ، لا يعد لشئ ، ولا يستشرف لشئ ، وأحيل إلى التقاعد ، حتى هنا في مصر ، إذا كانوا اختاروني فهذا دليل على أنهم يختارون الناس ، إذن لا بد أنهم يريدون القيام بعمل طيب ، فعرضت هذه المسائل على نفسي ، فوجدت أني إن لم أقبل قد يقال : إننا نطلب الناس الذين نتوسم فيهم الخير ولكنهم يرفضون الحضور من أجل المال ، فقد كنت أتقاضى هناك (2000) ألفي جنيه شهرياً ، بينما مرتب الوزير 250 جنيهاً ، ولكنني قررت التضحية " [3] .

---

(1) الشعراوي الذي لا نعرفه : ص145 ـــ 146 بتصرف .

(2) المرجع نفسه : ص151 .

(3) من القرية إلى العالمية : ص24 .

فلو كان الشعراوي من هواة المال ، وعشاق المناصب فلا يمكن أن يترك وظيفة بألفي جنيه شهرياً ويستمسك بوظيفة ذات مرتب ضئيل . علماً بأن الشعراوي أنفق كل ما لديه من فلوس ، ولم يبق من رصيده إلا 325 جنيه .

ح) استقالته من منصب الوزارة :

يقول ــ رحمه الله ــ : " أنفقت كل ما جمعته من خلال عملي في السعودية على الوزارة وأذكر أنني أخذت كشف حسابي من البنك ، والذي يوضح أن رصيدي أصبح 325 جنيهاً ، وقدمته لممدوح سالم ، وقلت له : إنني أصرف من لحم الحي ، وعندي التزامات ، ولم يعد عندي مال ، فأعتقوني لوجه الله ، أعتقوني يرحمكم الله .

وفي 15 أكتوبر عام 1978م خرج الشيخ الشعراوي من الوزارة حامداً شاكراً لله "(1) .

وحدث بعد ذلك أن عُرض عليه مشيخة الأزهر فرفض ، وعُرض عليه أن يعمل بمجلس الشورى فرفض كذلك . واعتزل المناصب ، وتفرغ للدعوة (2) . ربما كانت هذه العروض لأغراض سياسية ، خصوصاً وأن الشعراوي كان له مريدون كثر . فأرادوا أن يحوز أي منصب لتحقيق أهداف سياسية . لكن الشعراوي ترفَّع عن هذه المناصب . وقد قال ــ رحمه الله ــ عن الفترة التي قضاها في الوزارة : " إنها أسوأ ما في حياتي !"(3) .

ط) الشعراوي والإعلام :

لقد ذاع صيته ، واشتهر أمره ، وعرفه الناس عن طريق الإعلام بوسائله . ويذكر أنه عمل مدرسا في معهد طنطا الثانوي ، وذات يوم قال له شيخ المعهد : هل تريد أن تتكلم في الإذاعة ؟! وكان شيخ المعهد يلقي في الإذاعة حديثين ، فعرض على الشعراوي أن يكتب حديثين ، له حديث ، ولشيخ المعهد حديث . فكان شيخ المعهد يلقي حديثه مقابل عشرة جنيهات وكان الشعراوي يذهب إلى القاهرة ليلقي حديثه في الإذاعة مقابل 170 قرشا . ظل الأمر كذلك ما يقرب من أربعة أسابيع .

ثم ظهر ولأول مرة أمام شاشة التلفاز في برنامج « نور على نور » الذي أعده الإذاعي المعروف (أحمد فراج) ، فكان أول من قدم الشيخ لجمهور التليفزيون (4) .

---

(1) الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص32 .

(2) انظر : محمد متولي الشعراوي ، جولة حول فكره الموسوعي الفسيح ــ د . محمد رجب البيومي : ص27 .

(3) الشعراوي الذي لا نعرفه : ص143 .

(4) انظر : الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص28 ــ 29 .

ثم بدأت الجماهير تنتظر حديث فضيلته ، وتستمع إليه ، ولا ضير ، فقد كان الإمام متحدثاً لسناً ، ذا أسلوب وجدة العرض ، صاحب حكمة ، يخاطب كافة المستويات بأسلوب واحد يفهمه الجميع ، بحيث لا يكل سامعه ولا يمل ، ومن هنا وجد الشيخ من الناس إقبالاً لم يُشهد له مثيل ، وفتح أمامه الإعلام بمجالاته المتعددة والمتنوعة ، فكتب مقالات نافعة ، وألقى في الإذاعة والتليفزيون أحاديث متنوعة ، وبقيت صورته مشاهدة ، وصوته مسموعاً .

ي) جهود الشعراوي في المجال الإصلاحي الاجتماعي :

لا زالت آثار الشيخ الشعراوي الدالة على جهوده المبذولة في مجال الإصلاح الاجتماعي موجودة ، وأعماله قائمة حتى الآن . وهذا شئ يُحمد له ، ويُشكر ويُؤجر عليه . ولا بد لنا من الوقوف عند هذه الأعمال الخيرية ، والجهود الطيبة .

1 ــ المشروعات التي قدمها لأهل بلده ــ دقادوس ــ :

* **مُجَمَّع الشعراوي :**

وهو مجمع كبير مكون من خمسة أدوار . تم إنشاؤه عام 1989م في قرية دقادوس .

الدور الأول : عبارة عن قاعة للندوات الدينية والثقافية ودروس التفسير لفضيلة الشيخ الشعراوي ، والأفلام التعليمية لتلاميذ المجمع عن طريق الفيديو .

الدور الثاني : يضم المكتبة الإسلامية ، ومكاتب الإدارة .

الدور الثالث : يوجد به عيادة شاملة تضم جميع التخصصات الطبية . والكشف فيها بأسعار رمزية .

الدور الرابع : وبه الحضانة الإسلامية ، وتحفيظ القرآن .

الدور الخامس : مركز للحاسب الآلي ، ويقوم بإعطاء دورات تدريبية في الكمبيوتر ، وطابعات ، وأجهزة للألعاب الحديثة للأطفال ، ومعهد لإعداد محفظي القرآن الكريم ، ولجنة زكاة تقوم بمشروع كفالة الأيتام وتقديم إعانات للأسر الفقيرة ، وإعانات فورية للكوارث والنكبات ، وجمعية تكفين وتجهيز الموتى .

* **إعادة بناء مدرسة علي بن أبي طالب الابتدائية :**

وكان إعادة بنائها عام 1987م ، وأُهديت بعد ذلك للتربية والتعليم . وقد أُلحق بالمدرسة مسجد مساحته مائتي متر مربع مجهز لصلاة تلاميذ المدرسة والأهالي أيضاً .

* **معهد الشعراوي الديني الابتدائي الأزهري :**

بدأ البناء فيه عام 1992م وتم إهداؤه للأزهر عام 1995م . مساحته ثلاثمائة متر مربع . وهو مكون من 18 فصلاً ، وعدد التلاميذ فيه 540 تلميذاً .

وقد أدى هذا المعهد خدمة مقدَّرة لأهل البلدة ، من حيث استيعابه لنحو من 540 تلميذاً من قرية دقادوس ومن حيث التوسعة أيضاً على هؤلاء الطلبة ، وتوفير الجهد والمشقة من وعثاء السفر وفراق الأهل . فوجود المعهد رفع تلك المشقة والعناء سواء من الطلبة أو من الأهالي .

* **حديقة عامة :**

وهي أحد مشروعات المجمع الإسلامي ، وتبلغ مساحتها حوالي أربعمائة متر مربع ، تم إهداؤها إلى مجلس مدينة ميت غمر .

* **مسجد سيدي محمد نصر الدين الأربعين (المسجد الكبير) :**

بعد انهيار مئذنته من جراء الزلزال عام 1992م تم هدمه ، ثم أُعيد بناؤه من جديد على نفقة الشيخ الشعراوي .

إضافة إلى ذلك قام ببناء عمارة سكنية لمحدودي الدخل بها 25 شقة ، ومستشفى الشعراوي ، وهو ما زال تحت الإنشاء .

كل هذه الجهود قدمها لأهل قريته دقادوس ، ولذلك طار أهل البلد به فرحاً ، وشكروه على جهوده وأعماله الخيرية التي نفع بها وانتفع .

2 ـ جهود الشعراوي خارج بلده ـ دقادوس ـ :

أيضاً لم تقتصر جهوده على أهل بلده فقط ، وإنما تعداها الخير إلى غيرها من بلدان مصر ، فقد قام ـ رحمه الله ـ بإنشاء مبرَّة (مضيفة) كبيرة ، تقوم بتقديم وجبات غذاء لكل من قصدها ، بل وتقوم بتقديم خدمات لكثير من الأسر الفقيرة والمحتاجة . وقد أنشأها في ميدان (السيدة نفيسة) بالقاهرة .

هذا ، وقد ساهم الشعراوي في مشروعات أخرى ، من أجل تشجيع تلك المشروعات في الاستمرار والدوام . وقد قيل له : إن سهير البابلي ـ وهي إحدى الفنانات التي مَنَّ الله عليها بالإسلام ـ لها ملاحظة على تصرف لفضيلة الشيخ ، وهي أنه يذهب ليفتتح محلاً لملابس المحجبات ، وفي رأيها أن هذا لا يصح !

قال الشيخ : الفكرة من هذا العمل هي تشجيع هذه المحلات ، وأنا أول من شجع على عمل هذه المحلات في الاسكندرية ، وقمت بتمويل بعضها ، لكي تعمل وتستمر [1] . فهذا أيضاً عمل خيري ، الهدف منه مدّ يد العون من أجل بناء وإصلاح المجتمع .

هذا ما وقفت عليه من الخدمات والأعمال الخيرية التي قدمها الشعراوي خدمة لدينه وبلده .

---

(1) الشعراوي والفنانات ـ سعيد أبو العينين : ص105 .

ك) رحلات الشعراوي :

رحل الإمام الشعراوي إلى كثير من البلدان العربية وغير العربية . وكان بعض تلك الرحلات من أجل السياحة ، وبعضها لإلقاء المحاضرات أو المشاركة في ندوات عُقِدت في مناسبات دينية أو غير ذلك من الأسباب . وهذه الرحلات :

1 ــ **السعودية** : وقد سافر إلى السعودية عام 1950م . وقد سبق القول أن الشعراوي خرج إلى السعودية ضمن وفد الأزهر الذي أُرسِل للتدريس بكلية الشريعة فيها . وكان قد مكث ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً .

ورجع إليها مرة أخرى بعد عودته من الجزائر ، واشتغل فيها مدرساً بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة [1] .

هذا ، وقد سافر إليها مرات متعددة بعد ذلك لقضاء العمرة .

2 ــ **الجزائر** : بعد استقلال الجزائر خرج إليها على رأس بعثة الأزهر بنية تعريب اللسان الجزائري بعد خروج الاستعمار الفرنسي منها . ومكث فيها مدة ست سنوات [2] .

3 ــ **أمريكا** : سافر الشعراوي إلى أمريكا كثيراً ، كانت المرة الأولى عام 1973م ، والمرة الأخيرة عام 1995م . كان السفر الأول إلى نيويورك عام 1973م مع زمرة من أصدقائه ، وقد نزلوا إليها سائحين . إضافة إلى ذلك ، فقد كان للشيخ لقاءات مع المسلمين هناك ، وكانت هذه اللقاءات تتم بالمراكز الإسلامية . وكانت محاضرات الشيخ وندواته تركز على واجب المسلم المهاجر نحو المجتمعات غير الإسلامية حتى لا تأخذهم حضارات الغرب إلى متاهات الضياع والانحلال[3] . وسافر الشعراوي أيضاً إلى واشنطن سائحاً ، وقد زار فيها بعض الأماكن مثل البيت الأبيض والمغارة الطبيعية التي أدهشته لعظمها ، واتساعها [4].

وزار مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية الواقعة على شواطئ المحيط الهادئ ، وهي من أجمل المدن في ولاية كاليفورنيا . وقد وُجِّهت إليه بعض الأسئلة ، فأجاب عليها وأزال ما فيها من الإشكال . وكانت له لقاءات بالمركز الثقافي الإسلامي فيها [5]. وزار مدينة لوس أنجلوس الواقعة بولاية كاليفورنيا أكثر من مرة ، وهي ما تعرف بمدينة الملائكة لجمالها [6].

---

(1) انظر : من القرية إلى العالمية : ص21 .

(2) نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

(3) انظر : رحلات الشعراوي في أوربا وأمريكا ــ سعيد أبو العينين : ص13 ، ص14 ، ص24 .

(4) انظر نفس المرجع : ص41 ــ 42 .

(5) انظر نفس المرجع : ص57 ، ص63 ــ 66 .

(6) انظر نفس المرجع : ص85 .

كما أنه زار واشنطن للسياحة ، وبالتحديد زار فيها كامب ديفد الواقعة جنوبي واشنطن . وكانت آنذاك المباحثات جارية بين الرئيس السادات وبيجن ـ رئيس الوزراء الإسرائيلي ـ في حضور الرئيس الأمريكي كارتر . وقد حضر الأيام الثلاثة الأخيرة من المفاوضات ، وسافر إلى مصر قبل توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل بيوم (1) .

4 ـ **كندا :** عن كندا يحكي الشيخ الشعراوي . يقول : ذهبت إلى كندا أربع مرات . كانت المرة الأولى في سنة 1978م . حيث كانت بدعوة لتقديم محاضرات في الشريعة الإسلامية . وكانت المرة الثانية زيارة ودية لأحد أبنائنا الأعزاء . وكانت الثالثة للسياحة والاعتبار . وكانت الرابعة لإلقاء محاضرات في الشريعة (2) .

5 ـ **بريطانيا :** وقد زارها كثيراً . زارها مرة لحضور مناقشة رسالة دكتوراه لأحد الشباب السعودي ، كان والده صديقاً للشيخ الشعراوي .

وفي مرة أخرى ذهب للعلاج والتخلص من المرارة التي عانى منها كثيراً .
أما بقية المرات فكانت في خدمة الدعوة الإسلامية واللقاء بالمسلمين المهاجرين ، والمشاركة في مؤتمرات إسلامية عُقِدت في لندن (3) .

كانت هذه إشارات إلى الرحلات التي قام بها الإمام الشعراوي في البلاد العربية والأوروبية والأمريكية ، عرفنا من خلالها الهدف من تلك الزيارات والرحلات .

ل) الشعراوي والسياسة :

لقد كان له ـ رحمه الله ـ موقفاً من بعض القضايا السياسية ، وسوف نقف على أبرز هذه القضايا :

1 ـ موقفه من المناصب :

يعبر عنها بقوله (شهوة الحكم) . ويرى أن منصب الحكم مناط تكليف لا يطيقه المرء ، وضنك لا يتحمله . ويرى أن الحكم شهوة تتحكم في الفرد ، وعلاجها تنحيتها عن الحكم ، ولهذا كان من حكمة التشريع أن من يطلب قضاء لا نمنحه إياه ، ومن طلب ولاية منعناه عنها . أما إذا أُلقيت إليه أو جاءته مصادفة فعليه أن يسأل الله أن يعينه عليها .
والحاكم والمحكوم لا بد أن يكونا مقيدين بمنهج الله (4) .

---

(1) رحلات الشعراوي في أوربا وأمريكا : ص155 وما بعدها .
(2) نفس المرجع : ص171 .
(3) نفس المرجع : ص183 .
(4) انظر : الشعراوي بين السياسة والدين ـ سناء السعيد : ص16 ـ 17 .

ومن ناحية أخرى إذا وجد المحكوم الحاكم لا يحكم بالإسلام عليه ألا يدخر وسعاً في توعيته ونصحه ، وعليه أن يستثمر خير الحاكم ليشيع الإسلام ويقوى ، ويستغل قوة الحاكم في صالح الإسلام [1] . لكن يبدو أن الشعراوي لم يطبق هذا المبدأ بحذافيره مع الزعماء الذين عاصرهم ، خصوصاً وأنه عاصر الملك فاروق وجمال عبد الناصر والسادات ومبارك وكل هؤلاء الحكام لم نر واحداً منهم حكَّم الشريعة الإسلامية في فترة حكمه ، بل على العكس تماماً ، فقد كانت لهم مع المسلمين مواقف سلبية ، خاصة ما حدث مع جماعة الإخوان ، أليس جمال عبد الناصر هو الذي أعدم الشهيد سيد قطب ــ رحمه الله ــ ؟ وكان واجباً على الشعراوي وغيره من علماء المسلمين أن يبينوا للحكام أنهم ظالمون بابتعادهم عن الحكم بما أنزل الله . وأنهم لا يدينون دين الحق . وعلى المسلمين أن لا يدخروا وسعاً في مناصرة علمائهم ، أما أن يقول العالِم كلمة الحق أمام السلطان الجائر ، ثم يتخلى عنه الشعب إذا ما أصابه الحاكم بمكروه ، فهذا أمر غير جائز ، تماماً كما حدث للشيخ عبد الحميد كشك ــ رحمه الله ــ الذي كان يقول كلمة الحق ويصبر على ما أصابه . ولذلك يبرر الشعراوي موقفه من الاعتراضات الموجهة إليه من الذين يريدون أن يحولوا العلماء إلى حركيين ثائرين فيقول : " ... الناس يريدون أن يحملوا العلماء فوق ما حملهم الله سبحانه وتعالى . يريدون أن ينقلوا العلماء إلى حركيين ثائرين ، ويحملونهم وحدهم تبعة إرغام الحكام في أي بلد إسلامي على أن يلتزموا بمنهج الله . والعلماء كما حملهم الله إنما يقولون كلمة الله ، وحين يعلمها الجمهور منهم يصبح الجمهور عالماً بها ، وكل من علم حكماً من الأحكام مطالب أيضاً كالعلماء في أن يقف معهم موقف الحركة . أما أن يحاول الناس أن يضعوا العلماء وحدهم موضع الواقف أمام الحاكمين ، فهذا أمر يحملونهم فيه فوق ما حملهم الحق سبحانه وتعالى .... إذن : إذا قصر العلماء في مهمة البلاغ تكون تبعتهم كبيرة ، أما أن يريد الناس من العلماء أن يقوموا وحدهم بحركة ضد الحاكمين ليرغموهم على أن يحكموا بكتاب الله فهذا تعسف من الناس " [2] .

والحق أن الشعراوي كان ينصح للحكام ، ثم يترك لهم حرية الاختيار ، كما قال : " إنني أقول كلمة الحق ، ثم بعد ذلك له مطلق الحرية في أن يسمعها أو لا يسمعها " [3] . ومن نصائحه للرؤساء والحكام ما قاله للرئيس مبارك بعد محاولة اغتياله في أديس أبابا في يونيو

---

(1) الشعراوي بين السياسة والدين : ص14 .

(2) في الحكم والسياسة ــ إعداد وتقديم أبو الحسن عبد الرازق : ص69 ــ 79 .

(3) الشعراوي بين السياسة والدين : ص42 .

سنة 1995م قال له : " لعل هذا الحدث يُعتبر زلزلة لك لتتحرك من بشـريتك المطلقـة إلـى عبوديتك المطلقة لله . وأن تكون كما مكنك الله من حكم الدنيا بقانون البشر ، أن يُمكنك مـن حكم الدنيا بقانون خالقك "[1] .

إن الشعراوي اتخذ طريقاً مغايراً للطريق التي كان يستعملها بعض العلماء في مواجهـة الحكام بالكلمة . كان ينصح للحاكم دون تحامل عليه . بخلاف هؤلاء العلماء الذيـن كـانوا يتحاملون على الحكام ، فكان يؤدي ذلك إلى سجنهم أو إبعادهم أو نحو ذلك . وعلى أي حـال فكلا الطريقين في الدعوة محمود ، سواء بأسلوبٍ ليِّن ، أو بالمواجهة .

والشعراوي مبدأه في الحكم يتركز على أنه يريد أن يُحكم بالإسـلام ، ولا يريـد أن يتولـى منصب الحكم[2].

2 ـ الشورى :

هل الشورى ملزمة للحاكم أم لا ؟

يرى الإمام الشعراوي أن الشورى غير ملزمة للحاكم ، وقد قيل له : إن كلمة الشورى جاءت في القرآن بما يفيد أنها أمر لازم ، إذ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِـي الأَمْـرِ ﴾ (من الآية 159 سورة آل عمران) ؟

فأجاب : " إذا كانت كلمة الشورى قد وردت في القرآن الكريم بما يفيد أنها أمر لازم ، فيجب أن نقبل على النص بفهم ، فإن قول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ يجـب ألا يؤخذ إلا في حضور قوله تعالى تماماً للآية ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ ﴾ فكـان علـى الرسول ﷺ أن يستشير ليستخرج الآراء فتصبح معروضة جميعها أمامه ، وله بعد ذلـك أن يتوكل على الله فيختار ما يراه ، أو ما يراه الآخرون . ولذلك قال سبحانه ﴿ فَـإِذَا عَزَمْـتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ مع أن المشاورة كما قلنا في بداية الكلام تقتضي جماعة ، من مستشـير ، ومن مشير قد يتعدد ، ولكن له وحده أن يعزم وأن يتوكل على الله "[3].

فالشورى في نظر الشيخ ليست ملزمة للحاكم ، وله أن يقرر ما يراه مناسباً بعد الاستشـارة . وهذا في الحقيقة ما كان يفعله النبي ﷺ مع الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ، حيـث كان يستشيرهم في كثير من الأمور ، وينزل عند رأيه حسب ما تقتضيه المصلحة كما حـدث في غزوة بدر الكبرى ، وشأن الأسرى ، وغيرها من المناسبات .

---

(1) الشعراوي بين السياسة والدين : ص72 .

(2) المرجع السابق : ص38 .

(3) عالم عصره في عيون معاصريه : ص115 .

وقد ذهب العلماء إلى أن الشورى واجبة على الحاكم ، ومَن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب . وقد حكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في ذلك [1].

3 ــ علاقته بالإخوان :

كان اتصال الشعراوي بجماعة الإخوان المسلمين عندما حضر الشيخ حسن البنا ــ رحمه الله ــ إلى القاهرة ، ذلك أن الحركة انطلقت بداية من الإسماعيلية ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى القاهرة ، وكان الإمام الشعراوي معجباً بالشيخ حسن البنا ، من حيث سعة علمه وعمله به . وكانت تحدث بينه وبين الإمام حسن البنا والشيخ أحمد شريت ، والشيخ الباقوري لقاءات ، فكان أول منشور أصدره الإخوان كتبه الإمام الشعراوي بخط يده .

واستمرت علاقته بهم إلى أن حدث يوم جلس فيه مع الإخوان ، وحدث شئ في الجلسة جعل الشعراوي ينفصل عنهم .

يقول ــ رحمه الله ــ : " وحدث بعد ذلك أن جلسنا في ليلة نتحدث ، وكنا مجموعة من الإخوان ، وكان الشيخ حسن البنا حاضراً ، وعند الفجر تطرق الحديث إلى « الزعماء السياسيين » وأيهم يجب أن نسانده ونقف معه . ولاحظت أن الحاضرين يتحاملون على النحاس باشا ، ويقولون بمهادنة صدقي باشا . فاعترضت على ذلك ، وقلت : إذا كان لمن ينتسبون إلى الدين يريدون أن يهادنوا أحد الزعماء السياسيين ولا يتحاملوا عليه أو يهاجموه ، فليس هناك سوى النحاس باشا ؛ لأنه رجل طيب ، تقي ، وورع ، ويعرف ربنا ، وإنني لا أرى داعياً لأن نعاديه ، وهذه هي الحكمة . قلت هذا الكلام ، لكنني فوجئت بأحد الحاضرين ــ ولا أريد أن أذكره ــ يقول : إن النحاس باشا هو عدونا الحقيقي ، هو أعدى أعدائنا ؛ لأنه زعيم الأغلبية ، وهذه الأغلبية هي التي تضايقنا في شعبيتنا . أما غيره من الزعماء وبقية الأحزاب فنحن « نبصق » عليها جميعاً فتنطفئ وتنتهي ! . كان هذا الكلام جديداً ومفاجئاً لي ، ولم أكن أتوقعه ، وعرفت ليلتها « النوايا » ، وأن المسألة ليست مسألة دعوة ، وجماعة دينية ، وإنما هي سياسية ، وأغلبية وأقلية ، وطموح للحكم . وفي تلك الليلة اتخذت قراري ، وهو الابتعاد . وقلت : « سلام عليكم » ، ماليش دعوة بالكلام ده . قلتها بكل أدب ، وابتعدت عنهم . وكان ذلك سنة 1938م "[2] .

هذا هو السبب الذي كان من أجله انفصال الشعراوي عن الإخوان .

ويبدو أن الشعراوي حكم على الإخوان من خلال تصرف فرد واحد ، وهذا لا يصح ؛ لأن

---

(1) انظر : تفسير القرطبي : ج4ص249 ــ 250 . وفتح القدير : ج1ص496 .

(2) الشعراوي الذي لا نعرفه : ص68 ــ 69 .

الحكم على جماعة من خلال النظر إلى فرد أو عدة أفراد خاطئ . وقول الشيخ : " وعرفت ليلتها « النوايا » ، وأن المسألة ليست مسألة دعوة ، وجماعة دينية ، وإنما هي سياسية ، وأغلبية وأقلية ، وطموح للحكم " . هذا كلام لا يليق بحق حركة الإخوان ؛ لأن حركة الإخوان المسلمين تسعى لتطبيق شرع الله في الأرض ، لا أن تصل إلى الحكم . ليس هذا هو هدف الحركة . وإذا كان الشعراوي قد اتخذ هذا مبرراً للخروج من الحركة ، فلا نسلم له بما قاله عنهم من أن نواياهم تتطلع إلى الحكم .

ولعل هذا السبب هو الذي دفعه لأن يقول : " إن مبدئي دائماً يتركز في أنني أريد أن أُحكم بالإسلام ، ولا أريد أن أحكم [1] .

نقول : هذه تبقى وجهة نظر ، لكن هل يمكن لمثل هذا الكلام أن يغير من الواقع شيئاً ؟ بالطبع لا ؛ لأن التغيير بحاجة إلى عمل ، والقول لا يغير شيئاً ، خاصة في حكومات العرب حالياً ، والواقع يصدق ذلك .

وعلى أيٍّ فالشعراوي ــ وإن انفصل عن الإخوان بسبب هذه الحادثة ، إلا أنه يتفق معهم في الهدف المطلوب وهو الحكم بشريعة الإسلام ، وإن اختلف معهم في المسلك أو الوسيلة المؤدية إلى إقامة المجتمع الإسلامي .

4 ــ اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية :

جرت المفاوضات بين رئيس مصر آنذاك أنور السادات ، مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيجن ، في كامب ديفيد ، تحت رعاية الرئيس الأمريكي كارتر حول السلام في المنطقة . وتم توقيع معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل . وكان الشعراوي في هذه الفترة وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر . ثم تلقى السادات دعوة رسمية من بيجن لزيارة القدس عن طريق السفارتين الأمريكيتين في القاهرة وتل أبيب . وقبِل السادات الدعوة ، وتحدد موعد الزيارة بتاريخ 19 نوفمبر 1977م يوم عيد الأضحى ، وكان الشعراوي وقتها حاجاً لبيت الله . سُئل الشعراوي عن هذه الأحداث والتطورات التي حدثت متلاحقة . فقال : " السادات كان رجل دولة ، وكان يريد أن يسقط الورقة التي كانت إسرائيل تلعب بها ، وتقول للعالم إنها دولة مسالمة ، وتريد أن تعيش وأن العرب وحوش ودعاة حرب ، وهم الذين يريدون تدميرها وإلقاءها في البحر . السادات أراد أن ينزع هذه الورقة من يد إسرائيل ، والتي خدعت بها العالم ، والرأي العام العالمي سنوات طويلة ..... صحيح أن المبادرة التي أقبل عليها السادات كانت مفاجأة للعالم كله ، ولم يكن أحد يتوقعها ، لكنها عندما حصلت ، تبين

(1) الشعراوي بين السياسة والدين : ص38 .

أنها تتمشى مع واقع الحال والظروف في ذلك الوقت . وقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن السادات كان بعيد النظر ، فقد أخذ الأرض [1] بدون إراقة دماء " [2] .

إذن ، هذا كلام الشعراوي . ولا بد أن يعلم كل مسلم أن القدس وفلسطين مسئولية الجميع ، إذ هي أرض وقف إسلامي . ومن هنا كانت المعاهدات والاتفاقيات التي حدثت مع إسرائيل مهزلة للعرب ؛ والذي يدرس أبعاد مثل هذه الاتفاقيات يدرك مدى هذه المهزلة . أليس من معاني هذه الاتفاقية الاعتراف بدولة إسرائيل ؟ ومعنى هذا أن إسرائيل لها الحق في أن تمارس حياتها الطبيعية على هذه الأرض المقدسة مثلها مثل أي دولة عربية . وهذه قمة المهزلة للعرب ، والتي ستبقى لها وصمة عار إلى أن تقوم الساعة . ثم أي سلام هذا الذي يتحدثون عنه ؟ أسلام مع من قتلك وأخذ أرضك عنوة ؟ إن الواجب على العرب والمسلمين أن يدافعوا عن أرض فلسطين مهما كلف الثمن . فكما ضحى يهود بأغلى ما يملكون من أجل احتلال أرضنا ومقدساتنا ، فلا بد لنا أن نضحي بكل ما نملك من أجل استرداد ما سلب منا . أما أن تلقى المسئولية على الفلسطينيين فقط ، فهذا أمر لا يصح . وما زال الشعب الفلسطيني يعاني آثار مثل هذه الاتفاقيات .

إذن ، ما ذهب إليه الشعراوي لا يصح من أكثر جوانبه . فنسأل الله أن يفيق العرب والمسلمون من نومتهم التي طالت وأن يهبوا هبة واحدة لتحرير أرضهم ومقدساتهم .

م) وفاته :

كانت وفاته ـ رحمه الله ـ في فجر يوم الأربعاء ، الثاني والعشرين من صفر 1419هـ الموافق للسابع عشر من يونيو 1998م .

وكان قد أوصى بدفنه عند قبر أمه وأبيه بقرية دقادوس ، لكن يبدو أن وصيته لم تنفذ ، فدفن خلف المجمع (مجمع الشعراوي) الذي بناه لأهل بلده في دقادوس ، وبني على قبره قبة كبيرة عالية ، إلا أن أبناء الشيخ تبرأوا من هذا العمل ، وكتبوا التبرئة عند المدخل على القبر .

خامسا : تميز شخصية الشعراوي وثناء العلماء عليه :

لقد كان الإمام الشعراوي إماما فاضلا ، صاحب علم غزير ، وثقافة واسعة . داعية بليغ الأسلوب ، عجيب الإقناع ، وكان خطيبا بارعا ، متكلما لسنا ، قوي الحجة وسريع البديهة ،

(1) المقصود بها أرض سيناء .

(2) رحلات الشعراوي في أوربا وأمريكا : ص158 ـ 163 . وانظر ما قبلها .

مما جعله يحتل مكانة عالية ، ومنزلة مرموقة بين علماء عصره ، فدانوا له بسعة العلم ، وغزارة المعرفة ، وقوة الأسلوب . وفيما يلي أبرز مكانته العلمية التي جعلته يحتل هذه المنزلة السامية بين العلماء :

أ) ثقافته الواسعة :

لم يكن اطلاع الإمام الشعراوي قاصراً على فن دون آخر ، وإنما كان متشعب الأنحاء ، واسع الاتجاهات . فلم يقتصر على ما كان يدرسه في الأزهر الشريف ، وإنما جاوز ذلك ليطّلع على الفنون الأخرى كعلم التاريخ والفلك والاجتماع ، والعلوم الحديثة وغيرها من العلوم ــ كما سيأتي أثناء الكلام عن منهجه في التفسير العلمي ــ .

يقول الدكتور محمد رجب البيومي :

" قدّر الله للشيخ أن يتألق نوره العلمي بعد أن جاوز الخمسين ، وقد كان ما قبل ذلك زمان تحصيل علمي متشعب الأنحاء ، حيث لم يقتصر على العلوم الدينية والعربية مما يدرس في الأزهر الشريف ، بل امتد إلى العلوم الحديثة في مسائل الطبيعة والكيمياء والفلك والاقتصاد فضلاً عن علوم التاريخ والاجتماع وعلم النفس وبذلك تكونت لديه ثقافة شاملة ، ظهرت بوضوح فيما يلقي من الدروس والمحاضرات ، وبأسلوبه السهل الممتنع حاول أن يذللها للسامع ..."[(1)] .

إذن ، هذه شهادة له ــ رحمه الله ــ بأنه بحر واسع في فكره وعلمه .

ب) الشعراوي شاعراً :

كانت هوايته للشعر أولا ، وتشجيع والده له ثانياً ، ومجال دراسته ثالثاً ، عاملاً هاماً في نبوغه في الشعر .

يقول ــ رحمه الله ــ : " إن والدي كان يمنحني ريالاً عن كل قصيدة أحفظها "[(2)] .

فكان لهذا التشجيع أثره على الأمام الشعراوي فيما بعد . فقد جعل له الملكة في أن يلقي الشعر ، ويؤلف أروع القصائد .

لقد كان يرتجل الشعر في الحال في كثير من المناسبات . وحدث مرة أن زاره الشاعر السعودي (غازي القصيبي) في لندن إثر إجراء العملية الجراحية باستئصال المرارة ، فقال له بيتين من الشعر :

ادْعوا لشيخ المسلمين　　　　بأن تدوم به النقاوة

---

(1) محمد متولي الشعراوي .. جولة في فكره الموسوعي الفسيح : ص40 .

(2) الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات : ص75 .

لما مضت عنه المرارة   لم تعد إلا الحــلاوة

فأجاب الشيخ مرتجلاً على الفور :

اللهَ أسألــه لغـــــازي   أن يديــم بــه الحفــاوة

بسليــم أجهــزة تعيش   مع المرارة في حــلاوة[1]

وكان يرتجل الشعر في جميع المجالات ، ويضمِّن أحياناً شعره الحكمة . ومن ذلك قوله :

كــل دنيــا تبنــى علــى غيــر ديــن   فبنــاءٌ علــى شفيــر هـــار[2]

ومن شعره في الرثاء الذي يبعث الحماس في نفس سامعه ما قاله في حفـــل تـــأبين شـــهداء الأزهر ، الذين قتلوا على يد الإنجليز عام 1935م . قال فيهم :

نـــداء يـــا بنــــي وطنــــي مجـــاب   دم الشــــهداء يذكــــره الشـــباب

وهــل نســلــو الضحايــا والضحايــا   بهم قد عــز فــي مصــر المصــاب

شــباب بـــر لـــم يَفْـــرَق وأدى   رســالته وهـــا هـــي ذي تجـــاب[3]

ومن شعره في السياسة ما قاله عن عقد الاتفاق الثلاثي بين مصر وسوريا والسعودية ، وكان ضد إسرائيل . فعن تأييده لهذا الاتفاق ، وتنديده بوعد بلفور يقول :

نصـــرت بـــالله واســـتعصمت بالســـيف   إلـــى العـــلا الإســـلام والعـــرب

إنـــا شعـــوبٌ سبيـــل الله يجمعهـــا   فـــلا تفرقـــها الأعـــداء فـــي شـــعب

وقال عن إسرائيل :

وا قطيع خنازيـــر ارتـــعت أممـــاً   تـــرقـــى عـــلاة ذوات الـــذل والشهـــب

فقل لساسة أميرطانيـــا[4] انتبـــهوا   فقـــد عرفنـــا خبـــئ المكـــر فـــي الجعـــب

سلحوها كمـــا شـــئتم فـــإن لنـــا   هـــذا الســـلاح بعـــون الله فـــي الســـلب[5]

وهاهو ينظم قصيدة طويلة في الإسراء والمعراج مكونة من 226 بيتاً ، وهو فـــي الابتدائيـــة (سنة 1928م) .

ومطلع هذه القصيدة :

يا ليلـــة المعـــراج والإســـراء   وحي الجلال وفتنـــة الشـــعراء

الدهر أجمـــع أنـــت ســـر نواتـــه   وبمـــا أتـــاك الله ذات رواء

---

(1) الإمام الشعراوي مفسراً وداعية ــ د . أحمد عمر هاشم : ص24 .

(2) المرجع السابق : ص25 .

(3) الشعراوي الذي لا نعرفه : ص65 ــ 66 .

(4) يعني أمريكا وبريطانيا .

(5) انظر : الشعراوي الذي لا نعرفه : ص111 ــ 112 .

فلك العــلا دارت عليــه شمسه   والشمس واحدة من الإنشــــاء[1]

فهذه نماذج من آثاره الشعرية . لقد اتخذ من الشعر ذريعة للتعبير عما يدور بخلجات صــدره أو التعبير عن أحاسيس الناس ، وتحسس مشاعرهم . وهذا كان له انعكاسه الواضــح ، ودوره الملموس في ظهور الشعراوي ، وتحديد مكانته بين العلماء ، وإعطائه الحيز الواسع ، والحظ الوافر الذي أقر به أقرانه ، واعترف له به معاصروه .

ج) موهبة نادرة :

تعتبر الخطب والدروس والمحاضرات الوسيلة التي يمكن للإمام الشعراوي أن يظهر فيها علمه ، ويعطيه للناس بأيسر الطرق . وهذا يحتاج منه الأسلوب الذي يستطيع مـــن خلالــه توصيل المعلومات إلى المستمعين على كافة مستوياتهم وقدراتهم العقلية . ويحتاج منه كذلــك سعة العلم الذي يجعلهم لا يملون كثرة الخطب ، ولا يكلون تعدد الدروس . وهذان الشـــيئان متوفران في الإمام الشعراوي ، بحيث إذا ألقى خطبة أو درسا ، ألقاه بأسلوب مستوعب لــدى الناس جميعا . وكان لا يكرر الكلام مرة أخرى . وهذا شئ لا يتأتى إلا عن موهبة .

يقول الدكتور محمد رجب البيومي : " إن الذي يؤكد على وجه صريـــح هــذه الموهبــة النادرة لدى الشيخ ، هو دروسه الرمضانية التي تتكرر يوميا بعد العصر ، إذ من المحتمل أن تكون الدروس الأسبوعية يوم الجمعة ، موضع تفكير لدى الشيخ استغرق الأســبوع بأكملــه حتى جاء يوم الجمعة فاستعد لما يقول في هدوء مطمئن . ولكن ماذا نقول في هذه الــدروس اليومية التي تتوالى سنوات عدة جاوزت العشرين ، ونحن نجد في الدرس اليومي مـــا نجــده من الدسامة القوية في الدرس الأسبوعي ؛ إن تعليل ذلك يكمن في أن الشيخ ينهل من معيـــن صاف يتدفق دائما بالزلال الطيب متى ورده ..."[2] .

ويقول الأستاذ عبد المنعم الصاوي : " ... ثم هذه المعاني التي تتدفق على لســان الشــيخ أثناء الدروس التي يلقيها ، إنها لا تتأتى إلا لعالم عمق علمه ، حتى أصبح هذا العلــم طــوع بنانه ، ييسره للبسطاء من الناس . وتزداد مهمة الشيخ صعوبة عندما تتصور أنه لا يخـاطب طبقة من الخاصة ، أو لفيفا من العلماء ، ولكنه يخاطب الناس كافة ، فيصبح عليه أن يختــار أسلوبا يمثل الحد المتوسط بين جميع العقول " [3] .

هكذا يظهر لنا أن هذا الأسلوب ، وهذه الخطب والدروس الكثيرة المتوالية ، لم تأته عرضا ،

---

(1) انظر : مذكرات إمام الدعاة : ص111 .

(2) محمد متولي الشعراوي .. جولة في فكره الموسوعي الفسيح : ص30 .

(3) نقله الأستاذ محمد جزر في كتابه (عالم عصره في عيون معاصريه) : ص8 ـــ 9 .

وإنما كانت عن موهبة وهبها الله إليه . وهذا شئ ــ بلا شك ــ يرفع من مكانة الشيخ ، ويعطيه منزلة خاصة بين العلماء .

د) آثاره العلمية :

قبل الكلام عن مصنفات الشعراوي لا بد من الإشارة إلى شئ هام ، وهو أن الشعراوي لم يكتب شيئا من هذه المصنفات ، وإنما هي عبارة عن دروس وخطب ومحاضرات كان الشعراوي يلقيها ، ومقالات نشرت في الصحف ، ثم جاء بعض المهتمين من أهل العلم ، فجمع من هذه الخطب والدروس والمقالات ما يمكن تصنيفه تحت موضوع واحد ، وأخرجها في كتاب . وكان هذا بإذن من الشعراوي .

وقد سأل الأستاذ طارق حبيب الشيخ في حوار تليفزيوني أجراه معه ، بعنوان (من الألف إلى الياء) ، سأله قائلا :

" ● ومتى تكتب ؟

● لا أكتب أبدا والحمد لله . ماذا أكتب ، أنا أقرأ المصحف قليلا والناس تكتب عني ، وأنا إذا كتبت أتعب لأني حريص على أن تكون كتابتي كتابة ، ليست مجرد كلام عادي " (1) .

ولم يثبت أن الشعراوي كتب شيئا سوى القليل .

ومما ينبغي الإشارة إليه كذلك أن الشعراوي لم يأذن بتحقيق دروسه ومحاضراته وترجمة ما قاله إلا لدار أخبار اليوم ، ومكتبة التراث الإسلامي . وما سوى هؤلاء لم يأذن لهم الإمام بكتابة شئ مما قاله .

جاء في كتاب (الحياة البرزخية وعذاب القبر) ما نصه : " ويجدر التنويه إلى أن فضيلة الإمام قبل رحيله لم يعهد إلا لمكتبة التراث الإسلامي ودار أخبار اليوم بطباعة كتبه ، وأقرت ذلك ورثته بعد رحيله ووافقوا عليه . لذا فإن كافة الكتب التي تصدر عن غير مكتبة التراث الإسلامي ودار أخبار اليوم هي كتب غير صحيحة النسبة للشيخ ، وعلى حد تعبير فضيلته : إن أصابوا في شئ فقد أخطأوا في أشياء ."(2) .

وعليه ، فمن الأولى والأحرى أن أقف عند ما نشرته هاتان المكتبتان ؛ لأن الشعراوي رفض نسبة أي كتاب له من غير هاتين المكتبتين ، اللهم إلا إذا اقتضى المقام الاستدلال بما في الكتب الأخرى التي نشرتها غير هاتين المكتبتين فحينئذ أقتبس منها على قدر الحاجة .

أيضا لا بد من الإشارة إلى قضية يمكن أن نعتبرها رابطا مشتركا بين كل كتب الشعراوي

---

(1) من الألف إلى الياء ــ إعداد طارق حبيب : ص80 .

(2) الحياة البرزخية وعذاب القبر ــ إعداد دراسة وتحقيق مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة : ص18 .

ومصنفاته . وهي سمة بارزة فيها ألا وهي طابع التفسير . ويمكن أن نسمي أغلب مصنفاته « دروس في التفسير » . والناظر إلى مؤلفات الإمام الشعراوي يجد فيها عمق الرجل ، وغزارة علمه . لقد ألف في التفسير وعلوم القرآن ، والعقيدة ، والفقه ، والسيرة ، والقصص وغيرها من العلوم الدينية التي تأخذ في طياتها العلوم الطبيعية . وفيما يلي أعطي نبذة عن كل كتاب :

1 ــ كتب التفسير وعلوم القرآن :

ألف في هذا الجانب مؤلفات متنوعة ، منها :

ــ تفسيره المسمى (**خواطر حول القرآن الكريم**) الذي سنتناوله بالبحث في هذه الأطروحة إن شاء الله تعالى . ويحسن بنا أن نتكلم عن مسمى هذا التفسير ؛ ذلك لأن الشعراوي ينفي أن تكون خواطره حول القرآن تفسيراً ، فكيف إذن يرضى أن يُكتَب على أغلفة تفسيره (تفسير الشعراوي) ؟ وحتى نقرر الرأي في هذه القضية لا بد أن نقف مع مدخل تفسيره لنرى ماذا يقصد من نفيه لأن تكون خواطره تفسيراً . فأقول :

قال الإمام الشعراوي ــ أول ما قال ــ في مدخل التفسير : " خواطري حول القرآن لا تعني تفسيرًا للقرآن ، وإنما هبات صفائية ، تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات . ولو أن القرآن من الممكن أن يُفسر ، لكان رسول الله ﷺ أولى الناس بتفسيره . لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلغ وبه علم وعمل . وله ظهرت معجزاته . ولكن رسول الله ﷺ اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم وهي افعل ولا تفعل . تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان إن فعلها ، ويعاقب إن تركها . هذه هي أسس العبادة لله سبحانه وتعالى ، التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض . أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها ؛ لأنها بمقياس العقل في هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلاً يفسد قضية الدين ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شئ "(1) .

فهذا صدر كلامه في مدخل التفسير ، ونقف الآن مع كلمة (خواطر) ، وهي جمع خاطر ، وأصلها خطر ، ويقال : " خطر ببالي كذا خطرًا ، وذلك أن يمر بقلبه بسرعة لا لُبث فيها ولا بُطء ."(2) ومعنى هذا أن الشعراوي كان يقرأ الآية أو الآيات ، ثم تخطر بباله

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص9 .

(2) معجم مقاييس اللغة ــ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ) :ج2 ص199 مادة (خطر)

أفكار فيطرحها ، أي ما يخطر في القلب يظهره على اللسان ، وهذا ما عبَّر عنه بقوله : " وإنما هي هبات صفائية تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات ." هذه العبارة مشربة ببعض ألفاظ المتصوفة (هبات صفائية) لكن لعله لم يقصد بها ما قصده المتصوفون إنما قصد بها أن هذه الخواطر ، إنما هي هبات من الله يعطيها لمن آمن به ، واستقام على منهجه ؛ لأن الدين لا يعطيه الله إلا لمن أحبه ، والمؤمن الذي يتقي ربه ويخشاه يفيئ الله عليه من خزائن علمه ، وهو سبحانه القائل :﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (من الآية 282 سورة البقرة) . فهذا العلم يهبه الله للمؤمن التقي .

فمقصد الشعراوي إذن من قوله : " هبات صفائية ..." أي عطاءات من خزائن علم الله يعطيها للعبد المؤمن .

ونعود إلى قوله : " خواطري حول القرآن الكريم ليس تفسيرًا للقرآن " . هذا الكلام ينفي فيه أن تكون خواطره تفسيرًا ، ويعلل ذلك بأن القرآن لا يمكن أن يُفَسَّر ، ولو أنه من الممكن أن يفسر لكان رسول الله ﷺ أولى الناس بتفسيره لنزوله عليه ، وانفعاله به ، وعلمه وعمله به . ولأنه معجزته .

إذن الشعراوي يتحرج من أن يسمي خواطره تفسيرًا . ولا حرج في تسميته تفسيرًا ، لأن التفسير علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية (1) . وما دام التفسير مقيداً بقدر الطاقة البشرية فلا حرج في تسميته تفسيرًا ، لكن إن خرج عن استطاعة البشر فيصبح حينئذٍ تكلفًا وتحميلاً للآيات ما لم تحتمله ، ويصير خارجًا عن دائرة الصواب ، ولا يُسمى تفسيرًا ، وقد قلنا إن التفسير نوعان : تفسير بالمأثور ، وتفسير بالرأي . والرأي منه الجائز ، ومنه غير الجائز . وإذا نظرنا إلى تفسير الشعراوي فسنجد أنه بالرأي الجائز ، فلماذا أحجم الشعراوي عن تسمية تفسيرًا ، وعدل إلى تسميته خواطر ؟ قال : لأن القرآن لا يمكن أن يُفسر ، ولو أنه من الممكن أن يفسر لكان الرسول ﷺ أولى الناس بتفسيره . ثم قال : " ولكن رسول الله ﷺ اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجاتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف " . قال : " أما الأسرار المكتنزة في القرآن الكريم حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها " . كأن كلامه هذا يبين أن نفيه لأن تكون خواطره تفسيرًا من باب التورع ، ولئلا يتعدى مقام النبوة ، لأن النبي ﷺ بين للناس آنذاك من القرآن على قدر حاجتهم ، ولم يبين لهم كل شئ في القرآن ، وقد استجدت أمور فيما بعد وتطور العلم ، وبدأت أسرار القرآن المكتنزة تظهر ، وهذه الأمور تفسر لنا بعض

---

(1) مناهل العرفان : ج2 ص4 .

الآيات التي تشير إلى العلوم والأسرار المكتنزة . فإذا كان النبي ﷺ لم يفسر هذه الآيات ، فنحن من باب التورع لا نقول عن خواطرنا حولها تفسيرا ، وإنما نسميها (خواطر) . هذا ما يفهم من كلام الشعراوي ، أما أنه ينفي التفسير عن القرآن مطلقا إلا للنبي ﷺ فهذا مستبعد ، والدليل على ذلك أنه كان يصرح أحيانا بلفظ (التفسير) [1] ، وما دام قد صرح بذلك فهو يعترف بأن هذا تفسير .

ثم إننا لو نظرنا إلى تفسيره لوجدناه يتبع فيه طريقة المفسرين من ذكر أسباب النزول ، والمناسبات والنسخ ... إلى غير ذلك مما تعارف عليه أهل التفسير . ومعنى هذا أنه لم يأت بطريقة مبتدعة في التفسير ، حتى يخاف من تسمية تفسيره تفسيرا .

إذن ، لا بد أن يكون قصد الشعراوي من قوله : (خواطري حول القرآن الكريم لا تعني تفسيرا) أنه نفي من باب التورع . فإن لم يكن يقصد ذلك أوقع نفسه في التناقض .

وقوله ــ رحمه الله ــ :" أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها " إشارة إلى التفسير العلمي ، الذي كلما تقدم العلم كشف عن سر من الأسرار المودعة في آيات الكتاب التي تشير إلى ذلك الاكتشاف .

وقوله : " بما علم رسول الله منها " لا يصح ، إذ إن مفهوم كلامه أن ما علمه رسول الله ﷺ من تلك الأسرار فسره ، أي أنه كان يعلم شيئا محدودا من تلك الأسرار وهو الذي فسره ، وهذا التفسير كان بمقياس العقل في ذلك الزمان . وهذا مخالف لما تعارف عليه العلماء من أن الرسول ﷺ كان يعلم القرآن جملة وتفصيلا [2] فقد علم ﷺ القرآن تفصيلا ، لكنه فسر لهم ما تطيقه عقولهم ، لئلا يحدث الجدل والتكذيب لله ولرسوله ، هذا ما ينبغي أن يقال .

ــ **تفسير القرآن العظيم :** وهو من طباعة دار التراث الإسلامي ، وهو كتاب كبير الحجم جمع فيه تفسير بعض قصار السور . وتسمية الكتاب بهذا الاسم يشي إلى أنه تفسير للقرآن كاملا ، والثابت غير ذلك . فكان الأولى أن يسمى « تفسير بعض قصار السور » كي يتناسب مع مضمونه .

ــ **آية الكرسي :** وهو كتاب صغير الحجم ، يتناول فيه آية الكرسي بالتفسير . والملاحظ على هذا الكتاب أنه مكرر من تفسيره ، إذ هو مأخوذ منه حرفيا ، وبالتحديد من تفسير آية الكرسي وقبسات من تفسير آيات أخرى . وهذا تكرار واضح . ربما يكون ممن قاموا بجمع الكتاب ممن يعملون في دار أخبار اليوم .

---

(1) انظر مثلا تفسير الشعراوي : ج10 ص6066 .

(2) انظر التفسير والمفسرون ج1 ص36 . والتفسير ومناهج المفسرين : ص27 ــ 28 .

ـ **قصص الحيوان في القرآن :** وهو كتاب في التفسير الموضوعي ، إذ هو يتناول موضوعاً من خلال القرآن الكريم . وهو كتاب جيد ، لكن يحتاج إلى إعادة ترتيب حتى يكون علمياً . وهو يحتوي على موضوعات متنوعة لا تخرج عن موضوعها الأصلي .

ـ **المرأة في القرآن :** وهذا أيضاً يعتبر تفسيراً موضوعياً . وهو مكون من سبعة فصول تكلم خلالها عن أمور شرعية تتعلق بالمرأة ؛ كالزواج والطلاق والعمل ونحوها ، وعن تكريم الإسلام لها ، وإنصافها حقها ، وتعاون المجتمع الإسلامي معها ، كل ذلك من منظور قرآني .

2 ـ كتب الإعجاز :

ـ **معجزة القرآن :** وهو كتاب مكون من ثلاثة أجزاء صغيرة . وإذا ما نظرنا إلى مضمون الكتاب وجدناه عبارة عن موضوعات متفرقة في التفسير ، بحيث لا تستطيع حصره في موضوع معين . وأما كلامه عن الناحية الإعجازية فهو قليل . وأكثر كلامه ـ في الإعجاز عن حوادث خارقة للعادة حدثت مع الأنبياء أو مع غيرهم مثل : مريم ، وأصحاب الكهف أو أنه يفرق بين معجزة القرآن ومعجزات الأنبياء السابقين . أو يذكر وجوه الإعجاز في القرآن . أما القسط الوافر في الكتاب فيتحدث فيه تارة عن خلق السموات والأرض ، وأخرى عن ظواهر كونية كالليل والنهار ودوران الأرض ، وتارة يتكلم عن السحر ، وأخرى عن الحسد ... الخ مما لا علاقة له بالإعجاز القرآني إلا عن بُعدٍ عظيم .

ـ **معجزة القرآن** ـ مقرر لطلاب المدارس ـ : وهو كتاب صغير مقتبس من كتاب (معجزة القرآن) الكبير . وقد اختيرت منه بعض الموضوعات ، ثم اختُصِرت وتم طبعها في كتاب خاص ، وقررته وزارة التربية والتعليم في مصر وفلسطين على طلابها كمنهج دراسة .

ـ **معجزات الرسول :** وهو يتكون من ستة فصول : الأول عن معنى المعجزة . الثاني عن معجزة القرآن والفرق بينها وبين معجزات الأنبياء السابقين . الثالث : المعجزات المادية لرسول الله ﷺ . الرابع : معجزات مع أجناس الأرض ، وقد تحدث فيه عن المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ كنبع الماء من بين أصابعه ، وأنين الجذع له . الفصل الخامس : معجزات مع النبات والحيوان والإنسان . السادس : معجزات لم تحدث .

ـ **شرح معجزات الأنبياء والمرسلين :** وهو كتاب كبير ، يحتوي معجزات الأنبياء والمرسلين منذ آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ . وقد شرح فيه الإمام الشعراوي كل معجزة من هذه المعجزات حسب ورودها في القرآن الكريم .

فهذه كتب الإعجاز للإمام الشعراوي . والحقيقة أننا لا نسلم بكل ما جاء في هذه الكتب من الكلام على المعجزة والإعجاز . صحيحٌ أن الله أجرى على يدي أنبيائه معجزات ، لكن أن نسمي كل ما نُسب إليهم من الأفعال ، أو ما أحدثه الله فيهم ، أو ما حدث لغيرهم ـــ معجزة ! هذا شئ غير مقبول . وعلى سبيل المثال : ما حدث لمريم ـــ عليها السلام ـــ ، لا يُسمَّى معجزة ، وكذلك ما حدث لعيسى ﷺ من الكلام في المهد ، وسجود الملائكة لآدم ﷺ ... إلى غير ذلك مما يسميه الشعراوي معجزة ، وإن كان من هذه الأحداث والأفعال ما هو خارق للعادة . والذي أريد أن أقوله : إن المعجزة لها شروط ، ولها ضوابط تُعرف بها ، فإذا اختل شرط من هذه الشروط ، أو ضابط من هذه الضوابط ، فاعلم أن هذا الأمر الخارق للعادة ليس معجزة . وإذا أردت معرفة شروط المعجزة فانظر الحاشية (1) .

ويؤخذ على هذه الكتب ـــ أيضاً ـــ كثرة التكرار ، إذ هو يكرر القضية الواحدة بأساليب متشابهة ، وهذا يعمل على تكثير كتبه ، وضخامة حجمها بما لا يزيد فائدة .

3 ـــ كتب العقيدة :

ألف الشعراوي في العقيدة بعض الكتب ، أكثرها كتب صغيرة الحجم . وإليك هذه الكتب :

ـــ **الحياة البرزخية وعذاب القبر :** أشار الأستاذ عبد الله حجاج في مقدمة الكتاب إلى كيفية كتابة هذا المؤلَّف وغيره من مؤلفات الشيخ الشعراوي . وأشار أيضاً إلى أن هذا الكتاب سيصدر في كتيبات صغيرة تيسيراً للقارئ ، وعموم النفع ، هذه الكتيبات كل واحد منها يحمل موضوعاً مستقلاً عن الآخر ، وهي :

ـــ الحياة البرزخية وعذاب القبر .
ـــ علامات القيامة الصغرى .
ـــ علامات القيامة الكبرى .
ـــ أهوال يوم القيامة .
ـــ الشفاعة والمقام المحمود .
ـــ الجنة .. وعد الصدق .

---

(1) شروط المعجزة بإيجاز :

1 ـــ أن تكون من الله تعالى ، أي من متعلقات قدرته دون غيره .
2 ـــ أن تكون خارقة للعادة .
3 ـــ أن تظهر على يد مدعي النبوة .
4 ـــ أن تكون مقرونة بدعوى النبوة .
5 ـــ أن تكون موافقة للمطلوب .
6 ـــ ألا تكون مكذبة للمدعي .
7 ـــ أن تتعذر معارضتها .
8 ـــ ألا تكون في زمن نقض العادات .
9 ـــ أن يتحدى بها الرسول من تناولتهم دعوته ، وشملتهم رسالته .

انظر : دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق : ص113 ـــ 114 . والعقيدة الإسلامية وأسسها : ص339

ـ النار أهوالها وأحوال أهلها .

وذلك إلى أن ييسر الله تعالى إصداره في مجلدين كاملين [1].

وقد وقفت منها على كتابين :

الأول : الحياة البرزخية وعذاب القبر :

عرض فيه لعدة موضوعات بعضها يتعلق بالحياة الدنيا ، والقسط الآخر يتكلم فيه عن الحياة الأخروية ، كحياة البرزخ ، وبعض ما يحدث فيها من النعيم أو العذاب ، وعن أمور تتعلق بالموت .

الثاني : جهنم أهوالها وأحوال أهلها :

تكلم فيه عن دور الحدود في دفع العذاب ، وتكلم عن الجنة ، والطريق إليها ، والنار وعذابها وصفاتها وأحوال أهلها فيها ، والأعمال الموجبة لها ، وما يجري بين أهل الجنة وأهل النار من الحوار ، وخروج العصاة منها ، وعن القصاص يوم القيامة ، وأمور أخرى .

ـ **الحياة والموت :** يحتوى هذا الكتاب على ستة فصول ؛ الأول منها حول بداية الحياة وقوانينها ومستلزماتها (الروح) . والثاني عن حقيقة الحياة . والثالث عن الموت وحياة القبر . الرابع عن الإنسان والخلود والمراحل التي يمر بها . وعن حكم المنتحر . الخامس تكلم فيه عن الحياة الدنيا ، والهدف من خلق الإنسان فيها . السادس عن الحياة الآخرة ، والبعث والجنة .

ـ **نهاية العالم :** يتكون هذا الكتاب من ستة فصول : الأول : المتغير والثابت . والثاني عن بداية الإنسان ونهايته . الثالث : الاستقبال الإيماني للحياة . الرابع : المألوف ينتهي . الخامس : الثابت يتغير . السادس : ونعرف الحقيقة . وتحدث فيه عن نهاية العالم كما يصورها القرآن ، وعن عبادة الإنسان لعقله ، وكيفية عودة الأجساد ، والإنسان وعناصر الأرض .

ـ **يوم القيامة :** ويتكون من ستة فصول تتحدث عن مشاهد ليوم القيامة . الأول : لماذا يوم القيامة ؟ . الثاني : الحياة والموت . الثالث : قبل يوم الحساب . الرابع : البعث من القبور . الخامس : أرض الميعاد . السادس : قبل يوم الحساب . وهذا العنوان الأخير تكرار لعنوان الفصل الثالث . وكان الأجدر ألا يكون ذلك ، وأن يُغيّر العنوان ، ويستبدل بغيره .

ـ **مشاهد يوم القيامة :** يتحدث فيه الشيخ عن معنى الوجود ، والاختيار والحساب ، ويوم البعث والحشر والحساب ، وأصحاب الأعراف ، وأهل الجنة وأهل النار .

---

(1) الحياة البرزخية وعذاب القبر ـ للشيخ الشعراوي : ص11 .

ــ **القضاء والقدر** : وهو مكون من ستة فصول ؛ تكلم فيها عن مشيئة الله ، والتكليف والاختيار البشري ، وتكلم عن القدر ودوره في اختيار الإنسان . وتكلم عن طلاقة قدرة الله ، والهداية والإرادة ، وإحاطة علم الله بكل شئ .

ــ **الخير والشر** : يحتوي هذا الكتاب على فصول خمسة . تكلم خلالها عن الخير والشر في الكون ، من حيث معناهما ، ومفهومهما ، وحالهما في والدنيا والآخرة ، ومفهوم الناس للخير والشر .

ــ **السحر والحسد** : يحتوي هذا الكتاب على ستة فصول ؛ تدور حول السحر والحسد . تكلم في البداية عن السحر عن الملكين ــ هاروت وماروت ــ ، وعلاقة السحر بسليمان ﷺ ، ودور الشياطين في تعليم السحر ، وموسى ﷺ والسحر ، وكيفية الوقاية من السحر . وتكلم في آخر الكتاب عن الحسد .

ــ **الغيب** : وهو يحتوي على ستة فصول ؛ تكلم فيها عن معنى الغيب ، وعلاجه لمشاكل الحياة ، وعن كشف القرآن للغيب الماضي والحاضر والمستقبل ، وكذب العرافين ، وأشراط الساعة ، وعلم الله لما في الأرحام ، والرزق ، والموت .

ــ **الرزق** : وهو يحتوي على ستة فصول تدور حول الرزق ؛ من حيث بيان معناه وكيفية تقسيمه ودوره في حركة المجتمع واستمرارها ، وتكلم عن الرزق الحرام ، وكون ربط الرزق والعمل خطأ ، وهل الرزق يزيد وينقص ؟ ، وتكلم عن الأحجبة والأحجار وصلتها بالرزق .

ــ **الأدلة المادية على وجود الله** : وهو مكون من ستة فصول ؛ أولها بعنوان : أسباب الوجود . والفصل الثاني : وفي أنفسكم أفلا تبصرون . الثالث : الدليل الغيبي . الرابع : وفي الأرض آيات للموقنين . والفصل الخامس : الأدلة المادية ؛ منها الجنين كما يصوره القرآن ، وآيات أخرى كونية . والسادس : وفي كل شئ دليل ؛ العلم ، واللغة ، وغيرهما .

ــ **الشيطان والإنسان** : يحتوي هذا الكتاب على ستة فصول ؛ الأول تعريف بالشيطان ، من هو ؟ ، والثاني عن معصيته وسببها ، ومكان تواجده . الثالث : آدم والشيطان . وقد تكلم فيه عن تواجد آدم في الجنة ، ومعصيته . والرابع عن معصية آدم ومعصية إبليس . الخامس عن مداخل الشيطان إلى الإنسان . والسادس : الشيطان وجنوده . وتكلم فيه عن وجود الشيطان في بدر ، ونصر الله لرسله .

ــ **إنكار الشفاعة** .. محاولة جديدة للطعن في السنة والتهجم على العلماء وتكفير المسلمين وتخليد مرتكب الكبيرة في النار : جمع ودراسة وتحقيق عبد الله حجاج . والظاهر أن السبب

الداعي إلى جمع هذا الكتاب هو ــ كما يقول عبد الله حجاج ــ أنه أطل علينا في هذه الأيام طبيب بكلام غير مصطفى ، وفعل غير محمود . وتقيأ علينا ما في بطنه من سموم ، ووضعها في كتاب أسماه خطأ « الشفاعة » وهو أقرب إلى الفضيحة والشناعة [1].

وقد أفرد الكاتب موضوعا بعنوان : « إثبات الشفاعة والرد على المعتزلة من تفسير الفخر الرازي » . و « تفسير آيات الشفاعة للإمام الشعراوي » . ثم تكلم عن إنكار السنة ، وقضية تكفير المسلمين ، وتخليد مرتكب الكبيرة في النار ، وعن الفرق الضالة . وقد أثرى بحثة بنقل أقوال العلماء في كل جانب من هذه الجوانب . غير أن ما ورد بخصوص الإمام الشعراوي ــ وهو ما يهمنا ــ منقول نصيا من تفسيره ــ رحمه الله ــ ، اللهم إلا أن المحقق قام بإحداث بعض التغييرات في هذه النصوص من حذف وتغيير بعض العبارات .

ــ **مريم والمسيح :** تكلم فيه عن نزول عيسى عليه السلام ، وعن قصة ما قبل ولادته ، وصفاته ، ومعجزاته ، ومأثوراته ، ونزوله . وتكلم عن النصارى في دعواهم على عيسى عليه السلام ، وفتنتهم به، وكذب اليهود في دعواهم على مريم . وعن دروس مستفادة من قصة عيسى عليه السلام وقد قام المحققون ــ من مكتبة التراث الإسلامي ــ بعمل مقدمة للكتاب تتضمن سبب تسمية عيسى بالمسيح ، وما جاء في نزوله آخر الزمان ، وإجماع السلف على ذلك . وفي نهاية الكتاب أوردوا فتاوى حول عيسى عليه السلام ، وردت عن لجنة البحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية .

ــ **أسماء الله الحسنى :** وهو كتاب يتكون من أربعة أجزاء صغيرة ؛ تكلم في الجزء الأول عن موضوعات تتعلق بالأسماء الحسنى أخذت مساحة الجزء الأول . ثم بدأ الكلام عن الأسماء الحسنى متناولا لها اسما اسما ، مبينا معناها وفضائلها وأسرارها .

والموجود من هذه الأسماء في تلك الكتب ستة وخمسون اسما . ولعل الأجزاء الباقية التي تتناول بقية الأسماء بالتفسير والدراسة لم تصدر بعد .

ــ **الأنوار الكاشفة لما في كتاب العشماوي من الخطأ والتضليل والمجازفة :** وهو مقسم إلى بابين ؛ في الباب الأول رد الإمام الشعراوي على أحد الملحدين وهو محمد سعيد العشماوي صاحب كتاب (الخلافة الإسلامية) الذي خطأ فيه القرآن ، وأخطأ في حق الله ورسوله والمؤمنين ، خاصة الخلفاء الأربعة والمهاجرين والأنصار . فقام الشيخ الشعراوي بتفنيد هذه الأباطيل وردها . وفي الباب الثاني قد تكلم عن حرية الفكر عند المسلمين وغيرهم . وقد قام بتفنيد أباطيل وشبه تتعلق بهذا الجانب .

---

(1) إنكار الشفاعة : ص19 .

4 ـ كتب التاريخ والسير :

ـ محمد رسول الله ﷺ : وهو مكون من ستة فصول ؛ الأول منها : إعداد الكـــون لرســالة محمد ﷺ . والثاني : لماذا كان الرسول بشراً ؟ ، الفصل الثالث : الرسول والوحي . الرابـع : الرسول يدعو عشيرته . الخامس : وجاء مدد السماء . وهو يتحدث عـــن حادثـــة الإســراء والمعراج . الفصل السادس : القرآن والإعجاز الأبدي . وهو يتكلم فيه عن الإعجاز القرآني

ـ من هو محمد ﷺ : وهو يحتوي على ثلاثة فصول : الأول منها تكلم فيه عن مكـــة قبــل الرسالات حتى ولادة محمد ﷺ . والثاني : في صحبة محمد ﷺ . وقد تكلم فيه عن صفـــــات النبي ﷺ وأخلاقه ، وشيئاً عن إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى ـ عليهم السلام ـ . وفـــي الفصل الثالث تكلم عن إرسال النبي ﷺ ، وزواجه من خديجة ـ رضي الله عنها ـ ، وإسلام عمر ﷺ ، والعروض التي قدمتها قريش لمحمد ﷺ وزيادة التحدي له ﷺ .

ـ حفاوة المسلمين بميلاد سيد المرسلين ﷺ : يحتوي هذا الكتاب على موضوعات متعـــددة تبدأ بذكر وبيان صفاته ﷺ ، ثم حديث هند بنت أبي هالة ، ثم معجزاتـــه ﷺ وشـــمائله . ثـــم أسئلة موجهة للشيخ حول النبي ﷺ .

ـ الهجرة النبوية : تكلم في هذا الكتاب عن معنى الهجرة ، وفضلـــها ، وفضـــل الســـابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وجزائهم ، وعرض النبي ﷺ نفسه على القبـــائل ، وبيعـــة العقبة الأولى والثانية ، ثم هجرة النبي ﷺ وأسبابها ، وبعض الأعمال التـــي قـــام بـــها فـــي المدينة . ثم قصيدة (موكب النور) التي نظمها الإمام الشعراوي في هجرة الرسول ﷺ وهي مكونة من 66 بيتاً .

ـ الشعراوي .. أنا من سلالة أهل البيت : في مطلع الكتاب تكلم عن نسبته إلى أهل البيـت . ثم بعد ذلك تطرق الحديث إلى أهل بيت النبي ﷺ ؛ الحسن والحسين والسيدة نفيسة ، والســيدة زينب وغيرهم .

ـ الجهاد في الإسلام : وقد تناول فيه بعض أحكام الجهاد ، وعن تقوى الله والجهاد ، وكـــون الجهاد فتنة ، وفرضية القتال والإذن به وأولوياته . وتكلم عن جهاد الحجة والبيـــان ، وأورد شبهة حول انتشار الإسلام بحد السيف ـ كما قالوا ـ ودفع هذه الشبهة .

ولا بد من التنويه إلى أن أكثر هذا الكتاب فيه تكرار لما في تفسير الشعراوي .

ـ قصص الأنبياء : وهو كتاب مكون من خمسة مجلدات كبيرة . في البدايـــة تكلـــم حـــول القصص القرآني ، من حيث مفهومه ، والهدف منه ، والفرق بينه وبين قصـــــص الخلـــق ، وبينه وبين السيرة ، وبينه وبين الرواية . ثم شرع بعد ذلك في تفصيل قصص الأنبياء بدءاً

من آدم وانتهاء بعيسى ـــ عليهما السلام ـــ . وهو كتاب محقق ومدروس دراسة واسعة .

5 ـــ كتب الفقه :

ـــ **الفتاوى الكبرى :** وهو كتاب عظيم النفع ، كبير الفائدة ، حث الإمام الشعراوي على اقتنائه في كل بيت لما له من عظيم الفائدة في تبصير المسلمين بأمور دينهم . وهو مكون من جزئين كبيرين . يحتوي على مسائل في كافة أصول الدين وفروعه ، وكثير من القضايا المعاصرة . وهو على نمط السؤال والجواب . وقد قام مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة بدراسته وتحقيقه والتعليق عليه .

ـــ **الحلال والحرام :** وهو كتاب يحتوي على ستة فصول تتكلم عن موضوعات متفرقة ، حول الحلال والحرام ؛ من حيث معناه ، وكونه قانون حياة ، والنص على عدم الفواحش ، وأثر الحلال في النفس . وتكلم عن الربا ، وتحريم بعض المطعومات . ودور السنة في التشريع . ثم تكلم عن الحياة العصرية بين الحلال والحرام ؛ كالاقتراض من البنوك والرياضة والغناء .

ـــ **زكاة الورعين :** وقد تكلم في بدايته على جوانب الترغيب والترهيب في الزكاة من حيث البر ، وزكاة الورعين ، وزكاة الورعين وبنوك الرحمن ، والزكاة بناء اقتصادي واجتماعي ثم تكلم عن الاكتناز ، وأنواع الإنفاق ، وتطهيرها للنفس . وتكلم عن زكاة الحق المعلوم ، ووجوبها على من ملك النصاب . وذكر نصاب كل ما تجب فيه الزكاة . ثم فتاوى تتعلق بالزكاة .

ـــ **التداوي بالصيام :** وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : أحكام الصيام ومشروعيته وهو من خواطر الإمام الشعراوي . والقسم الثاني : هدي النبي ﷺ في الطب والتداوي . وهو من إعداد ودراسة مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة . والقسم الثالث : فتاوى الصيام الطبية المبيحة للفطر . وهو من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ، ونخبة من كبار علماء المملكة العربية السعودية .

والقسم الأول من الكتاب ـــ وهو الذي يهمنا ـــ يتضمن موضوعات حول الصيام من حيث تشريعه ومعناه ونزول القرآن في شهر رمضان وبعض المسائل الفقهية حول الصيام . وتكلم عن الفوائد الطبية للصيام .

ـــ **أحكام الصيام :** هذا الكتاب فيه تكرار لبعض الموضوعات في الكتاب السابق . اللهم إلا أن الكتاب السابق مختصر عن هذا الكتاب في بعض الموضوعات . ومن الموضوعات التي طرحها في كتابه هذا هي : فرض الصيام ، والنية فيه ، وصيام أصحاب الأعذار ،

والأمراض المبيحة للفطر ، والسحور وأحكامه ، وبعض أحكـــام الصيـــام ، والاعتكـــاف ، وموضوعات أخرى .

ــ **منهاج الصالحين في معرفة أوامر ونواهي رب العالمين :** يتكون هذا الكتاب مـــن عـــدة أجزاء صغيرة . وقفت منها على الجزء الأول . وقد نص محققوا الكتاب في مقدمتـــه علـــى تصدير الكتاب بالاستعاذة ، ثم البسملة ، ثم يليها الفاتحة ، والآيات الخمس الأُوَل من ســـورة البقرة وخاتمتها . ثم بعد ذلك البدء في تقديم أوامر ونواهي رب العالمين .

وقد استوعبت القضايا الثلاث الأولى المطروحة ســـابقاً الجـــزء الأول ، أي الكـــلام علـــى الاستعاذة والبسملة والفاتحة إلى مطلع الآية السادسة منها . والملاحظ على هذا الكتـــاب أنـــه تكرار لما في تفسير الشعراوي لتفسير الاستعاذة والبسملة والفاتحة . اللـــهم إلا أن المحققيـــن اختصروا في العبارات ، وأحدثوا بعض التغييرات لبعض الألفاظ .

6 ــ كتب الترغيب والترهيب :

ــ **أحكام الصلاة وصفة صلاة النبي ﷺ كأنك تراها :** وهو كتاب في الترغيب فـــي الصـــلاة والترهيب من التخلف عنها . يتضمن موضوعات متعددة حول الصلاة ؛ كفرضيتها ، وكـــون ثوابها بخمسين ، وصلاة القانتين ودوام الولاء لله ، وتكفيرها للذنوب ، وتفريجـــها للـــهموم ، وصلاة الجمعة ، والمحافظة على الصلاة في ميقاتها ، وفضلها ، والكسل عن الصـــلاة مـــن علامات النفاق ، وقيام الليل ، وكون الصلاة أرجى أوقات قبول الدعاء .

ــ **الدعاء المستجاب :** وهو كتاب مكون من فصول ستة . يحتوي على موضوعات متعـــددة حول الدعاء وبيان فضله ، وأرجى أوقاته ، وأثر المال الحرام علـــى اســـتجابته ، وعلاقـــة الدعاء بالقدر ، والشفاعة يوم القيامة .

ــ **الذكر والدعاء :** وهو كتيب صغير . تكلم فيه فضيلته عن الذكر وشروطه وآدابه ، وســـيد الاستغفار ، والتوكل . وتكلم عن مواطن الذكر والدعاء ، وبعض دعاء الأنبياء والمرســـلين ، والدعاء بأسماء الله الحسنى .

ــ **الأذكار والحكم الشعراوية :** وهو كتيب صغير الحجم . جمعه الشيخ محمد عارف ــ مـــن مريديه والمقربين إليه ــ . وهو يحتوي على أذكار وحكم وأدعية من قول الإمام الشعراوي

7 ــ كتب ثقافية :

ــ **الطريق إلى القرآن :** وهو كتاب يتكون من خمسة فصول ؛ تكلم فيها عن هداية القـــرآن ، وكيفية نزول الوحي على محمد ﷺ ، وكيفية فهم الاستعاذة ، وبعض أسرار البسملة .

ــ **من فيض الرحمن :** هذا الكتاب يتكون من أربعة أجزاء صغيرة ، ويحتـــوى عـــلـــى

موضوعات عامة وشاملة . والملاحظ على هذا الكتاب أن الشعراوي ينحو فيه منحى التفسير فهو تفسير أكثر من غيره . بل إن كل كتبه يميل فيها إلى التفسير .

وبعد . فهذا عرض لتراث إمام الدعاة ــ الإمام الشعراوي ــ ، ذكرت فيه ملخصاً لموضوعات كل كتاب من كتبه . وأعود وأذكر إلى أن كل ما صدر عن غير مكتبة التراث الإسلامي ، وأخبار اليوم لا يعترف الإمام الشعراوي بنسبتها إليه . وأرى من المناسب أن أسوق كلامه ــ رحمه الله ــ بطوله بخصوص هذا الموضوع .

يقول ــ رحمه الله ــ : " محمد متولي الشعراوي لا يقر أي كتاب ينشر عنه لغير دار الأخبار ومكتبة التراث الإسلامي ، وكل ما عدا ذلك لا يمثل رأيه ، فإنهم إن أصابوا في شئ فقد أخطأوا في أشياء ليخدموا أهواءهم ولو أنهم أصابوا في الجميع لكنا قد تسامحنا معهم معاونة على لقمة العيش ، ومن عجيب أن كتاباً اسمه الفتاوى ظهر منسوباً إليَّ بعد قضية طال أمدها بيني وبين من يدعي نسبة الكتاب إليَّ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد خاب من افترى . وحسبي بلاءً حتى من أحبابي أن ينشر سعيد أبو العينين كتاباً وعلى غلافه صورة مزورة لي ، فوالذي نفسي بيده ما لبست مثل هذه العمامة أبداً ، وحسبي الله فيه وفي كل من يدعي عليَّ ما ليس فيَّ ، أولم يكفه أنه نشر على الملأ كلاماً في مجلس خاص ولا يصح أن يطلع عليه كل العالم .

وأخيراً فحسبي الله ونعم الوكيل ، وأفوض أمري إلى الله ، وليس لها من دون الله كاشفة ، اللهم إن كنت صادقاً فيما قلت فخذ لي حقي من كل هؤلاء .

محمد متولي الشعراوي " (1)

فإذا كان هذا كلامه فلا بد أن يعتمد الباحث على منشورات هاتين المكتبتين فقط . وأرى من الحكمة أن أذكر مجرد ذكر منشورات غير هاتين المكتبتين :

* **منشورات دار الروضة :**

ــ الأحاديث القدسية . 5 أجزاء صغيرة .
ــ أوصاف أهل الجنة .
ــ أصحاب الجحيم
ــ صلاة الخاشعين .
ــ الزوجة الصالحة
ــ الدعاء وأذكار الصباح والمساء
ــ سؤال وجواب ونصائح ذهبية في التربية الإسلامية
ــ هذا ديننا .

---

(1) حاشية كتاب : الفتاوى الكبرى ــ الشيخ محمد متولي الشعراوي : ج1 ص4 .

* **منشورات دار الفتح الإسلامي :**

ــ الفتاوى .

* **منشورات دار الاعتصام :**

ــ الشعراوي وأدوات البيان . وهو عبارة عن موضوعات عامة بعيدة عن البيان .

* **منشورات المكتب العربي :**

ــ الإنس والجن .

وأود أن أبدي ملاحظة على المكتبتين اللتين توكلتا بنشر كتب الإمام الشعراوي . الذي لاحظته أن مكتبة التراث الإسلامي تُصدر كتبها غاية في الروعة ، إذ هي محققة ومدروسة دراسة موسعة . فقلما تجد كتاباً منها غَير محقق ولم يجر عليه تعليق ، والحواشي في كتبهم أكبر من المتن ــ كلام الشعراوي ــ ، ويستدلون على ذلك بأقوال الأئمة من السلف والخلف ، ويخرجون الأحاديث ، ويشرحون الغريب من الألفاظ . وفي النهاية تجد فهارس للآيات وللأحاديث وللأعلام وللبلدان ، وللموضوعات ، انظر مثلاً كتاب قصص الأنبياء ــ للشعراوي . بينما لا نجد ذلك في مطبوعات دار أخبار اليوم .

هـ) ثناء العلماء عليه :

لقد نال الإمام الشعراوي ثناء العلماء ، وفرض نفسه بعلمه الجم ، وأسلوبه السلس ، ونباهته الفذة . فنال بذلك درجة سامية بين العلماء ، ومرتبة مشرفة بين الأتقياء .

ومن تمام القول أن أورد بعض ثناء العلماء على الإمام الشعراوي :

ــ يقول **الدكتور أحمد عمر هاشم** ــ رئيس جامعة الأزهر ــ : " إنه واحد من الذين لهم قدم صدق عن ربهم ، أحب القرآن فأفضى إليه بأسراره ، وأحب رسول الله ﷺ فأفاض عليه من أنواره ، فانطلق بقلبه الموصول بربه يفسر القرآن الكريم ، يحلل المعاني ، ويقف مع كل آية وكلمة وحرف ، ييسر المعاني العميقة ، حتى يدركها العالم والجاهل ، والمثقف والأمي ، وتلك موهبة فذة ، وقدرة نادرة لا تتأتى إلا لمن ملك ناصية البيان ، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً "(1).

ــ وقال **الدكتور محمد رجب البيومي** : " والوضوح الساطع هو مفتاح شخصيته الذي يلج به الإنسان إلى اكتشاف مكنوناته ، هذا الوضوح نراه في الأسلوب كما نراه في السلوك ، إذ أنت

---

(1) الإمام الشعراوي مفسراً وداعية : ص122 .

تستمع إلى شرحه في أدق مسائل علم الكلام كالجبر والاختيار ، والإرادة والقدرة فتجد الذين يصاولون بقضايا المنطق ويرصدون النتائج وفق المقدمات في هذه المسائل ، لا يبلغون من القارئ معشار ما بلغ ! وكان الشيخ قد أدرك ذلك إدراكاً قوياً ، فآثر أن يتجنبه إلى ما يسمى عند البيانيين بالسهل الممتنع واضحاً في هذه السلاسة التي تروقك بعذوبتها الآسرة ، فتظن أنك قادر على محاكاتها ، ولكنك تعترف بالعجز عند الخطوة الأولى ، وهي التي جعلت سامعي الشيخ على اختلاف قدراتهم العقلية يجدون لديه ما ينشدون " (1) .

ــ ويقول **الشيخ يوسف القرضاوي** : " الشيخ الشعراوي كان أحد كبار مفسري القرآن الكريم الذي سيبقى أثرهم طويلاً في خدمة الدين الإسلامي "(2) .

ــ ويقول **الدكتور محمود حمدي زقزوق** تحت عنوان : « عظيم من القلة تزدهر بهم الحياة » : " عرفناه علماً من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر وقطباً من أقطاب المفسرين العظام لكتاب الله على هدى وبصيرة ، بأسلوب فريد يأخذ بالألباب ، ويأسر القلوب والعقول " (3) .

ــ وقد نقل الكاتب محمد يس جزر عن جريدة الجمهورية الصادرة بتاريخ 1980/8/9م قول الأستاذ **عبد المنعم الصاوي** عن الإمام الشعراوي : " فضيلة الإمام محمد متولي الشعراوي بحر واسع العطاء ، وأحاديثة شائقة لا تمل . وأهم ميزة يتميز بها أنه يعيش فعلاً في المعاني التي يشرحها ، وتحس أنه قد تعمقها حتى صار جزءاً منها ، أو صارت هذه المعاني جزءاً منه ، تحرك لسانه ويديه وكل خلجة من خلجاته . ومن خلال هذا التفاعل بين العالم الكبير ، والمعاني التي تتدفق من بين شفتيه يؤثر في سامعيه تأثيراً عميقاً فتتعلق أنظارهم به ، ويشتد انتباههم إليه ، ولا يشعرون بالوقت يمر ...

وتزداد مهمة الشيخ صعوبة عندما نتصور أنه لا يخاطب طبقة من الخاصة ، أو لفيفاً من العلماء ، ولكنه يخاطب الناس كافة ، فيصبح عليه أن يختار أسلوباً يمثل الحد المتوسط بين جميع العقول " (4) .

فهذه نبذة من ثناء العلماء على الإمام الشعراوي ، فهو أهل للثناء .

---

(1) محمد متولي الشعراوي .. جولة في فكره الموسوعي الفسيح : ص32 وانظر ص30 ، 40 .

(2) انظر : مذكرات إمام الدعاة : ص88 .

(3) انظر : مذكرات إمام الدعاة : ص11 .

(4) انظر : عالم عصره في عيون معاصريه : ص8 بتصرف .

خلاصة الفصل :

هكذا يظهر لنا من خلال هذا الفصل حياة الإمام الشعراوي ــ رحمه الله ــ ، اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، وتبين لنا عقيدته حيث إنه سلفي متأثر بالصوفية ، وتأثره بالمذهب الحنفـــي ، وظهر لنا كيف كانت نشأته وحياته العلمية والدعوية ، والوسط الذي كان يعيش فيه مما كـــان له تأثيره على الإمام . وتبين لنا تميز شخصية الشعراوي ، وثناء العلماء عليه .

والله الموفق والمستعان

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الرسائل الجامعية
333

الفصـــل الثاني

التفسير بالمأثور عند الشعراوي ... منهجه وأصوله

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : منهجه في التفسير بالمأثور :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تفسير القرآن بالقرآن .

المطلب الثاني : تفسير القرآن بالسنة .

المطلب الثالث : تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .

المبحث الثاني : أصول التفسير بالمأثور عند الشعراوي :

وفيه اثنا عشر مطلباً :

المطلب الأول : كيفية إنزال القرآن .

المطلب الثاني : أسباب النزول .

المطلب الثالث : القراءات القرآنية .

المطلب الرابع : ترتيب القرآن وتحزيبه .

المطلب الخامس : النسخ .

المطلب السادس : المكي والمدني .

المطلب السابع : ما وقع في القرآن بغير لغة العرب .

المطلب الثامن : المحكم والمتشابه .

المطلب التاسع : المبهمات .

المطلب العاشر : القصة .

المطلب الحادي عشر : السيرة .

المطلب الثاني عشر : الإسرائيليات .

مقدمة الفصل :

يعتبر التفسير بالمأثور أصح التفسير لكتاب الله تعالى ، وعلى المفسر أن يطلبه من القـرآن أولاً ، فإن لم يجد فمن السنة ، فإن لم يجد فعن الصحابة ، فإن لم يجد فعن التابعين .

وفي هذا الفصل سنتناول منهج الشعراوي في هذه المصادر الأربعة ، إضافة إلـى ذلـك عرضه للقراءات القرآنية ونزول القرآن . والأصول التي لا غنى عنها في تفسـير القـرآن الكريم ؛ كالنسخ وأسباب النزول ونحوها ، فإلى التفصيل .

المبحث الأول : منهجه في التفسير بالمأثور :

سبق أن بينا في التمهيد معنى التفسير بالمأثور ، ومراحل تدرجه ، وأشـــهرالمؤلفات فيـه . وفيما يلي نبين منهج الشعراوي في التفسير بالمأثور ، فنقول وبالله التوفيق :

المطلب الأول : تفسير القرآن بالقرآن :

اشتمل القرآن على المطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، والإطنـاب والإيجـاز ، والعمـوم والخصوص ، فما أطلق في مكان قد يلحقه التقييد في مكان آخر ، وما أجمل في موضع قـد يلحقه الإيضاح في موضع آخر ، وما كان موجزاً في سورة قد يجـئ مطنبـاً فـي سـورة أخرى ، والعام قد يلحقه التخصيص . وقد أشار الشعراوي إلى ذلك إجمالاً بقوله : " ولذلـك أقول دائماً لا بد لنا أن نأخذ القرآن جملة واحدة ، ونأتي بكل الآيات التي تتعلق بـالموضوع لنفهم المقصود تماماً "[1].

ولهذا فإن الشعراوي يستشهد كثيراً بالآيات أثناء التفسير . وسأفصّل منهجه فـي تفسـير القرآن بالقرآن من خلال النقاط الآتية :

أولاً : المجمل والمبين :

يقصد بالمجمل : ما لم تتضح دلالاته [2] ، والمبين ما وضحت دلالاته . وكثيراً مـا تحـدث الإشكالات عند الوقوف على المجمل وعدم النظر إلى المبين ؛ ولذلك نجد الشـعراوي ينبـه على ذلك ، كما عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (من الآية 213 سورة البقرة) .

يقول : " ولقائل أن يقول : إذا كان الناس أمة واحدة ، وقد رتب الله بعث وإرسـال النبييـن على كونهم أمة واحدة ؛ فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس ؟ ونقـول : لا بـد أن تُحمل الآية المجملة على آية أخرى مفصلة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) ﴾ (سورة يونس) . لا بد لنا إذن أن نأخذ هذه الآية في ظل آية سورة يونس" [3]. فقد بينت الآية في سـورة يونـس الإجمال في سورة البقرة ، وهو « فاختلفوا » .

---

(1) تفسير الشعراوي المسمى (خواطر حول القرآن الكريم) : ج2 ص837 .

(2) الإتقان : ج2 ص49 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص903 .

كما أننا نجده عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (28) ﴾ (سورة الأعراف) ، فنجده يقول في تفسير الفاحشة ما نصه : " فما هي الفاحشة ؟ . إنها الفواحش التي تقدمت في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ [1] ﴾ (من الآية 103 سورة المائدة) ، وكذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ (من الآية 137سورة الأنعام) ، وكذلك في قول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ (من الآية 136 سورة الأنعام) " [2] . فقد بينت هذه الآيات تفسير ما أجملته آية الأعراف « فاحشة » .

والشعراوي ـــ رحمه الله ـــ كثيراً ما يستشهد بآية مبيّنة ليوضح الآية المجملة [3] .

ثانياً : الإيجاز والإطناب :

يعتبر الإيجاز والإطناب من أعظم أنواع البلاغة ، حتى قيل : " البلاغة هي الإيجاز والإطناب "[4].

ولو نظرنا في تفسير الشعراوي لما وجدناه يصرح بالإيجاز والإطناب ، غير مواضع قليلة ربما لا تتجاوز أصابع يدي الرجل ، على شاكلة رده على أحدهم : " ... من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب ، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل ..." [5] .

غير أن من نظر في تفسيره للقصص القرآني وجد أنه يعرض لذلك دون تفصيل ، حيث إنه يأتي بالآيات المتفرقة في ثنايا السور ، والتي تتحدث عن قصة معينة ، فيأتي بها لاستكمال عناصر القصة التي يتناولها بالشرح [6]. وسنوضح ذلك في مطلب القصة بتوسع .

---

(1) عن سعيد بن المسيب قال : " البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : التي كانوا يسيبونها لآلهتهم ، فلا يُحمل عليها شئ . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ، ثم تثني بعد بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بأخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل عليه ، فلا يُحمل عليه شئ ، وسموه الحامي " .

أخرجه خ : ك / ب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ... ج3جـ5ص227 (ح4623) .

(2) تفسير الشعراوي : ج7 ص4104 .

(3) انظر على سبيل المثال : ج1 ص 38 6 ـــ 639 ، ج3 س1370 ، وص1444 ، وص1604 .

(4) الإتقان ج2 ص144 .

(5) تفسير الشعراوي : ج7 ص3973 .

(6) انظر مثلاً قصة نوح في سورة الأعراف في تفسير الشعراوي : ج7 ص4188 وما بعدها .

ثالثاً : العموم والخصوص :

قد لا نجد الشعراوي يصرح بأن هذه الآية تخصص تلك ، لكن الذي ذكره في تفسيره ويكرره هو قوله : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ومن هنا نفهم أن الشعراوي يميل إلى حمل الآيات على العموم ، وعدم تخصيصها بأفراد معينين . وأضرب لذلك مثلاً : عندما فسر قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (44) ﴾ (سورة البقرة) ، قال : " ولا بد أن ننبه إلى أنه إذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود ، فليست معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم ، بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعاً وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص الموضوع ، ولكن العبرة بعموم السبب " [1] .

لكن معلوم أن هناك آيات خاصة لا تعمم ، مثل أمر الله تعالى لنبيه بالتهجد ، وهو فريضة عليه ﷺ وحده كما قال تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) ﴾ (سورة المزمل)[2].

والشعراوي كان ينبه لخصوصية مثل هذه الآيات ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (15) ﴾ (سورة النساء) ، فنجده يقول : " والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين الرجل والمرأة ، نقول له : إن كلمة « واللاتي » هذه اسم موصول لجماعات الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر ففي هذه الحالة يقول الحق : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (16) ﴾ (سورة النساء) الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة " [3] . وهذا كان في بداية الإسلام ، ثم نُسِخ الحكم بالجلد مائة على البكر ، والرجم على المحصن ، كما أخرج الإمام مسلم عن عبادة بن الصامت ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : " **خذوا عني ، خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلاً . البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم** "[4] .

ومن ناحية أخرى فإننا نجده يذكر آيات تخصص غيرها دون أن يصرح بذلك ، على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ... (221) ﴾ (سورة البقرة) ، فيقول : " وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص303 ، وانظر ص 307 .

(2) انظر تفسير ابن كثير : ج4ص434 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2056 ــ 2057 .

(4) **مس** : ك الحدود / ب حد الزنى ج3ص1316 (ح1690) .

وتعالى رخص للمؤمنين في أن ينكحوا من أهل الكتاب بقوله الحق : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ [1] وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾ (سورة المائدة) " [2] . فقد خص سبحانه نكاح الكتابيات من المشركات .

رابعاً : الإطلاق والتقييد :

يقصد بالمطلق : ما دل على الماهية بلا قيد . ومتى وُجِد دليل على تقييد المطلق صير إليه ، وإلا فلا ، بل يبقى المطلق على إطلاقه ، والمقيد على تقييده [3] .

ومما ورد في تفسير الشعراوي من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) ﴾ (سورة البقرة) . يقول الشعراوي : " هذه الآية يقابلها آية أخرى ، يقول الحق فيها : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5) ﴾ (سورة المائدة) ، وإذا قارنا بين الآيتين نجد أن الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد ورد فيها قوله : « فيمت وهو كافر » ، وفي سورة المائدة لم يرد هذا ، وإنما ورد قوله : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » . وقد اختلف العلماء في المسألة اختلافات جميلة ، لكنهم اتفقوا أولاً على أن أي إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله . ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية ، أي لم يمت وهو كافر ، بل رجع فآمن بعد ردته ، فهل حبط عمله أم لم يحبط ؟ . وللإمام الشافعي رأي يقول : إن الذي يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر ، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التي كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له . والإمام أبو حنيفة له رأي مختلف ، فهو يقول : لا ، إن آية سورة المائدة ليس فيها « فيمت وهو كافر » ، وعليه فإننا نحملها على آية سورة البقرة التي ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد ، وعلى ذلك فالذي يكفر بعد إيمانه عمله محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أم لم يرجع ، فلا يحتسب له عمل " [4] .

---

(1) قوله تعالى : « غير مسافحين » : أي غير مجاهرين بالزنا . وقوله « ولا متخذي أخدان » : أي ولا مسرّين بالزنا . روح المعاني : ج4جـ6 ص99 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص962 ـ 963 .

(3) الإتقان : ج2ص28 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2ص931 .

ومفاد كلام الشعراوي أن اختلاف العلماء فيمن يرتد ثم يعود للإسلام . فالإمام الشافعي يرى أن أعماله التي كانت قبل الارتداد محسوبة له ، والإمام أبو حنيفة يرى حمل آية المائدة المطلقة على آية البقرة المقيدة بحال الموت على الكفر .

وكلام الشعراوي عكس المعنى الصحيح ، إذ إن حمل المطلق على المقيد يفيد المعنى الذي أراده الشافعي ــ رحمه الله ــ لا المعنى الذي أراده أبو حنيفة ، ولذلك عدل الشعراوي عن هذا المعنى فيما بعد ، حيث ضرب مثلاً بمن حج ثم ارتد ثم عاد للإسلام ، هل يُحسب له حجه قبل الارتداد ؟ قال : " فالشافعي يرى أنه لا يحبط عمله ما دام قد رجع إلى الإيمان ؛ لأن الله قال : « فيمت وهو كافر » "[1] . أي أن الذي حمل المطلق في آية المائدة على المقيد في سورة البقرة هو الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ وليس أبو حنيفة . وهذا هو الثابت [2] .

خامساً : جمع الآيات ذات الموضوع الواحد :

إن جمع الآيات المتفرقة في سورها ذوات الموضوع الواحد ، وإيرادها في مكان واحد يكشف ما كان غامضاً فيها ، ويزيد الواضح وضوحاً . ولهذا فإننا ما كثيراً ما نجد الشعراوي يحشد الآيات في موطن واحد ، على شاكلة قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (36) ﴾ (سورة النساء) : " والحق يقول : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ويكررها في آيات متعددة .. فقد سبق في سورة البقرة أن ذكر الإحسان بالوالدين : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (من الآية 83 سورة البقرة) . ثم تأتي الآية التي نحن بصددها .. « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » . ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (من الآية 151 سورة الأنعام) ، وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه فيقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ (من الآية 15 سورة الأحقاف) ، ويأتي أيضاً في سورة العنكبوت فيقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (من الآية 8 سورة العنكبوت) "[3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص931 ــ 932 .

(2) انظر الإتقان : ج2ص83 . قال القرطبي في تفسيره : " قال الشافعي : إن من ارتد ثم عاد إلى الاسلام لم يحبط عمله ولا حجه الذي فرغ منه ، بل إن مات على الردة فحينئذ تحبط أعماله . وقال مالك : تحبط بنفس الردة . ويظهر الخلاف في المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم ، فقال مالك : يلزمه الحج ؛ لأن الأول قد حبط بالردة . وقال الشافعي : لا إعادة عليه لأن عمله باق " . تفسير القرطبي : ج3ص48 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2210 ــ 2211 ، وانظر ج4 ص2225 ، وج1 ص166 ــ 170 .

وإذا تتبعنا تفسير الشعراوي فسنجد أنه يحتوى على ما يُسمى بالوجوه والنظائر . ويقصد بالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ كلفظ الأمة . أما النظائر : فهي الألفاظ المتواطئة [1] . والمثال على ذلك من تفسيره ــ رحمه الله ــ كلمة « قضى » . حيث ذكر وجوه استعمالها في القرآن الكريم . قال ــ رحمه الله ــ : " ... وفي اللغة شئ يسمى المشترك اللفظي ، ويعني أن اللفظ يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق ، فمثلاً كلمة قضى لها معاني متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها ، مرة يأتي بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (من الآية 200 سورة البقرة) ، ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج ، ومرة يقول سبحانه : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (من الآية 72 سورة طه) والمعنى افعل ما تريد ، وفي آية أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (من الآية 36 سورة الأحزاب) والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئاً لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . ومرة يصور الله ﷻ الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) ﴾ (سورة الزخرف) ليقض علينا هنا معناها يميتنا . ومعنى آخر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ (من الآية 22 سورة إبراهيم) ، أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . وفي موقع آخر قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ (من الآية 29 سورة القصص) ، قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل . وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (من الآية 54 سورة يونس) ، أي حكم وفصل بينهم . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ (من الآية 4 سورة الإسراء) ، بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم . إذن « قضى » لها معانٍ متعددة يحددها السياق ، ولكن هناك معنى تلتقي فيه كل المعاني ، وهو قضى أي حكم وهذا هو المعنى الأم " [2] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) ﴾ (سورة آل عمران) يقول الشعراوي : " ويكمل الحق سبحانه صفاتهم ــ أي أهل الكتاب الذين آمنوا ــ بقوله : « ويسارعون في الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى في حق المؤمنين :

---

(1) انظر الإتقان : ج1 ص409 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص551 ــ 553 ، وانظر ج2 ص868 ــ 869 ، وج3 ص1663 ، وص1501 .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيـــنَ (133) ﴾ (سورة آل عمران) " (1) .

ففي هذا المثال جاء بالآية 133 من سورة آل عمران نظيرة للآية 114 من نفس السورة .

سادسا : ما جاء بها للتأكيد :

قد يأتي الشعراوي بالآية أو الآيات من باب التأكيد لما جاء في آية أخرى علـــى شـــاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) ﴾ (سورة الفاتحة) ، قـــال : " وقـــول الحق سبحانه وتعالى : « إياك نعبد » تنفي العبودية لغـــير الله ، أي لا نعبـــد غـــير الله ولا يعطف عليها أبدا ، إذن « إياك نعبد » أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إلـــه غـــيره ولا معبود سواه ، وعلينا أن نلتفت إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) ﴾ (سورة الأنبياء) " (2) .

فهذه الآية استشهد بها لتؤكد تخصيص العبادة لله وحده .

ومثال آخر : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ (190) ﴾ (سورة آل عمران) ، فقد أورد قوله تعالى : ﴿ أَمَّـــن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُم قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُـمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـــانَكُمْ إِن كُنتُـمْ صَـــادِقِينَ (64)﴾ (سورة النمل) ، وقوله : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُم لَتَكْفُرُونَ بِـــالَّذِي خَلَـــقَ الأَرْضَ فِـــي يَوْمَيْـنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيـهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ (10) ﴾ (سورة فصلت) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الـــذِي أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ... ﴾ (الآية 99 من سورة الأنعام) . بعد أن عرض هذه الآيات وجزأها في أكـــثر مـــن موضـــع ، وخللها بالشرح والتوضيح ، قال : " كل هذه الآيات تؤكد قول الحـــق ســـبحانه : ﴿ إِنَّ فِـــي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِـــي الأَلْبَـــابِ (190) ﴾ (ســـورة آل عمران) ."(3) .

فهو أتى بهذه الأمثلة التي ساقها من القرآن لتؤكد ما أفادته آية آل عمران من آيات الخلق .

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1690 ، وانظر ج9 ص5429 ، و ج10 ص6020 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص78 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص1947 ـــ 1953 بتصريف .

سابعاً : استشهاده بالآية لتقرير رأيه :

واتساقاً مع ما سبق ، فقد كان الشعراوي كثيراً ما يستشهد بالآيات لتقرير رأيه وتدعيم اجتهاده وتأويله ، على شاكلة قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) ﴾ (سورة البقرة) : " ولكن ما الغيب ؟ . هو الشئ الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل إليه علم خَلْق من خلق الله حتى الملائكة ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما علم آدم الأسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) ﴾ (سورة البقرة) ، والجن أيضاً لا يعلم الغيب ، ولذلك عندما مات سليمان ﷺ ، وكان الله سبحانه وتعالى قد سخَّر له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض عصاه ، واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14) ﴾ (سورة سبأ) ، إذن فالغيب هو مالا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، واقرأ قول الحق ﷻ : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) ﴾ (سورة الجن) " [1].

إن استدلال الشعراوي بالآيات لتقرير المعاني يزيد تفسيره ثراء وقبولا ، وهو شئ طيب ومحمود .

ثامنا : استشهاده بالآية في خدمة قضية لغوية :

فها هو ذا يستشهد بآية لبيان أن كلمة « طاغوت » تستعمل مع المفرد والمثنى والجمع ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76) ﴾ (سورة النساء) . فيقول : " وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد والمثنى ، وعلى الجمع : تقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ (من الآية 257 سورة البقرة) " [2] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص126 ــ 127 ، وانظر ج1 ص119 ــ 120 ، ج1 ص290 ، ج5 ص2944 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2419 ، وانظر ج8 ص4792 .

وقد يأتي بالآية مسترشداً بها في قضية بلاغية كالتكرار أو مقارنة الألفاظ [1]. على ما سيأتي في مطلب « الإعجاز البياني » .

ويسترشد أيضاً بها في المقابلة ، نحو تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) ﴾ (سورة البقرة) فنجده يقول : " وما دام الله قد قال : « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم . نعم ، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله ﷻ حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (من الآية 8 سورة المنافقون) وهذه عزة بالحق وليست بالإثم ." [2] .

وفي النحو مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) ﴾ (سورة التوبة) . فبعد أن بين أن « رجع » فعل متعدي مفعوله من الضمير المتصل به ، والفاعل لفظ الجلالة بعده ــ قال : " ولكن هناك آية في القرآن الكريم تقول : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ...(150) ﴾ (سورة الأعراف) في الآية التي نحن بصددها ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّه ﴾ الفاعل هو الله ، أما في قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن فـ « رجع » يمكن أن يكون فعلاً لازماً ... " [3] .

وأقتصر الكلام في هذا الموضوع على ما ذكر ، وسيأتي الكلام مفصلاً عن القضايا اللغوية في مبحث التفسير اللغوي عند الشعراوي ــ إن شاء الله ــ .

فهذا تفصيلٌ لما عرض له الشعراوي في تفسيره للقرآن بالقرآن .

المطلب الثاني : تفسير القرآن بالأحاديث النبوية :

أولاً : منزلة السنة من القرآن :

تعتبر السنة شارحة للقرآن وموضحة له ، ومنزلتها منه منزلة المُبيِّن للمبيَّن . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)﴾

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج2ص691 . وانظر تفسيره للآية 3 من سورة آل عمران ، حيث فرق بين (الإنزال والتنزيل) .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص871 ، وانظر ج1 ص 931 .

(3) تفسير الشعراوي : ج9 ص5386 ، وانظر ج10 ص6077 و ص6091 .

(سورة النحل) . وقد نقل الحافظ ابن كثير في أوائل تفسيره عن الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ قوله : " كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن " (1) .

ونقل الإمام السيوطي قول ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : " يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن ، كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾ (من الآية 44 سورة النحل) يتناول هذا وهذا " (2) .

واختلف في أنه : هل بين النبي ﷺ كل القرآن بالبيان ؟

والراجح في المسألة أن النبي ﷺ بين منه الكثير ، لأن القرآن منه مالا يعلمه إلا الله ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه مالا يعذر أحد بجهالته ، ومنه ما تعرفه العرب ، ولهذا فسر النبي ﷺ للصحابة ما كان مشكلا عندهم (3) .

وقد أشار الشعراوي إلى مثل هذا بقوله : " ولو أن القرآن يراد تفسيره ، لما فسره أحد غير من انفعل له نزولا عليه وهو سيدنا رسول الله ﷺ ، أيستطيع واحد بعد ذلك أن يقول شيئا في التفسير ؟ إذن لو فسره الرسول ﷺ لجمده ؛ لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول . وقد علم الرسول ﷺ أن عطاءات القرآن لا تتناهى ، لذلك لم يفسره ، بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه ". (4) .

لقد أوضح الشعراوي أن النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله ، وكان ذلك منه ﷺ لحكمة ، وهي أن تستمر عطاءات القرآن إلى أن تقوم الساعة .

ثانيا : عرض الشعراوي للسنة :

لو أصلنا النظر وأجلناه في تفسيره ــ رحمه الله ــ لوجدناه مقل في تفسير القرآن بالأحاديث النبوية . ثم إن الشعراوي يعزو الحديث إلى مصدره أحيانا ، ولا نجده ينقله بسنده المتصل ، وإنما يسنده إلى الصحابي أحيانا ، أو من دون الصحابي نادرا ، ولا يتحدث في تجريح الرجال وتعديلهم ، ونقد السند ، والحكم على الحديث ، أو أن يورد حكم الناس عليه إلا ما ندر . ثم إن الشعراوي كثيرا ما يروي الحديث بالمعنى ، وأحيانا يرويه بلفظه ، وأحيانا يروي جزءا من الحديث ، ثم إنه قليل النقل من الأحاديث الضعيفة ، كثير النقل مما في البخاري ومسلم . أضف إلى ذلك أنه يستشهد بالحديث القدسي والحديث النبوي .

---

(1) تفسير ابن كثير : ج1 ص4 .

(2) الإتقان : ج2 ص468 .

(3) للاستزادة في هذه المسألة انظر التفسير والمفسرون : ج1 ص50 وما بعدها .

(4) تفسير الشعراوي : ج6 ص3785 .

فهذه نبذة إجمالية تبين كيفية عرضه للسنة ، وسيظهر ذلك جليًّا من خلال الحديث عن وجوه بيان السنة للقرآن .

** وجوه بيان السنة للقرآن عند الشعراوي :

عرض الشعراوي للسنة في تفسيره للقرآن من خلال عدة أوجه نجملها فيما يلي :

أ) **شرح المجمل :**

نبَّه الشعراوي إلى أن القرآن جاء ببعض الأمور الإجمالية ، وأن السنة جاءت بتفصيل بعض هذه الأمور ، كما نبه إلى ضرورة طاعة الرسول ﷺ في الأمور التفصيلية ، لأن الله فوضه بالتشريع ، وحذر من أن يتخذ أحد ما في القرآن من أوامر ويدع السنَّة . فنراه عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) ﴾ (سورة النساء) يقول : " وعرفنا من قبل أنه إذا توارد أمر الطاعة من الله مع أمر رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالي كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصل ، فنطيع الله في الأمر الإجمالي ، ونطيع الرسول في الأمر التفصيلي ، وإذا كان الله لم يجئ بحكم لا مجمل ولا مفصل فقد جاء التشريع بالتفويض الذي فوض الله فيه رسوله بقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (من الآية 7 سورة الحشر) ... ، إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات ، وأن الفجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول : دليلي من القرآن :«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول ﷺ كي يضمن سلامة المنهج من هذه التحريفات التي يفترونها يقول [(1)]: " **لا أُلْفِيَنَّ أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه أمرٌ مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه** ." وفي رواية أخرى : عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله ﷺ : " **ألا هل عسى رجل يبلُغُه الحديث عني وهو متكئ على أريكته ، فيقول : بيننا كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإنَّ ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله** "." [(2)] .

---

(1) والحديث بروايتيه أخرجه : **دو** : ك السنة / ب في لزوم السنة ج4 ص200 (ح4604) ، وك الخراج والإمارة والفئ / ب في تعشير أهل الذمة ج3 ص170 (ح3050) . **تر** : ك العلم / ب ما نُـهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ ج5 ص37 (ح2663) وقال : هذا حديث حسن صحيح . **جه** في المقدمة ، ب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ... ج1ص50 (ح13) . **حم** : ج1ص130 ، وص132 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2460 ــ 2462 بتصرف .

وثمة مثال آخر : قال ـــ رحمه الله ـــ : " ومرة ثانية يقول المولى عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (من الآية 92 سورة المائدة) أي أنه سبحانه يكرر المطاع ، ويكرر الأمر بالطاعة .

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ . لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل ، وذكرها رسول الله ﷺ وتواترت السنة مع النص القرآني ، فنحن نطيع الله والرسول في الأمر الصادر من الله . وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية ، والإجمال لابد له من تفصيل ، مثل الصلاة وفيها قال : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (من الآية 103 سورة النساء) . إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدم الرسول ﷺ لهذا الإجمال تفسيرا وتطبيقا فهي خمس صلوات ، ركعتان للصبح ، وأربع ركعات للظهر ، وأربع ركعات للعصر ، وثلاث ركعات للمغرب ، وأربع ركعات للعشاء ، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التي نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن ، وحدد الصلوات التي لا نجهر فيها بالتلاوة .

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَطِيعُوا الله ﴾ ، أي أطيعوه في مجمل الحكم ، وحين يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي أطيعوه في تفصيل الحكم ." [1] وقد ساق كلامه هذا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) ﴾ (سورة الأنفال) .

ب) تخصيص عموم القرآن :

السنة لها دور هام في تخصيص القرآن ، خاصة في مسائل الأحكام ، لأن القرآن لم يأت بتحديد كل أمر محرم أو مباح ، وإنما أعطى قواعد عامة ، فجاءت السنة لتخصص عامه ، كما بينت مجمله . ومن هنا فقد وجدنا الشعراوي يعرض لهذا النوع من تخصيص السنة للقرآن ، على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ [2] فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) ﴾ (سورة البقرة) ، فالقرآن في هذه الآية عمم الحكم في الميتة ، إلا أن السنة قد خصت من ذلك ميتتين . يقول الإمام الشعراوي : " إن الحق يقول : « إنما حرم عليكم الميتة » والآية صريحة في أن كل ميتة حرام ، وما دامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا

---

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4567 ـــ 4568 .

(2) قوله تعالى : « وما أهل به لغير الله » : أي ذبح على اسم غيره . والإهلال رفع الصوت ، كانوا يرفعونه في الجاهلية عند الذبح لآلهتهم . تفسير الجلالين : ص35 .

نأكل السمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فقد قال ﷺ : " **أحل لكم ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال** "." [1] .

ومثال ذلك أيضاً : قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .... (3) ﴾ (سورة المائدة) ، يقول الشعراوي : " والأوعية الدموية بها لونان من الدم : دم فاسد ودم صالح .... " قال : " وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، والنبي ﷺ قال : " **أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال** " إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا الدم المسفوح فهو حرام ." [2] .

ج) بيان معاني بعض الألفاظ القرآنية :

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾ (سورة البقرة) ما نصه : " ما معنى راعنا ؟ نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) يعني احفظنا وارقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعي . ورسول الله ﷺ يقول : " **كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته** "[3]. وأصل المادة مأخوذة من راعي الغنم ، لأن راعي الغنم لا بد أن يتجه بها إلى الأماكن التي فيها العشب والماء ، أي إلى أماكن الرعي . وأن يكون حارساً عليها حتى لا تشرد واحدة أوتضل فتفتك بها ذئاب الصحاري . وأن يوفر لها الراحة حتى لا تتعب وتنفق [4] في الطريق ، ورسول الله ﷺ يقول [5]: " **كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة** "." [6] .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195) ﴾ (سورة البقرة) فنجده يقول : " ويذيّل الحق الآية الكريمة بقوله « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، الحق يقول : « وأحسنوا » . والإحسان كما

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص715 .

والحديث أخرجه **جه** : ك الأطعمة / ب الكبد والطحال ج5 ص41 (ح3314) . و **حم** : ج2ص97 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص2914 . وتخريج الحديث كالسابق .

(3) أخرجه **خ** : ك النكاح / ب المرأة راعية في بيت زوجها ج3 جـ6 ص185 (ح2500) . **مس** : ك الإمارة / ب فضيلة الإمام العادل ج3 ص1459 (ح1829) .

(4) تنفق : تموت . معجم مقاييس اللغة : ج5 ص454 .

(5) **خ** : ك الإمارة / ب رعي الغنم على قراريط ج2 جـ3 ص65 (ح2262) .

(6) تفسير الشعراوي : ج1 ص501 ــ 502 .

علمنا رسول الله ﷺ[(1)]: " **أن تعبد الله ـ أي تطيع أمره ـ كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".**"[(2)] .

د) بيان معنى الآية :

إن الشعراوي يورد الحديث ليبين المعنى المراد من الآية ، ذلك أنه كان يحدث إشكال لبعض الصحابة في فهم الآية ، فيبين لهم الرسول ﷺ المراد ، ويكشف لهم الغامض .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82) ﴾ (سورة الأنعام) ، يقول :" حينما سمع صحابة رسول الله ﷺ هذه الآية أشفقوا على أنفسهم ، لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا غير داخلين في « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم إلى رسول الله ﷺ فأوضح لهم ﷺ مطمئنا : إن ذلك الظلم هو الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (من الآية 13 سورة لقمان) " [(3)] .

هـ) الفضائل :

وقد أورد الشعراوي أغلب الأحاديث في الفضائل والترغيب والترهيب والدعوة ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كون الشعراوي كان داعية ، فكان يمزج كلامه بالأحاديث التي تبين فضل هذه الآية أو تلك السورة من باب الترغيب في العمل بها ، أو الترهيب مما نهت عنه ، على شاكلة تفسيره لآية الكرسي ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ....(255) ﴾ (من الآية 255 سورة البقرة) ، يقول ـ رحمه الله ـ : " وقد وردت فيها أحاديث كثيرة ، منها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله ..." ثم ساق حديث أبي هريرة في قصته مع الشيطان ، حينما كان واليا على بيت المال ، فأتاه الشيطان ـ دون أن يعرفه ـ فجعل يخثو الطعام ، فقال له أبو هريرة : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال : إني محتاج ، وعلي عيال ، ولي حاجة شديدة ، فخلى أبو هريرة سبيله ، وأعاد الكرة ثلاثا ، وفي المرة الثالثة ، علمه قراءة آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه ، وحينئذ

---

(1) أخرجه خ : ك الإيمان / ب سؤال جبريل النبي ﷺ ... ج1 جـ1 ص22 (ح50) ، وك التفسير / ب قوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ (من الآية 34 سورة لقمان) ج3 جـ6 ص24 (ح4777) . **مس** : ك الإيمان / ب الإيمان والإسلام والإحسان ج1 ص36 (ح8) ، وص39 (ح9) .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص832 .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3758 ـ 3759 ، وانظر ج5 ص3216 ، ج6 ص3425 . والحديث سبق تخريجه ص4 .

قال له رسول الله ﷺ : " **أما أنه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم مَن تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة ؟** " قال : لا ، قال ﷺ : " **ذاك الشيطان** "(1) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " **سورة فيها آية سيدة آي القرآن لا تُقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه – آية الكرسي** "(2) .

وعن أبي أمامة (✿) قال : قال رسول الله ﷺ : " **من قرأ دُبُر كل صلاة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت** "(3) .

وعن علي – كرم الله وجهه – عن رسول الله ﷺ قال : " **من قرأها – يعني آية الكرسي – حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره ، ودار جاره ، وأهل دويرات حوله.** "(4) .

كل هذه المعاني قد وردت في أفضال هذه الآية الكريمة (5) .

و) استشهاده بالحديث لتدعيم اجتهاده :

قد يأتي الشعراوي بالحديث يسوقه ليدعم اجتهاده ، وتأكيد ما ذهب إليه ، وهذا تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) ﴾ (سورة البقرة) ، قال : " ما الذي أسقط آدم في المعصية ؟ إنها الغفلة أوالنسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾ (سورة طه) وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (من الآية 121 سورة طه) .

نعم النسيان كان في الأمم السابقة معصية . ولذلك يقول ﷺ : " **رفع عن أمتي الخطأ**

---

(1) أخرجه خ : ك بدء الخلق / ب صفة إبليس وجنوده ج2 جـ4 ص110 (3275) ، وك فضائل القرآن / ب فضل سورة البقرة وآية الكرسي ج3 جـ6 ص126 (ح5010) .

(2) أخرجه تر : ك فضائل القرآن / ب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ج5 ص157 وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير .

(✿) هو صدي بن عجلان بن الحارث ، أبو أمامة الباهلي ، مشهور بكنيته . صحابي جليل . شهد صفين مع وكان مع علي ؓ . (ت86هـ) .

الإصابة : ج3ص339 – 340 ، وتهذيب الكمال : ج13ص158 وما بعدها

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ب في تعظيم القرآن ، فصل في فضائل السور والآيات ج2 ص458 (ح2395) من طريق علي بن أبي طالب ؓ وقال : إسناده ضعيف .

(4) هذا الحديث جزء من الحديث السابق الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

(5) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص1108 – 1109 .

والنسيان وما استكرهوا عليه " ، ونسي وعصى تؤدي معنىً واحداً "[1] .

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (من الآية 177 سورة البقرة) . نجده يقول : " ونؤتي المال أيضاً للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من سألك ولو كان على فرس لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشحّ فيقولون : إن كثيراً من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : ما دام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا في ذلك قوله ﷺ : " **أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس** " [2] وما دام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد " [3] .

ز) بيان السنة للأحكام الفقهية :

يقول الإمام الشعراوي :" السنة لها دور بيان في التحليل والتحريم " [4] . ولذلك نجده مثلاً عند تفسيره لآية الصيام : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ... (185) ﴾ (سورة البقرة) ، يقول : " إن المشقة في الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة ، وسنجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة . ونقول لهم : اعلموا أن تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعي مطلوب ، وفي ذلك يروي لنا جابر بن عبدالله ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلل عليه فقال : " **ما هذا** " ؟ فقالوا : صائم فقال : " **ليس من البر الصوم في السفر** " [5] ". قال بعد ذلك : " ... والصوم في أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم في ثاني أيام العيد جائز ، لحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ [6] " **نهى عن صيام يومين :**

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص268 . والحديث أخرجه **جه** : ك الطلاق / ب طلاق المكره والناس ج3ص444 (ح2043) ، ص445 (ح2045) .

(2) الحديث في الكامل في ضعفاء الرجال ـــ للإمام الحافظ أبي عبد الله ابن عدي الجرجاني (ت 365) : ج5ص238 . وقال : "هذا لا أعلم يرويه عن زيد إلا عاصم". ج5 ص365 قال : "ولعاصم هذا غير ما ذكرت من الحديث وعامة أحاديثه وما يرويه مناكير متناً أو إسناداً والضعف بيّن على أخباره". ج5 ص239

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص737 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص716 .

(5) أخرجه **خ** : ك الصيام / ب قول النبي ﷺ لمن ظُلل عليه واشتد الحر ... ج1 جـ 2 ص292 (ح1946) .

(6) أخرجه **مس** : ك الصيام / ب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى ج2 ص799 (ح1138) .

يـوم الفطـر ويـوم الأضحى ""[1] .

ح) العقائد :

إن الشعراوي ـ رحمه الله ـ يورد الأحاديث التي تبين من أمـور العقـائد ، كأشـراط الساعة ، والتوحيد وغيرها .

فمما ورد في أشراط الساعة قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِـي إِيمَانِهَـا خَيْـرًا قُـلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِـرُونَ (158) ﴾ (سـورة الأنعام) ، قال : " « أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك » و « بعض آيات ربك » هي العلامات ، وقد قال ﷺ [2]: " **بادروا بالأعمال ستاً : طلـوع الشـمس مـن مغربـها ، والدخان ، ودابة الأرض والدجال ، وخُوَيْصَة أحدكم وأمر العامة** "[3] .

ومثله ما ورد في شأن عيسى عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَـا مِـنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَـا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) ﴾ (سورة البقرة) نراه يناقش قضيـة موت عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء ، ويبين أنه لا عجب في رفعه عليه السلام ونزوله ، فقد صعـد النبي ﷺ إلى السماء حيًّا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض حيًّا ، فلا يستبعد أحد نزول عيسـى عليه السلام ، والفرق بينهما ـ عليهما السلام ـ مدة المكث . يقول : " فلماذا تستبعد صعود عيسـى عليه السلام ، والفرق بين محمد ﷺ وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسـى بقي ، والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ . عن ابن المسيب أنه سـمع أبـا هريـرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ [4]: " **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكمـاً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتـى لا يقبلـه أحد.**" وهذا الحديث موجود في صحيح البخاري ."[5].

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص768 ـ 769 .

(2) أخرجه **مس** : ك الفتن وأشراط الساعة / ب في بقية من أحاديث الدجال ج4 ص2267 (ح2947) .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص4013 . ومعنى « خويصة أحدكم » : تصغير خاصـة ، وهـو المـوت ، و« أمر العامة » : القيامة . صحيح مسلم بشرح النووي : ج11ص7217 .

(4) أخرجه **خ** : ك أحاديث الأنبياء / ب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ج2 جـ4 ص172 (ح3448) . **مس** : ك الإيمان / ب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشـريعة نبينـا ﷺ ج1 ص135 (ح155) ، وانظـر : ج2ص725 .

(5) تفسير الشعراوي : ج1 ص446 ـ 447 .

ط) ما له اتصال بالآية عن بُعد :

هناك من الأحاديث التي أوردها الشعراوي ما قد لا يكون له علاقة بالآية إلا عن بُعد ، ولا يندرج تحت أصل سبق ؛ وذلك كأن يأتي بالحديث في سياق الكلام كما حدث عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (80) ﴾ (سورة البقرة) نجده يقول : " وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ، هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله ﷺ فبدلاً من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون على الله ، أو أتختلقون على الله ما لم يقله ، قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذي يختلق الكلام يعلم أنه مختلق ، إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول [1] : " **إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها** " "[2] .

فأنت ترى أن هذا الحديث ليس له علاقة بالآية إلا عن بُعد .

وبهذا العرض يظهر لنا بجلاء منهجه ــ رحمه الله ــ في تفسير القرآن بالسنة . والملاحظ أن الشعراوي يستدل ــ في الأغلب ــ بالصحيح من السنة ، وهو لا يذكر الروايات بالسند ، ولم أقف له إلا على رواية واحدة ذكرها مسندة ، وهي للإمام البخاري . وقد كان يسندها أحياناً إلى الصحابي . ثم إنه لم يحكم على الروايات بالصحة أو الضعف ، غير أن إسناده للحديث إلى البخاري ــ وهو نادر ــ بمثابة الحكم عليه بالصحة . ولم يتعرض لتجريح الرجال أو تعديلهم .

---

(1) أخرجه **خ** : ك المظالم / ب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ج2 جـ3 ص139 (ح2458) ، وك الحيل ج4 جـ8 ص80 ، وك الأحكام / ب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه ... ج4 جـ8 ص147 (ح6967) ، وب القضاء في كثير المال وقليله ج4 جـ8 ص148 (ح7181) . **مس** : ك الأقضية / ب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ج3 ص1337 (ح1713) .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص424 .

المطلب الثالث : تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين :

علم اليقين أن الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ أعلم الناس بكتاب الله ، هذا مما لا يجادل فيه أحد ، ولا يختلف فيه اثنان ؛ والسبب في ذلك هو معاصرتهم للتنزيل ، ومشاهدتهم للقرائن والأحوال التي كان يتنزل القرآن بشأنها ، ثم كونهم أهل ملكة في اللغة . ولذلك كانوا المصدر الثالث من مصادر التفسير بالرواية .

أضف إلى ذلك أن القرآن كان مستمراً في تصويب أي خطأ أو زيغ يحدث منهم ، ثم كان كمال الدين بتمام نزول القرآن ، وكمال الدين وتمام القرآن حدث معه الكمال في المجتمع المسلم ، وأصبح المجتمع المسلم كأنه هو الدين ، ومعنى ذلك أن الدين كان مفهوماً عندهم ، والقرآن متضحاً جلياً لديهم ، حتى قال ابن مسعود ﷺ : " **والذي لا إله غيره ! ما من كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم حيث نزلت ، وما من آية إلا وأنا أعلم فيما أُنزلت . ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه** "[1] ، إنها مقالة الواثق من نفسه ، ويكفي العلم بأن الواحد منهم ـــ من قوة فهمه للقرآن ـــ كان يقول الشئ فينزل القرآن بما قال ، كأن القرآن وأفهامهم يسيران في اتجاه واحد ، لا ينحرف هذا عن هذا . فهم أعلم الناس بكتاب الله تعالى .

ثم يأتي التابعون الذين عاصروا هؤلاء الصحابة ، وأخذوا العلم من هذا المنهل العذب الفياض ، فلا الصحابة ضنوا عليهم بعلمهم ، ولا التابعون بخلوا عليهم بجهدهم . فحفظوا عنهم الدين ، وفهموا كتاب الله ، لكن لم يكن فهم الآخرين كفهم الأولين ، فمما لا شك فيه أن تخفى بعض الأمور على التابعين ، لكنها قليلة .

حكم التفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين :

1 ـــ تفسير الصحابي له حكم المرفوع ، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول ، وكل ما ليس للرأي فيه مجال ، أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى النبي ﷺ .

2 ـــ ما حُكِم عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً ، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال .

3 ـــ ما حُكِم عليه بالوقف ، تختلف فيه أنظار العلماء : فذهب فريق إلى أنه لا يجب الأخذ

---

(1) **مس** : ك فضائل الصحابة / ب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ج4ص1913 (ح2463) .

به ؛ لأنه ما دام لم يرفعه ، عُلِم أنه اجتهد فيه ، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ ، والصحابة اجتهادهم كسائر المجتهدين . وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه ، لمظنة سماعه من رسول الله ﷺ ؛ ولأنهم إن فسروا برأيهم فرأيهم أصوب ؛ لأنهم أدرى الناس بكتاب الله ، إذ هم أهل اللسان ، ولبركة الصحبة ، ولمشاهدتهم القرائن والأحوال ، ولفهمهم التام وعلمهم الصحيح .

4 ــ أما التفسير عن التابعين فقد اختلفت أنظار العلماء فيه بين القبول وعدمه . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير ؛ لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة . وقد حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين في تفسيراتهم [1] .

والذي تميل إليه النفس هو أن اجتهاد الصحابي مقدم على اجتهاد غيره ؛ للأسباب المذكورة في البند رقم (3) . أما ما ورد عن التابعين ، فإن كان مما أجمعوا عليه وجب الأخذ به ، وإن كان مما اختلفوا فيه فللمفسر أن يرجح بينهما ، أو أن يدعهما ويأتي برأي جديد .

ولقد نظرت في تفسير الشعراوي لأرى نقله عن الصحابة والتابعين ، فوجدته قليل النقل عنهم ، خصوصاً في جانب التفسير . وأرى أن أعرض لهذا البحث من عدة جوانب :

أولاً : بيان المعاني والألفاظ :

لقد بحثت في تفسيره ــ رحمه الله ــ أقف عند كل ذكر صحابي أو تابعي ، علّي أجده يورد له تفسيراً فلم أجد إلا في مواطن معدودة ، وهي قليلة ، بل لا تكاد تذكر .

وأضرب مثالاً على ذلك ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40) ﴾ (سورة النساء) فيقول : "وما الذرة ؟ قال العلماء فيها : هي رأس النملة الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة . أو الذرة كما قال ابن عباس حين سئل عنها : أخذ شيئاً من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخه تطاير التراب في الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » "[2] .

مثال آخر : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... (213) ﴾ (سورة البقرة) فعند كلامه عن منشأ الاختلاف في بني آدم ، ذكر قصة ابني آدم ، وذكر منها قوله

---

(1) التفسير والمفسرون : ج1ص95 ، ص129 بتصرف .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2243 ــ 2244 ، والأثر المذكور عن ابن عباس ﷺ لم أقف عليه في كتب السنة ، وقد ذكره الإمام الآلوسي في تفسيره : ج4جـ5ص47 .

تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) ﴾ (سورة المائدة) ، وأخذ يشرح ويفسر هذه الآية . فمن كلامه في شرحها : " لقد واجه الشرع تلك المشكلة ـ زواج الأخوة ـ في ذلك الوقت ، واعتبر أن البُعْد هو بُعد البطن ، أي أن الذي يولد مع أخيه في بطن واحد فهو أخوه ، أما الذي وُلد بعده أو قبله فكأنه ليس أخاه ، لذلك كان آدم وحواء يبادلان زواج الأبناء حسب ابتعاد البطون ، وكان الغرض من هذا التباعد أن تكون المرأة وكأنها أجنبية عن أخيها . روي عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ : « أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال : « إنما يتقبل الله من المتقين » "(1) .

ثانياً : ما دل على فهمهم لكتاب الله :

أورد الشعراوي أقوالاً وأفعالاً من سير الصحابة والتابعين كنماذج تبين مدى فهمهم لكتاب الله تعالى ، من ذلك قوله : " فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان رضي الله عنه لأنها ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقيم عليها حد الزنى ، فتدخل الإمام علي بن أبي طالب وقال : كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر ، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ؟ قال عثمان : وماذا قال الحق في ذلك ؟ فقرأ الإمام علي قول الله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ (من الآية 233 سورة البقرة) أي أنها ترضع الوليد لمدة أربعة وعشرين شهراً ، وفي آية أخرى قال الحق : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ (من الآية 15 سورة الأحقاف) فإذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهراً وهي مدة الرضاع وطرحناها من الثلاثين شهراً التي تجمع بين الحمل والرضاع في الآية الثانية فهمنا أن الحمل قد يكون ستة أشهر . هنا قال سيدنا عثمان متعجباً : والله ما فطنت لهذا "(2) .

أليست هذه دقة في فهم النصوص ؟ فكأنما ينظرون إلى الغيب من ستر رقيق .

وكذلك عندما تكلم الشعراوي في تفسير قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص905 ، والقصة ذكرها الطبري في تفسيره : ج4 جـ6 ص121 . وانظر للاستزادة : ج1 ص570 ، و ج5 ص2919 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص985 ـ 986 . والقصة ذكرها ابن كثير في تفسيره : ج4 ص160 .

مكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20) ﴾ (سورة النساء) ، فيقول ما نصه : "« وآتيتم إحداهن قنطاراً » وهذه هي المسألة التي قال فيها عمر بن الخطاب ﷺ [1] : أخطأ عمر وأصابت امرأة ، لأنه كان يتكلم في غلاء المهور ، فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر . عن عمر ﷺ أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : (وآتيتم إحداهن قنطاراً) ؟ فقال : اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب » . وعن عبد الله بن مصعب أن عمر ﷺ قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة في بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولِمَ ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » "[2] .

ومنه أيضاً تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (269)﴾ (سورة البقرة) فقد استرشد في معرض التفسير للآية بقوله تعالى :﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) ﴾ (سورة الكهف) يقول : " إذن فالحق سبحانه يعلمنا أن نؤمّن على أبنائنا بالعمل الصالح ، وهذه هي الحكمة عينها التي لا يصل إليها إلا أصحاب العقول القادرة على الوصول إلى عمق التفكير السديد . وسيدنا الحسن البصري يعطينا المثل في العمل الصالح عندما يقول لمن يدخل عليه طالباً حاجة : مرحباً بمن جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة . إن سيدنا الحسن البصري قد أوتي من الحكمة ما يجعله لا ينظر إلى الخير بمقدار زمنه ، ولكن بمقدار ما يعود عليه بعد الزمن ."[3] .

فهذا نموذج من الأمثلة التي تدل على فهم الصحابة والتابعين للقرآن .

---

(1) الحديث بروايتيه أخرجه سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المكي (ت227هـ) في سننه : ب ما جاء في الصداق ج1 ص165 (ح595) . والإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت458هـ) في السنن الكبرى : ج7 ص380 (ح1433) وقال : هذا حديث منقطع . وانظر ج3 ص1614 ـ 1615 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2085 . وانظر للاستزادة : ج3 ص1614 ـ 1615 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1165 ، والأثر الوارد عن الحسن البصري ذكره ابن الجوزي في كتاب صفة الصفوة : ج2ص95 من قول علي بن الحسين .

ثالثا : استرشاده بمناقبهم في الدعوة :

إن أكثر استرشاده بمناقب الصحابة والتابعين راجع إلى الدعوة والترغيب والترهيب ؛ ذلك أن القصص لها بالغ الأثر في النفوس ، مما يلفت الأنظار ويشد الإنتباه ، ويوقظ القلب ، ويعير السمع إلى الداعية ، وبذلك يصبح من اليسير عليه أن يبث النصائح والإرشادات إلى المدعوين . والشعراوي ــ كما هو معلوم ــ داعية ، فلم يكن غريبا أن يستشهد بما أثر عن الصحابة والتابعين في سياق دروس الوعظ .

وأضرب مثالا على ذلك موافقات عمر ﷺ عرض لها في أكثر من موضع ، ومن هذه المواضع ما جاء عند تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) ﴾ (سورة البقرة) يقول الشعراوي : " ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة ، وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم ، وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم ، فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك ، ففهم عمر مرادهم فقال : والله ما جالستكم حبا فيكم ، ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله ﷺ وأعلم عنه ما في كتابكم ، فقالوا له : ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر : إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم ، قالوا : هو عدونا . فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله ، وميكائيل يجلس عن يسار الله فقال عمر : ما دام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدوا للآخر لأنهما عند الله في منزلة واحدة ، فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية ...... ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فلم يكد الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر ، وتنزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)﴾ (سورة البقرة) "[1] .

وبعد هذا العرض المفصل لمنهج الشعراوي في التفسير بالمأثور ، نجد أن الشعراوي كان مكثرا في جانب تفسير القرآن للقرآن ، مقلا في جانب تفسير القرآن بالسنة وأقوال الصحابة والتابعين ، وقد رأينا كيفية عرضه لهذه الأمور من خلال تفسيره .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص480 ، والقصة ذكرها الطبري في تفسيره : ج1 ص193 . وانظر للاستزادة : ج3 ص1368 ، وج4 ص1825 .

المبحث الثاني : أصول التفسير بالمأثور عند الشعراوي :

إن التفسير بالمأثور خاضع لعدة أصول حريٌّ بمن يفسر كتاب الله أن يكون على دراية بها ، وألاَّ يغفلها أثناء التفسير ، وسوف نتناول هذه الأصول عند الشعراوي من خلال مطالب عدة ، ونبين منهجه فيها ، وهي كالآتي :

المطلب الأول : كيفية إنزال القرآن :

لقد اتخذ القرآن طريقة خاصة في الإنزال ، تميز بها عن غيره من الكتب السماوية السابقة التي نزلت على الأنبياء السابقين ــ عليهم السلام ــ .

إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كما هو الحال في الكتب السابقة ، وإنما كان له ثلاثة تنزيلات :

الأول : إلى اللوح المحفوظ .

الثاني : إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

الثالث : إلى قلب النبي ﷺ . وقد تتابع نزوله في هذا الأخير حسب الوقائع والأحداث . والحكمة في ذلك ــ كما ذكر الجلال السيوطي ــ هو تفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان أهل السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم [(1)] .

وقد أشار الشعراوي إلى ذلك في أكثر من موضع في تفسيره ، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (23) ﴾ (سورة البقرة) ، نجده يقول : " فالقرآن الكريم وجد في اللوح المحفوظ قبل أن يُخلق الإنسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته في الكون نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ بقدر ما احتاجت إليه المناسبات والأحداث . إذن فقوله « نزلنا » أي نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى « أنزل » أي أنزله آيات على محمد ﷺ بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات "[(2)].

(1) انظر الإتقان : ج1 ص119 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص194 .

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) ﴾ (سورة آل عمران) ، لقد تكلم عن إنزال القرآن وتنزيله ، ثم قال : " إن القرآن الكريم قد نزل على رسول الله محمد ﷺ في ثلاثة وعشرين عاماً ، وينزل القرآن حسب الحوادث ، فكل نجم من نجوم القرآن ينزل حسب متطلبات الأحداث . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾ (سورة القدر) والحق هنا يحدد زمناً . ولنا أن نعرف أن القرآن الذي نزل في ثلاثة وعشرين عاماً هو الذي أنزله الله في ليلة القدر . إذن فللقرآن نزولان اثنان [(1)] : الأول : إنزال من « أنزل » الآخر : تنزيل من « نزّل » . إذن فالمقصود من قوله ــ سبحانه ــ : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته في الكون ، وهذا ما أنزله الله في ليلة القدر . والكتاب الكريم الذي أنزله الله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ينزل منجماً على حسب الأحداث التي تتطلب تشريعاً أو إيضاحاً لأمر . لكن الكتب الأخرى لم يكن لها ذلك اللون من النزول والتنزيل ، لقد نزلت مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ولننظر إلى الأداء القرآني حين يقول : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) ﴾ (سورة آل عمران) وهنا يجب أن نلتفت إلى أن الحق قال عن القرآن : « نزّل » وقال عن التوراة والإنجيل : « أنزل » . ولقد جاءت همزة التعدية وجمع سبحانه بين التوراة والإنجيل في الإنزال وهذا يوضح لنا أن التوراة والإنجيل إنما أنزلهما الله مرة واحدة ، أما القرآن الكريم فقد نزّله الله في ثلاث وعشرين سنة منجماً ومناسباً للحوادث التي طرأت على واقع المسلمين "[(2)].

ثم بعد ذلك يذكر الشعراوي السر في تنزيل القرآن منجماً فيقول : " ونزّل الله القرآن منجماً مناسباً للأحداث ليثبت فؤاد رسول الله ؛ لأنه ﷺ كان يتعرض لأحداث شتى ، وكلما يأتي حدث يريد تثبيتاً ينزل نجم من القرآن " [(3)] .

ولقد أشار الإمام الشعراوي إلى الأحرف السبعة في معرض كلامه عن القرءات الواردة حول كلمة « فتبينوا » في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ...(94) ﴾ (سورة النساء) قال : " ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة

---

(1) الشعراوي لا يَعتَبِر نزول القرآن إلى اللوح المحفوظ نزولاً ، وعلى ذلك فالخلاف بينه وبين من جعل للقرآن ثلاثة نزولات خلاف صوري .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1262 ــ 1264 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1264 ، وانظر ج5 ص2623 ــ 2626 .

أحرف "(1).

وكان جميل لو أنه ـــ على الأقل ـــ أعطى صورة عامة عن الأحرف السبعة ؛ فإن كثيراً من المسلمين لا يدرون عن الأحرف السبعة شيئاً ، ولعلهم عند إطلاق الأحرف السبعة أول ما يتبادر إلى أذهانهم القراءات السبع . فلو أن الشعراوي أثناء التفسير أعطى صورة عامة عن الأحرف السبعة لكان ذلك أجمل وأفضل .

وعند الرجوع إلى معنى الأحرف السبعة ، سنجد أنها سبع لغات من لغات العرب ، فأي لغات العرب هي ؟ لقد اختلف العلماء في تحديد هذه اللغات السبع ، لكن جملة القول في ذلك أن هذه اللغات هي أفصح اللغات عند العرب ، ذلك أن القرآن نزل بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصح المعاني ، وأفصح اللغات هي لغة قريش (2) .

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) ﴾ (سورة هود) : " وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (67)﴾ (سورة هود) وفي الآية يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (94) ﴾ (سورة هود) لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعلّي قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس القبائل . ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطي لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتي بتاء التأنيث ومرة لا يأتي بها . والتأنيث إما أن يكون حقيقياً أو مجازياً . والتأنيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة . والتأنيث المجازي مثل : « الصيحة » و « الحجرة » . وكانت القبائل العربية

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2558 . وقضية نزول القرآن على سبعة أحرف قضية ثابتة ، وقد نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر الأخبار في ذلك ، فيما نقله الجلال السيوطي ، فقد عدَّ أحداً وعشرين من الصحابة ورد عنهم حديث « **نزل القرآن على سبعة أحرف** » ثم قال : " فهؤلاء واحد وعشرون صحابياً ، وقد نص أبو عبيد على تواتره " . الإتقان : ج1ص129 .

والحديث أخرجه **خ** : ك فضائل القرآن / ب أنزل القرآن على سبعة أحرف ج3جـ6ص122 (ح4991) و(ح4992) . **ومس** : ك صلاة المسافرين قصرها/ ب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه ج1ص560 (ح818) وج1ص561 (819) و(ح820) وج1ص562(ح821) .

(2) انظر : الإتقان : ج1ص133 ـــ 134 .

تتجاوز في المؤنث المجازي ؛ فمرة تأتي « التاء » ومرة لا تأتي "[1] .

إن سيادة قريش على العرب راجع إلى أسباب ، أهمها : وجود البيت الحرام الذي كانت تقصده العرب بالحج ، وكذلك رحلة الشتاء والصيف . وفي ذلك يقول الإمام الشعراوي : " وكانت قريش تمتلك السيادة ، ولم تكن هناك قبيلة بقادرة على موجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن يجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشاً تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذي يحج إليه كل عربي .... إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً في اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان يَنْصَبّ في
قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة المصفاة المنتقاة ....
ولذلك عندما جئ لزمن كتابة القرآن كانت الوصية : إن اختلف عليكم شيئ فاكتبوه بلغة قريش [2] لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها " [3] .

المطلب الثاني : أسباب النزول :

ينقسم القرآن من حيث النزول إلى قسمين :

ــ **قسم نزل ابتداءً** ؛ لتحقيق الهداية والرشاد في حياة الناس عامة .

ــ **وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال .**

وهذا الثاني هو الذي نقصده بالبحث .

أسباب النزول تعني : الأمر الذي نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال [4] .

إن معرفة الحوادث التي نزل بشأنها القرآن لها بالغ الأثر في الوقوف على معاني القرآن الكريم ؛ ولهذا نجد علماءنا الأفاضل قد أفردوه بالتصنيف ، وبينوا وجه الحكمة منه .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج11 ص6640 ــ 6641 .

(2) هذا الكلام جزء من حديث حذيفة بن اليمان حينما قدم إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ مفزعاً مما وقع من الاختلاف في القراءة بين المسلمين ، فقال لعثمان ﷺ : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا ... ولما أمر عثمان بنسخ المصاحف قال للرهط القرشيين الثلاثة الذين تولوا هذه المهمة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شئ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

أخرجه **خ** : ك فضائل القرآن / ب جمع القرآن ج3جـ5ص119 (ح4986) .

(3) تفسير الشعراوي : ج5 ص3204 ــ 3206 بتصرف .

(4) مباحث في علوم القرآن ــ مناع القطان : ص78 .

يقول الجلال السيوطي ذاكراً بعض الفوائد لهذا الفن : " منها ــ أي هذه الفوائد ــ : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ... ومنها : الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال "(1) .

ونقل أيضاً عن ابن دقيق العيد (✪) قوله : " بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن ." قال : " وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب " (2) .

ومن هنا فقد وجدنا الإمام الشعراوي يهتم بهذا الفن في تفسيره ولا يغفله . إنه يستشهد بالأسباب والأحداث الواردة في نزول الآية ، مبيناً معاني الآية من خلال تلك الاسباب ، وهو عند ذكر السبب يذكره في الغالب بالمعنى لا باللفظ ، ويروي القصة بطولها ، وأحياناً يرويها مختصرة ، وأحياناً يقدم ملخصاً للقصة قبل إيرادها ، وهو في بعض الأحيان يسندها إلى راويها من أصحاب الكتب المسندة ، ويذكر في بعض الأحيان الأسباب المتعددة في نازل واحد . وأذكر فيما يلي من الأمثلة ما يؤكد ذلك :

ــ ذكر سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾ (سورة البقرة) يقول ما نصه : " سعد بن معاذ سمع واحداً من أحبار اليهود يقول لرسول الله ﷺ ــ راعنا ــ وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم ــ فلما سمع ما قاله فهم مراده ، فذهب إلى اليهودي وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك ، وقال اليهودي أولستم تقولونها لنبيكم ؟ أهي حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » "(3) .

فقد ذكر السبب هنا بالمعنى .

ــ وذكر سبب نزول الآية الكريمة ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) ﴾ (سورة النساء) قال :

---

(1) الإتقان : ج1 ص87 .

(✪) هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق العيد (ت702هـ) . تذكرة الحفاظ : ج2 جـ4 ص1481 .

(2) الإتقان : ج1 ص88 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص502 . وسبب النزول أخرجه أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت430هـ) في كتابه (دلائل النبوة) : ص44 (ح6) . قال ابن حجر : " روى أبو نُعيم في الدلائل بسند ضعيف عن ابن عباس ﷺ قال : : راعنا بلسان اليهود السب القبيح ، فسمع سعد بن معاذ ناساً من اليهود خاطبوا بها النبي ﷺ فقال : لئن سمعتها من أحد منكم لأضربن عنقه " فتح الباري : ج8ص163 .

" وسبب هذه الحكاية أن رسول الله ﷺ له ابن عمة اسمه (الزبير بن العوام) وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه (حاطب بن أبي بلتعة) كانا في المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها (الحرة) وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض (الحيطان) أي : البساتين .... كان لحاطب بن أبي بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتي أولاً من عند أرض الزبير ثم ينزل إلى أرض حاطب .... فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة ، فأرض الزبير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه ثم يروي الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله ﷺ حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوي الحق لمجرد القرابة .... ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخاري في صحيحه (1) بسنده قال : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة (2) كانا يسقيان به كلاهما فقال رسول الله ﷺ للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الأنصاري ، فقال : يا رسول الله آن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ للزبير حقه وكان رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ " (3) .

إذن في هذا الموضع ذكر الشعراوي السبب بالمعنى ، ثم ذكره بالسند المتصل ، ولم أقف له على حديث غيره يذكر فيه السند .

ــ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) ﴾ (سورة المائدة) فقد ذكر الشعراوي في سبب نزولها روايتين ، قال : " هناك رواية تقول : إن عبد الله بن سلام جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : إن قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل ، وشكا عبد الله من اليهود ، فنزلت تلك الآية : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ

---

(1) خ : ك الصلح / ب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم البيِّن ج2جـ4 ص227 (ح2708) .

(2) شراج : مفرد شَرْج ، وهو سبيل الماء من الحرة إلى السهل . المنجد : ص381 .

والحرة : أرض ذات حجارة سوداء . معجم مقاييس اللغة : ج2ص7 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2380 ــ 2381 بتصرف .

آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) ﴾ (سورة المائدة) فقال ابن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء [1] . وتزيد الرواية في موقع آخر : وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أني جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطاني أحد شيئاً ، وسمعه علي بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه وكان يصلي ــ فمد يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله ﷺ فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتماً ، وأشار إلى علي بن أبي طالب [2] . وهنا نزلت الآية بتمامها : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) ﴾ (سورة المائدة) [3] .

ومن ذلك ما أورده عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272) ﴾ (سورة البقرة) قال : " ما أصل هذه المسألة ؟ أصل هذه المسألة أن بعض السابقين إلى الإسلام كانت لهم قرابات لم تسلم . وكان هؤلاء الأقرباء من الفقراء ، وكان المسلمون يحبون أن يعطوا هؤلاء الأقارب الفقراء شيئاً من مالهم ، ولكنهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فسألوا رسول الله ﷺ في هذا الأمر . وها هي أسماء بنت أبي بكر الصديق وأمها « قُتَيْلَة » كانت مازالت كافرة ، وتسأل أسماء رسول الله ﷺ أن تعطي من مالها شيئاً لأمها حتى تعيش وتقتات . وينزل الحق سبحانه قوله : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » ، وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلتُ : قدمتْ عليَّ أمي وهي راغبة . أفأصل أمي ؟ قال : " **نعم صلي أمّكِ** " [4] . ولقد أراد بعض من المؤمنين أن يضيقوا على أقاربهم ممن لم يؤمنوا حتى يؤمنوا ، لكن الرحمن الرحيم ينزل القول الكريم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ " [5] . فقد بين الشعراوي هنا أن المؤمنين كانوا قسمين : بعضهم أحبوا الإنفاق على أقاربهم غير المسلمين ، وكانوا يجدون في أنفسهم حرجاً من الإنفاق

---

(1) لم أقف على سبب النزول الوارد عن عبد الله بن سلام إلا عند القرطبي في تفسيره : ج6ص221 .

(2) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره : ج4جـ6ص168 .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3239 ــ 3240 .

(4) **مس** : ك الزكاة / ب فضل النفقة على الأقربين ... ج2ص696 (ح1003) .

(5) تفسير الشعراوي : ج2 ص1173 ــ 1174 .

عليهم ، فأذن لهم النبي ﷺ بذلك ، وآخرون كانوا يضيقون على أقربــــهم المشــركين حتـــى يؤمنوا ، وفي هذين القسمين نزلت الآية الكريمة . فقد تعدد السبب في نازل واحد .

هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟ :

سبق الحديث عن هذا الموضوع عند الكلام عن تفسير القرآن بالقرآن (1) . وتبين لنـــا أن الشعراوي يميل إلى حمل النصوص على العموم ، وهذا دأبه . إن الشعراوي يؤكد في أكـــثر من موضع أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وأقتصر هنـــا علـــى ذكـــر مثـــال للتدليل .

عندما فسر قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (274) ﴾ (سورة البقرة) قال : " « فلهم أجرهم عنـــد ربهم » وهذا القول يدل على عموم من يتأتى منه الإنفاق ليلاً أو نهاراً ، ســـراً أو علانيـــة . وإن كان بعض القوم قد قال : إنها قيلت في مناسبة خاصة ، وهي أن الإمام علياً كـــرم الله وجهه ورضي عنه ، كانت عنده أربعة دراهم ، فتصدق بواحد نهاراً ، وتصدق بواحد ليـــلاً ، وتصدق بواحد سراً ، وتصدق بواحد علانية ، فنزلت الآية في هذا الموقـــف ، إلا أن قـــول الله : « فهم » يدل على عموم الموضوع لا على خصوص السبب ، فكان الجزاء الذي رتبـــه سبحانه وتعالى على ذلك شائع على كل من يتأتى منه هذا العمل ." (2) .

إذن يميل الشعراوي إلى حمل النصوص على العموم . وهكذا يتبين لنا من هـــذا العـــرض منهجه ــ رحمه الله ــ في أسباب النزول .

المطلب الثالث : القـــرءات القرآنيـــة :

المقصود بالقراءات ــ كما عرفها الإمام ابن الجزري(✿) ــ رحمه الله ــ : " علم بكيفيـــة أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله " . والمقرئ : " العالم بها ورواها مشافهة "(3).

---

(1) انظر : ص85 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1181 ــ 1182 .

(✿)هو شمس الدين ، أبو الخير ، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الجـــزري ، الشافعي ، مقرئ الممالك الإسلامية ، كما كان أكثر اعتنائه بالقراءات حتى اشتهر بها ، له كتاب طيبة النشر في القراءات العشر ، وغاية النهاية في طبقات القراء (ت833هـ) . انظر شـذرات الذهـب ج4 جـ7 ص204 ــ 206 .

(3) منجد المقرئين ومرشد الطالبين ــ لابن الجزري ص13 : ط مكتبة القدسي ــ (1416هـ ــ 1996م) .

والقراءات في أصلها كثيرة ، تعد بالمئات ، فلما خف الضبط ، وكثر الخلط ، تصدى ابن مجاهد(*) ــ رحمه الله ــ لجمع قراءات الأئمة السبعة المشهورين [1] ، وحرر طرقهم وتابعه الناس على ذلك .

وفي القرن التاسع الهجري جاء الإمام ابن الجزري ، فألف كتابه المشهور (النشر في القراءات العشر) جمع فيه قراءات الأئمة العشرة ، أصحاب القراءات الصحيحة ، وهم القراء السبعة الذين جمعهم ابن مجاهد في كتابة ، وأضاف إليهم ثلاثة قراء آخرين [2] .

وإذا نظرنا في تفسير الشعراوي من زاوية القراءات ، فسنجده لم يتطرق إلى هذا العلم إلا في مواضع معدودة ، يذكر فيها القراءات ويوجهها . وقد حوى في هذه الإشارات القراءات الصحيحة وغيرها ، وإن كانت القراءات الصحيحة عنده هي الأغلب ، وسوف أجمل البحث عن منهجه في القراءات في النقاط التالية :

أولا : توقيفية القراءات ، وضابط قبول القراءة :

لقد نص الشعراوي على أن قراءات القرآن توقيفية ، والعبرة فيها اتباع الوحي ، فلو احتمل لفظ القرآن أكثر من وجه ، فالمعول عليه هو ما نزل به الوحي جبريل عليه السلام ، ولهذا وضع العلماء ضوابط وأركان للقراءة الصحيحة ، إذا اختل منها ركن أو ضابط لم تكن القراءة صحيحة . ذكر ذلك في معرض تفسيره للآية الكريمة : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا

(*) هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي الحافظ الأستاذ ، أبو بكر بن مجاهد البغدادي شيخ الصنعة وأول من سبع السبعة ، اشتهر أمره ، وبعد سيطه ، وفاق نظراءه ، حتى كان أكثرهم تلاميذا ، له كتاب السبعة في القراءات (ت324هـ) . انظر غاية النهاية في طبقات القراء : ج1 ص139 ــ 142 .

(1) القراء السبعة المشهورون هم : الإمام نافع بن عبد الرحمن ، أبو رويم . مقرئ المدينة (ت169) . وعبد الله بن كثير ، أبو معبد . مقرئ مكة (ت120هـ) . وعاصم بن بهدلة بن أبي النجود ، أبو بكر . مقرئ الكوفة (ت128) . وحمزة بن حبيب الزيات ، مقرئ الكوفة بعد عاصم (ت156هـ) . وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي . أحد القراء في بغداد (ت180هـ) . وزبان بن العلاء بن عمار التميمي ، أبو عمرو البصري مقرئ البصرة (ت146هـ) . وعبد الله بن عامر الشامي ، أبو عمرو ، مقرئ الشام (ت118هـ) .

انظر تراجمهم بالترتيب في كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) : ج2 ص330 ، ج1 ص443 ، ج1ص346 ، ج1ص261 ، ج1ص535 ، ج1ص288 ، ج1ص423 .

(2) القراء الثلاثة هم : أبو جعفر المدني ، يزيد بن القعقاع المخرومي المدني ، تابعي جليل (ت130هـ) . ويعقوب بن إسحاق بن يزيد بن عبد الله بن إسحاق الحضرمي البصري (ت205هـ) . وخلف بن هشام أبو محمد البزار (ت229هـ) .

انظر تراجمهم على الترتيب في كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) : ج2ص382 ج2ص388 ، ج1ص372 .

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ... (94) ﴾ (سورة النساء) ، يقول ما نصه : " وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا : « فتثبتوا » بدل من « فتبينوا » في قوله الحق ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (من الآية 6 سورة الحجرات) وأقول : هذه من القراءات ، والمعاني دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليتثبت ». ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل .... " ثم تكلم الشعراوي عن كيفية كتابة القرآن ، وعن احتمال رسمه لأكثر من وجه في القراءة . ومثَّل لذلك بقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (من الآية 138 سورة البقرة) ، وبين أنها تحتمل القراءة بأكثر من وجه ، حيث يمكننا قراءتها : « صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة » . قال : " والمعنى واحد . ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحي الذي نزل به جبريل ﷺ من عند الله على رسوله ﷺ ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركاناً هي :

1 ــ أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .

2 ــ أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .

3 ــ أن يصح إسنادها إلى رسول الله ﷺ بطريق يقيني متواتر [1] . وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو	وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن	فهذه الثلاثة الأركان [2]

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ (من الآية 156 سورة الأعراف) هذه هي قراءة « حفص » وقرأ الحسن : (قال عذابي أصيب به من أساء) . صحيح أن كلمة « أساء » وهي الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقْرأ مرة « فتثبتوا » ومرة تقرأ « فتبينوا » ، سواء في هذه الآية التي نحن بصددها ، أو في الآية التي يقول فيها الحق : ﴿ **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ (من الآية 6 سورة الحجرات) و« التبين » القصد منه التثبت ..." [3] .

وهكذا نرى ما حواه هذا العرض من أصول في علم القراءات . لقد ذكر الأحرف السبعة ،

---

(1) الضوابط الثلاث المذكورة أوردها ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر : ج1 ص9 .

(2) انظر : طيبة النشر في القراءات العشر ــ لابن الجزري : ص3 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2558 ــ 2560 .

وهذا يحتاج إلى بحث خاص ، ثم نقط المصحف وشكله ، ثم توقيفية القراءات وبيان أركان القراءة الصحيحة كما بينها الإمام ابن الجزري ــ رحمه الله ــ وكل هذه أصول في علم القراءات وكنا نود لو أن الشعراوي مزج تفسيره بمثل هذه الأصول ــ رحمه الله ــ .

ثانياً : القرآن أصله السماع :

يشير الشعراوي إلى قضية التلقي والسماع من الشيخ ، ذلك أن القرآن أصله السماع ، ونراه يلوم الناس على عدم جلوسهم إلى مقرئ يستمعون منه القراءة .

يقول عند تفسيره لفاتحة سورة البقرة ﴿ الٓمٓ (1)﴾ : " ما الذي جعل رسول الله ﷺ ينطق « ألم » في سورة البقرة بأسماء الحروف ، وينطقها في سورتي الشرح والفيل بمسميات الحروف . لا بد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من جبريل عليه السلام كما نقلها عن الله . إذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم ، مع أن الكتابة واحدة في الاثنتين ، ولذلك لابد أن تستمع إلى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه ، والذي يُتعب الناس أنهم لم يجلسوا إلى فقيه ولا استمعوا إلى قارئ ، ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأي كتاب . نقول لا ، القرآن له تمييز خاص إنه مرة يأتي باسم الحرف . ومرة بمسميات الحرف . وأنت لايمكن أن تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارئ يقرأ القرآن " [1] .

وهذه آفة أكثر الناس اليوم ، الذين يحسنون صنع كل شئ إلا كتاب الله ، قلما تجد من يحسن قراءته ، وهذا سببه انشغالهم عن الدين بالدنيا .

ثالثاً : توجيه القراءات :

إن اختلاف القراءات يؤدي إلى ظهور معاني جديدة في الآية ، فكل قراءة لها معنى مختلف عن القراءة الأخرى ، ولتعلم أن هذا الاختلاف ليس اختلاف تناقض أو تضاد ، وإنما اختلاف يُظهر الإعجاز في الرسم للكلمة القرآنية ؛ كي تحتمل أكثر من وجه في القراءة والمعنى .

والشعراوي حينما يعرض القراءة ، يقوم بتوجيهها ، وبيان المعاني المترتبة عليها ، ويبين الوجوه النحوية التي تضمنتها كل قراءة .

فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾ (سورة هود) يقول : " ونحن نلحظ أن همزة (إن) في إحدى قراءتي الآية تكون مكسورة ، وفي قراءة أخرى تكون مفتوحة . أما في القراءة بالكسر فتعني أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلغ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص104 .

قومه وقال : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾ (سورة هود) ، وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي : ﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾ (سورة هود) فكأن القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾ (سورة هود) "(1) .

مثال آخر : قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71) ﴾ (سورة المائدة) يقول : " ونعرف أن « أنْ » تنصب الفعل . وقال لي سائل : لقد سمعت قارئ القرآن في المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » . وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء في صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائي » ، وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لابد أن يكون الفعل الذي يليها لايدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ (من الآية 20 سورة المزمل) . وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكي كذا بأنْ لا بعد علم) (2). أما « أن » التي من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يرفع الفعل بعدها ، فالذي رجح وجود الفعل وأدركه إدراكاً راجحاً يرفع ، والذي لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائي وأبي عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أن الرجحان يقرب من اليقين . وما دام قد حدث ذلك تكون « أنْ » هنا هي « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها المخففة من الثقيلة فأصلها أنَّ " (3) .

وهذه القراءات التي عرض لها الشعراوي صحيحة . ولم يقف الأمر عند القراءات الصحيحة ، بل تعدى ذلك لينقل لنا الشعراوي ــ في هذه الإشارات ــ غير الصحيح منها ، لكن لم أقف له إلا على موضع واحد وهو عند تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) ﴾ (سورة التوبة) فقد نقل هذه القراءة عن رجل ليس من القراء العشرة أصحاب القراءات الصحيحة .

ومعلوم أن الإمام ابن الجزري ــ رحمه الله ــ جمع القراءات الصحيحة في كتابه المشهور

---

(1) تفسير الشعراوي : ج10 ص6424 ــ 6425 .

(2) انظر شرح ابن عقيل : ج2 جـ4 ص3 . ونصه في الألفية :

وبِلَنْ انْصِبْهُ وكَيْ ، كذَا بأنْ لا بَعْدَ عِلْم ، والَّتي مِنْ بَعْدِ ظَنّ .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3307 .

(النشر في القراءات العشر) ، وقد قال فيه : " وجملة ما تحرر عنهم من الطرق بالتقريب نحو ألف طريق وهي أصح ما يوجد اليوم في الدنيا وأعلاه لم نذكر فيها إلا من ثبت عندنا أو عند من تقدمنا من أئمتنا عدالته ، وتحقق لقيه لمن أخذ عنه وصحت معاصرته ، وهذا التزام لم يقع لغيرنا ممن ألف في هذا العلم "(1). ومن هنا عرفنا أن ذكر الشعراوي لاسم القارئ الذي نقل عنه القراءة ، بمنزلة أن يقول لك : هذه قراءة غير صحيحة . وأسوق المثل الذي وقفت عليه عند تفسيره للآية سالفة الذكر . يقول ما نصه : " وقرأ عبد الله بن قسيط (✿) المكي هذه الآية : « من أَنفَسِكُم » ــ بفتح الفاء والسين ــ ، أي : أنه ﷺ بالمقياس البشري هو من أقدركم وأحسنكم "(2) .

ومعلوم أن عبد الله بن قسيط ليس من القراء العشرة أصحاب القراءات الصحيحة ، وقراءته قراءة آحاد ، وليست قرآناً .

رابعاً : أحكام التجويد :

ويقصد بالتجويد هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ومراتبها ، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وإلحاقه بنظيره وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف(3) .

أما الشعراوي فقد عرض لشئ من أحكام التجويد في سياق التفسير ، لكنه كان نادراً .

بيَّن ــ رحمه الله ــ أن القرآن مبني على الوصل . فعند تفسيره للآية الأولى من سورة يونس وهي قوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)﴾ نجده يقول : " .. وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التي في ختام أي سورة مشكلة بغير السكون فتقرأ كالآتي : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿عِضِين (4)﴾ فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصول ، فليس في القرآن من وقف واجب ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة

---

(1) النشر في القراءات العشر ــ للإمام ابن الجزري : ج1 ص192 ــ 193 .

(✿) لم أقف له على ترجمة .

(2) تفسير الشعراوي : ج9 ص5609 . وقراءة عبد الله بن قسيط ذكرها الإمام القرطبي عند تفسيره للآية .

(3) النشر في القراءات العشر ــ لابن الجزري : ج1ص212 .

(4) عضين : أي أجزاء . تفسير الجلالين : ص350 .

الأخيرة تنتهي بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فنحن لا نسكِّن الحرف الأخير في أي سورة ، لأنها موصولة بما بعدها . وحتى في الحكم التجويدي إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار ننطقه إظهاراً ، لأن آيات القرآن مبنية على الوصل "[1] .

ولا بد أن نعرف من قول الشعراوي (فليس في القرآن وقف واجب) أنه لا ينفي وجود الوقف اللازم ، لقد تحدث عن هذا الموضوع عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهمْ .. (65) ﴾ (من الآية 65 سورة يونس) . وناقش قضية الوقف اللازم بقوله : " وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود « الميم » فوق كلمة « قولهم » ولسائل أن يقول : كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل ، وآخر حرف في كل سورة تجده منوناً ، وليس في القرآن ما يلزم الوقف للقارئ ؟ وأقول رداً على هذا السائل : إن العلماء حين لاحظوا ضعف ملكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارئ ــ الذي لا علم له بالبيان العربي ــ كيف يقرأ هذه الآية ، فهب أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (65) ﴾ إلى ﴿ وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ .. (65)﴾ . ويخطئ الفهم ، ويظن ــ معاذ الله ــ أن العزة لله هي أمر يحزن النبي ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقق القراءة ونحسن الفهم . ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ ولا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (65) ﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (65) ﴾ ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألا تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغير في مجرى حتمية انتصارك عليهم " [2] .

والذي وضع اصطلاحات الوقف والابتداء في القرآن الكريم هم علماؤنا الأجلاء من السلف الصالح أمثال الإمام نافع وأبي عمرو ويعقوب الحضرمي وغيرهم [3] .

كما نجد الشعراوي يبين هيئات النطق لبعض الآيات ، كما هو الحال في المثال السابق فقد وضح لنا شيئاً عن الوقف والابتداء والمعاني المترتبة على ذلك . وثمَّة مثال آخر وهو تعانق الوقف في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) ﴾ (سورة المائدة) . يقول : "ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلي : « قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج9 ص5635 .

(2) تفسير الشعراوي : ج10 ص6043 ــ 6044 .

(3) انظر : النشر : ج1ص225 .

عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت محرمة عليهم إلى الأبـــد . وبعد ذلك يأتي أمر الله بعقابهم في التيه أربعين سنة : « أربعين سنة يتيهون في الأرض فـلا تأس على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلي : « قال رب إني لا أملـك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيـــهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين» فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لـــهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة في التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا " "[1].

وأيضاً يبين لنا كيفية الوقف على كلمة (اقتده) في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾ (سورة الأنعام) يقـــول ـــ رحمه الله ـــ : " وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول ﴿ اقتـــد ﴾ ولا نقـــول ﴿ اقتـــده ﴾ ولا ننطق الهاء إلا في الوقف ويسمونها « هاء السكت » ، ولكن إذا جاءت في الوصل لا ينطق بها "[2] .

وبهذا يتبين لنا كيف وضح لنا الشعراوي كيفية إنزال القرآن ، وظهر لنا منهجه في عـرض القراءات وأحكام التجويد .

المطلب الرابع : ترتيب القرآن وتحزيبه :

تجلت حكمة الله تعالى في ترتيب القرآن . فقد رتبه سبحانه ترتيباً ظاهر الإعجاز . فلم يشـــأ الله أن يرتبه حسب نزوله بحيث لا يظهر فيه إعجاز ، وإنما جعل ترتيبه مغايراً تمامـــاً لمـــا تعارف عليه البشر . وهو الترتيب الموجود بين أيدينا الآن . وقد جعله المولى ﷺ توقيفيـــاً لا مجال للاجتهاد فيه . وتوقيفية آياته ثابتة بالأدلة الصحيحة [3]. واختلف العلماء في ترتيـــب

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3066 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3775 .

(3) من الأدلة على ذلك :

1 ـــ حديث زيد بن ثابت قا ل : " كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع ... " . تر : ك المنـــاقب / ب فضل الشام واليمن ج5ص734 (ح3954) وقال : هذا حديث حسن غريب . **حم** : ج5ص185 .

2 ـــ ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي ﷺ عن شئ أكثر مما سألته عـــن الكلالـــة حتـــى طعـــن بأصبعه في صدري وقال : " **تكفيك آية الصيف في آخر سورة النساء** "[3] . **مـــس** : ك الفرائـــض / ب ميراث الكلالة ج3ص1236 (ح1617) .

السور ، والجمهور على أنه توقيفي [1] ، وهو الراجح ؛ لقوة الأدلة في ذلك .

أولاً : رأي الشعراوي في ترتيب القرآن :

يرى الإمام الشعراوي أن القرآن له ترتيبان : ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وأن ترتيب المصحف توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه ، وأنه إثبات لرسالة محمد ﷺ ، ومعجزة خالدة له . يقول في المقدمة التي ساقها تمهيداً لتفسير سورة المائدة : " ونستقبل الآن سورة المائدة التي تلي سورة النساء في الترتيب المصحفي . ونعلم أن القرآن له ترتيبان : ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية منه ، وينتهي بآخر آية فيه ؟ ونقول : نزول القرآن ليس كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ..."[2] . قال : " إن كلاً من الترتيب المصحفي والترتيب النزولي يعطي معجزة للقرآن ولمحمد ﷺ ، فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلاني ..."[3] . إلى أن يقول : " إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التي نزلت عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة ، لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد ﷺ ، وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات

---

(1) من أدلة الجمهور على توقيفية السور :

1 ـ ما ورد عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي ، قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف ...الحديث . وفيه : فقال لنا رسول الله ﷺ : " **طرأ علي حزبي من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه** " فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ ، قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، واثنتا عشرة سورة ، وحزب المفصل من ق حتى نختم .

دو : ك الصلاة / ب تحزيب القرآن ج2ص155 (ح1392) ، **جه** : ك الصلاة / ب في كم يُستحب ختم القرآن ج2ص476 (ح1345) ، **حم** : ج4ص9 ، 343 .

2 ـ وعن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : « قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه ، واجتماعهم على علمهم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه ، ولا يُسأل عنه » .

عزاه السيوطي لابن أشته . انظر الإتقان : ج1ص173 .

انظر أقوال العلماء في ذلك : البرهان : ج1ص298 ، والإتقان : ج1ص167 ، وروح المعاني : ج1ص47 ، ص48 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص2883 .

(3) تفسير الشعراوي : ج5 ص2883 .

أن رسول الله ﷺ هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشري أن يرتب هذا الترتيب ، بل رتبه الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ، إنه الله سبحانه وتعالى جل شأنه "[1] .

ثانياً : تحزيب المصحف :

أما عن تحزيب المصحف فيرى الشعراوي أن تحزيبه باجتهاد العلماء ، وقد فعلوا ذلك تشجيعًا لحفظ القرآن .

يقول ـــ رحمه الله ـــ :" ... وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ... "[2] .

ولقد اتفق العلماء على جواز تجزئة القرآن وتحزيبه ، واختلفوا في أن الجواز مع الكراهة أو بلا كراهة ، ولكن الأمر سهل على كل حال ، ما دام الغرض هو التيسير والتسهيل ، وما دام بعيدًا عن اللبس والتزيد والدخيل[3] .

وهكذا يظهر لنا موقف الشعراوي ومنهجه في قضية ترتيب القرآن وقضية تحزيبه .

المطلب الخامس : الناسخ والمنسوخ :

تعتبر معرفة النسخ من أهم العلوم التي يحتاج إليها المفسِّر ، لما يترتب عليه من الأحكام والتكليفات ، وقد نُقل عن الإمام علي ﷺ أنه قال لقاص : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : الله أعلم ، قال : هلكت وأهلكت [4] .

والنسخ لا يقع إلا في الأمر والنهي ، ولو بلفظ الخبر ، أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ [5]. وكذلك لابد أن يكون واقعاً في أمور التشريع والأحكام ، لئلا يُتوهم وقوع النسخ في أمور العقائد . والنسخ لا بد له من شروط تتحقق فيه ، وطرقٍ يُعرف بها [6].

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2886 ، وانظر ج2 ص1252 ، وج6 ص3485 .

(2) تفسير الشعراوي : ج10 ص6293 .

(3) انظر : مناهل العرفان : ج1 ص283 .

(4) أخرجه عبد الرزاق في المصنف : ب ذكر القصاص ج3ص220 (ح5407) .

(5) الإتقان : ج2 ص56 .

(6) **شروط النسخ :**

1 ـــ أن يكون الحكمان ـــ الناسخ والمنسوخ ـــ دليلاً شرعياً . 2 ـــ تراخي الدليل الشرعي الناسخ عن الدليل المنسوخ في النزول . 3 ـــ أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقي .

4 ـــ ألا يكون الخطاب المرفوع ـــ المنسوخ ـــ حكمه مقيد بوقت معين ، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته =

أولاً : بيان معنى النسخ :

يرى الإمام الشعراوي أن النسخ واقع في كتاب الله تعالى ، وله بحث حول النسخ في تفسيره ، ذلك عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) ﴾ (سورة البقرة) ، ونبين ما تضمنه هذا قال : " كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلاً منها . كما يقال : نسخت الشمس الظل ، أي أن الظل كان موجوداً وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه . ويقال : نسخت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أي صار الشباب شيخاً "[1].

يبين الشعراوي معنى النسخ في اللغة . وقوله بأن النسخ في الآيات بمعنى الإزالة فيه نظر ؛ لأن مفهوم الإزالة أن لا يبقى للشئ المنسوخ أثر ، وهذا ينطبق على بعض الآيات ، لا على كلها ؛ لأن هناك من الآيات ما نُسِخت حكماً وبقيت تلاوة . لكن قصد الشعراوي من ذلك : إزالة الحكم وليس الآية ، على ما سيظهر خلال السياق القادم .

ثانياً : رده على منكري وقوع النسخ في القرآن :

يقول : " نأتي إلى النسخ في القرآن الكريم . قوم قالوا لانسخ في القرآن أبداً . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . ما معنى بداء ؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيُعَدَّل الحكم . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . ونقول لهم طبعاً هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى ، ولكننا نقول إن النسخ ليس

= فلا يعد نسخاً .   5 ـ أن يكون الخطاب الناسخ في الدلالة والثبوت مثل المنسوخ أو أقوى منه .

انظر : مباحث في علوم القرآن ـ للقطان : ص240 ، وانظر : دراسات في القرآن وعلومه : ص23 ، والنسخ في القرآن ـ د . مصطفى زيد : ج1ص201 .

وطرق معرفة النسخ :

1 ـ النقل الصحيح عن النبي ﷺ أو عن الصحابي .

2 ـ إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

3 ـ معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ .

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً ، أو تأخر إسلام أحد الراوين .

مباحث في علوم القرآن ـ للقطان : ص240 ، وانظر : دراسات في القرآن وعلومه : ص23 .

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص508 .

بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجئ بحكم آخر ، ونقول لهم ساعة حكم الله أولاً فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد ، ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم ، إن هذا غير صحيح . لماذا ؟ ، لأنه ساعة حكم الله أولاً كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة ، ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر ، إذن فالمشرع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد "[1] . وقد ضرب على ذلك المثل بالتوجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس . وبيَّن أن الحكمة فيه هو امتثال أمر الله ، فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس اتجهنا ، وإذا قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا ، ولا قدسية لشئ في ذاته ، ولكن القدسية لأمر الله فيه . وبيَّن كذلك أن من حكمة التوجه إلى بيت المقدس أولاً ، لفت المسلمين إلى أن الإسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام .

ويضرب مثالاً آخر بآية التقوى وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) ﴾ (سورة آل عمران) ، ويأتي بالآية الناسخة لها وهي قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) ﴾ (سورة التغابن) فيأتي بهاتين الآيتين يضربهما مثلاً على أن الناسخ خير من المنسوخ ، تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (من الآية 106 سورة البقرة) . يقول في بيان الخيرية في قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ و ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ : " أي الحالتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة .... الذي يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيراً أكبر في عمله ، ولكنه لا يستطيع أن يتقي الله حق تقاته إلا في أعمال محدودة جداً . إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذي تنطبق عليه الآية محدود . أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة ، ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل . عندما نأتي إلى النتيجة العامة ، أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً ، وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة ، أيهما فيه الخير؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع . إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها ..."[2] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص509 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص521 .

ثالثاً : بيان ما يقع النسخ فيه وما لا يقع :

قال : " ويجب أن ننتبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول : أمور العقائد : فلا تنسخ آيةٌ آيةً أخرى في أمر العقيدة ، فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة ، فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم ، وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبداً .

الثاني : الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لاينسخها بآية جديدة ، لأن الإخبار هو الإبلاغ بشئ واقع . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . فلا تروى لنا حادثة ثم تنسخ بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت . إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . ولكن النسخ يكون في التكليف ... "[1] . أضف إلى ذلك أنه لا نسخ في أصول العبادات والأخلاق ؛ فمثلاً الصلاة والصيام والزكاة موجودة في جميع الشرائع ، لكن الاختلاف إنما يكون في الكيفية .

وضرب الشعراوي أمثلة على النسخ ، نحو :

ــ قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) ﴾ (سورة الأنفال) فقد كان مطلوب من الفرد من المسلمين أن يقابل العشرة ، ثم نُسِخت هذه الآية بالآية التي بعدها : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66) ﴾ (سورة الأنفال) . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (15) ﴾ (سورة النساء) كانت المرأة إذا زنت ، وشهد عليها أربعة ، يمسكونها في البيت لا تخرج حتى تموت ، ثم نزل حكم الرجم على المحصن ، والجلد على البكر . قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (من الآية 2 سورة النور) . وكذا قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) ﴾ (سورة البقرة) . فقد جعل في الآية التوريث للوالدين بالوصية ، لما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله ، جعل سبحانه المسألة فرضاً ، فيستوفي الحكم . ويقول ﷻ : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص513 ــ 514 .

الأُنْثَيَيْنِ ... (11) ﴾ (الآية من سورة النساء) [1] .

فهذا بحث مصغر عن النسخ عند الشعراوي ساقه في معرض تفسيره لآية النسخ في سورة البقرة .

والشعراوي ــ رحمه الله ــ أحيانا لا يصرح بأن هذه الآية منسوخة ، وإنما يفهم النسخ من خلال السياق ، كما هو الحال عند آية الوصية : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) ﴾ (سورة البقرة) يقول : " وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث ، فالناس قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شئ وحرمان الوالدين والأقربين ، وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين في الميراث ، أما الأقربون ، فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم في الوصية " [2] .

فكلامه هذا كأنه يشير إلى النسخ ، وقد سبق ــ قبل قليل ــ أنه أورد هذه الآية كمثال يضربه من ضمن الأمثلة على النسخ . لكن الشعراوي بعد ذلك يشير إلى أن هذه الآية وغيرها من الآيات من قبيل التدرج في التشريع ، لا أنها منسوخة ، وهذا تناقض واضح منه . ولذلك أرى من الحكمة أن أسوق هذا المثال الذي يعتبره الشعراوي من قبيل التدرج ، وهو في الحقيقة من قبيل النسخ ، ثم يظهر بعد ذلك وجه الصواب في الأمر .

يقول تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) ﴾ (سورة البقرة) . يقول الإمام الشعراوي : " إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق في قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث ، كذلك أراد الله أن يخرج أمة محمد ﷺ من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياما يخيرهم فيه لأنهم كانوا لايصومون ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكأن الصوم قد فرض أولا باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفوا الصوم جاء القول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وفي هذه الآية لم يذكر الحق

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص514 ــ 515 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص757 .

الفدية أو غيرها . إذن كان فرضية الصوم أولاً اختيارية بقوله الحق : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » ثم جاء القرار الارتقائي ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهي شهر رمضان ، « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لمن يطيق الصوم ، أما الذي لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض لا يُرجى شفاؤه نقول له : أنت لن تصوم أياماً أخر ، وعليك أن تفدي .

لقد جاء تشريع الصوم تدريجياً ككثير من التشريعات التي تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ؛ كالخمر مثلاً والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها " [1] .

مناقشة رأي الشعراوي في التدرج :

لنا أن نناقش الشعراوي فيما ذهب إليه من جهتين :

الجهة الأولى : أنه ينبغي أن نفرق بين النسخ والتدرج في التشريع ، إن التدرج في التشريع عام ، قد يقع في الأمر والنهي ، وقد يتجاوز ذلك إلى الأخبار . وهذا بخلاف النسخ الذي لا يقع إلا في الأمر والنهي ، أو الأخبار التي بمعناهما . ونحن إذا سلمنا له بأن الخمر من قبيل التدرج فلا نسلم له أن آية الوصية وآيات الصيام من قبيل التدرج . وأضرب ما ضربه الشعراوي مثلاً :

الخمر : إن الله قد تدرج في الخمر ، فنقلهم من إلف العادات إلى التحريم المؤبد ، وذلك وفق خطوات :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) ﴾ (سورة النحل) .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ... (219) ﴾ (سورة البقرة) .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا .... (43) ﴾ (سورة النساء) .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص770 .

منتهون (91) ﴾ (سورة المائدة) (1) .

فلو نظرنا إلى الآيتين الأوليين سنجد أنهما خبر وليست أمرا ونهيا . فالقضية من مبدئها خرجت عن دائرة التكليف . وإنما التكليف جاء في الآيتين الأخيرتين . وهذا بخلاف آيات الصوم والميراث ، فقد كان الصوم في بداية الأمر تكليفا ، ولكن فيه تخيير ، إما الفدية — وهي تكليف — ، وإما الصوم — وهو تكليف كذلك — ، ثم نسخ ذلك التخيير بالالتزام والوجوب . ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، إلا العجوز الفاني الذي لا يقوى على الصيام فعليه فدية . هذا من حيث الجهة الأولى .

الجهة الثانية : عرفنا أن النسخ لا اجتهاد فيه ، وأن طرق معرفته إما النقل الصريح عن النبي ﷺ أو الصحابي ، وإما معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ ، وإما إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ . ونحن لو نظرنا إلى آية الصيام نجد أنها منسوخة بنص الصحابة على ذلك . فهذا سلمة بن الأكوع (✿) يقول لما نزلت : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر ﷺ قال : هي منسوخة (2) .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس روايتين ؛ إحداهما يقول فيها بالنسخ ، والأخرى بعدم النسخ (3) . قال ابن كثير : " فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه لقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن من القضاء ..."(4) .

أما آية الوصية فقد اعترف الشعراوي بداية بأنها منسوخة ،وهنا بين أنها من قبيل التدرج ؟! وهذا اختلاف واضح ، فإما أن يقول بنسخها أو بعدم النسخ . ثم إن الآية قد نص ابن عباس على أنها منسوخة ، قال : نسختها هذه الآية ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (7) ﴾ (سورة

---

(1) تفسير الشعراوي : انظر ج2 ص939 — 941 .

(✿) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع ، واسم الأكوع سنان بن عبد الله . وهو من خيرة الصحابة . (ت74هـ) الإصابة : ج3ص127 .

(2) **خ** : ك التفسير ج3 جـ5 ص182 (ح4507) .

(3) رواية ابن عباس تخريجها كالسابق (ح4506) وهو يقول فيها بالنسخ ، والرواية التي يقول فيها بعدم النسخ أخرجها **خ** : ك التفسير / ب قوله ﴿ **أياما معدودات** . ..﴾ ج3 جـ5 ص182 (ح4505) .

(4) تفسير ابن كثير : ج1 ص204 .

النساء) . وقد روى ابن أبي حاتم عن نفر من الصحابة وكبار التابعين منهم عبد الله بن عمر ، وأبو موسى الأشعري ، أن هذه الآية منسوخة ، نسختها آية الميراث [1] .

إذن من خلال ما سبق يتبين لنا أن ما ذهب إليه الشعراوي ــ رحمه الله ــ غير سديد في رأيه بالقول بالتدرج ، وأن الصواب في القضية أن آية الصوم منسوخة ، وكذا آية الوصية .

آية حديث النفس :

قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284) ﴾ (سورة البقرة) . قال الإمام الشعراوي : " وقد وجدنا كثيراً من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءلوا : هل الآية التي جاءت بعد ذلك والتي فيها : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » هل هي نسخ للآية السابقة عليها ؟ ولكن نحن نعرف أن الآية هي خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هي التي يقع فيها النسخ ، وعلى ذلك يكون القصد والعزم على تنفيذ الأمر هو المعني بقوله الحق : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فهذا هو الذي يحاسبنا الله عليه "[2] .

وقبل ذلك ذكر نوازع النفس : الهاجس ، والخاطر ، وحديث النفس ، والهم ، والعزم . وقال : " والأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شئ ، إنما الأخيرة التي يكون فيها القصد واضحاً "[3] . وكلامه يجزم فيه بعدم وقوع النسخ في الآية الكريمة .

مناقشة ورد :

1 ــ إن قول الشعراوي : " أن الآية هي خبر " لا يسلم له فيه ؛ لأن الآية وإن جاءت بصيغة الخبر فهي بمعنى الطلب ، ومجيئها على هيئة الخبر لأغراض بلاغية . ونحن نعلم أن من لوازم الحساب الثواب والعقاب ، والثواب يأتي على الطاعة والامتثال ، والعقاب يأتي على التقصير في الطاعة . فلو لم تكن الآية تفيد الطلب ، لما كان هناك حساب ، وإلا فعلامَ سيحاسبون إذا لم يكن هناك طلب ؟! إذن الآية خبر بمعنى الطلب .

2 ــ تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ على أنه القصد والعزم أيضاً لا يسلم له به ؛ لأنه لو كان هو المقصود لما أشكل ذلك على الصحابة ، ولما وجدوا في أنفسهم حرجاً ومشقة من مطلوب الآية . إن الصحابة ــ رضوان

---

(1) انظر تفسير القرآن العظيم ــ لابن أبي حاتم الرازي (ت 327هــ) : ج1 ص299 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1235 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1234 .

الله عليهم ـ فهموا من الآية الكريمة أن الله سيؤاخذهم على كل أعمالهم بما فيها أعمال القلب إجمالا ، سواء كانت عزم أو هاجس أو أي عمل آخر ، ومن هنا جاءت المشقة والعنت .

3 ـ ثم إن الآية قد ذكر ابن كثير عن جمع من الصحابة والتابعين أنها منسوخة بالآية التي بعدها ، ومن هؤلاء ابن عباس ، وعلي ، وابن مسعود ، ومحمد بن كعب القرظي ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة (1) .

ونقل الإمام النووي في شرح مسلم قول القاضي عياض (✿): " وقد اختلف الناس في هذه الآية ، فأكثر المفسرين من الصحابة ومن بعدهم على ما تقدم فيها من النسخ . وأنكره بعض المتأخرين ؛ لأنه خبر ، ولا يدخل النسخ الأخبار ، وليس كما قال هذا المتأخر ، فإنه وإن كان خبرا فهو خبر عن تكليف ومؤاخذة بما تكن النفوس " . إلى أن يقول : " وهذه أقوال وأعمال اللسان والقلب ، ثم نسخ ذلك عنهم برفع الحرج والمؤاخذة " (2) .

فهل نقول بعد ذلك إن الآية خبر ، وأنها لا نسخ فيها ؟ إن الآية الكريمة قد ثبت نسخها ، ولا أدري ما الحرج فيما إذا قلنا بوقوع النسخ في القرآن ! أليس النسخ يذكرنا بنعمة الله وامتنانه علينا إذ خفف عنا ؟! أليس الله قال : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (من الآية 106 سورة البقرة) ؟! فلماذا الحرج إذن ؟ . ويجمل في هذا المقام أن أنقل ما قاله الإمام الزركشي في البرهان ، يقول : " والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل ؛ كسبب النزول ، والنسخ ، وتعيين المبهم وتبيين المجمل . ومنه ما لا يتوقف . ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر " (3) .

فاتباع الرأي فيما يتوقف على النقل حتما سيؤدي إلى الضلال والشطح .

إذن هذا عرض يبين منهج الشعراوي حول النسخ في القرآن ، ظهر لنا من خلاله أن الشعراوي يقول بالنسخ ويثبته . وقد حاول تكلفا أن ينفي النسخ عن بعض الآيات ، مستندا على اجتهاده . والله المستعان .

---

(1) انظر تفسير بن كثير ج1 ص320 .

(✿) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي العلامة عالم المغرب ، أبو الفضل السبتي الحافظ . ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة . كان عالما بالحديث والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم . أجاز له أبو علي الغساني . له تصانيف كثيرة منها : الشفاء وطبقات المالكية وشرح مسلم والمشارق في الغريب وغير ذلك . توفي بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة . انظر طبقات الحفاظ ـ للإمام السيوطي (ت911هـ) : ص470 .

(2) صحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت676هـ) : ج1 ص833 .

(3) البرهان ج2 ص188 .

المطلب السادس : المكي والمدني :

المكي والمدني مبحث هام من مباحث علوم القرآن ، وهو من أشرف علومه وأظهرها .
والمكي والمدني له اعتبارات ثلاثة عند العلماء : اعتبار الزمان ، واعتبار المكان ، واعتبار المخاطبين . وأشهر هذه الاعتبارات الأول (1) . وقد استقرأ العلماء المكي والمدني ، وخلصوا بنتيجة في ضوابط كل منهما (2) . وبينوا كذلك أن طريق العلم بالمكي والمدني هو ما ورد عن الصحابة والتابعين (3) .

وإذا ما نظرنا إلى تفسير الشعراوي ، فإننا لا نكاد نجده يتكلم عن المكي والمدني ، إلا في مواضع قليلة ، أهمها ما ذكره عند بداية تفسيره لسورة البقرة ، فقد استعرض بعض القضايا حول المكي والمدني . وأذكر فيما يلي القضايا التي استعرضها في تفسيره :

---

(1) انظر الإتقان : ج1 ص35 . ودراسات في القرآن وعلومه : ص15 ــ 17 .

(2) **ضوابط المكي :** ذكروا من الضوابط التي يعرف بها القرآن المكي :

1 ــ كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية . 2 ــ كل سورة فيها سجدة فهي مكية .

3 ــ كل سورة فيها ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة .

4 ــ كل سورة فيها ﴿ ياأيها الناس ﴾ وليس فيها ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ فهي مكية ، إلا سورة الحج ، ففي آخرها ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) ﴾ ومع ذلك فيرى كثير من العلماء أنها مكية . 5 ــ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .

6 ــ كل سورة فتحت بالحروف المقطعة فهي مكية سوى الزهراوين ــ البقرة وآل عمران ــ فإنهما مدنيتان بالإجماع .

ضوابط المدني : ذكروا من الضوابط التي يعُرف بها القرآن المدني :

1 ــ كل سورة فيها ذكر للحدود والفرائض فهي مدنية . 2 ــ كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان أحكامه فهي مدنية . 3 ــ كل سورة فيها ذكر للمنافقين فهي مدنية عدا العنكبوت ، وقد قال الإمام الزرقاني : " والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها ، فإنها مدنية " . (مناهل العرفان : ج1ص139) . وأخرج ابن جرير عن الشعبي بما يفيد أنها مدنية (تفسير الطبري : ج10جـ20ص83) . 4 ــ كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية .

انظر : الإتقان : ج1ص55 ــ 56 ، ومناهل العرفان : ج1ص138 ــ 139 ، ومباحث في علوم القرآن ــ لمناع القطان : ص62 ــ 63 .

(3) قال الزرقاني : " لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني ؛ ذلك لأن المسلمين زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، لكونهم شاهدوا الوحي ، وعلموا مواقع التنزيل " . مناهل العرفان : ج1ص137 بتصرف .

أولاً : مفهوم المكي والمدني عند الشعراوي وخلاف العلماء فيه :

ذكر الشعراوي مفهومه للمكي والمدني ، فقال عند تفسيره لسورة البقرة : " وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلاً من المكية ، فنقول : إنه يجب أن نفهم أولاً ما هو مكي وما هو مدني . فمكة والمدينة مكانان مقدسان ، الأول شهد بداية النبوة وبداية نزول القرآن على النبي ﷺ ، والثاني كان مهجر رسول الله ﷺ ، فعندما نقول مكي ومدني في القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء ؛ أولاً : الحدث الذي نزلت من أجله الآية . وثانيًا : مكان الحدث وثالثًا الزمان الذي نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه ، وفاعل ومَن يقع عليه الفعل ، وسبب للحدث وقدرة على الفعل . وبالنسبة لنزول القرآن الكريم ، الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . والذي نزل عليه القرآن هو رسول الله ﷺ ، والمكان هو إما مكة أوالمدينة . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ..." (1) .

ولعله يُفهم من كلامه الإشارة إلى بعض اعتبارات العلماء حول المكي والمدني من حيث زمان النزول ومكانه ، والذي وقع عليه الفعل ـ أي المخاطبين ـ ، لكنه بيَّن هذه الاعتبارات فيما بعد بقوله : " ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هي مكية أو مدنية ؟ فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسًا قالوا : إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله ﷺ بعد الهجرة تعتبر مدنية ، حتى ولو نزلت في مكة . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا : إن كل سورة نزلت في مكة فهي مكية ، وكل سورة نزلت في المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . ذلك أن رسول الله ﷺ نزلت عليه سور القرآن في مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لا خلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره ، بل كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة ؛ بعضهم نظر إلى زاوية المكان ، وبعضهم نظر إلى زاوية الزمان ، ولم يختلف العلماء في سور القرآن الكريم ذاته أو آياته "(2) .

إذن حسم الشعراوي الخلاف بين العلماء في المكي والمدني بأن كل فريق من العلماء نظر إلى المكي والمدني من زاوية معينة ، فعبَّر هذا بما رأى ، وعبَّر هذا بما رأى ، وهم متوافقون غير مختلفين ، وكل منهم صائب في وجهته ونظرته ، والأصوب أنه باعتبار الزمن ؛ لأن هذا التعريف ينسحب على جميع القرآن ، وضابط لأياته بعكس الاعتبارين

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص97 ـ 98 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص98 ـ 99 .

الآخرين ــ اعتبار المكان والمخاطبين ــ [1] .

ثانياً : ضوابط المكي والمدني :

تكلم الشعراوي عن المكي والمدني من حيث ضوابطه ومميزاته ، ولكن بشكل عام ، وأنقل ههنا كلامه بتمامه ليتضح لنا رأيه ، قال ــ رحمه الله ــ : " عندما ننظر إلى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التي نزلت بالمدينة . ففيها الطابع المدني والطابع المكي ، الطابع المكي في سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة ، ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله ﷺ يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه ، وكان لا بد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعاً ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهي الحجارة ، بينما الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان وجعله خليفة في هذا الكون . وكان لا بد للقرآن أن يخبرهم أن هناك بعثًا بعد الموت ، وأن هناك جنة وناراً وأن الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة ، وكان لا بد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولا يستطيع أحد منهم هرباً من ذلك اليوم العظيم ، وكان لا بد أن يلفتهم إلى آيات الله في الكون الدالة على أنه الموجد والخالق ، وأن يواجه ما يأتي به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن في الإسلام . وكانوا يظنون أنه ربما يأتي محمد عليه الصلاة والسلام بشئ من عنده فيخطئ ، فجاء القرآن ليساوي بين البشرية كلها ؛ فلا فضل لغني لماله ولا قلة لفقير في الأجر ، بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط . كان هذا هو أساس الدعوة في مكة ؛ إيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وتثبيت للمؤمنين في الفترة التي كانوا فيها قلة وكانوا ضعفاء وكانوا أذلة . وتثبيت الإيمان كان يقتضي تذكيرهم دائماً بأن الله معهم ، وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الإسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى منهم على كفره عُذب في النار ، وأن كل مشقة في سبيل الله لها أجر في الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون . وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى مجتمع المدينة ، فهناك صورة أخرى وُوجِه فيها الإسلام بالكفار وعبدة الأوثان ومزوري التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون ، وقد كانت هناك عداوة جاهلية في مكة ، أما في المدينة فقد وُوجِه الإسلام بعداوة عالمية وهم المنافقون ، فلم يكن هناك نفاق في مكة ، فالضعيف والمضطهد لا ينافق ، فمن ذا الذي يدعي في مكة أنه مؤمن وهو كافر ، ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن في المدينة

---

(1) انظر : دراسات في القرآن وعلومه : ص17 .

عندما قوي الإسلام وكانت له دولة ظهر في المجتمع النفاق . واقرأ قـــول الحـــق سـبحانه وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَـــرَدُوا عَلَـــى النِّفَـــاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) ﴾ (سورة التوبة) وهكذا واجه وسول الله ﷺ في المدينة عداوة من لون جديـــد ، ليخـــوض صراعـــاً مـــع المنـــافقين واليهود . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هنـــاك المجتمـــع الإســـلامي . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكي ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هنـــاك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولا تفعل "[1] .

إذن يُفهم من كلامه أن القرآن المكي له طابعه الخاص في الخطاب والأسلوب ، كمـــا أن للقرآن المدني أيضًا طابعه المميز في الأسلوب .

وفي موضع آخر يقول عند ختام سورة المائدة : " وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهـــي سورة مدنية ، وهي من آخر ما نزل من القرآن ، وفيها التشريع . وفيها التكـــاليف . وفيـــها الأحكام . وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب . ومن بعـــد ذلـــك جاءت سورة الأنعام ، وهي مكية " [2] .

فهذه الأمور التي ذكرها تعتبر من خصائص وضوابط القرآن المدني .

وهكذا يتبين لنا كيفية عرضه ـــ رحمه الله ـــ للمكي والمدني .

المطلب السابع : ما وقع في القرآن بغير لغة العرب :

اختلف العلماء في وقوع المعرَّب في القرآن على قولين [3] :

الأول : المانعون :

وهم جمهور العلماء ، منهم الإمام الشافعي [4] والطبري [5] والزركشي وغيرهم .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

ـــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّـــا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾ (سورة يوسف) .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص99 ـــ 100 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3484 ـــ 3485 .

(3) انظر : البرهان : ج1 ص359 وما بعدها ، والإتقان : ج1 ص393 وما بعدها .

(4) انظر كتاب الرسالة : ص40 .

(5) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج1 ص6 وما بعدها .

ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44) ﴾ (سورة فصلت) .

الثاني : المُجَوِّزون :

وهو مذهب ابن عباس وعكرمة ، وقول السيوطي وغيرهم .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

ـ قال السيوطي : " وأقوى ما رأيته للوقوع ـ وهو اختياري ـ ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة (✿) التابعي الجليل قال : في القرآن من كل لسان "(1) .

ـ هناك كلمات ثبت عدم عربيتها وقعت في القرآن الكريم ؛ مثل كلمة (أكواب) التي بمعنى أكواز بالنبطية ، و(أوَّاه) حكى ابن عباس أنها الموقن بلسان الحبشة ... وهكذا (2) .

وهذا هو الرأي الراجح ؛ لقوة أدلتهم .

وإذا ما نظرنا في تفسير الشعراوي نجد أنه يقول بوقوع المعرب في كتاب الله .

مثال ذلك : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (4) ﴾ (سورة آل عمران) نجده يقول : " وقد تكلمنا من قبل عن التوراة ، وقلنا : إن بعضاً من العلماء حين يتعرض للفظ من الألفاظ فهو يحاول أن يجعله من اللغة العربية ، ويحاول أن يعثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأن يأتي له بصفة من الصفات العربية ، فقال بعضهم عن التوراة : إنها من « الوَرْي » ـ بسكون الراء ـ وكان الناس قديماً يشعلون النار بضرب عود في عود آخر ، ويقولون : « الزند قد وري » أي قد خرجت ناره . وقال بعض العلماء أيضاً : إن الإنجيل من « النجل » وهو الزيادة " . ويرد الشعراوي على هؤلاء قائلاً : " لقد نظرتم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبري ، والإنجيل لفظ سرياني أو لفظ يوناني ، وصارت تلك الكلمات علماً على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا ، ولا تظنوا أن القرآن ما دام قد نزل عربيًّا فكل ألفاظه عربية ،

(✿) وهو عمرو بن شرحبيل الهمذاني أبو ميسرة الكوفي ، تابعي جليل . روى عن عمر وعلي وابن مسعود ، وروى عنه القاسم بن مخيمرة وأبو إسحق السبيعي . ثقة عابد (ت63هـ) .

انظر تهذيب التهذيب : ج3 ص277 ، والثقات : ج5ص168 .

(1) الإتقان : ج1 ص394 . والحديث عند الطبري : ج1ص6 ـ 7 .

(2) انظر الإتقان : ج1 ص396 وما بعدها .

لا . صحيح أن القرآن عربي ، وصحيح أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يفهم معناها . والمثال على ذلك أننا في العصر الحديث أدخلنا في اللغة كلمة « بنك » وتكلمنا بها ، فأصبحت عربية ، لأنها تدور باللسان العربي ، فمعنى أن القرآن عربي أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها ، وهي دائرة على ألسنتهم وإن لم تكن أصلها عربية ، فأصبحت عربية الاستعمال لإدخالها على اللسان العربي "[1] .

إذن هذا هو رأي الشعراوي فيما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، والذي تميل إليه النفس ويثلج إليه الصدر هو ما ذكره الشعراوي ـــ رحمه الله ـــ ذلك أن الكلمة لابد أن يكون لها أصل ، فأي كلمة حتماً ستكون قد خرجت من لسان معين ، إما لسان الحبشة أو الفرس أو الروم أو أي لسان من الألسنة ، فإن كانت هذه الكلمة ـــ على سبيل المثال ـــ فارسية ، ثم انتقلت إلى اللسان العربي ، ودارت عليه ، وأصبحت كلمة متداولة عند العرب ، فهل نعتبرها عربية ؟ إذا اعتبرناها عربية فهو من قبيل التجوز ، أي تكون عربية تجاوزاً .

وإذا نظرنا إلى أصلها وجدناها غير عربية ، وإنما هي دخيلة على العرب . فما المانع إذن من وقوع بعض الكلمات التي تداولتها العرب فيما بينها في القرآن ؟ وهل ينافي وجود هذه الكلمات وصف القرآن بأنه عربي ؟

إذن وقوع بعض الكلمات غير العربية في القرآن جائز ـــ هذا هو رأي الشعراوي .

وفي موضع آخر من تفسيره نجده يفسر كلمة (راعنا) في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾ (سورة البقرة) ، يقول : " ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود في العبرانية والسريانية كلمة راعنا ، ومعناها الرعونة "[2] .

وبهذا يظهر لنا منهج الشعراوي فيما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، حيث إنه يقول بوقوع المعرب في القرآن ، ويؤكد أن اللغة العربية مازالت تستقبل كلمات معربة يتداولها العرب فيما بينهم ، فتصبح بعد استعمالها ومداولتها عربية .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1266 ـــ 1267 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص502 ، وانظر ج1 ص95 . وكلمة « راعنا » ورد فيها أقوال ، وهي بإيجاز : بمعنى الخلاف ، أي لا تقولوا خلافاً . وقيل : بمعنى أرعنا سمعك ، أي اسمع منا ونسمع منك ، وقيل : هي كلمة كانت اليهود تقولها على وجه المسبة والاستهزاء لرسول الله ﷺ . وقيل : هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية ، فنهاهم الله أن يقولوها لنبيهم ﷺ . وقيل : بل هي كلمة كان يقولها يهودي بعينه ، وهو رفاعة بن زيد ، وكان يكلم النبي ﷺ بها على وجه المسبة . انظر تفسير الطبري للآية الكريمة 104 من سورة البقرة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ... ﴾ .

المطلب الثامن : المحكم والمتشابه :

لقد أوضح الحق سبحانه وتعالي في آية أن القرآن كله محكم ، فقال : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾ (سورة هود) ، وأوضح في آية أخرى أن القرآن كله متشابه ، فقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ... (23) ﴾ (سورة الزمر) ، وأوضح الحق سبحانه أن من القرآن ما هو محكم وما هو متشابه ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... (7) ﴾ (سورة آل عمران) ومعنى كون القرآن كله محكم ، أي أنه متقن ، لا يتطرق إليه نقص ولا اختلاف . ومعنى كونه متشابه ، أي أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز (1) .

أما معنى كونه فيه المحكم والمتشابه ، فهذا الذي وقع فيه الخلاف ، وقد ذُكرت في تعيين المحكم والمتشابه أقوال ، أذكر منها ثلاثة ، علّها تكون أقرب الأقوال وأنسبها :

الأول : المحكم : ماعرف المراد منه ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه .

الثاني : المحكم : مالا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه : ما احتمل أوجهاً .

الثالث : المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه : ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده . وللمتشابه : بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة (2) .

وفيما يلي نبين منهج الإمام الشعراوي في عرض المحكم والمتشابه :

أولاً : مفهوم المحكم والمتشابه عند الشعراوي :

يقول ــ رحمه الله ــ : " ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آيات محكمات وأخر متشابهات ، والآيات المحكمات تضم الأحكام التي عليك أن تفعلها لتثاب عليها ، وإن لم تفعلها تعاقب ، وكل ما في الآيات المحكمات واضح . أما الآيات المتشابهات إنما جاءت متشابهة لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ."(3) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(1) الإتقان : ج2 ص5 .

(2) مباحث في علوم القرآن ــ مناع القطان : ص221 ــ 222 .

(3) تفسير الشعراوي : ج11 ص6809 .

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ (7) ﴾ (سورة آل عمران) : " ماذا يعني الحق بقوله : « آيات محكمات » ؟ إن الشئ المحكم هو الذي لا يتسرب إليه خلل ولا فساد في الفهم ، لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هي النصوص التي لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول : « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (من الآية 38 سورة المائدة) هذه آية تتضمن حكماً واضحاً ، وهو سبحانه يقول : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما » (من الآية 2 سورة النور) . هذه أيضاً أمور واضحة ، هذا هو المحكم من الآيات ، فالمحكم هو مالا تختلف فيه الأفهام ، لأن النص فيه واضح وصريح لا يحتمل سواه . المتشابه هو الذي نتعب في المراد منه "[1] .

ولا يُظَن أن الشعراوي قد اختلف مفهومه للمتشابه في كلا الموضعين ، إنما كان مقصده من المتشابه في الموضع الأول هو ما استأثر الله بعلمه ، وخفي معناه على الناس ، أو هو ما احتمل أوجهاً من حيث المعنى والتأويل [2] .

ثم يمثل الشعراوي للمحكم والمتشابه . فيقول : " فالمحكم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أي افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وما دامت أفعالاً مطلوبة من الخلق فالذي فعلها يُثاب عليها ، والذي لم يفعلها يعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب "[3] .

ثم ذكر الشعراوي من آيات الصفات قوله تعالى : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾ (سورة الأنعام) . وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) ﴾ (سورة القيامة) . وقوله تعالى عن الكفار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ﴾ (سورة المطففين) وبعد ذلك قال : " إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تأت من أجل الأحكام ، إنما جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول ﷺ ينهي كل خلاف حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : " **إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به** "[4]. إن المتشابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمحكم من الآيات إنما جاء للعمل به "[5] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1273 .

(2) ذكره الدكتور أحمد عمر هاشم . انظر حاشية تفسير الشعراوي ج11 ص6809 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1273 .

(4) عزاه ابن كثير لابن مردويه . انظر تفسير ابن كثير : ج1 ص328 .

(5) تفسير الشعراوي : لاج2 ص1267 .

ثانياً : رد المتشابه من الصفات إلى المحكم :

يرى الشعراوي ـــ رحمه الله ـــ ضرورة رد المتشابه من الآيات إلى المحكم منها . يقول : " والمؤمن عليه دائماً أن يرد المتشابه إلى المحكم . مثال ذلك عندما نسمع قـــول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًـــا (10) ﴾ (سـورة الفتـح) إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد » ؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليـــس كمثلـــه شئ » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى (5) ﴾ (ســورة طه) فهل لله جسم يستقر على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو المتشابه الذي يجب على المؤمـــن الإيمان به ... "[1] . قال : " فمن يتسع ظنه إلى أن يؤول ويردها إلى المحكم بأن الله ليـــس كمثله شئ فله ذلك ، ومن يتسع ظنه ويقول : أنا آمنت بأن لله يداً ولكن في إطـــار « ليـس كمثله شئ » فله ذلك أيضاً وهذا أسلم .والحق يقول : « منه آيات محكمات هن أم الكتـاب » ومعنى « أم » أي الأصل الذي يجب أن ينتهي إليه تأويل المتشابه إن أولت فيه ، أو ترجعــه إلى المحكم فتقول : إن لله يداً ، ولكن ليست كأيدي البشر ، إنما تدخل في نطــاق : ﴿ لَيْـسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (من الآية 11 سورة الشورى) "[2] .

ثم بين موقف أهل الزيغ من المتشابه ، الذين يبتغون الفتنة ويؤولونه على غـــير وجهــه ، يقول : " « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغـــاء تأويلــه » إذن فاتباعهم للمتشابه منه ليؤولوه تأويلاً يخالف الواقع ليخدموا الزيغ الذي في قلوبهم . "[3] . قال : " إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه . ويبتغون تأويله ... فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحـــاولون جاهدين أن يؤولوا المتشابه ويردوه إلى المحكم ، أو يؤمنوا به كما هو "[4] .

إذن هذا هو رأي الشعراوي في المحكم والمتشابه ، وكيفية عرضه له .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1276 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1277 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1278 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص1279 .

المطلب التاسع : المبهمـــــات :

الإبهام علم من علوم القرآن الجليلة ، يتوقف تعيينه على النقل المحـــض (1). والإبـــهام فـــي القرآن له أسباب متعددة ذكرها العلماء ؛ وهي (2):

1 ـــ أن يكون أبهم في موضع استغناءً ببيانه في موضع آخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْـنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (50) ﴾ (سورة المؤمنون) ، يعني مريم وعيسى .

2 ـــ أن يتعين لاشتهاره ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّـــةَ ... (35)﴾ (سورة البقرة) ولم يقل زوجك حواء ؛ لأنه ليس غيرها . ومثلها قصة النمرود الـــذي حـــاج إبراهيم في ربه . وابني آدم قابيل وهابيل .

3 ـــ قصد الستر عليه ، ليكون أبلغ في استعطافه : نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّـــاسِ مَـــنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَـــامِ (204) ﴾ (ســورة البقرة) وهو الأخنس بن شريق .

4 ـــ ألا يكون في تعيينه كثير فائدة : كقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَـــةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ (من الآية 259 سورة البقرة) والمراد بها بيت المقدس .

5 ـــ التنبيه على التعميم ، وهو غير خاص بخلاف ما لوعُيِّن : كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (من الآية 100 سورة النساء) قال عكرمة : أقمـــت أربـــع عشرة سنة أسأل عنه حتى عرفته ، هو ضمرة بن العيص .

6 ـــ تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم : كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُـــمْ ﴾ (من الآية 22 سورة النور) . والمراد : الصدِّيق .

7 ـــ تحقيره بالوصف الناقص : كقوله تعالى :﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (3) ﴾ (سورة الكوثـــر) والمراد فيها : العاص بن وائل .

فهذه جملة أسباب وقع الإبهام في القرآن لأجلها .

أولاً : موقف الشعراوي من المبهمات :

لا بد أن يقف المفسر إزاء المبهمات موقف الحذر ، فلا يخوض فيها ، ويعين ما أبهمــه

---

(1) انظر : البرهان : ج1ص202 ، ج2ص188 ، ومفحمات الأقران : ص19 ، واتجاهـــات التفســير فـــي العصر الراهن : ص132 .

(2) انظـــر البرهـــان : ج 1 ص 202 ـــ 207 ، والإتقـــان ج2 ص 382 ـــ 383 ، ومفحمـــات الأقـــران ص20 ـــ 22 .

الله ، اللهم إلا إذا استند إلى نقل صحيح في ذلك ، وإلا توقف وفوض علمها إلى الله ؛ لأن الخوض في ذلك تكلف وتمحل ، وطلبٌ لعلمٍ محذورٌ على الأفهام ؛ لعدم اتساعها له ، وإن خاض فيه فلن يصل في النهاية إلى نتيجة ؛ لأنه بنى علمه على ظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . وقد بين الشعراوي أننا قد لا نصل إلى تعيين المبهم . يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30) ﴾ (سورة البقرة) ، يقول : " ... وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين .... نقول لهم : لن تصلوا إلى شئ لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص لنعرف أنه ليس المقصود شخصاً بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة "[1] . وكلام الشعراوي متفق مع ما ذهب إليه العلماء في المبهمات من منع تعيين ما أُبهِم في القرآن إلا بنقل صحيح ، لكن لنا تعليق على قوله : لن تصلوا إلى شئ . والأولى أن نقول : قد لا تصلوا إلى شئ ؛ لأنهم قد يصلوا إلى شئ عن طريق السنة أو الإسرائيليات أو علم الآثار أو غيرها من العلوم .

ولقد رد الشعراوي على الذين يريدون أن يعينوا ما أبهمه الله ، وبين لهم أن التعيين ينافي العبرة من الإبهام ، ويضعف القصة ، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (243) ﴾ (سورة البقرة) : " أما عن سبب هذا الموت فلم تتعرض له الآيات ، وإن تعرض المفسرون له وقالوا كلاماً طويلاً ، فمنهم من قال : إنهم خرجوا هرباً من وباء يحل بالبلد خشية أن يموتوا ، وبعضهم قال : إنهم خرجوا فراراً من عدو قد سُلِّط عليهم ليستأصلهم ، المهم أنهم أرادوا أن يفروا خوفاً من الموت . إذن فالقرآن يعالج تلك المسألة من الزاوية التي تهم ، ولكن ما هو السبب ولماذا الخروج ؟ فذلك أمر لا يهم ؛ لأن القرآن لا يعطي تاريخاً ، فلم يقل متى الوقائع ولا زمانها ، ولا على يد من كان هذا ، ولا يحدد أشخاص القضية ، كل ذلك لا يهتم به القرآن . والذين يتعبون أنفسهم في البحث عن تفاصيل تلك الأمور في القصص القرآني ، إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء بزمن مخصوص ، ومكان مخصوص ، وأشخاص مخصوصة . ونقول لهم : إن القرآن لو أراد ذلك لفعل ، ولو كان ذلك له أصل في العبرة والعظة لبينه الحق لنا ، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل ؛ لأن مدلول القصة إن تحدد زمانها ، فربما قيل : إن الزمان

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص237 .

الذي حدثت فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة ، والزمن الآن لم يعد يحتملها ، وربما قيل : إن هذا المكان الذي وقعت فيه يحتمل حدوثها ، إنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل ، وكذلك لو حددها بشخصيات معينة لقيل : إن القصص لا يمكن أن يحدث إلا على يد هذه الشخصيات ؛ لأنها فلتات في الكون لا تتكرر . إن الله حين يبهم في قصة ما عناصر الزمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة ، إنه ــ سبحانه ــ يعطي لها حياة في كل زمان وفي كل مكان ، وحياة مع كل شخص ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إنها مشخصة . وأضرب دائما هذا المثل بالذين يحاولون أن يعرفوا زمن أهل الكهف ، ومكان أهل الكهف ، وأسماء أهل الكهف ، وكلب أهل الكهف . نقول لهؤلاء : أنتم لا تثرون القصة ؛ لأنكم عندما تحددون لها زمانا ومكانا وأشخاصا فسيقال : إنها لا تنفع إلا للزمان الذي وقعت فيه . ولذلك إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعمم . وإن أراد أن يحدد فهو يشخص ."[1] . إن قول الشعراوي : (إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعم) قاعدة أو نتيجة مفيدة ومهمة ؛ لأن الإبهام يأتي خلال أحداث القصة لتحقيق الهدف العام للقصة القرآنية ، وهو تحقيق الهداية والرشاد للناس عامة .

مثال آخر : عندما عرض لتفسير قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ... (258) ﴾ (سورة البقرة) ، فيقول : " والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم في ربه ، لأنه لا يعنينا التشخيص سواء كان النمرود أو غيره فإذا ذهب بعض المفسرين إلى القول : إنه ملك واسمه النمرود . فإننا نقول لهم : شكرا لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذي يهمنا هو أنه واحد خرج على رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله في هذه المسألة . والتشخيص هنا ليس ضروريا ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه في أي زمان أو مكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأي إنسان في أي مكان قد يحاجج أي مؤمن . وليس كذلك الأمر بالنسبة لأي تشخيص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا قصة أهل الكهف ..."[2]

إذن ميل الشعراوي إلى الإبهام وعدم التعيين ، مع أن الذي حاج إبراهيم في ربه اشتهر أمره بأنه النمرود ، وأصبح كأنه متعين .

ثانيا : الشعراوي يعين المبهم :

لكننا نجد الشعراوي قد خالف منهجه في المبهمات ، وذهب يعين المبهم في بعض الآيات مستندا في ذلك على مجرد العقل والاجتهاد كما في تعيينه للتابوت وما بداخله . وهو الذي

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1031 ــ 1032 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1123 ــ 1124 .

ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) ﴾ (سورة البقرة) لقد ذكر أن التابوت ورد ذكره في القرآن مرتين : مرة في هذا الموضع ، ومرة عندما وضعت أم موسى رضيعها فيه [1] . ثم قال عن التابوت في هذه الآية : " وغالب الظن أنه هو "[2] بمعنى أن التابوت الذي ورد ذكره في هذه الآية هو التابوت الذي أنجى الله به موسى . لكن التعيين على هذا النحو يحتاج إلى دليل ، إذ الأمر يبقى في دائرة الاحتمال ، فقد يكون التابوت في هذه الآية هو نفسه التابوت الذي أُنجي به موسى ، وقد يكون غيره . لكن يشفع للشعراوي أنه لم يعينه بأنه هو . وإنما قال : " وغالب الظن " أي لم يجزم به . لكنه لم يستمر على الظن .

ثم إن الشعراوي عين لنا ما بداخل التابوت ، بأنها عصا موسى ؛ لكونها من الآثار التي لها ارتباط بالعقيدة . يقول : " إذن فالآثار التي لها مساس وارتباط بأحداث العقيدة ، وأحداث النبوة ، هذه الآثار مهمة للإيمان ، وكأن القرآن يقول : اتركوها كما هي ، وخذوا منها عظة وعبرة ، لأنها تذكركم بأشياء مقدسة . لقد كان التابوت مفقوداً ، وذلك دليل على أن عدواً غلب على البلاد التي سكنوها ، والعدو عندما يغير على بلاد يحاول أولاً طمس المقدسات التي تربط البلاد بالعقيدة ..... والله سبحانه وتعالى يطمئنهم بأن آية الملك لطالوت هي مجيء التابوت الذي تتلهفون عليه ، وترتبط به مقدساتكم « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » فكأن الاستقرار النفسي سيأتيكم مع هذا التابوت ..... وعلى سبيل المثال تأمل مشاعرك عندما يُقال لك : « هذا المصحف الذي كان يقرأ فيه سيدنا عثمان » إنه مصحف مثل أي مصحف آخر ، ولكن ميزته أنه كان يقرأ فيه سيدنا عثمان . إنك تستريح نفسيًّا عندما تراه ..... « فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » كأن آل موسى وآل هارون قد حافظوا على آثار أنبيائهم ، وأيضاً قوله تعالى : « تحمله الملائكة » يؤكد لنا أنه لاشك أن الأثر الذي تحمله الملائكة لابد أن يكون شيئاً عظيماً يوجب العناية الفائقة ...... ونريد الآن أن نعرف الأشياء التي يمكن لآل موسى أن يحافظوا عليها من آثار موسى عليه السلام ، والآثار التي يحافظ عليها آل هارون من هارون عليه السلام قال بعض الناس : إنها عصا موسى ، وهي الأثر الذي تبقى من آل موسى ، وذلك أمر معقول ؛ لأنها أداة من أدوات معجزة موسى عليه السلام . ألم تكن هي المعجزة التي انقلبت حية تسعى وابتلعت بسرعة ما صنعه السحرة ؟ إن

---

(1) قال تعالى : ﴿ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ (من الآية 39 سورة طه) .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1049 .

مثل هذه الأداة المعجزة لا يمكن أن يهملها موسى ، أو يهملها المؤمنون به بعد ما حدث فيها. وليس من المعقول أن يفرط آل موسى في عصا تكلم الله فيها وقال : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ (الآية 17 ، ومن الآية 18 سورة طه) . إن هناك قصة طويلة استغرقها الحديث عن هذه العصا ، فكيف يفرط فيها موسى وقومه بسهولة ؟ لا شك أنهم حافظوا عليها ، وقدسوها ، وجعلوها من أمجادهم "[1] .

إذن يظهر لنا من سياق كلامه الجزم بأن التابوت هو الذي أنجى الله به موسى ، وأن ما بداخله هي العصا ، وكلامه ــ رحمه الله ــ مستند على الدليل العقلي ، وهو قريب ، ولكن أن نجزم بذلك هذا مما لا اجتهاد فيه ، ولم يرد فيه نص يعين ذلك المبهم . وليت الشعراوي بقي على مقالته أولاً ــ " غالب الظن أنه هو " ــ لكان ذلك أولى وأسلم ؛ لأن الأمر يبقى في دائرة الظن . وغاية ما يُقال في هذا الأمر أن التابوت قد يكون الذي أنجى الله به موسى ، وقد يكون غيره ، وأن ما فيه قد تكون العصا ، وقد يكون غيرها ، ولا نجزم بذلك بدون دليل نقلي .

مثال آخر : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (من الآية 259 سورة البقرة) نجده يقول :

" قال البعض : إنه أرمياء بن حلقيا أو هو الخضر أو هو العزير ، وقد قلنا من قبل : إنه إذا أبهم الحق فمعناه : لا تشخص الأمر ، فيمكن لأي أحد أن يحدث معه هذا "[2] .

لكنه لم يلبث أن عين هذا الرجل بأنه العزير [3] .

وهكذا نجد الشعراوي قد خالف منهجه في المبهمات .

وبهذا العرض يتبين لنا منهج الشعراوي في المبهمات .

المطلب العاشر : القصـــة :

خير من تحدث لنا عن القصة في القرآن الكريم ، وأبرز خصائصها ومميزاتها الأستاذ الشهيد سيد قطب ــ رحمه الله ــ في كتابه الشهير (التصوير الفني في القرآن) .

إن القصة مظهر فني جميل ، يُخاطب بها الفكر والوجدان ، وهي وسيلة ناجحة في الإقناع

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1049 ــ 1051 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1131 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص1135 .

وفي الوصول إلى المراد ، ومن هنا وجدنا القرآن قد حوى في طياته على كمٍّ كبير من القصص .

وقد ألَّف الشعراوي كتاب (قصص الأنبياء) ، وهو كتاب كبير الحجم ، عظيم النفع . تناول في مطلعه موضوعات متعددة تدور حول القصة ؛ مثل المقصود من قصص القرآن ، والفرق بينها وبين قصص الخلق ، والغرض منها ، وموضوعات أخرى .

ونبين فيما يلي منهجه ــ رحمه الله ــ في تفسير القصة القرآنية :

أولاً : معنى القصة :

يقول ــ رحمه الله ــ : " وكلمة « قصة » مأخوذة من قص الأثر : بمعنى أن يتبع قصَّاص الأثر في الصحراء الآثار التي يشاهدها على الرمال حتى يصل إلى مراده . عندما يصل إلى نهاية الأثر " (1) .

وقال في موضع آخر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾ (سورة يوسف) يقول : " ونعلم أن كلمة « قص » تعني الاتباع .... وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير من يتبعه ، ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه مَن يبحث عنه . واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11) ﴾ (سورة القصص) ، و « قصيه » أي : تتبعي أثره . إذن فالقصُّ ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة . إنما القص هو تتبع ما حدث بالفعل ، فتكون كل كلمة مصورة لواقع لا لَبْس فيه أو خيال ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث في القصص الفني الحديث ، حيث يضيف القصاص لقطات خيالية من أجل الحبكة الفنية ، والإثارة وجذب الانتباه " (2) .

إذن رأي الشعراوي في القصة أنها كلمات معبرة عن أحداث واقعة وليست خيالية .

ثانياً : كيفية عرض القصة :

إن الناظر في القصص القرآني يجد أنها تتسم بطابع الإيجاز والإطناب ، فتأتي مرة موجزة ، وتأتي مرة مبسوطة ، وهذه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى في نظم كتابه .

والشعراوي حينما يعرض للقصة فإنه يجمعها من سورها ، فيأتي بالآيات التي تناولت تلك القصة من سورها ، ويربط بين هذه الآيات ليكون منها بناءً متكاملاً . ولو نظرنا إلى قصة آدم ﷺ في سورة البقرة لوجدنا ذلك واضحاً ، فقد تحدث عنها نحواً من عشرين ورقة .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1ص235 .

(2) تفسير الشعراوي : ج11ص6831 ــ 6833 بتصريف .

ونظراً لطول الحديث عن هذه القصة ، أرى أن أقتصر على ذكر فقرات مقتبسة من تفسيره متضمنة لبعض الآيات التي أتى بها من سورها عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) ﴾ (سورة البقرة) ، قال : " وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا ، وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) ﴾ (سورة الانفطار) وقوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) ﴾ (سورة ق) ، وقوله سبحانه : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) ﴾ (سورة النازعات) ..... ولذلك عندما رفض إبليس السجود ، قال له الله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) ﴾ (سورة ص) ، ..... وإبليس ليس ملكاً ، ولكنه من الجن . كما يروي لنا القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ﴾ (سورة الكهف) .... ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله أن أمر السجود لم يشمل إبليس لكونه من الجن ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (من الآية 12 سورة الأعراف) . وكان سبب كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الآمر ، وقال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (من الآية 61 سورة الإسراء) ...... وأقسم إبليس بعزة الله أن يغري بني آدم ، حدد الأماكن التي يأتي منها الإغواء فقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17)﴾ (سورة الأعراف) .... "[1].

فهذه مقتطفات مما ذكره الشعراوي في عرض القصة .

ثالثاً : الهدف من القصص القرآني :

لقد بين الشعراوي الهدف من القصص القرآني ، والغاية التي سيقت من أجلها تلك القصص . فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾ (سورة الأعراف) ذكر من أهداف القصص أموراً متعددة ، يقول ما نصه : " وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقوله : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (من الآية 120 سورة هود) . فكأن القصص تثبيت لفؤاده ﷺ ، فكلما أهاجه

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص254 ـــ 257 مختصراً . وانظر قصة مريم ج3 ص1449 إلى آخر القصة .

نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق ــ سبحانه ــ قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ، ليثبت به فؤاده ﷺ وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شئ ويوطنون أنفسهم على هذا العنت ..... والقصص له أكثر من هدى ؛ يثبت به فؤاد الرسول ﷺ ، ويبين له أنه ليس بدعا من الرسل ، ويقوي نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولى الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوي يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين ..... وأيضا فقصص الرسل إنما جئ بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ، لأنه رسول أمي ، والأمة أمية ، ولم يدع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتابا ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟ واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في الآيات التي يأتي فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأمر ﴾ (من الآية 44 سورة القصص) . ومثل قوله الحق : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ (48) ﴾ (سورة العنكبوت) . ومثل قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (من الآية 44 سورة آل عمران) فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ كتابا ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته "[1] .

ومن ذلك أيضا قوله : " وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التي وقعت في الماضي . ولما يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وإنما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة إيمانية ، ذلك أن القصص القرآني يتكرر في كل زمان ومكان ، ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض ، ونصب نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة إلى نفسه ، وتكبر وعصى الله ، وقصة يوسف هي قصة كل أخوة أخ حقدوا على لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ما عدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهي معجزة لن تتكرر ؛ ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى أبطالها ، فقال : عيسى ابن مريم ، ومريم ابنة عمران "[2] .

ويرى الشعراوي أن سوق القصة بتفاصيلها ضرب من الإعجاز ، وهي دليل عملي على إثبات نبوة محمد ﷺ . يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص4188 ــ 4190 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص116 .

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾ (سورة يوسف) :

" وكان ضرباً من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة كدليل عملي على أن معلِّم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَن أوحى بها إليه "[1] .

وقول الشعراوي : " بكل تفاصيل القصة " لا يُسلم له به ؛ لأنه ليس هناك قصة في القرآن الكريم ذُكِرت بجميع تفاصيلها ، فقصة يوسف مثلاً لم تذكر كيفية ولادته ، ولا اسم أمه وإخوته ، ولا كيفية وفاته ... إلى غير ذلك من التفاصيل . وكذلك باقي القصص .

رابعاً : القصة القرآنية مجهولة الزمان والمكان والأشخاص :

أكد الشعراوي أن من القصص القرآني ما جاء مبهماً ليعم ، وأنه جاء مجهول الأشخاص والزمان والمكان . فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ... (258) ﴾ (سورة البقرة) نجده يقول : " والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم في ربه ، لأنه لا يعنينا التشخيص سواء كان النمرود أو غيره . فإذا ذهب بعض المفسرين إلى القول : إنه ملك واسمه النمرود . فإننا نقول لهم : شكراً لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذي يهمنا أنه واحد خرج على رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله في هذه المسألة ، والتشخيص هنا ليس ضرورياً ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه في أي زمان أومكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأي إنسان في أي مكان قد يحاجج أي مؤمن ، وليس كذلك الأمر بالنسبة لأي تشخيص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا قصة أهل الكهف ، ويتساءلوا : أين ومتى ، وكم عددهم ، ومن هم ؟ . ونقول لهم : لو جاءت واحدة من هؤلاء لفسدت القصة ؛ لأنه لو حددنا زمانها سيأتي واحد يقول لك : مثل ذلك الزمان الذي حدثت فيه القصة كان يسمح بها ، ولو حددنا المكان سيقول آخر : إن المكان كان يسمح بهذه المسألة . ولو حددنا الأشخاص بأسمائهم فلان وفلان ، فسيقول ثالث : إن مثل هذه الشخصيات يمكن أن يصدر منها مثل هذا السلوك ، وأنَّى لنا بقوة إيمان هؤلاء ؟

والحق لم يحدد الزمان والمكان والأشخاص ، وجاء بها مبهمة ليدل على أن أي فتية في أي زمان وفي أي مكان يقولون ما يقولون ، ولو شخصها في واحد لفسد المراد "[2] .

وسوف يأتي الحديث عن هذا الموضوع في مطلب (المبهمات) .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج11 ص6840 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1123 ـــ 1124 .

خامساً : مقارنة بين قصص القرآن وقصص البشر :

يفرق الشعراوي بين القصة القرآنية والقصة التي يرويها البشر ، والفرق بينهما ظاهر ، إذ القصة القرآنية واقع يُتلى ، أما قصص البشر فهو ممزوج بالخيالات والمبالغات من أجل الحبك . يقول الإمام الشعراوي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) ﴾ (سورة هود) : " وقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) ﴾ (سورة هود) يتطلب أن نفرق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقولون : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلئ بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحكمة . ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة « قصة » في اللغة العربية " إلى أن يقول : " إذن فقصص القرآن يقتضي الحقائق ولا يقول غيرها أما ما اصطلح عليه في عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يسمى ــ لغويًا ــ بالروايات ، ولا يعتبر قصصًا "[1] .

سادساً : لا تكرار في القصة القرآنية :

ينفي الشعراوي أن يكون هناك تكرار في القصة القرآنية ، قال : " والقصص في القرآن لا تأتي مكررة ، وقد يأتي بعض منها في آيات ، وبعض منها في آيات أخرى ، ولكن المشهد مختلف ، يعطينا في كل آية معلومة جديدة ، بحيث أنك إذا جمعت كل الآيات التي ذكرت في القرآن الكريم ، تجد أمامك قصة كاملة متكاملة ، كل آية تضيف شيئًا جديدًا "[2] .

وكلام الشعراوي هذا ليس على إطلاقه في جميع قصص القرآن .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) ﴾ (سورة الأعراف) فنجده يقول : " وقول الحق : « فاقصص القصص » يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة "[3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص236 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1ص237 .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص4461 .

ولا يظن أن الشعراوي يقصد بقوله « يكرر القصة أكثر من مرة » أن القصة تتكرر بلفظها في مواطن متعددة ، لا ، ولكنه يقصد أن القصة تتكرر بمشاهد وحلقات جديدة ، تتناسب مع المقام الذي سيقت فيه .

سابعا : التصوير في القصة :

أقصد بالتصوير هو تخييل وتجسيم القصة ، وإحالتها قصة تمثيلية ذات أشخاص ، وذات حركة ، بحيث لا يقف الأمر بنا على كلام يتلى ، بل يتعداه إلى رسم الحركة في الخيال حال قراءة القصة .

والشعراوي له مثل هذه اللفتات أثناء تفسيره للقصص القرآني . ففي المثال سالف الذكر يذكر اللقطات والحلقات ، وهذا ما يطلق على الأداء الكائن في التمثيليات والمسرحيات فالتمثيلية تتكون من حلقات ، والحلقة تتكون من لقطات ، واللقطة تتكون من عدة حركات .

ولعل الصورة تتضح أكثر في المثال الذي أسوقه . حيث قال عند تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) ﴾ (سورة البقرة) قال ــ رحمه الله ــ : " وجاء « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفي المستقبل . ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم أنه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفع ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتي بالحجر . إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء ، ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت ، ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان ، هما سعيدان وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما "[1] .

فكلامه هنا صريح وواضح في التصوير ، وإذا أردت التوسع في هذا المجال فانظر كتاب (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب ــ رحمه الله ــ .

ثامنا : أكبر قصص القرآن :

يرى الإمام الشعراوي أن أكبر القصص في القرآن الكريم ، قصة موسى عليه السلام ، ويذكرنا القرآن الكريم بها كثيرا لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر في التاريخ ، وفي كثير من

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص585 ، وانظر ج7 ص4190 .

المناسبات يذكرنا الله بمشهد من حياة هؤلاء [1] .

وقال عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾ (سورة الأعرف) : " ... وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطا وافرا في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ، لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرون ... "[2] .

إن القرآن هو كتاب الإسلام الخالد والصالح لكل زمان ومكان ، وفيه علاج لكل مشاكل الأمة . وإسهاب القرآن في الحديث عن يهود يشير إلى التصادم والصراع الطويل والمرير بين الإسلام وبين تلك الأمة المغضوب عليهم .

تاسعا : أكمل قصص القرآن :

يرى الشعراوي أن أكمل قصص القرآن قصة يوسف عليه السلام ، فهي القصة الوحيدة التي جاءت كاملة في موضعها . قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾ (سورة يوسف) : " والقصة في القرآن مرة تكون للحدث ، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تأت قصة رسول في القرآن كاملة إلا قصة يوسف عليه السلام . أما بقية الرسل فقصصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبت فؤاد الرسول ﷺ ، فتأتي لقطة من حياة رسول ، ولقطة من حياة رسول آخر وهكذا . ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة مستوفية . فقد شاء الحق سبحانه أن يأت بقصة يوسف من أولها إلى آخرها ، مستوفية ، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص . وفيها شخص دارت حوله الأحداث "[3] .

إذن هذا عرض مفصل لمنهج الشعراوي في القصة القرآنية .

المطلب الحادي عشر : السيرة :

تعتبر سيرة النبي ﷺ أصل هام من أصول التفسير يرجع إليها في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم ، ذلك أن القرآن قص علينا أحداثا كانت قد مرت بها الدعوة عصر التنزيل ،

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص237 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1031 .

(3) تفسير الشعراوي : ج11 ص6833 ـ 6834 .

كأخبار الغزوات ، وما لاقاه النبي ﷺ والمسلمون في مواجهة أعباء الدعوة ، وغيرها من الأحداث التي حفل بها تاريخ الدعوة ؛ ولذلك كانت السيرة أصلاً هاماً من الأصول التي تعين على فهم كتاب الله ، ومن هنا نفهم فعل الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ، حينما كانوا يعلّمون أولادهم المغازي والسير كما يحفظونهم الآية أو السورة من القرآن . وهذا يشير إلى أن السيرة أمر ضروري لمفسر كتاب الله تعالى ، ولا غنى له عنها ، وإن أعرض عنها وقع في المتاهات التي لا تُغتفر .

ومن هنا وجدنا الشعراوي قد أبرز أحداث السيرة ، وكان كثيراً ما يتوسع في تحليل أحداثها ، ويستخرج منها العبر والعظات .

وهذه أمثلة تبين ذلك :

أولاً : أحداث من السيرة :

1 ــ <u>ذكر الوحي :</u>

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (163) ﴾ (سورة النساء) يقول الإمام الشعراوي : " والرسول ﷺ يقول عن أول لقاء له مع الوحي : (حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . **قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني . فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم**) [1] . وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجه خديجة بنت خويلد ، فقال : « **زملوني زملوني** » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبد الله ، ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من الملك .

ولكن أتظل هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحي يفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل في الحركة حتى إذا جاءه الوحي وهو على دابة فهي تئط وتئن ... "[2] .

---

(1) خ : ك بدء الوحي ج1 جــ1 ص4 (ح3) . وك التعبير / ب وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ج4 جــ8 ص86 (ح6982) .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص2826 .

2 ـ مراحل الدعوة :

من حكمة الله ﷻ أن جعل دينه الحنيف يمر بمراحل متدرجة في الظهور ، فلم يكن ليجعل دينه يسود عنوة وقسرًا ، ولم يكن ليجعل الطريق أمام نبيه والمؤمنين معه مفروشة بالورود ، لا . إن الله قد جعل رسوله كالرسل السابقين ، يلقى كما لاقوا في مواجهة الكفر والطغيان ، لكن من الحكمة في أمر الدين أن جعل الله الدعوة تمر بمراحل متدرجة ، بحيث تكون المرحلة السابقة أساساً تقوم عليه المرحلة اللاحقة .

ويبين لنا الشعراوي المراحل التي مرت بها الدعوة في مواجهة الكفر والشرك . فعند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ (6) ﴾ (سورة التوبة) نجده يقول : " ... ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى : كانت الدعوة إلى المحبة ، والدعوة إلى المساواة ، وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف ، وهذه البداية لم تُعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ، ويمعنون في إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم . فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ، ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، ..... وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ، فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدوا إلهنا فترة . فأنزل الله فيها ما يسمى بالعرف الحديث « قطع العلاقات » فقال ﷺ ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) ﴾ (سورة الكافرون) وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛ لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهي هنا في هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل ، وهذا ما يسمى في السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ..... ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ، مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال ، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة . وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر في غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم قدرة ،

وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قـوة مسـاوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة . وحينما أصبح للإيمـان هـذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ، كانت هذه بدايـة المرحلـة التي أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهـم ينشـرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هـو اعتراف بدولة الإيمان ، وهي المسألة التي فطن لها سيدنا أبو بكر ﷺ ، وقد ظـن البعـض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطـاب ﷺ قال : علام نعط الدنية في ديننا . هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً .... إذن فمراحل الإيمـان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة الخداع للقضاء على هذا الدين ثـم المرحلـة الثالثة وهي التعاهد والتعاقد ..."[1] .

3 ـ ذكر الهجرة :

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْـتَ رِسَـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67) ﴾ (سورة المائدة)

قال ـ رحمه الله ـ : " ... وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم فـي المكـر والخداع والتبييت . فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليـهم ، ويـأتي التطبيق العملي لنصر الله للمؤمنين في بدر : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (من الآية 244 سورة البقرة) . لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد ﷺ وصحبـه ولم يستطيعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمـد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله ﷺ . وقد تمثل ذلك يـوم خرج رسول الله مهاجراً وغطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمـداً ليفرق دمه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة .

إذن فكلما فكروا في طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم . وكأنـه يقـول لـهم : لـن تستطيعوا مصادمة محمد في منهجه لا بالعلن ولا بالسِّر ولا بالخفية ، بل أنتم ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد ﷺ في بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمـد ﷺ وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهـاجر

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4885 ـ 4889 .

ﷺ . وفي الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبد الله بن أريقط (✪) ، كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله ﷺ عبد الله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشي ويسعى بالرسول لدى مشركي مكة . ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تُعفِّي الأثر[1] ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة (✪✪) لتغوص وتسوخ فيها . إذن فكل جنود الله في صف محمد بن عبد الله ﷺ "[2] .

4 ـ ذكر ما وقع من الأوس والخزرج :

يذكر الشعراوي من الأحداث التي وقعت في المدينة ، حيث اليهود والعداءات بينهم وبين الدعوة ، وإثارة الفتن بين المسلمين . لقد حاول اليهود أن يثيروا فتنة عظمى بين قبيلتي الأوس والخزرج بعد أن هدأت نار الفتنة من صدورهم ، بمجئ النور والهدى إلى المدينة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) ﴾ (سورة آل عمران) .

يقول ـ رحمه الله ـ : " إن لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل بالمال ، وكل من يريد مالاً يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضاً التفوق والتميز العلمي ، لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتاباً سماويًا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز . ولما جاء الإسلام وحد الرسول ﷺ بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي . وجاء الإسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذا ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء في بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجئ الإسلام فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس

(✪) هو عبد الله بن أريقط ، ويُقال : أريقد ، الليثي ، ثم الدِّيلي ، دليل النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ لما هاجروا إلى المدينة . قال ابن حجر : لم أرَ مَن ذكره في الصحابة إلاّ الذهبي في التجريد . وقد جزم عبد الغني المقدسي في السيرة له بأنه لم يعرف له إسلاماً . وتبعه النووي في تهذيب الأسماء . الإصابة : ج4ص5 .

(1) (تعفي الأثر) أصلها من العَفْو ، وهو المكان الذي لم يوطأ . وقولهم : أرض عَفْو : ليس فيها أثر ، فالمعنى إذن تذهبه وتمحوه بحيث لا يظهر . انظر معجم مقاييس اللغة مادة (عفو) .

(✪✪) هو سراقة بن جُعْشُم الكناني المدلجي ، أبو سفيان . (ت24هـ) . وذلك في خلافة عثمان ، وقيل بعد عثمان . الإصابة : ج4ص35 ـ 36 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3290 ـ 3291 .

والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شاس بن قيس » وقــد رأى نــور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ، ويشملهم الانسجام الإيماني ، وتوجـد بينـهم المـودة وابتسامات الصفاء ، هيج ذلك شأس بن قيس وقـال : « والله لابـد أن نعيدهـا جذعـة [1] ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قـد اجتمعـوا » . فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يســمى « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكـان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودي يذكر ويأتي بالشعر الذي قيـل فـي هذا اليوم فهيج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التبـاغض ، وقالوا : « السلاح .. السلاح » . وهكذا نجحت المكيدة . ونمى الخبر إلى سيدنا رسـول الله ﷺ ، فقام ﷺ ومعه صحابته ، حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، تباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !! أي كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسـكم ، لأن رسـول الله بينكـم ، وأضاف رسول الله ﷺ : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بيــن قلوبكم . فماذا كانت مواقع كلمات الرسول في نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته ﷺ إلى إلقــاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ ، فما كان يوم أقبــح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم "[2] .

فهذه نماذج من تفسيره ــ رحمه الله ــ يفسر فيها بعض الآيات متعرضاً لأحداث الســيرة النبوية شرحاً وتحليلاً بما يشبه السيرة التحليلية .

ثانياً : العبر والعظات من أحداث السيرة :

والشعراوي لا يقتصر على مزج السيرة بشئ من التحليل ويقف عندها ، لا . بــل إنــه ــ أحياناً ــ يذكر العبر والعظات الكامنة في تلك الأحداث ، على شاكلة تفسيره لقوله تعـالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَــنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾ (سورة آل عمران) .

يقول : " وهاهو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله ﷺ وانتقل إلى رحاب الله يقول :

---

(1) جذعة : يُقال : ذهبوا جِذَع مِذَع ، أي : ذهبوا متفرقين . وأعدت الأمر جَذَعاً ، أي : جديداً كما بــدأ . والمعنى : نجدد عليهم فرقتهم . المنجد : ص23 .

(2) ج3 ص1649 ــ 1651 بتصرف . والقصة وردت في : السيرة النبوية ــ لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت218هــ) ج1 جــ2 ص162 ، وتفسير الطبري : ج4 ص23 .

والله ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم ، قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسي الآية فيأتي سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمداً قد مات ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾ (سورة آل عمران) . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأني لم أقرأها إلا يومئذٍ » . ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإني قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإني ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ، ولا في عهد عهده إلي رسول الله ﷺ ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبُرَنا فاختار الله ﷺ لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدي له رسول الله ﷺ . وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عشق الصحابة لرسول الله ﷺ .

الأمر الثاني : هو حاجتهم إلى الإيمان ، فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيماني ، فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى هويت على الأرض "[1] .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) ﴾ (سورة آل عمران) . نجده يتحدث عن غزوة أحد ، التي تتحدث عنها الآيات ، ثم يقول : " إن التحقيق التاريخي لمعركة أحد قد أكد أن المسألة لا تعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه في غزوة أحد إلى الخروج في طلب العدو ، وأدركوهم في حمراء الأسد وفرَّ الكافرون . إن الله أراد أن يعطي المؤمنين درساً في التزام أمر الرسول ﷺ . وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » . إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذي يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة "[2] .

لقد استنبط الشعراوي من أحداث غزوة أحد أمرين هامين ، وهما : إعطاء المؤمنين درساً في التزام أمر الرسول ﷺ . وتذكير الحق للقائد ــ أي قائد ــ بمسئوليته . إذن هذه عبر وعظات مستقاة من الأحداث .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1792 ــ 1793 .

(2) تفسير الشعراوي : ج3 ص1726 .

وبهذا يتبين لنا كيف عرض لنا الشعراوي أحداث السيرة ، يحللها ، ويبرز العبر الكامنة في ثناياها ، لتحصل الفائدة منها بإذن الله .

المطلب الثاني عشر : الإسـرائيـليـات :

تطلق الإسرائيليات ويراد بها ما ورد عن اليهود والنصارى في شأن التفسير ، ذلك أن القرآن وثيق الصلة بالتوراة والإنجيل نظرًا لوحدة مصدرها ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر في التوراة والإنجيل من أخبار الأمم البائدة ، والقصص والتعاليم . وقد اتفقا مع القرآن الكريم في كثير من القصص والأخبار .

وقد أخبرنا القرآن الكريم في مواضع متفرقة أن الكتب السابقة قد جرى عليها التحريف ، ووقع فيها التصحيف ، ولعبت بها الأيدي الآثمة ، فغيرت وبدلت وحرفت ؛ ليشتروا به ثمنًا قليلاً ، وهذا سبب من الأسباب لجريان الحكم على الأخذ بما ورد في هذه الكتب .

ومن المعلوم كذلك أن النفس الإنسانية فضولية ، مغروس فيها حب الاستطلاع . لقد جاء القرآن ــ بالمقارنة بين قصصه وأخباره مع قصص وأخبار الكتب السابقة ــ كالمجمل ، فلا يذكر القرآن من القصة إلا موضع العبرة فيها ، ومن هنا مالت النفس لاستكمال تلك القصص والاطلاع على تلك الأخبار ، فلم تجد ما يسد تلك الفجوة غير تلك الكتب ــ التوراة الإنجيل وشروحهما ــ وذلك بعد أن لحق بها التحريف ، فأقبلت عليها في البداية مع الإحجام ، ثم بعد ذلك أكبَّت عليها تأخذ منها دون تحرٍّ أو نقد ، واستمر الأمر على ذلك حتى عصر التدوين ، فدُونت كذلك مع كتب التفسير ، ووصلتنا على هذا الشكل الملحوظ في كتب التفسير ، والمأثور منها خاصة [1].

موقف الشعراوي من الإسرائيليات :

في البداية أذكر موقف المفسر لكتاب الله تعالى إزاء الإسرائيليات ، ومن ثم أذكر موقف الشعراوي منها .

سبق أن ذكرت أن النبي ﷺ أذن للمسلمين أن يحدثوا عن بني إسرائيل فقال : **(بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)** [2] وفي موضع آخر قال ﷺ : **(لا**

(1) انظر في ذلك : التفسير والمفسرون ج1 ص166 وما بعدها ، والتفسير ومناهج المفسرين ص85 ــ87 .
(2) سبق تخريجه ص5 .

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ...) [1] وظاهر هذين الحديثين التعارض ، وذلك في الإذن بالتحديث عنهم ، ثم عدم التصديق ولا التكذيب لما ينقل عنهم . ونقول : ليس هناك تعارض بين الحديثين ، وبيان ذلك أن ما ينقل من الإسرائيليات لا يخرج عن دوائر ثلاث :

ـ إما أن يكون صحيح النقل عن النبي ﷺ ، كالذي أورده الإمام مسلم من أن صاحب موسى هو الخضر عليه السلام [2] . وهذا يؤخذ به .

ـ وإما أن يكون ظاهر الفساد والبطلان ، كأن يكون مخالفا لما جاء به الشرع ، خاصة في أمور العقائد . وهذا لا يؤخذ به .

ـ وإما أن يكون مسكوتا عنه ، وهذا القسم نتوقف فيه ، فلا نصدقه ولا نكذبه .

إذن ليس هناك إشكال بين الحديثين ؛ لأن الأول منهما مخصوص بما صح نقله عن النبي ﷺ ، وبما هو مسكوت عنه ، والآخر مخصوص بما هو مسكوت عنه . فالأول من الحديثين أعم من الثاني ، والثاني جزء مما دل عليه عموم الحديث الأول ، فلا إشكال ولا تعارض . أما الروايات المكذوبة فلا يصح روايتها أصلا . ومن هنا يظهر لنا موقف المفسر تجاه الإسرائيليات . فلا بد للمفسر أن يتحرى الصحة في نقلها ، وأن يقف منها موقف الناقد البصير ، فيصحح ما يراه صحيحا ، ويبطل ما كان باطلا [3] .

ولنر الآن كيف كان نقل الشعراوي للإسرائيليات ؟

إن الشعراوي كان مقلا في جانب التفسير النقلي إجمالا . ولو نظرنا في تفسيره على طوله إلى ما ذكره من الإسرائيليات لوجدنا أنها عنده لا تكاد تذكر . وهذه ميزة له تذكر ولا تغفل .

إن الشعراوي حينما ينقل الروايات الإسرائيلية لا يعزوها لمن نقلها عنه ، وتعليقه عليها بالنقد قبولا أو ردا نادر . وهو ينقلها بالمعنى ، وهي في أكثر الأحيان إشارات مقتضبة ، فلا تكاد تجده يعرض للتفاصيل .

فلو نظرنا ــ مثلا ــ إلى تفسيره لقصة آدم في مطلع سورة البقرة ، لما وجدناه يتطرق للإسرائيليات ، وإنما اقتصر في تفسيرها على ما جاء في القرآن نفسه ، ولم أقف له إلا على موضع واحد قال فيه :" وقد كان إبليس كما جاء في الأثر يسمى طاووس الملائكة "[4].

وفي تفسيره لقصة البقرة ، ذكر القصة مرتين : مرة في مقدمة السورة ، ومرة أخرى عند

---

(1) سبق تخريجه ص4 .

(2) أخرجه **مس** : ك الفضائل / ب من فضائل الخضر عليه السلام ج4 ص1847 (ح2380) .

(3) انظر : التفسير والمفسرون : ج1 ص179 ــ 181 ، والتفسير ومناهج المفسرين ص87 ــ 89 .

(4) تفسير الشعراوي : ج1 ص257 . والرواية المذكورة لم أقف على تخريجها .

ذكر القصة ، قال فيها : " والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح ، يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول والإيمان الحقيقي بالله ، وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنها الصغير ، ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة ، اتجه إلى الله وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لولدي ، ثم أطلقها في المراعي . لم يوصِ عليها أحدًا ولكن استودعها الله ، استودعها يد الله الأمينة على كل شئ ، ثم قال لامرأته : إني لا أملك إلا هذه العجلة . ولا آمن عليها إلا الله ، ولقد أطلقها في المراعي .

وعندما كبر الولد ، قالت له أمه : إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي عجلة ، فقال : يا أمي وأين أجدها ؟ قالت : كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد ، فقال الولد : اللهم رب إبراهيم وموسى ، رد إليَّ ما استودعه أبي عندك ، فإذا بالعجلة تأتي وقد أصبحت بقرة ، فأخذها ليريها لأمه ، وبينما هوسائر رآه بنو إسرائيل ، فقالوا : إن هذه البقرة التي طلبها الرب . وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال : بكم ؟ قالوا : بثلاثة دنانير ، فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . قالت أمه : لا ، لا تباع ، فقال الابن : لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبًا . فدفعوا له ما أراد ، وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظًا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم "[1] .

ويحسن بنا أن نذكر هذا المثال الذي ساقه عند تفسيره لقصة ابني آدم : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) .... ﴾ (الآيات من سورة المائدة) قال : " ... وذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا ، مثلاً : « سفر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من « سفر التكوين » لأن التغيير فيه لا يهمهم ، فقد كان التغيير في المسائل التي تهمهم ، كمسائل نبوة محمد ﷺ ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضًا الكثير . إنهم يقولون : إن هابيل هو اول قتيل في الإنسانية و قتله « قابيل »وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يميته ويقتله ، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ، ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرًا آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلمه كيف يقتل ، مثلما سيأتي الغراب ويعلمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل ؟ هذه لم تأت عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا . ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ (من الآية 31 سورة المائدة) . فهذا هو أول من توفي وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلمه كيف يقتل أخاه ؟ . نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال : ﴿ لَئِنْ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص397 . وانظر قصة البقرة في تفسير الطبري : ج1جـ268 ــ 269 .

بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) ﴾ (سورة المائدة) فقابيل ـــ إذن ـــ فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه ، جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ..."[1].

إذن لم يترك الشعراوي ما يُقال بلا تحرٍّ أو نقد ، إنه ينقده ويبين وجه الصواب فيه .

ومثل ذلك نقده لما قيل في هاروت وماروت . قال : " ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة ، ولكن ما دام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر ، فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين ، وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروي القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (من الآية 30 سورة البقرة) . حينئذٍ طلب الحق ﷻ من الملائكة أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظر ماذا يفعلون ؟ فاختاروا هاروت وماروت ، وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة ؛ لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله ، وهذه الرواية من الإسرائيليات التي دخلت كتب التفسير ؛ ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما كُلِّف به من الله ﷻ . وهذان الملكان كُلِّفا بأن يعلما الناس السحر ، وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدي إلى الكفر وقد فعلا ذلك "[2] .

لقد صدق الشعراوي فيما ذهب إليه ، وتعجب من المفسرين الذين يسوقون مثل هذه الروايات المكذوبة ، ثم لا ينبهون إلى كذبها وافترائها . إن مثل هذه الروايات ما هي إلا طعن في صميم العقيدة ، وتشكيك فيما أخبر الله به . إذ كيف يخبر الله عن الملائكة بأنهم ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)﴾ (سورة التحريم) وأنهم مفطورون على الطاعة ، وأنهم لا يتناكحون ولا يتناسلون ، وليس لهم شهوة ، ثم يأتي من يقول : إن هاروت وماروت شربا الخمر ، وزنيا ؟! وهل جاءت الآية الكريمة التي ذكرتهما بأكثر من أنهما يعلمان الناس السحر ؟! إن الشعراوي له كل الحق فيما ذهب إليه .

ومن ناحية أخرى نجد من منهجه ـــ رحمه الله ـــ أنه يشير في معرض التفسير للاسرائيليات إشارة مقتضبة ، ولا يذكر كل التفاصيل الواردة في تلك المسألة . من ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3072 ـــ 3073 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص495 .,

الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) ﴾ (سورة البقرة) ، قال : " « قد علم كل أناس مشربهم » أي كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب ، نبعت العيون من الحجر وامتدت متشعبة إلى الأسباط جميعًا كل في مكانه ، فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض ، والجهة العليا التي ضرب عليها بالعصا لم ينبع منهما شئ ، أما باقي الجهات الأربع فقد نبع منها ، كل منها ثلاثة ينابيع "[1] .

وهكذا يتبين لنا كيف كان عرض الشعراوي للإسرائيليات مع قلتها .

خلاصة الفصل :

وبعد ، فقد تبين لنا من خلال ما سبق منهج الشعراوي في التفسير بالمأثور الذي يتكون من تفسير للقرآن بما فيه من القرآن نفسه ، وبأقوال النبي ﷺ ، وبما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك . وقد ظهر لنا كيف كان استناده ــ رحمه الله ــ على أصول التفسير بالمأثور . فبين لنا كيفية إنزال القرآن ، وأسباب النزول ، والقراءات القرآنية ، وترتيب القرآن وتحزيبه . وقد كان مذهبه فيه صائباً ، والنسخ وموقفه منه ، والمكي والمدني وهو قليل الكلام فيه ، وما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، والمحكم والمتشابه ، والمبهمات التي أسند تعيينها إلى النقل ، ومع ذلك فقد خالف منهجه ، وعيَّن ما كان مبهماً في بعض المواضع . ثم ظهر لنا منهجه في القصة القرآنية ، والسيرة ، والإسرائيليات التي كان عرضه لها قليلاً . وعرفنا أن التفسير بالمأثور عنده ــ إجمالاً ــ قليل .

والله الموفق والمستعان

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص361 . وهذه الرواية ذكرها الطبري في تفسيره : ج1 ص243 .

الفصل الثالث
منهجه في التفسير بالرأي

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أصول التفسير بالرأي عند الشعراوي :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : المناسبات .

المطلب الثاني : المشكل في القرآن .

المطلب الثالث : فواتح السور وخواتمها .

المطلب الرابع : الإعجاز البياني .

المبحث الثاني : التفسير اللغوي عند الشعراوي :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : بيان معاني المفردات اللغوية واشتقاقها .

المطلب الثاني : النحو والإعراب .

المطلب الثالث : عنايته بالشعر .

المبحث الثالث : لغة الخطاب عند الشعراوي :

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : سلوكه طريق التمثيل .

المطلب الثاني : طرح التساؤلات .

المطلب الثالث : استعانته بالقصص والحكايات .

المطلب الرابع : رجوعه إلى التاريخ .

المطلب الخامس : مزج التفسير بالتوجيهات الدعوية ، وما يستفاد من الآيات .

المطلب السادس : الأمثال الشعبية .

مقدمة الفصل :

سبق أن تحدثنا بإيجاز عن التفسير بالرأي وتدرجه أثناء التمهيد لهذه الأطروحة ، ولا بد أن نعلم أن العلماء اختلفوا في جواز التفسير بالرأي ما بين معارض ومؤيد . واحتج كل فريق بأدلته . وهذه آراؤهم وما استدلوا به من الكتاب والسنة :

أولاً : المانعون :

وهؤلاء بالغوا في إنكار التفسير بالرأي ، وقالوا : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً ، متسماً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار[(1)].

وعمدة أدلتهم :

1 ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) ﴾ (سورة النحل) ، فأضاف البيان إليه ﷺ ، فدل على نفي البيان عن سواه .

2 ـ قوله ﷺ : " **من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** "[(2)] .

3 ـ وقوله ﷺ : " **من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار** "[(3)] .

ثانياً : المجيزون :

وهم الذين قالوا بجواز التفسير بالرأي ، واستدلوا على ذلك بأدلة ، منها :

1 ـ قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) ﴾ (سورة محمد) .

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (29) ﴾ (سورة ص) .

2 ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (من الآية 83 سورة النساء) .

3 ـ دعاء النبي ﷺ لابن عباس : " **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** "[(4)] ، فلو كان التفسير مقصوراً على السماع « المأثور » لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء .

هذه عمدة أدلة كلا الفريقين ، وقد رد المجيزون على أدلة المانعين .

---

(1) انظر : الإتقان : ج2 ص477 .

(2) أخرجه **تر** : ك تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ / ب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ج5ص199 (ح2950) . و **دو** : ك العلم / ب الكلام في كتاب الله بغير علم ج3ص320 (ح3652) .

(3) أخرجه **حم** : ج1 ص233 . و **تر** : ك التفسير / ب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ج5ص199 (ح2950) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(4) سبق تخريجه ص21 .

ولنا القول بأن الخلاف الكائن بين الفريقين خلاف صوري ، إذ يمكن حمل كلام المجيزين على ما استوفى شروط التفسير بالرأي [1] ، كتفاسير السلف والخلف من أهل السنة ، وهو التفسير بالرأي الجائز . ويحمل كلام المانعين على ما فقدت فيه الشروط المذكورة . وهذا هو التفسير بالرأي المذموم كتفاسير الصوفية والمعتزلة والفلاسفة ونحوهم ممن فقد هذه الشروط ، واتبع هواه في التفسير [2] .

وفي هذا الفصل سوف أتناول منهج الشيخ الشعراوي في التفسير بالرأي ، فإلى التفاصيل .

---

(1) انظر : ص 21 .

(2) انظر الإتقان : ج2 ص474 ــ 477 ، ومناهل العرفان ج2 ص40 ــ 43 ، والتفسير والمفسرون : ج1 ص242 ــ 255

المبحث الأول : أصول التفسير بالرأي عند الشعراوي :

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : المناسبات :

أولاً : مدخل إلى علم المناسبات :

علم المناسبات علم عظيم ، يبرز لنا الترابط والتناسق والانسجام التام بين آيات الكتاب وسوره ، والباحث فيه لا بد أن يمتاز بالشفافية الرفيعة ، ودقة البصيرة ، وبُعد النظر .

أ) المقصود من علم المناسبات :

المقصود من علم المناسبات : هو العلم الذي يكشف لنا وجه الربط بين الآية والآية ، أو بين السورة والسورة [1] . وهو أعم من أن يكون بين آيتين متجاورتين ، أو سورتين متجاورتين ، إذ قد يكون وجه الربط بين آيتين متباعدتين في السورة ، أو بين سورتين متباعدتين في الترتيب .

ب) أهمية علم المناسبات :

تبرز أهمية هذا العلم من خلال اهتمام العلماء به . لقد اهتم بعض المفسرين بإظهار أوجه المناسبات بين الآيات والسور في تفاسيرهم كالإمام الفخر الرازي والبقاعي . وهذا يدل على أن هذا العلم ذو أهمية عظيمة في عالم التفسير .

قال الإمام الزركشي : " وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فتقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء ، وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ". قال : " وقال بعض الأئمة : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ؛ لئلا يكون منقطعاً "[2] .

وقال البقاعي : " وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ، ويتمكن من اللب ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما نظم كل آية على حيالها بحسب التركيب ، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب ، والأول أقرب ذوقاً ؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه ، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع

---

(1) التفسير الموضوعي – دكتور مصطفى مسلم : ص58 .

(2) البرهان : ج1 ص62 .

غيره .. " [1] .

وقد منع قوم وقوع المناسبات في كتاب الله ، أشدهم إنكاراً الإمام الشوكاني في أوائل تفسيره . وأرى من الحكمة أن أنقل بعضاً مما ذكره في هذا المجال ، فهذا صدر كلامه الذي يدل على مرامه ، يقول : " اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف ، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا في فنٍّ لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على الترتيب الموجود في المصاحف ، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الله سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعي في تفسيره .. " ثم قال في نهاية كلامه : " ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحاتها كثير من المحققين "[2] .

ولكن رغم تشديده النكير على القائلين بالمناسبة إلا أننا نجده بعد ذلك يستنبط أوجه الربط أحياناً بين المقاطع من الآيات التي يفسرها ، بل وقد وقع منه التصريح بالمناسبة في بعض المواضع [3] .

وعلى أيٍّ فالقول بالمناسبة في كتاب الله يزيده سمواً ورفعة ؛ لأن المناسبة تبين أن كتاب الله مرتبط الآيات ، منتظم التركيب ، منسجم المعاني ، بل ويُبرز إعجاز القرآن ، ويؤكد رسالة من نزل عليه ، إذ كتاب تتنزل آياته في ثلاثة وعشرين عاماً ، بطريقة غير معهودة أو مألوفة ثم تكون الآية النازلة توًّا مرتبطة مع الآية التي نزلت قبل عشرين سنة أو أكثر ، ومنسجمة معها تمام الانسجام ــ ليؤكد لنا أن هذا القرآن كلام حكيم خبير .

إذن إبراز وجه المناسبة يظهر لنا وجه الإعجاز في القرآن الكريم .

لكن نحن نكون مع المعارضين للمناسبة فيما إذا تكلف المفسر إبراز وجه الربط تكلفاً وتعسفاً لا أن يأتي معه طوعاً سهلاً .

يقول الدكتور مصطفى مسلم : " إن القول بوجود المناسبات أمر يحتمه الاعتقاد بتنزيه كلام الله سبحانه وتعالى عن الفوضى والتناقض : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ــ برهان الدين البقاعي (ت885هـ) : ج1ص7 .

(2) فتح القدير ــ للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت1250هـ) : ج1ص94 ــ 95 .

(3) انظر المرجع السابق : ج2ص19 ، وج2 ص39 ، ج2 ص317 .

اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) ﴾ (سورة النساء) ، وعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده للتعرف على وجه المناسبة بين الآيات ، فإن ظهر له شئ من ذلك فذلك نعمة من الله تعالى عليه ، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله تعالى ، وإن خفي عليه وجه المناسبة فعليه أن يُمسك ولا يتكلف ، وينسب علم ما خفي عليه إلى منزل الكتاب الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل " [1] .

ج) أوجه المناسبات :

يقع الربط بين الآيات من عدة وجوه :

أحدها : العطف : ذلك أن بعض الآيات تكون معطوفة على سابقتها ، ولا يكون بين الآيات المعطوفة جهة جامعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) ﴾ (سورة البقرة) ، فهي معطوفة على الآية قبلها : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) ﴾ (سورة البقرة) ، ووجه الربط بينهما أن الآية الثانية عددت صفات المتقين الذين ورد ذكرهم في الآية قبلها : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾ (سورة البقرة) .

الثاني : الاستطراد : كقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... (172) ﴾ (سورة النساء) فإن أول الكلام ذُكر للرد على النصارى الزاعمين بنوة المسيح ، ثم استطرد للرد على العرب الزاعمين بنوة الملائكة .

الثالث : حسن التخلص : وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى الكلام المقصود على وجه يختلسه اختلاساً ، دقيق المعنى ، بحيث لا يُشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني ، لشدة الالتزام بينهما ، كما في سورة الشعراء حكى قول إبراهيم : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) ﴾ (سورة الشعراء) فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) ... ﴾ (سورة الشعراء) .

الرابع : التنظير : فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ بعد قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (من الآيتين 4 ، 5 سورة الأنفال) ، فإنه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يمضي في الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو القتال وهم له كارهون .

الخامس : المضادة : كأن يأتي بذكر الكافرين عقب ذكر المؤمنين مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (6) ﴾ (سورة البقرة) . فقد جاء هنا

---

(1) التفسير الموضوعي ــ للدكتور مصطفى مسلم : ص66 .

ذكر الكافرين بعد ذكر صفات المتقين . ومثل هذا كثير [1] .

د) ألوان المناسبات :

قد تقع المناسبات في سورة واحدة أو بين سورتين متجاورتين أو بين ســـور متبـاعدة ، وذلك كالآتي :

اللون الأول : المناسبة في السورة الواحدة :

تتنوع المناسبات في السورة إلى ثلاثة أنواع :

الأول : مناسبة الآية لفاصلتها [2] : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَـاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيـمٌ (38) ﴾ (سـورة المـائدة) فالفاصلـة منسجمة مع سياق الآية تمام الانسجام ؛ لأن الآية تذكر حداً ، والذي يناسب الحدود هو العـزة والحكمة .

الثاني : المناسبة بين آيات السورة : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَـقِ (1) ﴾ (سورة الفلق) ، " لما كانت الأشياء قسمين : عالم الخلق ، وعالم الأمر ، وكان عـالم الأمـر خيراً كله ، فكان الشر منحصراً في عالم الخلق خاصة بالاستعاذة فقال : ﴿ مِـنْ شَـرِّ مَـا خَلَقَ(2) ﴾ (سورة الفلق) " [3] .

الثالث : مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها : كقوله تعالى في صدر سورة القلم : ﴿ مَـا أَنْـتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) ﴾ وقال تعالى في نهايتها : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَـيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) ﴾ فقد نفى الله فـي مطلـع السـورة الجنون عن النبي ﷺ ، وأثبت له الخلق العظيم ، رداً على اتـهام الكـافرين لرسـول الله ﷺ بالجنون .

اللون الثاني : المناسبة بين سورتين متجاورتين :

وهو أربعة أنواع :

الأول : المناسبة بين فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها : وذلك مثل خاتمة سـورة القيامـة : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40) ﴾ وبداية سورة الإنسان ﴿ هَـلْ أَتَـى عَلَـى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَبْتَلِيـهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) ﴾ فبداية سورة الإنسان جاءت كإجابة على خاتمة سورة القيامـة ،

---

(1) انظر البرهان : ج1ص66 وما بعدها ، والإتقان : ج2ص290 وما بعدها .

(2) يُقصد بالفاصلة خواتيم الآيات .

(3) نظم الدرر : ج8ص604 .

فالذي خلق الإنسان من لا شئ قادر على أن يبعثه بعد موته .

الثاني : مناسبة مضمون السورة لمضمون التي قبلها : مثل سورتي الماعون و الكوثـــر ، فقد قال فيهما الزركشي : " ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها ؛ لأن الســابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء ، ومنع الزكـــاة . فذكر هنا في المقابل : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾ أي : الكثير . وفي مقابلة ترك الصــلاة ﴿ فَصَلِّ .. (2) ﴾ أي : دُم عليها : وفي مقابلة الرياء ﴿ لِرَبِّـــكَ ..(2) ﴾ أي : لرضــاه ولا للناس ، وفي مقابلة منع الماعون : ﴿ وَانْحَرْ (2) ﴾ ؛ وأراد به : التصدق بلحم الأضـــاحي ، فاعْتَبِر هذه المناسبة العجيبة "[1] .

الثالث : مناسبة فاتحة السورة لفاتحة التي بعدها : وذلك مثل فاتحة ســورة الإسـراء مــع فاتحة سورة الكهف فتلك بدأت بالتسبيح وهذه بدأت بالتحميد ، والمناسبة بينهما واضحة .

الرابع : مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي بعدها : وذلك مثل فاتحة سورة النساء وخاتمـــة سورة المائدة ، فقد افتتحت سورة النساء بقول الحق سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّـــذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـــهَ الَّـــذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) ﴾ واختتمت سورة المائدة بقول الحـــق : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) ﴾ والمناسبة بينـــهما من وجوه منها :

1 ــ أن الذي خلق البشر من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منـــهما رجـــالاً كثـــيراً ونساءً ، هو الله الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن .

2 ــ ذكرت آية المائدة أن الله على كل شيء قدير ، ومن مظاهر قدرته سبحانه أنـــه خلـــق ذرية آدم من آدم .

اللون الثالث : المناسبة بين سورتين متباعدتين :

يمكن القول بأن ما ذُكر من الأنواع الأربعة في المناسبة بين سورتين متجاورين ينطبـــق على هذا اللون .

اللون الرابع : المناسبة بين اسم السورة ومقصدها :

وذلك مثل سورة النساء ، سميت بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النســاء [2] . الفاتحة ؛ وسميت بالقرآن العظيم لأنها اشتملت على الأصول الثلاثة ؛ العقائد والتشريعـــات

---

(1) البرهان : 65 ــ 66 .

(2) السابق : ج1ص340 .

والقصص ، وهي الأصول التي اشتمل عليها القرآن .

فهذه ألوان المناسبات كما تظهر في كتاب الله ، فإذا تقرر ذلك لدينا فلنر كيف كـان منـهج الشعراوي في المناسبات .

تنبيـــه :

قبل أن نعرض لمنهج الإمام الشعراوي في المناسبات لا بد من ذكر قضية هامـة جـداً يتوقف عليها هذا العلم العظيم ، ألا وهي أن ترتيب المصحف سوره وآياته وأسمائه توقيفـي ، وقد سبق إثبات أن ترتيب الآيات والسور توقيفي (1) ، وههنا نثبت أن أسماء السور توقيفية : قال الإمام السيوطي : " وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولـولا خشية الإطالة لبينت ذلك . ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة ، قـال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة وسورة العنكبوت ، يستهزئون بها فنزل : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) ﴾ (سورة الحجر) "(2) . فهذا الدليل يثبت أن اسم سـورة البقـرة وسـورة العنكبوت توقيفي .

ونقول : لو أن أسماء السور اجتهادية لصح تسمية السورة من القرآن بمائة اسم ، حسبما يبدو لكل شخص ، وهذا عقلاً غير جائز . قال الزركشي : " وينبغـي البحـث الآن عـن تعـداد الأسامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات ؟ فإن كان الثاني فلن يعـدم الفطـن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسـمائها وهـو بعيـد "(3) . والإمـام الشعراوي يرى أن أسماء السور توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها ، قال : " ولكن أسماء السـور توقيفية ، أي أن سيدنا جبريل ﷺ هو الذي يبلغ رسول الله ﷺ بكل ما في القرآن الكريم "(4).

ثانياً : منهج الشعراوي في المناسبات :

أشار ــ رحمه الله ــ إلى هذا العلم بقوله : " وعندما نمعن النظر في آيات القرآن نجـد أن هناك آية قد تتقدم وآية قد تتأخر ، وآية في الوسط ، ونجد أن الآيـة الوسـطى مرتبطـة بتداعي المعاني بالآية التي قبلها . ومرتبطة بتداعي المعاني بالآية التي بعدها ، وذلك لترتوي وتتغذى كل ملكات الإنسان فلا يأتي أمر يوحي بأن هناك ما ينقص النفس " (5) .

---

(1) انظر : ص120 ــ 121 .

(2) الإتقان : ج1ص148 .

(3) البرهان : ج1ص339 .

(4) تفسير الشعراوي : ج8 ص4832 .

(5) تفسير الشعراوي : ج3 ص1612 .

وعندما نتأمل تفسيره ـ رحمه الله ـ نجده قد عرض للمناسبات عرضاً وسطاً بين التقليل والإكثار ، فلا هو بالذي يهتم بالمناسبات بالغ الاهتمام ، ولا هو بالذي يهملها دون تعرض لها .

وفيما يلي أعرض منهجه من خلال عرضه لألوان التناسب بين الآيات والسور :

أ) المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة :

1 ـ **المناسبة بين آيتين متجاورتين :** لقد أظهر الشعراوي المناسبات بين بعض الآيات ، على شاكلة ربطه لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) ﴾ (سورة البقرة) مع الآية بعدها يقول : " وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعالج قضية اجتماعية أخرى . إن الحق بعد أن عالج قضية إزهاق الحياة ينتقل بنا إلى قضية أخرى من أقضية الحياة ، إنها قضية الموت الطبيعي . كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية الموت بالجريمة يريد أن يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتفاً من غير سبب مزهق للروح . إن الحق يعالج في الآية القادمة بعضاً من الأمور المتعلقة بالموت ليحقق التوازن الاقتصادي في المجتمع كما حقق في الآية السابقة التوازن العقابي والجنائي في المجتمع . يقول الحق : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) ﴾ (سورة البقرة) " (1) .

ومن ذلك أيضاً ربطه بين قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93) ﴾ (سورة النساء) والآية التي بعدها . يقول : " وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحاً كقتل المسلمين الكافرين في الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا : يجب أن تحتاطوا في هذه المسألة احتياطاً لتتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) ﴾ (سورة النساء) " (2) .

ومن ذلك أيضاً المناسبة بالمقابلة ؛ كما بين ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص754 ـ 755 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4ص2553 ـ 2554 .

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ (سورة التوبة) . يقول ما نصه : " لقد جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصف فيها المنافقون . قال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ...(67) ﴾ (سورة التوبة) فناسب أن يقابلها بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً " [1] .

هكذا القرآن يذكر الشيء ثم يردفه بمقابله ؛ ليتجلى الفرق ، ويظهر للعيان بأجلى معانيه ، وليعلم المنافقون أنهم ليسوا على شئ من الإيمان ، إذ صفته ما يذكر هنا من إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف .. إلخ . أما إيمانهم الظاهر فهو نفاق وخداع لا ينفع أبداً [2] .

2 ـ **المناسبة بين الآية وفاصلتها** : كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207) ﴾ (سورة البقرة) ، فقد قال : " ويقول الحق : « وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد ؟ ما دام الله رؤوفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً في كل مسلم ، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ؛ لأنه لا يريد أن يضحي كل المسلمين بأنفسهم ، وإنما يريد أن يستبقي منا أناساً يحملون الدعوة " [3] .

3 ـ **المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها** : والمثال على ذلك سورة البقرة . فقد بيَّن وجه الربط بأن قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (من الآية 286 سورة البقرة) متناسب مع بداية السورة ، حيث ضرب الحق المثل بالكافرين والمنافقين في أول السورة ، وعند خاتمتها يقول على لسان المؤمنين : ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وهذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر " [4] .

ب) مناسبة اسم السورة لمقصدها :

من مناسبة أسماء السور لمقاصدها سورتي الأعراف والأنفال ، يقول الإمام الشعراوي : " وبذلك تختم سورة الأعراف ، والتسمية للسورة في ذاتها متناسبة ، لأن « الأعراف » هو المكان العالي البارز الذي يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار ، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد في الارتفاع ، وهي مأخوذة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج9 ص5286 .

(2) التفسير الواضح ـ د . محمد محمود حجازي : ج1 جـ10 ص69 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص877 . وانظر : ج5 ص2895 .

(4) انظر : تفسير الشعراوي : ج2 ص1249 .

من « عرف الفرس » ، وعرف الفرس أعلى شئ فيه ، والأنفال أيضاً هي الزيادة ؛ لذلك فإن التسمية متناسبة بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال "[1] .

وكذلك عندما فسّر سورة الإخلاص ، ذكر أسماءها ، ثم ربط بين مضمون السورة بكل اسم [2] .

ج) المناسبة بين سورتين متجاورتين :

1 ـ مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها :

والمثال على ذلك المناسبة بين خاتمة الأعراف وفاتحة الأنفال [3] ، يقول فيها : " ... وأيضاً يوجد التناسب في المعنويات ، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى في أواخر سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) ﴾ (سورة الأعراف) ثم يأتي قوله سبحانه وتعالى في أول سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ (من الآية 1 سورة الأنفال) لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم ، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان ؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شئ وهي الإيمان بالله ، وهذا إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية "[4] .

ومثل ذلك خاتمة المائدة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) ﴾ (سورة المائدة) مع الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (من الآية 1 سورة الأنعام) ؛ فقد بين وجه الربط بينهما بأن الله يملك كل الكون ، وأنه سبحانه لم يأخذ ذلك الملك ظلماً أو ادعاءً ، لكنه جل شأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي جعل الظلمات والنور [5] .

وقد ذكر صاحب (التفسير الواضح) وجهاً للمناسبة بين السورتين فقال : " في سورة المائدة محاجة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة ــ سورة الأنعام ــ محاجة المشركين . والمائدة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4556 .

(2) انظر : تفسير القرآن العظيم ــ الشعراوي : جـ3 ص122 وما بعدها .

(3) الأنفال : جمع نَفَل : وهو الغنيمة . وذلك أن الإمام يُنفِّل المحاربين ، أي يعطيهم ما غنموه . معجم مقاييس اللغة : ج5ص455 ــ 456 .

(4) تفسير الشعراوي : ج8 ص4556 .

(5) تفسير الشعراوي : ج6 ص3488 مختصراً ، وانظر ج10 ص6282 .

ذكرت المحرمات بالتفصيل ؛ لأنها آخر القرآن نزولاً ، والأنعام ذكرت ذلك جملة "[1] .

2 ـ مناسبة مضمون السورة لمضمون السورة بعدها :

مثال ذلك سورتي الفيل وقريش . قال : " في الوضع القرآني وضعت سورة ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ ... (2) ﴾ (سورة قريش) بعد سورة الفيل . أنت ساعة ترى جاراً ومجروراً « لإيلف قريش » هذه اللام وإيلف لمَنْ ؟ لا بد أن يكون فعلٌ تعلق بـه الجـار والمجـرور « لإيلف » ، فإذا ما نظرنا إلى سورة الفيل نجد أن الله فعل ما فعل بأصحاب الفيل فجعلهم كعصف مأكول ، لماذا ؟ « لإيلف قريش إيلفهم رحلة الشتاء والصيف » ؛ لأن الحق لو ترك بيته لما يريده أبرهة من هدمه ، لسقطت مهابة قريش في الجزيرة العربية ؛ لأنه الذي جعل لقريش مهابة ما هو ؟ البيت " [2] .

وثمة مثال آخر : مناسبة مضمون سورة البقرة لمضمون سورة آل عمران ؛ حيث جاءت سورة البقرة لتخدمنا في قضية الوجود الأولى ، فتكلمت عن خلق آدم وتكلمت عن خلافته في الأرض ، وتكلمت عن تعليمه الأسماء ، ثم تكلمت عن بعض مواكب الرسل لذلك الإنسان الذي استخلف في الأرض . وتعرضت لقضايا تعلقت بأحداث ، هذه الأحداث ارتبطت بأزمنة مخصوصة . والقرآن قد جاء بها ، ثم جاء مترتباً على الصورة النهائية . ناسب أن تأتي بعد سورة البقرة سورة آل عمران ؛ لأنها تكلمت عن نوع جديد من الخلق ، لم يأت على نمط الخلق الأول ، وإن جاء من الخلق الأول ؛ لأنها جاءت تكلمنا عن خلق عيسى . وخلق عيسى جاء بغير الناموس الذي خلق به آدم ، فكما أن آدم خلق بلا أب وبلا أم ، كان المنطق أن يأتي بخلق آخر وجد من دون أب [3] .

3 ـ مناسبة مضمون السورة لفاتحة التي بعدها :

وذلك مثل سورة النساء وفاتحة سورة المائدة . يقول الشعراوي عند تفسير الآية الأولى من سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) ﴾ (سورة المائدة) : " البداية ـ إذن ـ عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول بهيمة الأنعام . سورة المائدة ـ كما نعلم ـ جاءت في الترتيب المصحفي بعد سورة النساء التي تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصداق والوصية والدَّيْن والميراث ،

---

(1) التفسير الواضح : ج1 جـ7 ص32 .

(2) تفسير القرآن العظيم ـ الشعراوي : جـ1 ص76 بتصرف .

(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج2 ص1255 .

وكلها أحكام وعقود ، فكأن الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما في سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها "[1] .

إن الشعراوي ــ رحمه الله ــ بعيد الأفق ، عميق التفكير . لقد استطاع أن يكشف لنا عن أنواع من أوجه المناسبات بين الآيات والسور ، وأظهر لنا الموضوعات التي تدور حولها بعض السور ، وهذا يدل على رجحان عقله ، ونفاذ بصيرته ، وسعة علمه .

المطلب الثاني : المُشكِل في القرآن :

يقصد بالمشكل هو ما يوهم التعارض والاختلاف بين الآيات ، وكلام الله ﷻ مُنزَّه عن الاختلاف ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) ﴾ (سورة النساء) [2] .

أسباب التعارض :

يرجع التعارض إلى أسباب :

أحدها : وقوع المخبَر عنه على أحوال مختلفة ، وتطورات شتى : كقوله تعالى عن خلق آدم : ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ (من الآية 59 سورة آل عمران) ، ومرة : ﴿ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [3]﴾ (من الآية 26 سورة الحجر) ، ومرة : ﴿ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (من الآية 11 سورة الصافات) ، ومرة : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ [2] كَالْفَخَّارِ ﴾ (من الآية 14 سورة الرحمن) .

ثانيها : اختلاف الموضوع : كقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) ﴾ (سورة الصافات) ، وقوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) ﴾ (سورة الأعراف) مع قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) ﴾ (سورة الرحمن) . فالأولى والثانية محمولتان على السؤال عن التوحيد ، وتصديق الرسل ، والثالثة على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات ، من شرائع الدين وفروعه .

ثالثها : اختلافهما في جهتي الفعل : كقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ (من الآية 17 سورة الأنفال) ، فقد أُضيف القتل إليهم من جهة الكسب والمباشرة ، ونفاه عنهم

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2887 .

(2) البرهان : ج2ص53 .

(3) « حمأ مسنون » : الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المتغير . والمعنى : أي الطين المتغير .

« صلصال » : الصلصال : هو الطين المخلوط بالرمل . فتح القدير : ج3ص161 .

باعتبار التأثير .

رابعها : اختلافهما في الحقيقة والمجاز : كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ (من الآية 2 سورة الحج) أي سكارى من الأهوال مجازاً ، لا من الشراب حقيقة .

خامسها : أن يكون اللفظان بوجهين واعتبارين : كقوله تعالى : ﴿ .. فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) ﴾ (سورة ق)

مع قوله : ﴿ خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ (من الآية 45 سورة الشورى) .

فقوله « فبصرك » أي : علمك ومعرفتك بها قوية ، من قولهم : بصُرَ بكذا أي : علِم ، ليس المراد برؤية العين [1] .

منهج الشعراوي من المشكل :

فهذه أسباب يقع الاختلاف من جهتها .

والشعراوي – رحمه الله – حينما يمر على آيتين ظاهرهما تعارض لا يمر عليهما بدون تعقيب على ذلك الإشكال ، وإنما يدفع تلك الإشكالات ، وما أوهم التعارض والاختلاف بين الآيات . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾ (سورة البقرة) . يقول : " ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى يقول لنبيه ورسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ..(56) ﴾ (سورة القصص) وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ أن يكون هادياً لمن أحب ، ولكن الحق يقول لرسوله ﷺ : ﴿ .. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) ﴾ (سورة الشورى) ، فكيف يأتي هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله ؟ . نقول : عندما تسمع هذه الآيات اعلم أن الجهة منفكة ، يعني ما نُفي غير ما أُثبت ، ففي غزوة بدر مثلاً أخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصى وقذفها في وجه جيش قريش ، يأتي القرآن الكريم إلى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (من الآية 17 سورة الأنفال) ، نفي للحدث وإثباته في الآية نفسها . كيف رمى رسول الله ﷺ ، مع أن الله تبارك وتعالى قال : « وما رميت » ؟!. نقول : إنه في هذه الآية الجهة منفكة . الذي رمى هو رسول الله ﷺ ، ولكن الذي أوصل الحصى إلى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هي قدرة الله سبحانه وتعالى ..... أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » فهي هداية دلالة . أي أن رسول الله ﷺ بتبليغه للقرآن ، وبيانه لمنهج الله قد دل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من

---

(1) انظر : البرهان : ج2 ص64 وما بعدها . والإتقان : ج2 ص76 وما بعدها .

يشاء » أي : إنك لا توصل الهداية إلى القلوب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي القلوب ، ويزيدها هدى وإيماناً [1] .

ومن ذلك أيضاً تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) ﴾ (سورة البقرة) قال : " والحق سبحانه وتعالى كما يقول : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (من الآية 164 سورة الأنعام) ، أي : لا يحمل أحد ذنب أحد يوم القيامة ، ويقول : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ (من الآية 25 سورة النحل) . بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض ، نقول : لا ، من يرتكب إثماً يحاسب عليه ، ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله ، فإنه يحمل معاصيه ومعاصي من أضل ، فيكون له وزر ؛ لأنه ضل ، ووزر ؛ لأنه أضل غيره ، بل وأكثر من ذلك ، فإن رسول الله ﷺ يقول [2] : " **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً** " " [3] .

ومنه كذلك قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ .. (42) ﴾ (سورة المائدة) يقول ما نصه :

" وهل هناك تعارض بين قول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (من الآية 48 سورة المائدة) ؟ لا تعارض . والبعض يقول : إن في قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضي بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولننظر إلى الأداء القرآني ، لأن المتكلم إله حكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله ﷺ على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذي ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » وإياك أن تجعل الضرر منهم مرجحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ، إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص122 ـــ 123 .

(2) أخرجه **مس** : ك العلم / ب من سن سنة حسنة أو سيئة .. ج4 ص2060 (ح2674) .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص417 .

من شرهم ؛ لأن الذي أرسلك يحميك " [1] .
إذن كان الشعراوي وقافاً عند ما يوهم الإشكال والاختلاف في كتاب الله تعالى ، فيزيل ذلك الإشكال ، ويوجه المعاني .

المطلب الثالث : افتتاح السور واختتامها :

هذا هو الفرع الثالث من أصول التفسير بالرأي عند الشعراوي ، وفيه سنرى كيف كان منهجه ــ رحمه الله ــ في تفسير مطالع السور وخواتمها .

بادئ ذي بدء نرى رأي الشعراوي في كل من البسملة والحروف المقطعة في أوائل السور .

أ) البسملة :

اتفق العلماء على أن البسملة جزء من آية في سورة النمل ، واختلفوا بعد ذلك : أهي آية من كل سورة ــ عدا التوبة ــ أم إنها آية من سورة الفاتحة ، أم إنها ليست آية وإنما فُصِل بها بين السور ؟ والخلاف بينهم طويل ، وله فروع . والشعراوي عرض هذا الخلاف في أوجز صورة ، فقال : " لقد اختُلِف حول « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وهي موجودة في 113 سورة من القرآن ؛ هل هي من آيات السور نفسها ، بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم أنها حسبت فقط في فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . وقال العلماء أن « بسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم ، ولكنها ليست آية من كل سورة ما عدا فاتحة الكتاب فهي آية من الفاتحة ، وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم لا تبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وهي سورة التوبة ، وتكررت « بسم الله الرحمن الرحيم » في الآية 30 من سورة النمل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) ﴾ (سورة النمل)" [2] .

فالشعراوي نقل بعضاً من الخلاف الدائر بين العلماء حول البسملة ، وظاهر كلامه الميل إلى أنها آية من سورة الفاتحة . ويؤكد ذلك بما نقله عند بداية تفسيره لسورة التوبة [3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3152 ــ 3153 . وانظر ج2ص743 ، وج3 ص1535 .
(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص50 .
(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج8 ص4848 .

وفي موطن آخر تكلم بما يفيد أن جمهور العلماء على أن البسملة جئ بها للفصل والابتداء ، سواء في الفاتحة أو في غيرها من السور . ورد على القائلين بأنها في الفاتحة للابتداء دون الفصل ، وبيَّن لهم أن ترتيب نزول القرآن يؤكد أنها للفصل أيضاً ؛ لأنها مسبوقة بسورة المدثر في ترتيب النزول (1) .

إذن يتضح لنا أن الشعراوي يميل إلى كون البسملة آية من سورة الفاتحة ، وأنها آية مستقلة في باقي السور ــ عدا التوبة ــ ، وجئ بها للفصل بين السور والابتداء ، حيث تُبتدأ بها السور . ويبين الشعراوي الحكمة من عدم وجود البسملة بين التوبة والأنفال بقوله : " ... وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) ﴾ (سورة التوبة) وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؛ لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة " (2) .

ب) الحروف المقطعة في أوائل السور :

اختلف العلماء في الحروف التي في أوائل السور على قولين :

الأول : قالوا : هي سر الله في القرآن ، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ، يؤمَن بها ، وتمر كما جاءت .

الثاني : وهو رأي الجمهور . قالوا : بل يجب أن يُتكلم فيها ، وتُلتَمس الفوائد التي تحتها ، والمعاني التي يمكن أن تُستنبط منها .

---

(1) انظر : تفسير الشعراوي : ج8 ص4837 ، وانظر : ج9 ص5627 .

(2) تفسير الشعراوي : ج8 ص4834 . وقد ذكر العلماء في سقوط البسملة من سورة براءة أقوالاً :
منها : أن البسملة رحمة وأمان ، و « براءة » نزلت بالسيف ، فليس فيها أمان .
ومنها أن ذلك على عادة العرب ، إذا كانوا كتبوا كتاباً فيه نقض عهد أسقطوا منه البسملة ، فلما أرسل النبي ﷺ علياً ﷺ ليقرأها عليهم في الموسم ، قرأها ولم يبسمل على عادة العرب في شأن نقض العهد . وهذا قول لا يخفى ضعفه .
ومنها : أن الصحابة لما اختلفوا : هل « براءة » و « الأنفال » سورة واحدة أو سورتان ، وتركوا بينهما فرجة لقول من قال : إنهما سورتان ، وتركوا البسملة لقول من قال : هما سورة واحدة ، فرضي الفريقان ، وثبتت حجتاهما في المصحف .
ومنها : أن سورة « براءة » نسخ أولها ، فسقطت معه البسملة . ومنها : أن جبريل ﷺ لم ينزل بها .
انظر : الجامع لأحكام القرآن : ج4 جـ8ص61 ــ63 ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ــ للشنقيطي (ت1393هـ) : ج2 ص381 ــ 382 .

ثم إن القائلين بهذا الرأي اختلفوا في تحديد معناها على أقوال عديدة ، فمنهم من قال : هي أسماء الله أقسم بها . وقيل : هي أسماء سور . وقيل : هي أسماء للقرآن كالفرقان والذكر . وقيل غير ذلك [1] .

والشعراوي لم يتعرض لذكر كل أقوال العلماء في معناها ، وإنما ذكر بعضها ، علماً بأنه لا يرى أن لها معنىً محدداً ، وأن قدراتنا البشرية لا تدرك معناها ؛ لأن الله وضع فيها سراً لا يدركه أحد ، وأنه جاء بها للإعجاز . يقول ــ رحمه الله ــ : " فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم ، فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك ، ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازاً لك ، حتى تعرف إنك لا تستطيع أن تحدد معاني القرآن بعلمك ... ولو أن الله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى ، فمثلاً أحد العلماء يقول : إن معنى « ألم » هو أنا الله أسمع وأرى ، ونقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لنفهمه جميعاً ، لا بد أن يكون هناك سر في هذه الحروف ، وهذا السر هو من أسرار الله التي يريدنا أن ننتفع بقراءاتها دون أن نفهمها " [2] .

إذن هذه الحروف هي للإعجاز ، ولا يمكن لأحد أن يدرك معناها ، وهي أسرار الله في كتابه ، ننتفع بها ولا نعرف معناها . وقد أكد ــ رحمه الله ــ هذه القضية في أكثر من موضع من تفسيره [3] .

ويرى الشعراوي أن هذه الحروف تثبت أن القرآن من عند الله ، فقال : " هناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف « ألف لام را » ، وهو ﷺ الأمي بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نطق أسماء الحروف لا بد أن يكون متعلماً ، ذلك أن الأمي ينطق بمسميات الحروف ولا يعرف أسماءها ، وفي هذا النطق شهادة بأن من علَّمه ذلك هو ربه الأعلى " [4] . ويبين الشعراوي أن المسلم يأخذها على أنها مفاتيح حيث يقول : " وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً ، وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها "[5].

---

(1) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ــ لابن عطية (ت541هـ) : ج138 ــ 141 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص108 .

(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج1 ص106 ، ج2 ص1257 .

(4) تفسير الشعراوي : ج11 ص6818

(5) تفسير الشعراوي : ج10 ص6290 .

كأن الشعراوي يريد أن يقول : إن كل سورةٍ بُدئت بحروف من هذه الحروف ، أُودِعت فيها أسرار السورة ، بحيث إذا جَعَلتَ هذه الحروف لسورةٍ أخرى فإنها لا تتلاءم ولا تنسجم معها .

إذن هذه خلاصة ما يدور عليه رأي الشعراوي في الحروف المقطعة في أوائل السور .

ولنا القول بأن العلم قد توصل حديثاً إلى أن الحروف المقطعة لكل سورة تكون أكثر الحروف تردداً في السورة ، فعلى سبيل المثال تمَّ اختبار حروف سورة « ق » على الكمبيوتر ، فتبين أن حرف القاف أكثر الحروف تردداً في السورة . وهذا يزيد الإعجاز القرآني ، أي أن القرآن يتحدى الناس جميعاً على أن يأتوا بمثل هذه السورة التي من حروفها الحروف المقطعة في بدايتها على أن تكون أكثر الحروف استعمالاً في السورة .

وبعد أن ظهر لنا منهج الشعراوي في تفسير البسملة والحروف المقطعة في أوائل السور ، نبدأ الآن في بيان منهجه في افتتاح السورة واختتامها .

كان الشعراوي يتعرض لموضوعات متعددة ومتنوعة قبل البدء في تفسير السورة ، وأحياناً لا يذكر شيئاً ، وإنما يشرع في تفسير السورة مباشرة . وأبين منهجه في ذلك كما يلي :

أولاً : وصف السورة :

إن الشعراوي يقوم أحياناً بعمل وصف للسورة من عدة جوانب :

أحدها : الترتيب المصحفي للسورة : فيبين أن هذه السورة تأتي في الترتيب المصحفي بعد تلك ، وإن ترتيب السور توقيفي . يذكر هذا عند افتتاحه لسورة المائدة ، حيث يقول : " ونستقبل الآن سورة المائدة التي تلي سورة النساء في الترتيب المصحفي . ونعلم أن للقرآن ترتيبين : ترتيب نزول ، وترتيب مصحف ..." (1) .

وقد ذكرتُ ذلك في مطلب « ترتيب القرآن وتحزيبه » ، ولا داعي لتكراره مرة أخرى فانظره (2) .

وعند الابتداء في تفسير سورة البقرة قال : " نأتي بعد فاتحة الكتاب إلى سور البقرة ، وهي التي تلي الفاتحة في ترتيب المصحف الشريف " (3) .

وعند ختمه لتفسير سورة البقرة قال : " حين نقول : إن هذه السورة نزلت بعد كذا ، أو

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2883 .

(2) انظر : ص121 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص95 .

فيها آية كذا نزلت بعد كذا ونجد أن ذلك يختلف عن النسق النزولي نعلم أن لله سبحانه وتعالى في كتابه ترتيبين : الترتيب الأول حسب النزول ، والترتيب الثاني الذي وُجِد عليه القرآن الآن ، وتمت به كلمة الله في خدمة الهداية الإيمانية ، وهذا الأخير من عند الله أيضاً " [1] .

ثانيها : أسماء السور : لقد وقف الشعراوي عند أسماء بعض السور يذكر أسماءها ، ويبين سبب تسميتها بهذا الاسم ، ومن ذلك سورة التوبة ، ذكر أن من أسمائها « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين ، وكشفت عن أسرارهم [2] . ثم فسَّر سبب تسميتها بالفاضحة ، مبيناً الأشخاص الذين كان لهم دور في النفاق مع النبي ﷺ والمؤمنين [3] ، ثم ذكر بعضاً من أسمائها أيضاً ، فقال : " وقد سمى بعض العلماء هذه السورة « المقشقشة » لأنها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، وهذه السورة تزيح النفاق من أرض الإيمان . ومنهم من يسميها « المبعثرة » ، والبعثرة لا تكون إلا في شيء مكوَّم ، وعندما تأتي للكومة وتبعثرها يظهر الشيء المخبأ في وسطها فهي تبعثر أسرار المنافقين . وسميت « الحافرة » لأن الإنسان حين يحفر الأرض يخرج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ « المثيرة » لأنها تُظهر ما خفي عن العيون ، وسميت « المدمدمة » و « المهلكة » لأنها أوضحت العقاب لكل مجرم ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ .. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) ﴾ (سورة الشمس) ، وسميت « سورة العذاب » لأنها تكشف ما في الصدور ، وأعطت لكل عدو في الإسلام جزاءه ، وكشفت الستار عن أعماق كل منافق . وعن حذيفة : " إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب " [4] .

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ ، والحظ الوافر في الأسماء للمنافقين الفاضحة والمقشقشة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمدمدمة والمهلكة ، وكل ذلك في كشف المنافقين " [5] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1251 ، 1252 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج8 ص4855 . قال الإمام السيوطي في الدر المنثور : وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس ﷺ عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، وما زال ينزل ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً " .

الدر المنثور في التفسير بالمأثور ــ للإمام السيوطي : ج2 ص226 .

(3) تفسير الشعراوي : ج8 ص4855 ــ 4857 مختصراً .

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك : ك التفسير / تفسير سورة التوبة ج2 ص361 (ح391) وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(5) تفسير الشعراوي : ج8 ص4857 .

وهذه الأسماء مخرَّجة عند العلماء ، وذكروا لها أسماء غيرها ؛ كالمنقرة ، والمنكلة ، والمشردة ، والمخزية [1] .

ولا يُظَن أن مقصد الشعراوي من قوله : " وقد سمى بعض العلماء هذه السورة ... " أن أسماء السورة من استنباطات العلماء . لا ، لقد أوضح في بداية كلامه عن السورة أن أسماء السور توقيفية [2] .

ومن ذلك أيضاً سورة البقرة ، فقد بين الشعراوي سبب تسميتها بهذا الاسم ، وهو قصة الرجل الثري من بني إسرائيل الذي كان يملك مالاً كثيراً ولم يكن له ولد ، فقتله ابن أخيه ليلاً ثم أخذ جثته وألقاها في مكان قريب من إحدى القرى المجاورة ليتّهم أهل هذه القرية بقتله فما وقع الخلاف بين أهل القتيل وأهل تلك القرية ، ذهبوا إلى موسى عليه السلام ، وطلبوا منه أن يسأل ربه ليكشف لهم عن القاتل . فأمرهم بأن يذبحوا بقرة . فسألوه عن عمرها ولونها ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم إلى أن كشف الله لهم عن القاتل بواسطة هذه البقرة [3] .

ثالثها : بيان موضوعات السورة : كذلك نجد الشعراوي يذكر الموضوعات التي تناولتها السورة ، فسورة التوبة ــ مثلاً ــ قال فيها : " وأخذت سورة التوبة حيزاً مع المشركين ، وحيزاً مع اليهود والنصارى ، وحيزاً مع المنافقين ، وكما حددت المؤمنين في آخر السورة ، حددت أيضاً مواقف كل من هؤلاء ، وقد كان موقف هؤلاء ضرورياً ... " [4] .

وقال عند فاتحة سورة البقرة : " ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الإسلام ، وبحكمة القرآن ، وبعلم الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ﷺ ، واشتملت على قصة خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، وقصة إبراهيم في بحثه عن الإيمان ، وقصة بناء الكعبة الشريفة ، وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للإسلام ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (من الآية 82 سورة المائدة) . جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الإيمانية ، فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل أموال الناس والزواج والطلاق والرضاع ، كما حددت صور التعامل بالمال في المجتمع الإسلامي ، وما كان الإسلام ليتعرض لهذه الأحكام في مكة ؛ لأنه لم يكن هناك المجتمع

---

(1) انظر الإتقان : ج1ص152 ــ 153 ، وروح المعاني : ج10ص59 ــ 60 ، وفتح القدير : ج2ص412 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج8ص4832 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص95 مختصراً ، وقد سبق ذكرها في مطلب « الإسرائيليات » . وانظر سبب تسمية سورة النساء بهذا الاسم : ج4 ص1983 .

(4) تفسير الشعراوي : ج8 ص4835 .

الإسلامي الذي يتطلبها " [1] .

إن ما عرضه الشعراوي من ذكر الموضوعات التي تتحدث عنها السورة ليعتبر ميِّزة له ؛ لأنه تعرض للون آخر من ألوان التفسير ألا وهو التفسير الموضوعي ، الذي يعتمد على الشفافية وقوة النظر والاستنباط . ونحن نعلم أن التفسير الموضوعي للسورة هو نوع من أنواع التفسير الموضوعي ، والمفسر للسورة تفسيراً موضوعياً لا بد أن يتعرض لما يُسمى بـ « بين يدي السورة » ، وإذا تعرض الباحث لهذا الباب فلا بد له من ذكر الموضوعات التي تناولتها السورة ، ويستخرج المحور الذي تدور حوله هذه الموضوعات . والشعراوي وإن لم يذكر لنا محور السورة ولم يصرح بأن هذا لون من ألوان التفسير الموضوعي إلا أنه بين لنا الموضوعات التي تناولتها السورة بشكل واضح . وهذا يفتح الباب أمام طلبة العلم بعمل بحث حول هذه السورة ، وإن كانت هناك دراسة موضوعية حولها ، فالقرآن لا تنقضي عجائبه ، وهو كالنبع الصافي الفياض الذي لا ينقطع مع كثرة الآخذين منه .

رابعها : المكي والمدني : وهذا قد أخذ قسطاً وافراً عند الحديث عنه في مطلب « المكي والمدني » ، لكن أذكِّر بأن الشعراوي تكلم عن بعض السور من حيث مكيتها ومدنيتها ، وعن مميزات المكي والمدني ، ولو نظرنا إلى بداية تفسيره لسورة البقرة لوجدنا ذلك [2] .

وأذكر هذا المثال للتدليل . قال في نهاية تفسيره لسورة المائدة : " وبهذه الآية خُتمت سورة المائدة ، وهي سورة مدنية وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وفيها التشريع وفيها التكاليف ، وفيها الأحكام وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب ، ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام وهي مكية ، وجاءت السورة المكية بعد المدنية في الترتيب المصحفي حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن في آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله ﷺ مع جبريل عليه السلام ... " قال : " لنفهم معًا معنى الاصطلاح القائل : « مدني » و « مكي » . هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض ، وجاء الاصطلاح « مكي » على الآيات التي نزلت قبل الهجرة وجاء الاصطلاح « المدني » على الآيات التي نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة " [3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص151 .

(2) انظر : تفسير الشعراوي : ج1 ص97 ــ 100 .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3484 ــ 3485 .

ثانياً : المناسبـــة بين الســـور :

كان الشعراوي أحياناً يكشف وجه الربط بين السور ، فيذكر تارة المناسبة بيـــن فاتحـــة السورة لخاتمة التي قبلها ، أو يربط بين مضمون السورة لمضمـــون الســـورة بعدهـــا ، أو مضمون السورة لفاتحة التي بعدها . وقد تكلمنا عنه في مطلب المناسبات ، فانظره [1].

وهكذا يتبين لنا منهجه ـــ رحمه الله ـــ في فواتح السور وخواتمها ، وتظهر لنا الأمور التـــي كان يتعرض لها في ذلك .

المطلب الرابع : الإعجاز البياني :

يمكن القول بأن البيان هو وجه الإعجاز في القرآن ، هذا مما لا يجادل فيه أحد ، ولا يختلـــف فيه اثنان ، بغض النظر عن إطلاقات العلماء عليه ، سواء قالوا : إعجاز في النظم ، أو فـــي الكلمة ، أو في الأسلوب ، فكلها مؤداها واحد .

ثم اختلف العلماء فيما بعد ذلك من وجوه ، فمنهم من رأى أن القرآن معجز من أكثر مـــن وجه ؛ كالإعجاز العلمي والنفسي والتشريعي ، وغيرها من وجوه الإعجاز ، وإلى هذا ذهـــب أساتذتي أعضاء لجنة الناقشة : الدكتور زكريا الزميلي ، والدكتور عصام زهد ، والدكتـــور جمال الهوبي . ومنهم من نفى أن تكون هذه وجوهاً في الإعجاز ، وأثبـــت للقـــرآن وجـــهاً واحداً [2] .

والذي تميل إليه النفس ، ويرتاح له البال هو القول بأن وجه الإعجاز في القرآن هو البيـــان ؛ لكونه ينتظم سور القرآن جميعها ، قصارها وطوالها ، لأن الله حينما تحدى الإنس والجـــان ، إنما تحداهم ـــ آخر ما تحداهم ـــ بأن يأتوا بسورة من مثله ، حيث قال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُـــمْ فِـــي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِـــنْ دُونِ اللَّـــهِ إِنْ كُنْتُـــمْ صَادِقِينَ (23) ﴾ (سورة البقرة) ، و « من » في هذه الآية إذا اعتبرناها بيانية فالتحدي يكون بأي سورة من سور القرآن ، وإذا اعتبرناها تبعيضية فيكون التحدي بأي وجه من وجـــوه

---

(1) انظر : ص 73 .

(2) انظر دلائل الإعجاز في علم المعاني ـــ لعبد القاهر الجرجاني (ت417هـ) : ص ق . فقد قال :

إنـــي أقـــول مقـــالا لســـت أخفيـــه ولســـت أرهـــب خصمـــاً إن بـــدا فيـــه

مـــا مـــن ســـبيل إلـــى إثبـــات معجـــزة فـــي النظـــم إلا بمـــا أصبحـــت مبديـــه

وانظر نظريته في النظم ص28 ، 254 .

الإعجاز في السورة ، ولم أقف على وجه ينتظم سور القرآن كلها غير البيان .
أما قول العلماء : إعجاز تشريعي ، وإعجاز روحي ، وإعجاز نفسي وغير ذلك من الوجوه التي ذكروها ، فهذا يكون تجاوزاً . ووجه الاعتراض عليه هو أن مثل هذه الوجوه ـ إذا اعتبرناها وجوهاً ـ غير محمودة العواقب ، لأنها ستلزمنا بما لا طاقة لنا به ؛ لأنه لو جاء واحد وقال : إنكم تقولون إن القرآن معجز من حيث تأثيره في النفوس ، فأنا سآتي بكلام يكون له بالغ الأثر في النفس ، فإذا ما جاء هذا الشخص بكلام مؤثِّرٍ في النفس ، أيكون قد تحدى القرآن ؟! ومثل ذلك الإعجاز الروحي وغيره من الوجوه المذكورة .
وجملة القول فيها أنها تثبت أن القرآن من عند الله ، ولا تثبت أن القرآن معجز ، لأن كون القرآن معجز شئ ، وإثبات أن القرآن من عند الله شئ آخر ، فينبغي التفريق بينهما .

إن الشعراوي يُحمد على اهتمامه البالغ بإظهار هذا الوجه خاصة من وجوه الإعجاز . لقد كان ـ رحمه الله ـ مولعاً في الجانب البياني ، وقافاً عند الآيات ، يكشف لنا عن أسرار الإعجاز فيها ، ويستنبط الأغراض البلاغية والصور البيانية أينما تسنى له ذلك ، ولذلك حتى نحصر الكلام عن منهجه من هذه الجهة أرى أن أتناوله من خلال عدة نقاط :

أولاً : الكلمة القرآنية :

الكلمة هي أساس النظم ، ومصدر المعنى ، وبها يستقيم بناء الجملة ، والله سبحانه حينما اختار كلامه ، إنما جعل كل كلمة في موضعها الأخص الأشكل بها ، التي لا ينبو عنها غيرها ، أو تقوم كلمة أخرى مكانها . يقول الإمام الخطابي (✿): " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة .. " [1] .

وقال الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس : " ومن هنا كانت كلمات القرآن الكريم مقدرة خير تقدير ، معبرة أصح تعبير وأصدقه ، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر ، وتقديمها في موضع دون آخر ، وذكرها في موضع دون موضع آخر ، كل ذلك إعجاز " [2] .

(✿) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن الخطاب الخطابي البُستي ، أحد الأعلام المشاهير الأعيان ، والفقهاء المجتهدين المكثرين . من مصنفاته « شرح البخاري » ، و « معالم السنن » . (ت388هـ) .
البداية والنهاية : ج6جـ11ص348 .

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص29 .

(2) إعجاز القرآن الكريم ـ للدكتور فضل حسن عباس وسناء فضل عباس : ص172 .

والشعراوي دأب دأبهم ، فذهب إلى أن كل كلمة وضعت في موضعها مقدرة ، وجاءت في مكانها لحكمة . يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) ﴾ (سورة الأنفال) : " والمتتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة " (1) .

وفي موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا .. (84) ﴾ (سورة آل عمران) ، يقول : " كان القياس أن يقول : « قل آمنت » أو أن يقول : « قولوا آمنا » لكن الحق في قرآنه الكريم يضع كل كلمة في موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقاً لكلمته ، وقد قال الحق : ﴿ قل آمنا ﴾ ليتضح لنا أن محمداً رسول ممتزج في أمته ، وأمة الإسلام في طوعية لرسولها " (2) .

ومن وقفاته عند الكلمات القرآنية ما يلي :

1 ـ الإفراد والجمع :

لقد استعملت العرب في أساليبها الألفاظ مفردة ومجموعة ، وكذلك استعملها القرآن الكريم ، لكن شتان بين استعمال العرب لها واستعمالها في القرآن الكريم ؛ لأن القرآن كتاب معجز ، جاء بأسلوب معجز ظهرت فيه بلاغته واضحة جلية . هناك من الألفاظ ما جاءت في القرآن مفردة ، وهناك ما جاءت مجموعة ، وألفاظ أخرى جاءت مفردة ومجموعة حسب ما يقتضيه السياق والنظم القرآني . فكلمة « الأرض » مثلاً لم تأت مجموعة قط ، ولذلك حينما فسر الشعراوي الآية الكريمة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... (54) ﴾ (سورة الأعراف) قال : " فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ لماذا لم يقل سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها و يسر نطقها " (3) . وعندما احتاج إلى الجمع قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (من الآية 12 سورة الطلاق) .

ومن الكلمات التي لم تستعمل إلا مجموعة ككلمة (أساطير ـ آلاء ـ عضين ـ عزين ـ وألباب) وهذه الكلمات لم أقف لها على مثال عند الشعراوي . والمهم في الأمر ما جاء مفرداً تارة ، ومجموعاً أو مثنى تارة أخرى ؛ لأن الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب العرب

---

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4670 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1589 ، وانظر : ج1 ص264 ، وج3 ص1377 ـ 1378 .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص 4163

يظهر من هذا الجانب . يقول صاحب كتاب (لغة القرآن) : " وأهم من كل ما ذكرناه هو أننا نرى أن القرآن الكريم يؤثِر استعمال بعض الكلمات على وجهين : وجه يستعمل فيه المفرد لغرض خاص ، ووجه يستعمل فيه المثنى أو الجمع ، وذلك لحكمة بلاغية أخرى تتعلق بالمعنى "(1) .

وقد عرض الشعراوي في تفسيره لهذا الأمر ولم يغفله ، على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ... (22) ﴾ (سورة يونس) فيقول : " والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (25) ﴾ (سورة الأحقاف) ، وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (من الآية 22 سورة الحجر) والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ..." (2) .

ثم تكلم بعد ذلك بما يفيد أن معنى الريح في الآية التي نحن بصددها بمعنى القوة .

إن استعمال لفظ « الريح » في البحر بمعني الرحمة ؛ لأنها تُسيِّر السفينة باتجاه واحد ، أما مجئ الرياح في البحر بمعنى العذاب ، فحينما تأتي رياح متعددة في كل اتجاه ، فإنها تؤدي إلى اضطراب في حركة الماء ، وبالتالي تساعد على غرق السفينة .

وقال أيضاً عند تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) ﴾ (سورة المائدة) :

" ولنر الأداء القرآني : « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا : « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتي بالمفرد ولم يأت بالجمع ، وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة في أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فنعم الله كثيرة ، ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هي نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائماً ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟ ولو تمعن الإنسان في كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائماً . أو أن النعمة اسم للجنس كله ؛ لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها

---

(1) لغة القرآن ــ للدكتور عبد الجليل عبد الرحيم : ص347 .

(2) تفسير الشعراوي : ج10 ص5849 ــ 5851 .

تطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلي وخالد " [1] .

2 ـ التعريف والتنكير :

إن القرآن يعرّف أحياناً ويُنَكِّر أخرى ، لهدف سام وغاية عالية ، إذ هو قاعدة بيانية جليلة . علماً بأن لكل واحد منها مقاماً لا يليق به الآخر . فقد يتطلب السياق أن تكون الكلمة فيه معرفة ، وقد يتطلب أن تكون نكرة ، وإذا نظرنا إلى تفسير الشعراوي وجدناه يعلق ويحلق حول ما ورد نكرة أو معرفة في كتاب الله ، وبالمثال يتضح المقال .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... (159) ﴾ (سورة آل عمران) فقد وردت كلمة « رحمة » نكرة ؛ لتؤدي غرضها في السياق . ولو جاءت معرفة لما أدته . يقول الإمام الشعراوي : " ساعة تقول : بأي رحمة ، فأنت تبهم الأمر ، وعندما تبهم الشئ فكأنه شئ عظيم ؛ لأن الشئ يُبهَم إما لأنه صغير جداً ، وإما لأنه كبير جداً ، فالشئ إذا كان كبيراً يكون فوق المستوى الإدراكي ، وإذا كان صغيراً جداً يكون دون مستوى الإدراك ، ولذلك فالأشياء الضخمة جداً نرى منها جانباً لا نرى الجانب الآخر ، والشئ الدقيق جدًا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشئ نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ، ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإذا نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته ، إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه للطفه ودقته ، وأنه ليس في متناول البصر يكون قليلاً أو دقيقاً . إذن فقوله تعالى : « فبما رحمة » يعني بأي رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة "[2].

ومما جاء في التعريف ما فسَّر به قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾ (سورة البقرة) . لقد جاء اسم الإشارة « ذلك » ليدل على التفوق والعلو . فيقول : " قوله تعالى : « ذلك الكتاب » يحمل معنى التفوق الكامل والشامل على كل ما سبقه من كتب ، وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ، ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه « كتاب » ليكون دليلاً على الكمال . ولا بد أن نعرف أن كلمة ذلك ليست كلمة واحدة ، وإنما هي ثلاث كلمات ؛ « ذا » اسم إشارة ، و « اللام » تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و « ك » لمخاطبة الناس جميعاً بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة إلى يوم القيامة " [3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2965 ـ 2966 . وانظر : ج2 ص1120 ـ 1121 .

(2) تفسير الشعراوي : ج3ص1836 . وانظر ج1 ص477 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص117 ـ 118 . وانظر ج5 ص3047 .

ومن ناحية أخرى فقد ذكر الشعراوي أن اللفظ يأتي في القرآن يشيع في مجالات متعددة ، ويؤدي معانٍ شتى . يسوق هذا الكلام أثناء تفسير الآية الكريمة : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) ﴾ (سورة آل عمران) . فيقول : " وقول الحق : « والخيل المسومة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشيع في مجالات متعددة من المعاني ، فمسومة من سامها يسومها ، ومعنى ذلك أن لهذه الخيل مراعي تأكل منها كما تريد وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يقدم لها فقط ، ومسومة أيضاً تعنى أن لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان أغر ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر . ومسومة أيضاً أن تكون مروضة ومدربة وتم تعليمها ، فالأصل في الخيل أنها لم تكن مستأنسة ، بل متوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى ينتفع بها الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسومة » ؟ " [1] .

وهكذا يظهر لنا من خلال هذه الأمثلة مدى اهتمام الشعراوي بالكلمة القرآنية ، وما هذه الأمثلة المسوقة إلا نزر يسير من بين كم كبير مما ساقه الشعراوي في تفسيره ، مما يُبين لنا مدى اهتمامه البالغ بالكلمة القرآنية .

ثانياً : دعوى الترادف في كتاب الله :

إن هذا الموضوع وثيق الصلة بسابقه ؛ إذ إنه يبحث أيضاً في الكلمة القرآنية ؛ لأن هناك كلمات قد يُظَن أنها مترادفة وتؤدي نفس المعنى ، والصحيح غير ذلك .

يقول الإمام الخطابي : " .. ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعانى ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبلى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصفات ... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها " [2] .

إذن لا ترادف في كتاب الله . هذا هو الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم . وقد قرره الإمام الشعراوي ذلك في مواضع كثيرة من تفسيره . وهذه أمثلة أضربها تأكيداً لهذا .

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ...(140) ﴾ (سورة آل عمران) : " وقد تكلمنا ــ من قبل ــ عن « المس » وهو إصابة بدون حس ، أي

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1214 .

(2) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص29 .

لمس ، لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلاً ، إنما « اللمس » هو أن تحس في الشئ حرارة أو نعومة ، ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شـيئًا ، و « القَرح » هو : الجرح ، وفي لغة أخرى تقول : « القُرح » ـ بضم القاف ـ وأقـول : القُرح وهو الألم الناشئ من الجراح ، كي يكون لكل لفظ معنى . وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد في الجملة إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنـت تسـمع مثـلاً : رأى ونظر ولمح ورمق ورنا . كل هذه تدل على البصر ، لكن كل لفظ له معنى ؛ رمـق : رأى بمؤخر عينيه ، ولمح : أي شاهد من بعيد ، ورنا : نظر بإطالة ، وهكذا . ويقـال أيضـاً : جلس وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكـون عن اضطجاع ، والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى موضوع واحـد ، فكذلك « قَرح » و « قُرح » كل لفظ له معنى دقيق ... " (1) .

ومن الأمثلة التي يفرق فيها الشعراوي بين الألفاظ التي يُظن أنها مترادفة (نجَّـى وأنجـى ، ذبح وقتل) ، وقد فرق بين كل لفظين من هذه الألفاظ رغم وجود التشابه بينهما ، وذلك عنـد تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ...(49) ﴾ (سورة البقرة) فقد قال :

" كلمة « نجَّى » وكلمة « أنجى » بينهما فرق كبير ، كلمة « نجَّى » تكون وقت نـزول العذاب ، وكلمة « أنجى » يمنع عنهم العذاب . الأولى للتخليص من العذاب ، والثانية يبعـد عنهم عذاب فرعون نهائياً " قال : " بعـد أن تحدثنـا عـن الفـرق بيـن « نجَّينـاكم » و « أنجيناكم » نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » و « يقتلون أبناءكم » ، الذبـح غير القتل ، الذبح لا بد فيه من إراقة دماء ، والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عنـد الرقبـة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره ؛ كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شـرطاً فيـه أن تُسفك الدماء " (2) .

وقد فرق كذلك بين « انفجرت » في قوله تعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًـا ﴾ (من الآية 60 سورة البقرة) ، و « انبجست » في قوله تعالى : ﴿ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَـا عَشْـرَةَ عَيْنًا ﴾ (من الآية 160 سورة الأعراف) ، وذلك بأن الانبجاس يحدث أولاً ، ثم يتبعه الانفجـار ،

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1778 ـ 1779 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص325 ، 327 . وانظر ج2 ص782 ـ 783 .

وهو خروج الماء بتدفق ، فالكلام إذن عن مراحل خروج الماء [1] .

فهذه نماذج تبين مدى اهتمامه ــ رحمه الله ــ بذكر الفرق بين الكلمات المتشابهة في المعنى .

ثالثاً : بلاغة الحرف :

ونقصد بالحرف هنا هو حرف المعنى ــ أي ما يذهب إليه من معاني ــ لا حرف المبنى . إن استعمال القرآن الكريم للحروف كان لهدف سامٍ وغرض نبيل ، ومن هنا نجد الشعراوي قد وقف عند بعض الحروف يبين ما أفادته ، ويوجه ما دلت عليه . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) ﴾ (سورة الأنعام) . فقد وقف فيها وقفة مع حرف « في » . وهذا قوله : " ونعلم أن الحق لم يقل أبدًا : سيروا على الأرض ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف في الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومتعلقة في الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أكسجين ، وبما يغذي النبات من ثاني أكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ، ويصبر على الماء لأيام ، ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه لحظات ولذلك لا يُملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض ، وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير في الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائي في القرآن " [2] .

وقول الشعراوي : " ونعلم أن الحق لم يقل أبداً سيروا على الأرض " فيه نظر ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد قال في سورة الفرقان : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (63) ﴾ (سورة الفرقان) والمشي والسير متقاربان ، فلماذا لم يقل : يمشون في الأرض ؟! ولهذا اعترض الدكتور فضل حسن عباس على الشيخ الشعراوي على توجيهه للمعنى ، وقال : " وكلام الشيخ الشعراوي لا يخلو من مناقشة ، لا لأننا ننكر الغلاف الجوي للأرض ، بل لأن المتدبر لآي القرآن الحكيم يجد تفسير الشيخ تحميلاً للآية فوق ما تحمل " . ثم وجَّه المعنى ــ بعد أن نقل آية عباد الرحمن ــ وقال :

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج7 ص4396 . وقد ذكر الفخر الرازي ما ذكره الشعراوي ، وذكر قولاً آخر قال : " لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر ، أي يخرج الماء كثيراً ، ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي يخرج قليلاً " . أي أنهم إذا احتاجوا للماء خرج نقطة نقطة ، أي انبجس ثم انفجر ، فإذا قضوا حاجتهم حدث العكس . مفاتح الغيب ــ فخر الدين الرازي (ت606هـ) : ج2 جـ3 ص96 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6ص3518 .

" إن حرف « على » يدل على الاستعلاء ، و « في » تدل على الظرفية . والله تبارك وتعالى من رحمته مهد الأرض ، وذللها وجعلها لنا مستقراً ، وجعل لنا فيها متاعاً ، وعلى ضوء ذلك يمكننا أن ندرك السر الذي استُعمِلت من أجله كلمة « في » " [1] .

والحق أن كلاً من الشيخ الشعراوي والدكتور فضل عباس مصيب في نظرته ، فلا الشعراوي تكلف في توجيه معنى الآية التي يُذكر فيها « في » ، ولا الدكتور فضل أخطأ في توجيه المعنى الذي استنبطه مما أفاده حرف « في » أو حرف « على » ، اللهم إلا أن الشيخ الشعراوي وجهها من ناحية علمية ، والدكتور فضل وجهها من ناحية بيانية ، وليس هذا اختلافٌ وتناقض ، وإنما هو انسجامٌ وتوافق ، وعلى هذا فلا حجة للدكتور فضل في مناقشة الشيخ الشعراوي ، وتوجيه النقد له في تحميله للآية ما لم تحتمل .

هذا ، ومن الأمثلة الدالة على اهتمام الشعراوي بإظهار اللفتات البيانية الكامنة وراء الحرف في القرآن ما استنبطه من حرف « على » في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) ﴾ (سورة البقرة) ، فقد قال في ذلك : " و « على » تفيد الاستعلاء ، فإذا قلت : أنت على الجواد ، فإنك تعلوه ، كأن المهتدي حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل ، ولكنه يرتفع إلى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير إلى خير " [2] .

رابعاً : تركيب الجملة القرآنية :

يختلف كلام القرآن في تركيبه عن كلام البشر في أنه كلام معجز . وننظر في القرآن فنرى أن هناك جملاً متشابهة في التركيب ، إلا أن كل جملة تتميز عن شبيهتها بتميز الغرض الذي سيقت له . وننظر إلى الجملتين فنجد أن هذه أزيْد من تلك بحرف أو بكلمة ، ومن هنا يظن البعض أن هذا الحرف أو تلك الكلمة زائدة ، وليس الأمر كذلك ، إلى غير ذلك من مظاهر الجملة القرآنية ، على ما سيظهر لنا من خلال الأمور التالية :

1 ـ التقديم والتأخير :

يُعتبر التقديم والتأخير مظهر إعجازي في الجملة القرآنية ، وأسلوب من أساليبه البلاغية إذ يكشف عن دقائق المعاني ، ويبين المستور في ألفاظها .

وللتقديم أسباب ، ذكر منها السيوطي عشرة ، منها : التبرك والتعظيم والتشريف والسبق . وأن الحكمة البارزة في التقديم والتأخير هي الاهتمام بالمقدم ، كما قال غير واحد [3] .

---

(1) إعجاز القرآن الكريم : ص146 ، 147 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص132 .

(3) انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : ج1 ص173 ـ 180 .

لقد أبرز الشعراوي الأسرار البلاغية الكامنة وراء تقديم بعض الألفاظ في بعض الجمل القرآنية على شاكلة تقديم الأموال على الأولاد في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم (28) ﴾ (سورة الأنفال) فقد قال : " ... نحن نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟ نقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه ، وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد . ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجئ الزواج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال ثم يأتي بذكر الأولاد . وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ (من الآية 14 سورة آل عمران) . وفي هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين ، ولم يأت بذكر الأموال أولا ثم الأولاد كفتنة . وعلينا أن ننتبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة ، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى ؛ وهي النساء ، والزينة الثانية وهي الأبناء ، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال ، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هي القنطار ، فمعنى ذلك أن الإنسان الذي يملك قنطارا إنما يطمع في الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه ، وهكذا " [1] .

وأيضا عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (7) ﴾ (سورة البقرة) نجده يقول : " وقد قدم القلب على السمع والبصر في تلك الآية لأنه يريد أن يعلمنا منافذ الإدراك ، وفي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون(78) ﴾ (سورة النحل) وهكذا يعلمنا الله أن منافذ العلم في الإنسان هي السمع والأبصار والأفئدة ، ولكن في الآية الكريمة التي نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والأبصار . إن الله يعلم أنهم اختاروا الكفر ، وكان الاختيار قبل أن يختم الله على قلوبهم ، والختم على القلوب ، معناه أنه لا يدخلها إدراك جديد ولا يخرج منها إدراك قديم ، ومهما رأت العين أو سمعت الأذن ، فلا فائدة من ذلك ؛ لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد أن اختار أصحابها الكفر وأصروا عليه " [2] .

فتقديم القلب في آية البقرة ؛ لأنه أول منافذ الإدراك والتعقل ، بينما قدم السمع والبصر في

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4670 ــ 4671 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص142 ــ 143 .

آية النحل ؛ لأنهما منافذ العلم والمعرفة الموصلة إلى إدراك الحقيقة . ولذلك كان الإنسان مسئولاً عنهما قبل القلب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (من الآية 36 سورة الإسراء) .

2 ـ التأكيد :

التأكيد لون من ألوان البلاغة ، وهو درجات يستعملها المتكلم حسب درجات الشك والإنكار لدى المخاطَب . وأحياناً لا يكون عند المخاطب شك ، فلا يؤتى بالتأكيد .

والشعراوي قد عرض لهذا ، وأروع ما ذُكر في المسألة ما قاله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ... (19) ﴾ (سورة المائدة) فقد جاء بقصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون في سورة « يس » ، ثم قال : " وهنا قال الرسل : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) ﴾ (سورة يس) . فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ ، إن الأخبار دائماً تُلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإذا كان السامع خالي الذهن من الخبر ، أُلقي إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبهة إنكار ، أُلقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره ، فإن زاد في لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهم بثالث ، وهذا تعزيز رسالي ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ (من الآية 14 سورة يس) . صحيح ثمة تأكيد هنا ؛ لأن الجملة اسمية ، وسبقتها « إنَّ » المؤكدة ، فلما كذبوهم وقالوا لهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ » وكان هذا لجاجاً منهم في الإنكار ، فماذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ لا ، إن الإنكار هنا ممعن في اللجاجة والشدة ، فيأتي الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل : « ربنا يعلم » . وذلك القول في حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثاني : « إنا إليكم لمرسلون » . وكما نعلم فـ « إن » هنا مؤكدة ، واللام التي في أول قوله : « لمرسلون » لزيادة التأكيد " (1) .

هذا من ناحية استعمال المؤكدات في الجملة القرآنية ، وقد يأتي الأسلوب مؤكداً بغير هذه المؤكِّدات لغرض بلاغي يقتضيه السياق ، فيأتي التأكيد مثلاً من جهة الأسلوب من حيث كونه خبري أو إنشائي ، إذ هناك أساليب خبرية جاءت في طلب حكم شرعي ، ونحن نعلم أن الأحكام الشرعية أوامر ونواهي ، أي أنها جاءت بأسلوب إنشائي ، ومع هذا جاءت بعض

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3038 ــ 3039 . وتأكيد ما ذهب إليه الشعراوي انظر : الكشاف ــ للزمخشري (538هـ) : ج3 ص318 .

الأحكام بأسلوب خبري تأكيداً للحكم على شاكلة تفسيره لآية الطلاق : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ ... (228) ﴾ (سورة البقرة) ، حيث قال : " ونلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ، ولكن جاء في صيغة الخبر ، فقال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكماً لازماً لا يأتي له بصيغة الأمر الإنشائي ، ولكن يأتي له بصيغة الخبر ، هذا آكد وأوثق للأمر ، كيف ؟ . معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً ، ويُطبق الامتثال في كل الجزئيات حتى لا تشذ عنه حالة من الحالات ، فصار واقعاً يُحكى وليس تكليفاً يُطلب ، وما دام قد أصبح الأمر واقعاً يُحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخاً يُروى هو : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » " (1) .

3 ـ الحذف والذكر :

هذه قاعدة أخرى من القواعد التي اختصت بها الجملة القرآنية ، إذ قد يرد في آية قرآنية ـ أو جزء منها ـ كلمة تخلو منها آية أخرى تشبهها ـ أو جزء من هذه الآية ـ . كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ...(122) ﴾ (سورة النساء) فقد ذكر فيها حرف « من » . وفي قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)﴾ (سورة التوبة) فلم يذكر هنا حرف « من » . وفي ذلك يقول الشعراوي : " ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد ، ومرة أخرى يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » وهذا يعني أن منبع المياه لن يحجزه أحد ؛ لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها " (2) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (17) ﴾ (سورة لقمان) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (43) ﴾ (سورة الشورى) فالآية الأولى ذُكر فيها « إن

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص982 ـ 983 . وقد ذكر الزمخشري في كشافه أن الخبر في الآية في معنى الأمر ، وأصل الكلام : وليتربص المطلقات . قال : " وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يُتَلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجوداً ... وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد ، ولو قيل : (يتربص المطلقات) لم يكن بتلك الوكادة " . الكشاف : ج1 ص365 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص2658 .

ذلك من عزم الأمور » بدون زيادة اللام ، وزيدت في الثانية . وفي هذا يقول الإمام الشعراوي : " كل كلمة في القرآن جاءت لمقتضى حال يحتم أن تكون في هذا الموضع . فها هو ذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (من الآية 17 سورة لقمان) . وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) ﴾ (سورة الشورى) ، في الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « من » ، وفي الآية الثانية أورد « اللام » لتسبق « من » ، وليس ذلك من قبيل التفنن في العبارات ، فقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتي هنا كعزاء وتسلية ، أما قول الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضي وجود غريم يسبب للإنسان كارثة . هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . وما دام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام وهذا يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى فليس في الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود الغريم فهو يحرك في النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدها سبحانه وتعالى : « إن ذلك لمن عزم الأمور » " [1] .

والحقيقة أن كلام الشعراوي غير مسلَّم به ، فكلا الآيتين تقتضي وجود غريم ، فإن الآية في سورة لقمان تدعو إلى الصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر قد يتعرض للأذى ممن يأمره وينهاه . ولذلك قال : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، وهؤلاء هم الغرماء . والمعنى يشتمل ما ذكره الشعراوي .

خامساً : الفاصلة القرآنية :

الفاصلة يُراد بها كلمة آخر الآية كقافية الشعر ، وقرينة السجع [2] . وهي تختلف عن الشعر والسجع في أنها متسقة مع الآية تمام الاتساق ، ومنسجمة معها تمام الانسجام ، وأنها معجزة .

ويُذكر أن الأصمعي (✲) كان يقرأ سورة المائدة ، ومعه أعرابي ، فقرأ هذه الآية :

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3006 ــ 3007 . وانظر ج1 ص359 .

(2) الإتقان : ج2ص260 .

(✲) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي البصري ، أحد الأعلام . روى عن : ابن عون ، وسليمان التَّيمي ، وعبد الرحمن بن أبي الزِّناد . وعنه : أبو عبيد القاسم بن سلاَّم ، =

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38)﴾ (سورة المائدة) فقال : (والله غفور رحيم) سهواً ، فقال الأعرابي : كلام من هذا ؟ فرد الأصمعي قائلاً : كلام الله ، فقال الأعرابي : أعد عليَّ ، قال : فأعدتُ (والله غفور رحيم) ثم تنبهت فقلت : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ، فقال : الآن أصبت ، فقال الأصمعي للأعرابي : وكيف عرفت ؟ قال : يا هذا ! عزيز حكيم فأمر بالقطع ، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع [1].

وقد تعرض الشعراوي للفواصل القرآنية مبرزاً وجه الحكمة في مجيئها ، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ... (232) ﴾ (سورة البقرة) ، حيث قال : " وكلمة « وأطهر » تلفتنا إلى حرمة الوقوف في وجه المرأة التي تريد أن ترجع لزوجها الذي طلقها ثم انتهت العدة ، وأراد هو أن يتزوجها من جديد . إن الحق يبلغنا : لا تقفوا في وجه رغبتها في العودة لأي سبب كان ، لماذا يا رب ؟ وتأتي الإجابة في قوله الحق : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأمل جمال السياق القرآني ، وكيف خدم قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » المعنى الذي تريده الآيات . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن في عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أزكى وأطهر " [2] .

ومن ذلك أيضاً الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178) ﴾ (سورة آل عمران) . فقد قال عن الفاصلة فيها : " « ولهم عذاب مهين » وتأتي كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الآثمة ، ولذلك فالإيلام هنا لا يكفي ، لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف ، والمتكلم هنا هو الله ، سبحانه العليم بالمناسب لكل حال " [3] .

سادساً : دعوى التكرار :

ادعى بعض أهل العلم أن في القرآن تكراراً ، فاتخذها المستشرقون مطية للطعن في إعجاز القرآن . والسبب في قولهم بالتكرار هو وجود التشابه بين بعض الآيات ، فنظر إليها بعضهم

= ويحيى بن معين ، وأبو حاتم . كان ثقة عالماً لغوياً . قال الشافعي : ما عبَّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي . وقال أيضاً : ما رأيت بذلك العسكر أصدق لهجة من الأصمعي . توفي سنة ست عشرة ومائتين انظر : تهذيب التهذيب : ج2 ص622 ــ 623 .

(1) مفاتح الغيب : ج6 جـ11 ص229 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1004 .

(3) تفسير الشعراوي : ج3 ص1895 .

فوجدها متشابهة ــ رغم اختلافها في النظم ــ فزعم أن ذلك تكراراً . والحق غير ذلك ، إذ لو نظر الباحث في الآيتين المتشابهتين اللتين يُظن تكرارهما ، وتفحص النظر فيهما لوجد أن هذه الآية جاءت لتؤدي غرضاً معيناً ، وتلك جاءت لتؤدي غرضاً آخر ، وكل من الغرضين يقتضيه سياق كل آية منهما ، ومن هنا أدركنا بطلان القول بالتكرار في القرآن .
وأكثر المواضع التي يُدَّعى فيها التكرار القصة القرآنية أو آيات العقائد .
وأما عن مجئ القصة في أكثر من موضع فغرضه إما بيان إعجاز القرآن وبلاغته ، أو تأكيداً للفكرة التي تناولتها القصة أو زيادة في أخذ العبر والعظات منها . علماً بأن مجئ القصة في أكثر من موضع لا يكون لكل مشاهد القصة ، وإنما يكون هناك اتفاق في بعض المشاهد مع زيادة في بعض المشاهد الأخرى . فلا تكرار إذن .

والشعراوي شدد في هذا الأمر ، ورد القول بالتكرار ، وكان يوجه المعنى في الآيات التي يُظن تكرارها ، على شاكلة قول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (132) ﴾ (سورة النساء) فهاتان الآيتان ذكرت فيهما « ولله ملك السموات وما في الأرض » ثلاث مرات ، فهل هذا تكرار ؟ نرى ماذا يقول الإمام الشعراوي :
" « وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدَّر الله الآية بالمقولة نفسها : « ولله ما في السموات وما في الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجئ المقولة مرة ثانية في الآية نفسها ليثبت الحق أنه غني ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة ، ولكن قل إن الحق جاء بها في صدر الآية لتثبت معنى ، وجاءت في ذيل الآية لتثبت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد : ﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (من الآية 29 سورة الكهف) . وجئ « ولله ما في السموات وما في الأرض » لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتي في الآية التالية حيث يقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (132) ﴾ (سورة النساء) ومجئ المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة " [1] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) ﴾ (سورة البقرة) ، فقد جاءت مرتين ، مرة في هذا الموضع ، ومرة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2700 .

أخرى بعد بضع آيات . ووجه الشعراوي معناهما نافياً للقول بتكرارهما ، على أن السياق في الآية الأولى يقول لليهود : إن نسبتكم إلى إبراهيم وإسحاق لن تشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه في التوراة ، وبما تفعلونه من غير ما شرع الله ، فاعلموا أن عملكم هو الذي ستحاسبون عليه وليس نسبكم . أما السياق في الآية الثانية فيقول : لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى . فالآية الأولى تنفي الشفاعة لهم بنسبهم ، والآية الثانية تنفي قبول حجتهم عند الله . فالمعنى إذن مختلف ، يمس موقفين مختلفين يوم القيامة ، فلا تكرار (1) .

إذن الشعراوي ينقد بشدة أن يُقال : إن في القرآن تكراراً ، بل كل كلمة جاءت متناسبة مع السياق الذي سيقت من أجله .

سابعاً : القول بالزيادة :

ادعى بعض الباحثين الزيادة في كتاب الله دونما زيادة في المعنى . ورأى بعضهم أنه إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته . والحق الذي عليه المنصفون من أهل العلم أن لا زيادة في كتاب الله تعالى ، فكل حرف في القرآن له حكمته ، وله موقعه الذي إذا غيرنا أو بدلنا فيه اختل النظم واختل تبعاً له المعنى .

يقول الدكتور فضل عباس : " ويقيننا أن هذه الزوائد لم تكن معروفة ، ولم يكن لها وجود عند أولئك الذين نزل القرآن فيهم ، ونكاد نجزم أنها لم تكن شائعة مشتهرة في خير القرون كذلك ، بل كان كل حرف من حروف القرآن وكل كلمة تعمل في نفوسهم عملها ، ذلك لأن هذه الكلمات كان لكل منها معنى تؤديه " (2) .

ويشدد الإمام الشعراوي النكير على القائلين بالزيادة في كتاب الله ، فعند قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ...(155) ﴾ (سورة النساء) وقف عند قوله : « فبما نقضهم » وفنَّد الرأي القائل بالزيادة ورده . حيث قال : " ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فبما نقضهم » لأن الفهم السطحي لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن في كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ، ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ، ولا فائدة فيها ، ولكن عليك أن تقول : أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف . خصوصاً ونحن في هذا العصر نعيش كأمة بلاغتها مصنوعة . ولا نملك اللسان

---

(1) انظر : تفسير الشعراوي : ج1 ص621 – 622 بتصريف .

(2) إعجاز القرآن الكريم : ص240 .

العربي المطبوع ..... ولقد سمع العربي قديماً ساعة نزل القرآن قول الحق : « فبما نقضهم » ، ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله ﷺ ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف في اللغة لصرخوا بها وأعلنوها ، ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد ﷺ ليبلغهم به موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون من محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء . والمتحدى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب : إن في القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآني يتفق مع الملكة العربية . وقول الحق : « فبما نقضهم » هي في الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و « ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهي زائدة للتأكيد ، ونكرر : إياك أن تقول إن في كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق في موقع آخر من القرآن يقول : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ (من الآية 19 سورة المائدة) . وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » وإن « من » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى . عندما يقول واحد : ما عندي مال . فهذا نفي أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدراً من المال القليل الذي لا يستأهل أن يسميه مالاً . ولكن إذا قال واحد : ما عندي من مال فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه ، أي أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أي شئ من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا من بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا بشير » ، فالمعنى أنه لم يأتهم أي رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول . إذن فقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم » أي بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا ، لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر . أي أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره . فـ « ما » هنا استفهامية جاءت للتعجيب أي على أيَّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق " [1] . إذن فلا زائد في القرآن .

ثامناً : التصوير في القرآن :

سبق أن تكلمنا عن التصوير في القصة القرآنية عند مطلب « القصة » [2] ، وهو فرع من التصوير في القرآن . فالقصة القرآنية لها شكلها المميز ، وطابعها الخاص ، الذي يختلف

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2781 ــ 2783 . وانظر ج10 ص6020 .

(2) انظر : ص150 .

تماماً عن القصص البشري . وأظن أن الكلام عن القصة قد أخذ كفايته هناك .
وأنتقل هنا إلى موضوعات أخرى تدخل في باب التصوير ، كان الشعراوي قد عرض لها أثناء تفسيره :

1 ـ التشبيه :

التشبيه : هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بأداة من أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدرة [1] .
والتشبيه على أربعة أنواع : تشبيه المحسوس بالمحسوس ، وتشبيه المعقول بالمحسوس ، وتشبيه المعقول بالمعقول ، وتشبيه المحسوس بالمعقول [2] .
ويمكن القول بأن أكثر هذه الأنواع استعمالاً في القرآن هو تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ وذلك لتقريب الأمور الغيبية إلى الأذهان . ومن الأمثلة على ذلك من تفسير الشعراوي ما ذكره عند قول الحق سبحانه ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (171) ﴾ (سورة البقرة) وقف عند قول الحق : « ينعق » ليبرز ما رسمته هذه الكلمة من صورة في الذهن . يقول : " والذي ينعق هو الذي يُصوِّت ويصرخ للبهائم ، وهو الراعي إذن ، فكلمة ينعق أعطتنا صورة راع يرعى بهائم ، وكان هذا الصياح من الراعي ليلفت الماشية المرعية لتسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريد أن تفعله ، وإنما ينبهها بالصوت إلى ما يريد ، ويسير أمامها لتسير خلفه إلى المرعى أو إلى نبع الماء ، فالنداء لفتة ودعاء فقط ، ولكن ما يراد من الدعاء يصير أمراً حركياً تراه الماشية ، فكأن الماشية المرعية لا تفهم من الراعي إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا ؟ فهي لا تعرف الهدف منه ، إلا بأن يسلك الراعي أمامها بما يرشدها ، وهكذا نفهم أن هناك « راعيًا » و « ماشية » ، و « صوتاً من الراعي » وهو مجرد دعاء ونداء . ومقابل هؤلاء الثلاثة في قضيتنا هو الرسول حين يدعو فيكون هو « الراعي » ويدعو من ؟ يدعو « الرعية » الذين هم الناس . وبماذا يدعو الرعية ؟ . أيناديها فقط لتأتيه ، أم يناديها لتأتيه ويأمرها بأشياء ؟ إنه يأمرها باتباع منهج السماء ... إذن فالرسول يشترك مع الراعي في الدعاء و النداء ، وهم اشتركوا مع المَرعِيّ في أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفي الاستجابة هم ـ أي المشركون ـ « صم بكم عمي » فالمدعوون لم يسمعوه وكأنهم اشتركوا مع الحيوان في أنهم لا يستمعون إلا الدعاء والنداء ، إنما المدعوون به ومضمون النداء هم

(1) من بلاغة القرآن : ص131 .
(2) الإتقان : ج2ص115 .

لا يعقلونه ولا يفهمونه . وبكمٌ لا ينطقون بمطلوب الدعـــوة .... إذن فمثـل الذيـن كفـروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعي ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعي ولا تعقل ، مع الفارق ؛ لأن الـدواب ليـس مطلـوب منـها أن تـرد علـى مـن يناديها ، ولا تسمع غير ذلك من المدعو به لذا كان الكافرون شر دواب " [1] .

إذن هذا مثال واضح على التشبيه ، وهو تشبيه معقول بمحسوس .

2 ـ الاستعارة :

الاستعارة عبارة عن تشبيه حُذف أحد طرفيه . فإذا حذفنا المشبه وصرحنا بالمشـبه بـه كانت الاستعارة تصريحية ، وإذا حذفنا المشبه به وكنَّينا عنه بصفة من صفاته ، أو شئ مـن لوازمه كانت الاستعارة مكنية .

وقد قال الإمام الجرجاني في هذا المقام : " فالاستعارة : أن تريد تشبيه الشئ بالشئ ، فتـدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجئ إلى اسم المشبه به ، فتعيره المشبه وتجريه عليه " [2] .

وتعريفه هذا للاستعارة مقصور على التصريحية دون المكنية . وهذا مثال أسوقه من تفسـير الشعراوي على الاستعارة .

قال ـ رحمه الله ـ عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّـورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْـمَعُوا قَـالُوا سَـمِعْنَا وَعَصَيْنَـا وَأُشْـرِبُوا فِـي قُلُوبِـهِمُ الْعِجْـلَ بِكُفْرِهِمْ ...(93) ﴾ (سورة البقرة) : " قوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العجل » . الحـق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم ، فالحب أمر معنوي وليس أمراً مادياً لأنـه غـير محسوس ، وكان التعبير يقتضي أن يقال : وأشربوا حب العجل ، ولكن الذي يتكلم هـو الله ، يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أشربوا العجل ذاته أي دخل العجـل إلـى قلوبهم . لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الحيز الضيق وهـو القلـب ، الله سـبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الشيوع في كل شئ بكلمة أشربوا ، لأنها وصف لشـرب المـاء ، والماء يتغلغل في كل الجسم ، والصورة تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بنـي إسـرائيل حتى كأن العجل دخل في قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم مع أن القلـب لا تدخلـه الماديات " [3] .

فهذا مثال واضح للاستعارة المكنية ، شبه فيه الحق سبحانه العجل الذي يعبده بنو إسرائيـل

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص710 ـ 711 .

(2) دلائل الإعجاز : ص45 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص468 .

بالماء ، وحذف المشبه به ، وهو الماء ، وأتى بشئ من لوازمه وهو الشرب .

3 ــ الكناية :

الكناية : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ [1] .

لقد أبرز الشعراوي الأسرار البلاغية الكامنة خلف الكناية ، وأعطى المعاني التي أفادتها الآيات المتضمنة للكناية . قال تعالى في وصف أهل النار : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) ﴾ (سورة هود) ، يقول الإمام الشعراوي : " فالذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، ولنا أن نتخيل صورة التنفس داخل النار وسط جوها المكفهر باللهب إن الإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ؛ فكيف يأخذه من النار ؟ إن في ذلك عذاباً عظيماً . وأهل النار من الكفار خالدون فيها ما دامت السموات والأرض " [2] .

إذن الشهيق والزفير في الآية الكريمة كناية عن شدة العذاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (53) ﴾ (سورة النساء) يقول ــ رحمه الله ــ : " وما هي حكاية قوله : « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً » ؟ إنه سبحانه يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أي أنهم في واقع الأمر ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم أيضاً ملك الله ؛ فالملك له وحد جل شأنه ، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما في أيديهم " [3]

فقوله « لا يؤتون الناس نقيراً » كناية عن فرط بخلهم وشدة شحِّهم .

4 ــ الأمثال :

اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال ، فكانت وسيلة ناجعة في الإقناع وإلزام الحجة . ذلك أن الأمثال غرضها تقريب الأمور المعنوية التي لا تقع تحت الحس إلى الذهن ، والإنسان بطبعه يجنح إلى الحسيات ، ويقتنع بها أكثر من المعنويات ؛ لذلك ذكر الله الأمثال ليقرب بها المعاني إلى أفهام العباد .

وقد أشار الشعراوي إلى مثل هذا وساق كلاماً جميلاً على ذلك مسترشداً بضرب الأمثلة من القرآن ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ...(117) ﴾ (سورة آل عمران) فيقول : " والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة ــ للإمام الخطيب القزويني (ت739) : ص456 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص680 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4ص2317 .

أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب ، يقول سبحانه : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (29) ﴾ (سورة الزمر) إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال عبد مملوك من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله " قال : " وكذلك يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله في طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة " [1] . ثم راح يضرب أمثلة أخرى من أمثال القرآن ، ويبين المعنى الذي أفادته تلك الأمثال .

وهكذا يتبين لنا بجلاء ووضوح منهج الشعراوي ـــ رحمه الله ـــ في الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، والله المستعان .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1700 وانظر ما بعدها .

المبحث الثاني : التفسير اللغوي عند الشعراوي :

لقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، فكان لزاماً على مفسر كتاب الله أن يكون عالماً باللغة العربية وقواعدها ، وإلا فسوف يتعذر عليه تفسير كثير من الآيات نظراً لعدم معرفته بأوضاع اللغة ، أو أن يقع في متاهات تبعده عن المعنى المراد من الآيات ، فيكون قد حمَّلها ما لم تحتمل ، وتكلف في بيان معناها . ولنا أن نقف مع الشعراوي لنبين منهجه في اللغة .

المطلب الأول : بيان معاني المفردات اللغوية واشتقاقها :

اعتمد الشعراوي اعتماداً كبيراً في تفسير القرآن على بيان معاني المفردات اللغوية ، تحليلها وبيان اشتقاقها وتصريفها ، كما أننا نجده أحياناً يرد الكلمة إلى أصل وضعها في اللغة وكان ــ رحمه الله ــ أحياناً يبتدئ تفسير الآية بهذه الطريقة . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ...(141) ﴾ (سورة الأنعام) فقد قال في تفسيرها : " وكلمة « جنات » تؤدي ما تعرفه من المكان المحدود الذي يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجن لأنهم مستورون عن رؤية العين . وكذلك « المِجنَّة » لأنه الذي يستر عن الإنسان طعنات الخصم والجَنة هي المكان الممتلئ بالزرع والثمار ، وتعلو الأشجار فيه ، وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها ، وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة " [1] .

فهذا المثال بين فيه أصل استعمال مادة « جن » وهو الستر والخفاء . والأمثلة على هذا أكثر من أن تُذكر .

الصرف :

الصرف : هو تغيير في بُنْيَة الكلمة العربية ، لغرض معنوي أو لفظي .

ومجال علم الصرف البحث في بُنية الكلمة اسماً كانت أو فعلاً ، بشرط أن يكون الاسم مُعرباً ، أي ليس مبنياً ، وأن يكون الفعل متصرفاً ، أي ليس جامداً [2] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص3965 . وانظر : ج4 ص1997 ــ 1998 ، ج9 ص5788 .

(2) انظر : القواعد الموضحة في النحو والصرف : ص96 .

ويعتبر علم الصرف من أهم العلوم التي تخدم القرآن الكريم ؛ ذلك أن هناك من الكلمات في آياتها يتوقف بيان معناها على هذا العلم . والقرآن يستعمل في بعض الأحيان ألفاظاً على أنها صيغة مبالغة ، وأحياناً يستعملها كاسم فاعل أو اسم مفعول أو نحوها من المشتقات خدمة للسياق ، واقتضاءً للمقام . ونحن إذا ما نظرنا إلى تفسير الشعراوي وجدناه ــ رحمه الله ــ وقافاً عند هذا العلم خلال تفسيره للآيات الكريمة ، يبرز المعاني الكامنة خلف استعمال هذه اللفظة بهذه الصيغة أو تلك . ويبين بلاغة القرآن في ذلك ، على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) ﴾ (سورة البقرة) . فقد عرض لصيغة المبالغة « تواب » وأبرز معناها ، فقال : " وقوله سبحانه وتعالى : « إنه هو التواب الرحيم » ، كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد ؛ لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان تواباً ، والمبالغة في الصفة تأتي من ناحيتين ؛ أولاً : أن الأمر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص ، أو من شخص واحد . ثانياً : أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من أشخاص كثيرين " [1] .

الكلام عن المبالغة ، أقول : قد قيل : إن صفات الله التي هي صيغة المبالغة كلها مجازاً ، إذ هي موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها ؛ لأن المبالغة هي أن نثبت للشئ أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال ، لا يمكن المبالغة فيها . والمبالغة أيضاً تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك .

وأجاب الزركشي بقوله : " والتحقيق أن صيغ المبالغة على قسمين :

أحدهما : ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل .

ثانيها : بحسب تعدد المفعولات . ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة ، إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين ، وعلى هذا التقسيم يجب تنزيل جميع أسماء الله تعالى التي وردت على صيغة المبالغة كالرحمن والغفور ... " [2] .

وتقسيم الزركشي هذا حتى يميز بين المبالغة في الأسماء والمبالغة في الصفات ؛ لأنه هناك من قال بأن المبالغة في أسماء الله تعالى ممتنعة .

وفي موضع آخر عند تفسير قول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) ﴾ (سورة آل عمران) قال : " و « استكانوا » ماذا تعني ؟ إنها من « سكن » والسكون تقابله

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص275 .

(2) البرهان : ج2 ص520 ــ 521 . وانظر ما بعدها .

الحركة .... وساعة تسمع الألف والسين والتاء ، وتأتي بعدها كلمة ، نعلم أن « الألف والسين والتاء » للطلب .... كأن نقول : « استعلم » أي طلب أن يعلم .... و « استكان » يعني طلب له كوْناً أي وجوداً ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، وهذا هو معنى « استكانوا » . وما دامت من الكون يكون وزنها ــ مثلما يقول الصرفيون ــ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ، إذا كانت من سكن ، وهي بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعني أنهم طلبوا مجرد الوجود ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأوْلى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه " [1] .

وهكذا بين الشعراوي معنى الاستكانة ، وما دلت عليه من معاني ، ورجح ما رآه صحيحاً في ذلك .

المطلب الثاني : النحو والإعراب :

يعتبر النحو قاعدة أساسية في استخراج المعاني ، واستنباط الأحكام ، ولا غنىً عنه لمفسر كتاب الله تعالى . حتى إنه جُعل ضابطاً من ضوابط قبول القراءة الصحيحة . قال السيوطي : " ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى ؛ لأن الإعراب يميِّز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلمين " [2] .

أما منهج الشعراوي في النحو فأرى أن أجمله في النقاط التالية :

أولاً : القواعد النحوية :

كان الشعراوي يعرض لبعض القواعد النحوية في سياق التفسير . فقد كان يقف عند بعض الآيات ، ويعقد عندها مباحث نحوية ، يتكلم فيها عن بعض القواعد المتوقفة على الآيات . كما هو الحال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1806 ــ 1807 .

(2) الإتقان : ج1 ص528 .

وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (1) وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... (12) ﴾ (سورة المائدة) فقد وقف ــ رحمه الله ــ عند القسم والشرط في الآية « لئن أقمتم الصلاة ... » فقال : " و « لئن » تضم شرطاً وقسماً ؛ كأن الحق يقول : وعزتي لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهي « إن » الشرطية . والقسم ــ كما نعلم ــ يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً .... فهل يأتي جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المتقدم منهما ، هل هو القسم أم الشرط ؟ ؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ، فيأتي جوابه ، ويغني عن جواب الثاني ، والمتقدم هنا هو القسم .... هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما في حكمه ، فإن جاء والخبر أي المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أي فالراجح أن نأتي بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد ، وابن مالك في الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لَدى اجتماعِ شرطٍ وقسم ... جوابَ ما أخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزِمْ
وإن تَوَالَيَا وقَبْلُ ذُو خَبَر ... فالشرط رَجِّحْ مُطْلَقاً بلا حَذَرْ (2)

والقسم قد تقدم في هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » " (3) .

---

(1) عزرتموهم : العين والزاي والراء كلمتان : إحداهما التعظيم والنصر . والأخرى جنس من الضرب . والمعنى : عظمتموهم على المعنى الأول . ورددتم عنهم أعداءهم ومنعتموهم على المعنى الثاني .

معجم مقاييس اللغة : ج4ص311 ، وفتح القدير : ج2ص28 .

(2) انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ــ لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني (ت769هــ) ج3 ص43 ــ 44 .

(3) تفسير الشعراوي : ج5ص2998 ــ 2999 . وانظر : ج3ص1863 ــ 1864 فقد عقد بحثاً حول « لما » .

قد ذُكر في توجيه الآية أقوال : الأول : أن الجواب « لأكفرن عنكم سيئاتكم » دال على جواب الشرط ، وسادّ مسدّه معنىً وليس هو الجواب . الثاني : أنه جواب قسم . الثالث : أنه جوابٌ لما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ من القسم . الرابع : أنه جواب شرط لاجتماع الشرط والقسم ، وتقدم الخبر عليهما . والراجح هو الرأي الأخير . انظر : روح المعاني : ج4جــ6ص130 .

فهذه قاعدة نحوية حول الشرط والقسم إذا اجتمعا . بين فيها الشعراوي أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم منهما ، إلا إذا تقدمهما ذو خبر ؛ كالمبتدأ ونحوه ، ففي هذه الحالة يكون الجواب للشرط لا للقسم .

ثانيا : بيان المعنى :

لقد كان للنحو دور فعال وملحوظ في بيان معاني القرآن الكريم ، علما بأن القرآن سلك طريقا مغايرا لما سلكته العرب في بعض آياته من ناحية النحو . فيأتي أحيانا بالرفع في موضع النصب أو الجزم على شاكلة قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (111) ﴾ (سورة آل عمران) . وقد كان القياس أن يقال : « ثم لا ينصروا » على أنها معطوفة على « يولوكم » . فماذا كان رأي الشعراوي في المسألة ؟ لقد بين المعنى ووضحه ، ذلك حيث يقول : " إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و « يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهي جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتي العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتي قوله : « ثم لا ينصرون » . إنها كسرة إعرابية تجعل الذهن العربي يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟ هنا نقف وقفة فلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هي : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا ينصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا ، إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على شرط ، فعلة عدم النصر ليست القتال ، ولكنها الكفر " (1) .

فهذا السلوك الذي سلكه القرآن مخالف لكلام البشر ، علته لفت الانتباه إلى قضية ثبوت عدم نصر الكفار والفساق ، وديمومة هزيمتهم طالما التزم المسلمون بدينهم ، لقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (من الآية 7 سورة محمد) .

ثالثا : توجيه القراءات :

إن أكثر توجيه القراءات يعتمد اعتمادا كبيرا على النحو ، ذلك أن اختلاف كثير من القراءات يرجع إلى اختلاف الحركات في نهاية الألفاظ . وهذا لا بد أن يكون له علة في

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1680 ، وانظر ج1 ص372 .

السياق تجعل استعماله سائغاً . أما إذا اختلفت القراءة الصحيحة مع الأصل الإعرابي لبعض الكلمات فإننا حينئذٍ نأخذ بالقراءة المتواترة ؛ لأنها الأصل .

ومثال ذلك ما وجَّه به قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71) ﴾ (سورة المائدة) .

يقول الشعراوي : " ونعرف أن « أنْ » تنصب الفعل . وقال لي سائل : لقد سمعت قارئ القرآن في المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » ــ بالضم ــ . وقلت لـه : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء في صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائي » وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لابد أن يكون الفعل الذي يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ (من الآية 20 سورة المزمل) وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكي كذا بأن لا بعد علم) [1] . أما « أن » التي من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يرفع الفعل بعدها ، فالذي رجح وجود الفعل وأدركه إدراكا راجحا يرفع ، والذي لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائي وأبي عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أن الرجحان يقرب من اليقين . وما دام قد حدث ذلك تكون « أن » هنا هي « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها المخففة من الثقيلة فأصلها أن " [2] .

ومنه أيضا القراءات في كلمة « خالصة » من قوله تعالى : ﴿ .. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ...(32) ﴾ (سورة الأعراف) فقد قال : " ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها في قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر . والمعنى أنها غير خالصة للمؤمنين في الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضا من شوائب الأغيار ، ولكنها في الآخرة خالصة للمؤمنين ، فلا يشاركهم الكفار ولا تأتي لهم فيها الأغيار " [3] .

وهكذا يستعمل الشعراوي النحو في توجيه القراءات .

---

(1) انظر شرح ابن عقيل : ج2 جـ4 ص3 . ونصه في الألفية :

وبلن انصبه وكي ، كذا بأن لا بعد علم ، والتي من بعد ظن .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3307 ، وانظر ج6 ص3461 .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص4115 ــ 4116 .

رابعاً : بيان الأحكام الفقهية :

لقد كان للنحو دور واضح في بيان بعض الأحكام الفقهية التي تُستنبط من سياق الآيات الكريمة . ولعل إغفال جانب النحو في بعض المواضع يوقع المفسر في أخطاء جمَّة ، وفتاوى خاطئة . فمثلاً قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ (من الآية 1 سورة المائدة) تتضمن أحكاماً فقهية ، والناظر فيها يجد أنها تحتوي على حرفي استثناء « إلا و غير » ، وإذا ما سألنا عن المستثنى بعد غير هل هو استثناء من الأصل أي : « بهيمة الأنعام » أم هو مستثنى من « ما يتلى عليكم » ؟ هنا يأتي دور النحو ؛ لأن كلاً من الموضعين يعطي حكماً شرعياً . أما الحكم المطلوب فهو يتوقف على معرفة المستثنيات في الآية . ولو أن الشعراوي تكلم عن هذه القضية في تفسيره لهذه الآية لكان جميلاً .

ونحن إذا ما نظرنا إلى تفسير الشعراوي . فسوف نجده يطرق هذا الباب ، ويستنبط الحكم بناءً عليه . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (من الآية 6 سورة المائدة) فقد وقف عند الباء في قوله : « وامسحوا برءوسكم » ليبين الحكم الشرعي الذي ترتب عليها فيقول :

" ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلوب هنا يختلف فالمطلوب هو المسح .... لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن في الآية أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم » ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف « الباء » التي تسبق « رءوسكم » . إن « الباء » في اللغة تأتي بمعان كثيرة . قال ابن مالك في الألفية :

بالباء استَعِن وعَدِّ عوض الصق ومثل «مع» و«من» و«عن» بها انطق[1]

ومقصود بها أن تعطي الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتي لمعان كثيرة ، للاستعانة ، وتعدية الفعل اللازم ، والتعويض ، والالتصاق ، وتأتي بمعنى « مع » ، وبمعنى « من » ، وبمعنى « عن » ، وتأتي أيضاً للظرفية ، وتكون للسببية ، إلى غير ذلك من المصاحبة .

إن الذي يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفي وتسعفه الباء لغة والمسح يقتضي الالتصاق ، والآلة الماسحة هي اليد . وهناك من يقول : نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهي اليد ، أي مسح مقدار ربع الرأس . إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام

---

(1) انظر شرح ابن عقيل : ج3 ص22 .

حكم مسح الرأس . ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد . فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محددة لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . وما دام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء في اللغة تحتمل معاني كثيرة ؛ لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفي ؛ لأن أي غاية محتملة بالباء أمر صحيح " (1) .

فهذا المثال واضح فيه جانب النحو من خلال عرضه ــ رحمه الله ــ للباء في الآية الكريمة وكيف أنها أفادت معاني متفاوتة في تطبيق حكم المسح .

خامساً : دفع الشبهات والرد على خصوم الدعوة :

لقد كان أعداء الدعوة وخصوم الإسلام يتربصون بهذا القرآن ، ويتفحصون سوره وآياته وجمله ، التماساً لأي خطأ أو تناقض فيه يظفرون به بغية الوصول إلى هدفهم المنشود ، وغايتهم المقصودة ، وأنَّى لهم ذلك . وكم من شبهة أثاروها حول القرآن ، لكن شبهاتهم مردودة ؛ لأن بطلانها واضح أجلَى من ضوء الشمس في وسط النهار . وقد مس القرآن من جهة النحو شئٌ من هذه الشبهات الداحضة ، فكان الشعراوي قد وقف لهذه الشبهات بالمرصاد ، يفندها ويدحضها بالحجة والبرهان . بل كان في بعض الأحيان يزيد من إغلاق باب الشبهة ؛ لئلا يُفتَح . وهذا مثال أذكره للتدليل . وسوف يأتي الكلام عن المستشرقين في موضعه ــ إنشاء الله ــ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) ﴾ (سورة البقرة) . يقول ــ رحمه الله ــ : " و « إن كان ذو عسرة » حكم بأن للدائن رأس مال ، ولكن هب أن المدين ذو عسرة ، هنا قضية يثيرها بعض المستشرقين الذين يدَّعون أنهم درسوا العربية . لقد درسوها صناعة ، ولكنها عزَّت عليهم ملَكة ... يقولون : إن القرآن يفوته بعض التقعيدات التي تقعِّدها لغته . فمثلاً جاءوا بهذه الآية : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) ﴾ قال بعض المستشرقين : نريد أن نبحث مع علماء القرآن عن خبر « كان » في قوله « وإن كان ذو عسرة » ، صحيح لا نجد خبر « كان » ولكن الملكة العربية ليست عنده ؛ لأنه إذا كان قد درس العربية كان يجب أن يعرف أن « كان » تحتاج إلى اسم وإلى خبر ، اسم مرفوع وخبر منصوب ، وهذه هي التي يُقال عنها الناقصة ، كان يجب أن يفهم أيضاً معها أنها قد تأتي تامة ، أي ليس لها خبر ، وتكتفي بالمرفوع ، وهذه تحتاج إلى شرح بسيط .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2952 ــ 2953 بتصرف . وانظر ج2 ص984 .

إن كل فعل من الأفعال يدل على حدث و زمن ، وكلمة « كان » إن سمعتها دلت على وجود وحدث مطلق لم تبين فيه الحالة التي عليها اسمها ، كان مجتهداً ؟ كان كسولاً ؟ مثلاً فهي تدل على وجود شيء مطلق أي ليس له حالة ، ومعنى ذلك أن « كان » دلت على الزمن الوجودي المطلق أي على المعنى المجرد و الناقص ، و الشيء المطلق لا يظهر المراد منه إلا إذا قُيد ، فإن أردت أن تدل على وجود مقيد ليتضح المعنى ، ويظهر ، فلا بد أن تأتيها بخبر ، كأن تقول : كان زيد مجتهداً ، هنا وجد شيء خاص وهو اجتهاد زيد . إذن فـ « كان » هنا ناقصة تريد الخبر يكملها و ليعطيها الوجود الخاص ، فإذا لم يكن الأمر كذلك وأردنا الوجود فقط تكون « كان » تامة أي تكتفي بمرفوعها فقط مثل أن تقول : عاد الغائب فكان الفرح أي وجد ، أو أشرقت الشمس فكان النور ... فقوله : « وإن كان ذو عسرة » أي فإن وُجد ذو عسرة ، أي إن وُجد إنسان ليس عنده قدرة على السداد ، « فنظرة » من الدائن « إلى ميسرة » أي إلى تيسير " [1] .

فقد رد الشعراوي على المستشرقين ضعيفي الملكة في اللغة ، ودحض حجتهم بالبرهان الساطع ، والحجة الدامغة .

وبهذا العرض المفصل يظهر لنا بجلاء منهج إمام الدعاة في تدخل النحو والإعراب في تفسير القرآن الكريم ، وبيان معانيه ، وتوجيه قراءاته ، وبيان بعض الأحكام الفقهية المترتبة عليه ، ودفع شبهات الخصوم .

المطلب الثالث : عنايته بالشعر :

يعد الشعر فناً من فنون العرب ، ومنحى من مناحيهم في الكلام . والقرآن حينما نزل ، نزل بلسانهم ، لكنه ليس شعراً ولا نثراً ولا شيئاً مما عرفوه . ولقد كان يُرجع في تفسير القرآن الكريم إلى الشعر ؛ لأن القرآن جاء بألفاظ من جنس الألفاظ التي كانت تستعملها العرب في كلامها وأشعارها ونثرها ، فكان المفسرون يرجعون إلى الشعر ليبينوا معاني الألفاظ القرآنية والغريبة .

ولننظر في تفسير الشعراوي لنرى منهجه في الشعر .

لقد استرشد الشعراوي بالشعر في بيان الألفاظ القرآنية ، وأحياناً كان يسترشد به لتدعيم اجتهاده ، أو على القواعد النحوية وبيانها ، وأحياناً كان يستعمل الشعر فيما لا علاقة له

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1204 ــ 1205 بتصرف ، وانظر ج3 ص1779 .

بالآية إلا من بعيد ، علماً بأن الشعراوي أحياناً يذكر اسم الشاعر وأحياناً لا يذكره ، وأحياناً يكون من شعره ، على ما سيظهر لنا من خلال الأمثلة .

أولاً : بيان معاني الألفاظ القرآنية :

فقد كان يسترشد أحياناً بالشعر في بيان معاني الألفاظ الغريبة في القرآن ، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى عن قوم فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) ﴾ (سورة هود) يقول ما نصه : " وحين تكلم كتاب الله الكريم عن « الورد » ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين ، نجد أن الورد يأتي بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب منه ، قلت : « وردَ يَرِد وُروداً » ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : « ورد يرد ورداً » ، بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ ... وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98)﴾ أي : أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ، ويشربون منه . إذن : فكلمة « الورد » تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا (86) ﴾ (سورة مريم) .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته :

فلما وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقاً جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ [1]

والشاعر هنا يصف الركب ساعة يرى الماء الزرقاء الخالية من أي شئ يعكرها أو يكدرها ، فوضع القوم عصا الترحال " [2] .

فقد بين الشعراوي في هذا المثال معنى الورد المورود ، مستشهدا ببيت من معلقة الشاعر الجاهلي المشهور زهير بن أبي سلمى .

ثانيا : بيان قاعدة نحوية :

أيضا يورد الشعر للاستدلال على القواعد النحوية ، فقد أورد في مواضع متعددة شعر ابن مالك صاحب الألفية ، وذلك في عرض القضايا النحوية . وقد سبق أن ذكرت شيئا من ذلك في المطلب السابق . ومما استدل به على بيان قاعدة نحوية ما ورد عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ... (280) ﴾ (سورة البقرة) . فقد استدل على كون

---

(1) جَمَامُه : الجمام ما دل على كثرة الشئ واجتماعه ، وهو بمعنى الملء . يقال : إناء جمان ، إذا بلغ جمامه أي امتلأ . انظر معجم مقاييس اللغة مادة « جم » .

والمُتَخَيِّم : الخاء والياء والميم أصل واحد يدل على الإقامة والثبات ، ومنه الخيمة ، يقال : خيم بالمكان : أقام به ، ولذلك تسمى الخيمة . انظر معجم مقاييس اللغة : مادة « خيم » .

(2) تفسير الشعراوي : ج11 ص6661 ــ 6662 . وانظر ج3 ص1696 ، 1697 ــ 1698 .

« كان » في الآية تامة بقول الشاعر :

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض وأضحت وليس الليل فيها بأسود (1) .

ثالثاً : تدعيم اجتهاده :

هذا وقد كان الشعراوي يورد البيت أو الأبيات من الشعر تدعيماً لاجتهاده وما ذهب إليه من المعاني . فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) ﴾ (سورة هود) قال : " فحين تأتي ريح صرصر أو صيحة (2) طاغية ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يعم المكذبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدقون به وبرسالته فكيف يتأتى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟ إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير ..... وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه ، فهو يأخذ بشئ واحد ؛ ولكنه ينجي المؤمن ؛ ويعذب الكافر ؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه . يقول المتنبي :

تُسَوِّد الشمس منَّا بيض أوجهنا ما تُسَوِّد بيض العين واللِّمَم

وكان حالُهما في الحُكْم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حَكَم

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السُّمرة ، ولا تسوِّد بياض الشعر ، لكنك إن تركت شيئاً أسوداً في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف (3) .

فقد استدل الشعراوي بهذه الأبيات من شعر المتنبي ليؤكد ما ذهب إليه من معنى الآية ، وهو أن العذاب حين ينزل يعم الجميع ، لكنه قد ينجو منه فئة من الناس ، كما حدث مع هود عليه السلام والمؤمنين معه .

ومن ذلك أيضاً تفسيره لـ « المَن » من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى ...(262) ﴾ (سورة البقرة) . حيث استعان في تفسيره للمَن ببيت من الشعر ، قال : " والمنّ هو أن يعتد على مَن أحسن إليه بإحسانه ، ويريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون في الريف (تعاير بها) ــ وهو مثل عامي ــ ، والشاعر يقول :

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص1205 .

(2) صيحة : مفرد صياح ، وهو الصوت العالي . معجم مقاييس اللغة : ج3ص324 .

(3) تفسير الشعراوي : ج11ص6516 ــ 6517 باختصار .

وإنِ امــرأ أســدى إلــيَّ صنيعــة وذكَّرَنيهـــا مـــرَّةً للئيـــم

ولذلك فمن الأدب الإيماني في الإنسان أن ينسى أنه أهدى ، وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلِع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه " (1) .

فالشعراوي في هذا المثال بين معنى إتباع النفقة بالمن ، وينفر من ذلك مستشهداً ببيــت مــن الشعر .

رابعاً : خدمة موضوع الآية :

هذا ، وقد يكون الشعر الذي يسوقه الشعراوي في معرض التفسير يخدم الموضوع الــذي تتحدث عنه الآية ؛ بمعنى أن تجمعهما وحدة الموضوع ، وهذا في الحقيقة لا يسمى تفســيراً للآية ، وإنما خدمة لموضوع الآية ، واستكمالاً له . ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ...(145) ﴾ (سورة آل عمران) فقد جــاء في سياق التفسير ما نصه : " ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجــراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين يقــول في ذلك :

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرئ رهن بِطَيٍّ كتابه

أسد لعمرك من يموت بظفره عند اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب نافــع أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى ، حتى عندما يلتقي الإنسان بأسد ، فيستوي الموت بالنــاب ، كالموت بظفر الأسد ، فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضـــه قــرص دواء أو جرعة ماء ، أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكونا ذنباً أو أداة للموت " (2) .

فهذه الأبيات تخدم الموضوع ــ موضوع الموت ــ الذي صُدِّرت به الآية .

خامساً : فيما يتعلق بالآية من بعيد :

لقد كان الشعراوي يستشهد بالشعر فيما لا صلة له بالآية الكريمة إلا عن بُعد ، وربمــا لا يكون له علاقة بالآية أصلاً لا عن بُعد ولا عن قُرب ، كما عند تفســيره للآيــة الكريمــة : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّـــانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ...(44) ﴾ (سورة المائدة) فقد جاء في سياق تفسيرها ما نصه : " « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتي الحق بإسلام الأنبياء ؟ جــاء

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1148 . وانظر ج5ص2978 ، وج9 ص5460 .

(2) تفسير الشعراوي : ج3 ص1802 . وانظر ج4 ص2224 ــ 2225 .

سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفاً للإسلام ؛ لأنه جوهر منهج كل نبي .

إننا نجد الشعراء يتفننون في هذا المعنى :

ما إن مدحتُ محمداً بمقالتي   لكن مدحتُ مقالتي بمحمد

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلتُ لهم   كلا لعمري ولكن منه شيبان

فالقبيلة بالنسبة لأبي الصقر هي التي تنتسب إليه ، وليس هو الذي ينتسب إليها . ويردف قائلاً :

وكم أبٍ قد علا بابن ذُراً شرفٍ   كما علا برسول الله عدنان .

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا إنما يريد الحق أن يشرف الإسلام بأن النبيين أسلموا قيادهم وزمامهم إلى الله ؛ لأنهم وجدوه الخير لهم " [1] .

فأنت ترى أن هذه الأبيات من الشعر في المدح ، سواء لنبينا محمد ﷺ أو لأبي الصقر . والعلاقة بينهما وبين الآية بعيدة .

ومثلها ما ورد في سياق تفسيره للآية الكريمة : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) ﴾ (سورة الأنعام) . فقد تحدث عن مطابقة الاسم للمسمى ، فقال : " وقد كنا في الثلاثينات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة : « إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عماد الدين ؛ لأن كل الموبقات في هذا الشارع » وتعجبتُ أن يكون اسم الشارع « عماد الدين » ويكون مكاناً للموبقات ، فقلتُ في ذلك :

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة   أن يَظْلِم اسماً مُسَمًّى ضده جُبِلا

فشارع كعماد الدين تسمية   لكنه لعناد الدين قد جُعِلا "[2] .

فالعلاقة بين الشعر الذي قاله الشعراوي والآية الكريمة بعيدة كما ترى .

وهكذا يظهر لنا من خلال هذه الأمور المعروضة منهجه ــ رحمه الله ــ في عرض اللغة من بيان معاني الألفاظ القرآنية واشتقاقها والنحو والشعر .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3156 ــ 3157 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3597 ــ 3598 .

المبحث الثالث : لغة الخطاب عند الشعراوي :

لقد آتى الله إمامنا الفاضل ملكة في الأسلوب ، وقوة في الإقناع ، فشد إليه القلوب ، وأصغى إليه الآذان . وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء . لكن هذه الملكة ، وهذا الأسلوب يرجعان إلى عدة عوامل كان لها أثرها الواضح والملموس في الأسلوب الإلقائي لدى الشيخ ، هذه العوامل مثل تقريب المعاني إلى الأفهام عن طريق التمثيل ، واستعانته بالحكايات والروايات التي غرضها شد انتباه السامعين ، وسلوكه طريق السؤال والجواب الذي غرضه تفتيح ذهن السامع ، وإشغال عقله بالموضوع المطروح ، إلى غير ذلك من العوامل . على ما سنبينه إن شاء الله في المطالب التالية .

المطلب الأول : سلوكه طريق التمثيل :

كان هذا دأبه ــ رحمه الله ــ في تقريب المعاني إلى المحسوسات ؛ لأنه ــ كما يُقال ــ : بالمثال يتضح المقال ، والعقل ربما لا يتعقل الأمور المعنوية إلا إذا قُرِّبت له على هيئة أمور محسوسة كي يستوعبها ، ولذلك نجده ــ رحمه الله ــ مهتماً بهذا الباب اهتماماً بالغاً . فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87) ﴾ (سورة النساء) تكلم الشيخ عن حرية الاختيار التي منحها الله لهذا العالم ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وزودهم بالمنهج ، وجعل لهم الاختيار . ثم قال : " ونضرب هذا المثل لا للتشبيه ، ولكن للتقريب ــ ولله المثل الأعلى ــ ، الوالد يعطي ابنه جنيهاً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئاً مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك . ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب ، هل هذا الشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ؛ لأن الأب هو من أعطى الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه . فما بالنا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعًا على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قدر أحد أن يفعل معصية ، فالعاصي عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار " (1) .

هذا المثال واضح في تبيين حرية الاختيار الممنوحة للإنسان ، وأن الله رتب العقاب على

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2507 .

كون الإنسان مخلوقاً مختاراً لفعله .

ومثال آخر : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ (34) ﴾ (سورة يونس) . فالآية الكريمة تضمنت سؤالاً من الله تعالى للمشركين « هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده » ، ثم أجابهم الحق سبحانه وتعالى : « قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده » ؛ لأنهم حينما سئلوا ذلك السؤال بهرهم الحق ، وغلب ألسنتهم ، فلم يستطيعوا قول أي شئ . وضرب الشعراوي المثل على ذلك بوكيل النيابة ، حينما يضيق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته ، وليس له إلا إجابة واحدة ، وهي الاعتراف بالحقيقة (1) .

فهذه أمثلة تقريبية يستعملها الشعراوي لتقريب المعنى إلى الفهم .

وهكذا نعرف أن الشعراوي كان يوضح معاني الألفاظ ومدلولاتها عن طريق التمثيل ، مسايرة للعقل ، وبلوغه إلى مرتبة الإدراك .

المطلب الثاني : طرح التساؤلات :

وهذا أيضاً من صميم لغته في المخاطبة ، لما للتساؤلات من وقع في النفس وتحريك للعقل ، وشد للانتباه ، وجعْل المستمع أو القارئ متشوقاً لمعرفة الإجابة . فيكون في اتصال مباشر مع الكاتب أو المتكلم . وهذا الطريق سلكه القرآن الكريم ، حيث قال ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ... ﴾ ، ﴿ أَفَلَا يَسِيرُوا .. ﴾ إلى غير ذلك من الأسئلة ؛ لذلك نجده ـــ رحمه الله ـــ كثيراً ما يطرح التساؤلات ويجيب عليها .

فعلى سبيل المثال ، عندما فسر قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) ﴾ (سورة التوبة) قال ما نصه : " والحق سبحانه وتعالى يقول : « ومنهم من يلمزك في الصدقات » واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب ، وهو هنا مظروف في شئ هو الصدقات ، وكان بعض المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغني ويشقى في الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب ، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حث الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التي يتم بها صرف الصدقة للفقراء ، وأن بعضهم يُعطى كثيراً وبعضهم يُعطى قليلاً ؟ . لقد كانوا يعيبون في كل

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج10 ص5918 . وانظر ج9 ص5621 .

هذه الأمور أو بعضها . إذن فاللمز إما أن يكون في التشريع ، وإما أن يكون في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف " [1] .

فهذه التساؤلات التي طرحها كان من خلالها تقرير المعنى .

وثمة مثال آخر : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) ﴾ (سورة يوسف) قال في تفسيره للإحسان : " وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف ﷺ من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما . فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ، والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟ وكأنه قال لهما : ماذا رأيتما من إحساني ؟ هل رأيتم حسن معاملتي ؟ أم أن كلا منكما قد رأى دقة اختياري للحسن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي ـ بفضل الله ـ ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) ﴾ (سورة يوسف) " [2] .

ولك أن تنظر في تفسيره ، فربما لا تخلو صفحة من صفحاته من إيراد مثل هذه التساؤلات .

المطلب الثالث : استعانته بالقصص والحكايات :

كان ـ رحمه الله ـ يمزج تفسيره أحيانا بالقصص والحكايات التي غرضها تشويق القارئ أو السامع ، وشد انتباهه للاستماع أو القراءة . لذلك نجده يورد مثل هذه القصص والروايات بين الفينة والأخرى . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ..(216) ﴾ (سورة البقرة) يقول ما نصه : " وهناك قصة من التراث الإنساني تحكي قضية رجل من الصين ، وكان الرجل يملك مكانا متسعا وفيه خيل كثيرة ، وكان من ضمن الخيل حصان يحبه . وحدث أن هام ذلك الحصان في المراعي ولم يعد ، فحزن عليه ، فجاءه الناس ليعزوه في فقد

(1) تفسير الشعراوي : ج9 ص5211 ـ 5212 .

(2) تفسير الشعراوي : ج11 ص6950 ـ 6951 .

الحصان ، فابتسم وقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزوني فيه ؟ وبعد مدة فوجئ الرجل بالجواد ومعه قطيع من الجياد يجره خلفه ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهنئوه ، فقال لهم : وما أدراكم أن ذلك خير ؟ فسكت الناس عن التهنئة . وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الجواد ، فانطلق به ، وسقط الولد من فوق الحصان ، فانكسرت ساقه ، فجاءه الناس مرة أخرى ليواسوا الرجل ، فقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر ؟ وبعد ذلك قامت حرب ، فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو ، وتركوا هذا الابن ؛ لأن ساقه مكسورة ، فجاءوا يهنئونه ، فقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك خير ؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، وإن كانت خيراً أو شراً ، لكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة في ضوء قول الحق : ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (من الآية 23 سورة الحديد) " (1) .

فهذه حكاية أو رواية بغض النظر عن كونها حقيقية أو غير حقيقية ، مفادها : أن حقيقة الخير والشر قد تكون على خلاف ما يراه الإنسان .

ومن ذلك أيضاً قصة الثيران الثلاثة ، ساقها ليبين أن المجتمع لا بد أن يقف كله أمام أصحاب الشرور وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...(32) ﴾ (سورة المائدة) قال : " ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود ، الثور الأحمر ، والثور الأبيض . فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود ، فسمح له بأكل الثور الأحمر . وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد : أُكِلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى « أنا ماليّته » ــ يعنى قوله : أنا مالي ــ جعلته ينال مصرعه ، لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه " (2) .

إذن هذه بعض القصص والنوادر والحكايات التي ذكرها الشعراوي في معرض التفسير .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص920 ــ 921 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص3066 . وانظر ج7 ص3911 ، وج5 ص3125 .

المطلب الرابع : رجوعه إلى التاريخ :

كان ــ رحمه الله ــ يرجع أحياناً إلى الأحداث التاريخية ، سواء كانت هذه الأحداث قديمة أو حديثة أو معاصرة . ويجئ بها خدمة لفهم مراد القرآن الكريم وتصديقه ، فعلى سبيل المثال عندما فسر قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُون فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ...(104) ﴾ (سورة النساء) . لقد وجدناه يذكر شيئاً من أحداث الحرب العالمية الثانية بما يخدم الآية الكريمة ، يقول ما نصه : " وقد خلق الله في المؤمن القدرة على أن يبتغي عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة . والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيساً لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلن » الذي عُرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلن » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد إنجلترا للحرب ، وعندما استعدت إنجلترا أعلن « تشمبرلن » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز : انتظروا أياماً سوداء وانتظروا الجوع . لقد قال « تشرشل » ذلك للإنجليز حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون . والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ ... " (1) .

فهذه النبذة التاريخية فيها بيان أن القوم يألمون ، ويتوقعون المصائب والكوارث التي تحل بهم من جراء الحرب ، لكنهم مع هذا لا يستسلمون وإنما يصمدون مع كراهتهم للقتال .

ومن ذلك أيضاً كلامه عن الحضارات القديمة ؛ كحضارة عاد وثمود والفراعنة . فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ﴾ (سورة الأنفال) . يقول ما نصه : " وكل الحضارات القديمة قد زالت في غالبيتها ولا أثر لها ، فهو أثر قليل و بسيط لا يحمل كل سمات الحضارة ، إلا آثار الفراعنة ، حيث تحوي مسلات ضخمة و أعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية ، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شيء حتى الآن . لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها ؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي ، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقّالات ، وكيف ارتبطت الأحجار كلها

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2599 .

مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار ..... هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط ، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التي لا يعرف أحد سرها حتى الآن ، وكذلك إن نظرنا إلى الألوان التي طُليت بها المعابد والرسومات بقيت زاهية كما هي ، رغم كل ذلك الزمن الطويل ، وإلى الحبوب التي حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أي تلف ، بل وصالحة للطعام . هذه الحضارة التي احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن ، لا بد أن تكون حضارة قوية وعالية ، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً ، وتظل آثاراً . أين ذهب صنّاع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيراً ، وملكوا زمام الدنيا في عصرهم ؟ لا بد ــ إذن ــ من وجود قوة أعلى منهم قد دكتهم " [1] .

وهكذا نجد الشعراوي يسترشد بالأحداث التاريخية في بيان معنى الآيات ، بما يؤكد صدق القرآن .

المطلب الخامس : مزج التفسير بالتوجيهات الدعوية وما يُستفاد من الآيات :

تعد التوجيهات الدعوية هدفاً من الأهداف السامية التي يرمي إليها تفسير القرآن الكريم ، ذلك أن القرآن الكريم قبل أن يكون كتاب علوم أو كتاب تشريع أو كتاب عقيدة ، كان كتاب هداية . ذلك أن الهدف من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب هو هداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور . ولذلك نجد الشيخ الشعراوي يمزج تفسيره بالتوجيهات الدعوية ، ويستنبط من الآيات ما دلت عليه ، وأرشدت إليه .

والمثال على ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ... (39) ﴾ (سورة آل عمران) قال : " لقد نادته الملائكة في أروع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا أخذ ما علّمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدي الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شئ وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءاً جديداً ويبدأ بالنية حتى ولو كان متوضئاً . وليقف بين يدي الله ، وليقل : إنه أمر يا رب عز عليَّ في أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلِّم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء . ألم نتلقى عن رسول الله ﷺ هذا السلوك البديع أنه كلما حزبه أمر قام إلى

---

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص4753 ــ 4754 مختصراً . وانظر ج10 ص6166 ، ج7 ص4306 .

الصلاة ؟ ومعنى حزبه أمر ، أي أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب " [1] .

إذن هذا توجيه منه ـ رحمه الله ـ إلى كل من حزبه أمر أن يلجأ إلى الصلاة .

ومن ذلك أيضا ما ورد عند تفسير قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (من الآية 44 سورة المائدة) . لقد وجه الموعظة إلى المرتشين الذين يأكلون الأموال بالباطل ، وبين لهم أن حياة الإنسان مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ، وعلى الإنسان أن يفضل الباقية على الزائلة ، وألا يركن إلى الدنيا .

يقول : " وما دام الثمن الذي يأخذه المرتشون ليغيروا آيات الله وأحكامه سينفعهم في هذه الدنيا ، وأعمارهم في هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنا قليلا بالنسبة لعمر الدنيا ... وإن قارنها الإنسان بالحياة في العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوي منهي ، فإن قايضه بعمر غير منهي هو عمره في الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد في الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو في السلب ، ونعيم الإنسان في الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . إذن فأي صفقة تكون هي الرابحة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أي صفقة هي الرابحة ؟ إذن فصفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتيقن " [2] .

ومن ناحية أخرى كان الشعراوي ـ أحيانا ـ يستخرج من الآية ما ترشد إليه ، وتدل عليه . وهذا دليل على عمق نظره وتفكره في آيات الله . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...(195) ﴾ (سورة آل عمران) . لقد أوضح في تفسير الآية الكريمة أن الله لا يريد منا كلاما أو تفكرا وحسب ، وإنما وضع شرطا واضحا وهو العمل ، فمن يريد استجابة لا بد له من عمل . والمثال على ذلك الذين هاجروا والذين أخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله وقاتلوا وقتلوا ، كل هذه أعمال . ثم قال في نهاية تفسير الآية : " نخرج من كل هذا برؤية واضحة هي أن الفكر وحده لا يكفي ، وإذا قال واحد : إن إيماني حسن فلا تأخذني بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس في حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1445 ـ 1446 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص3162 .

الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسِّخ منهج الله في الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله في الأرض أدمت للوجود جماله " [1] .

وهكذا أرشد ما دلت عليه الآية الكريمة .

ومن هذا أيضاً عند تفسيره لقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (49) ﴾ (سورة يونس) يقول ما نصه : " وقول الحق سبحانه ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسهم الضر ولا النفع " [2] .

وهكذا يستنبط الشعراوي من الآية الكريمة أن مشيئة الله نافذة لا مشيئة العباد ، وأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فيكون عدم ملكه للنفع والضر لغيره من باب أولى .

المطلب السادس : الأمثال الشعبية :

الأمثال الشعبية هي عبارات دائرة على ألسنة الناس ، استُنبطت من خلال تجارب الحياة ، حتى أصبحت كالأصل الذي يُقاس عليه . فقولهم : « باب النجار مخلَّع » ينطبق على كل صاحب صنعة أهملها في حق نفسه .

ولقد وجدتُ الشعراوي يذكر في طيات تفسيره منثورات من هذه الأمثال ؛ لتخدم قضية التفسير . على شاكلة تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) ﴾ (سورة يونس) لقد تحدث الإمام الشعراوي عن معنى البشرى في الآية ، بأنها الرؤيا الصالحة ، ثم تحدث عن الرؤيا من حيث هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ومن حيث الوحي للنبي ﷺ بطريق الرؤيا ، ثم قال : " والرؤيا ليست هي الحلم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل . والمثل العامي يقول : « الجوعان يحلم بسوق العيش » فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان " [3] .

إذن ، ساق المثل هنا في بيان الفرق بين الحلم والرؤيا .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص1967 .

(2) تفسير الشعراوي : ج10 ص5978 .

(3) تفسير الشعراوي : ج10 ص6039 .

ومن ذلك أيضاً ما ورد عند تفسير قوله الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) ﴾ (سورة آل عمران) . لقد تحدث عن قتل النفس ، وأنه ما من نفس تموت إلا بكتاب ، وأنه إذا جاء الكتاب المؤجل مات الإنسان بسبب أو بدون سبب . ويقول : " فقد تجد منتحراً يريد أن يُطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحراً آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق في السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وهب الحياة . قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر وهنا يرد المثل الشعبي « لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده » . إن اللحظة التي تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل "[1]

وهكذا يسوق المثل الشعبي لبيان أن الموت قد يكون بسبب أو بغير سبب .

وبهذا العرض المفصَّل يظهر لنا منهجه ــ رحمه الله ــ في اللغة التي كان يخاطب الناس بها والأسلوب الذي كان يتنقل بينه لإيصال المعنى إلى الأفهام بأيسر الطرق .

خلاصة الفصل :

لقد ظهر لنا بجلاء ووضوح منهج الشعراوي في التفسير بالرأي من خلال العرض السابق ؛ من حيث أصول التفسير بالرأي وما يندرج تحته من مباحث كالمناسبات والمشكل وفواتح السور وخواتمها ، والإعجاز البياني في القرآن . ومن حيث عرضه لقضايا اللغة كالمعاني والاشتقاقات اللغوية والنحو الإعراب والشعر ، ومن حيث اللغة التي كان يخاطب الناس بها ، والوسائل والأساليب التي كان يستعملها لإيصال المعنى إلى القلب بطريقته المميزة من تمثيل وطرح تساؤلات وإيراد القصص والحكايات والأمثال الشعبية ، وغيرها .

والله الموفق المستعان

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1802 .

الفصل الرابع

تفسير الشعراوي لآيات العقيدة

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : منهجه في التوحيد :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : توحيد الألوهية .

المطلب الثاني : توحيد الربوبية .

المطلب الثالث : توحيد الأسماء والصفات .

المبحث الثاني : منهجه في الغيبيات :

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : الملائكة .

المطلب الثاني : الجن .

المطلب الثالث : السحر .

المطلب الرابع : عذاب القبر ونعيمه .

المطلب الخامس : البعث والحساب .

المطلب السادس : الجنة والنار .

المبحث الثالث : منهجه في القضاء والقدر .

المبحث الرابع : منهجه في الرسل .

المبحث الخامس : منهجه في عرض المسائل الكلامية .

مقدمة الفصل :

يعتبر القرآن الكريم الأساس الأول في ترسيخ العقيدة في قلوب المسلمين ، فـــهو وســيلة تربط المخلوق بخالقة ، ومتى ارتبط المخلوق بخالقه قوي واستقبل الأحداث بثبات وعزيمـــة قوية ، ويقين راسخ .

والشعراوي مولع ببيان قضايا العقيدة كما يصورها القــرآن ، يبينـــها بعبارتـــه السلســة اليسيرة ، وكلماته القوية الرصينة ، التي تدخل القلوب بيسر وسهولة ، وتستقر في أعماقها .

وفي هذا الفصل نتناول منهجه ــ رحمه الله ــ في بيان قضايا العقيدة المختلفة ، والتي تتعلــق بالتوحيد والغيبيات والقدر والرسل ، ثم نبين طريقة عرضه ــ رحمه الله ــ للمسائل الكلاميــة التي كان يستعملها الفلاسفة وعلماء الكلام .

المبحث الأول : منهجه في التوحيد :

سوف نتناوله بالبحث من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : توحيد الألوهية :

أولاً : تعريف الألوهية لغة واصطلاحاً :

لغة : أله : أُلوهة وإلاهة وألوهية : عبد عبادة . وألَّهه : اتخذه إلهاً ، أو نزّله منزلة إلــه ، أو عبّده أي جعله عبداً . والله : اسم الذات الواجب الوجوب . والإلهيات : علم يبحــث عــن الله وما يتعلق به تعالى [1] .

اصطلاحاً : هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق ، ولا إلــه غــيره ، وإفــراده بالعبادة [2] . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي (56) ﴾ (سورة الذاريات) .

ويعد توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد ، إذ هو المحور الذي يتميز من خلاله المســلم عــن الكافر . وهذا النوع من التوحيد هو الذي بعث الله تعالى به الرسل إلى الأمــم والشــعوب ، وأنزل معهم الكتب . وقد أمر الله تعالى الإنس والجن بعبادته وحده لا شريك له . وعبادتــه تتضمن كمال الذل والحب له ، وذلك يتضمن كمال طاعته ، ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَــاعَ اللَّهَ ﴾ (من الآية 80 سورة النساء) ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِــرْ لَكُــمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) ﴾ (سورة آل عمران) [3] . والتكليف الإيماني يتركب على هــذا النوع من التوحيد ، لأنه يستلزم من المرء الخضوع التام لله تعالى والســير علــى منهجــه سبحانه ، ولذلك نسميه (توحيد العبادة) .

وتوحيد الألوهية لا بد أن يكون إيجاب و سلب ، نفي و إثبات ، يقول تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) ﴾ (سورة البقرة) .

ثانياً : كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) :

يَعتبر الإمام الشعراوي كلمة (لا إله إلا الله) قضية أساسية في التوحيــد ؛ لأن فيهــا نفــي

---

(1) المنجد : ص16 .

(2) الإيمان ــ محمد نعيم ياسين : ص10 .

(3) انظر : الرسالة التدمرية ــ لشيخ الإسلام ابن تيمية : ص108 وما بعدها ، والعقيدة في صفحــات لمــن أراد الجنات ــ لأبي بكر محمد بن الحنبلي : ص26 ، وعقيدة المؤمن ــ لأبي بكر الجزائــري : ص99 ــ 100 ، والإيمان ــ للدكتور محمد الشرقاوي : ص168 وما بعدها .

الألوهية وإثباتها لله وحده ، و فيها كذلك نفي الشريك مع الله . يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَــرْشِ الْعَظِيــمِ (129) ﴾ (سورة التوبة) : " « لا إله » نفي ، و« إلا هو » إثبات . إذن : ففي هذا القول « لا إلــه إلا هو » نفي منطقي مع سلب ، وإثبات منطقي مع الإيجاب ، وهنا نفي أيّ ألوهيــة لغـير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله . ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمــد إقبال شاعر باكستان الكبير ، فقال :

إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزمٌ ومضاءُ

إيجاب في « إلا هو » وسلب في « لا إله » ، فيهما للنفس عزم ومضاء : أي هما للنفــس قطبا الكهرباء ، فاسلِب الألوهية من غير الله و أثبتها لله " [1] .

ويقول عند تفسيره لآية الكرسي ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .. (255) ﴾ (سورة البقــرة) : " وبعد ذلك جاء بالقضية الأساسية وهي قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجــد النفــي ونجد الإثبات ، النفي في « لا إله » ، و الإثبات في « إلا هو » ، والنفي تخلية ، و الإثبات تحلية . خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك له ، ثم أثبت لنا وحدانيته ، و« لا إله إلا الله » أي لا معبود بحق إلا الله " [2] .

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا المثال أن معنى كلمة التوحيد أنه لا معبود بحــق إلا الله . أي أن الله وحده هو الذي يستحق العبادة ، وكما قال ــ رحمه الله ــ عند تفسير سورة الفاتحــة : " ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (5) ﴾ (من سورة الفاتحة) أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه ، وعلينا أن نلتفت إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) ﴾ (سورة الأنبياء) " [3] .

ثالثاً : افعل ولا تفعل :

هذا هو تحقيق توحيد العبادة ــ الألوهية ــ ، و « أفعل ولا تفعل » هو المنــــهج الــذي حدده الله لعباده ليسيروا عليه ؛ لأن مستلزمات العبادة الامتثال والطاعة لأمر الله ونهيه .

يقول الإمام الشعراوي : " والطاعة كما نعرف هي امتثال أمر ، وامتثال نهي . إذن فمجــال « لا إله إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مُطاع في تكليفه إلا الله ، ولا امتثـال لأمر أو لنهي إلا للأمر القادم من الله .... وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفـــات

---

(1) تفسير الشعراوي : ج 9 ص 5618 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص 1087 . وانظر : ومنهاج الفرقة الناجية ــ جمع وترتيب محمد بن جميل زينو : ص18 ــ 19 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص 78 .

قائل « لا إله إلا الله » متطابقة مع هذا القول " [1] .

ونجد الشعراوي كثيراً ما يقرر قضية « افعل ولا تفعل » التي تعتبر ترجمة لتوحيد العبادة .

فنجده ـــ على سبيل المثال ـــ عند تفسير قول الحق سبحانه : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا (87) ﴾ (سورة النساء) يقول ما نصه : " وهذا يعني : إنه لا يوجد إله آخر سيأتي ليتدخل وينهي المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « لا إله إلا هو » فليس هناك إله سواي ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعي وسترجعون إليَّ . وليس هناك واحد يقول : « افعل » و « لا تفعل » والآخر يقول بالعكس ، والأمر منه بـــ « افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . النهي منه بـــ « لا تفعل » هو النهي الوحيد الذي يجب على العاقل أن يتجنبه " [2] .

وقول الشعراوي : « من خلف ظهر الخالق » لا يصح ؛ لأنه يثبت لله صفة لم يثبتها سبحانه لنفسه ، واستعمال مثل هذه الألفاظ في حق الله محذور .

رابعاً : الشـــــرك :

لغة : مادة « شرك » تدل على مقارنة وخلاف انفراد . والشِّرْكة : هو أن يكون الشئ بين اثنين لا ينفرد به أحدهما . ويقال : شاركتُ فلاناً في الشئ : إذا صيرتَ شريكه . وأشـركتُ فلاناً : إذا جعلتَه شريكاً لك [3] .

اصطلاحًا : هو أن يعبد مع الله غيره [4].

ومن شروط العبادة : الإخلاص لله ﷻ وهو تحقيق « لا إله إلا الله » . والمتابعة لرسوله ﷺ بأن لا يتعبد لله تعالى إلا بما شرعه ، وهو تحقيق « محمداً رسول الله » . فالمشـرك في العبادة لا تُقبل عبادته ولا تصح ؛ لفقد الشرط الأول ، والمبتدع فيها لا تُقبل ولا تصح ؛ لفقد الشرط الثاني [5] .

يقول الإمام الشعراوي ـــ رحمه الله ـــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (88) ﴾ (سورة البقرة) : " وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هي : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن أشرك معه أحداً

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1335 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2505 .

(3) معجم مقاييس اللغة : ج3ص265 .

(4) تقريب التدمرية : ص113 .

(5) المرجع السابق : ص113 بتصريف .

فهو لمن أشرك . لذلك يقول ﷻ في الحديث القدسي [1]: " أنا أغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّـــركِ ، مَنْ عَمِل عملاً أشْرك فيهِ معيَ غيْري تركتُه وشركَه " " [2] .

والشرك أنواع ثلاثة :

1 ـــ **الشرك الأكبر** : وهو الذي يوجب الخلود في النار ، والخروج من ملة الإسلام . كشـــرك الدعاء والطاعة والشفاعة .

2 ـــ **الشرك الأصغر** : وهو لا يخرج صاحبه من الملة . كالرياء والحلف بغير الله .

3 ـــ **الشرك الخفي** : وذلك كقولهم : ما شاء الله وشئت . والصحيح أن يُقال : ما شاء الله ثـــم شئت . وهذا أيضاً لا يخرج صاحبه عن الملة .

وعلى الإنسان أن يستغفر الله دائما من الشرك الذي يعلمه والذي لا يعلمه [3] .

ولعل من أدق مداخل الشرك قضيتي التوسل والموالاة .

أ) التوسل :

معنى التوسل :

الوسيلة : المنزلة عند الملك ، والدرجة ، والقربة . ووسَّل فلان إلى الله وسـيلة : إذا عمـل عملاً تقرب به إليه . والواسِل : الراغب إلى الله . والوسيلة : الوُصْلة والقُربى ، وجمعـها الوسائل . والوسيلة ما يُتَقرب به إلى الغير والجمع الوُسُل والوسائل [4] .

فالتوسل إذن تقرب إلى الله بواسطة . هذه الواسطة قد تكون عملاً أو شـخصاً أو صنمـاً أو غير ذلك من الواسطات .

وقد كان الشعراوي يحذَرُ أن يخوض في قضية التوسل ، ولذلك لم أقف له إلا على موضعيـن اثنين تكلم فيهما عن هذه القضية مع إشاراته إلى عدم خوضه في هذه المسألة . يقـول ـــ رحمه الله ـــ عند كلامه عن « الوسيلة » في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ .. (35) ﴾ (سورة المائدة) : " ولا نريد أن ندخل في مجـال التوسـل بالنبي أو الأولياء ، لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد ، فبعضهم يحكم بكفـر هؤلاء . ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الأولياء : هذِّبوا هذا القول قليلاً . إن حـدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقـد أن لـه منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله ليعطيه ما ليس عند الله ؟ طبعاً لا . وهنـاك

---

(1) أخرجه **مس** : ك الزهد والرقائق / ب من أشرك في عمل غير الله ج4 ص2289 (ح2985) .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص453 .

(3) انظر : العقيدة في صفحات : ص39 ـــ 46 .

(4) انظر لسان العرب : مادة « وسل » .

من قال : إن الوسيلة بالأحياء ممكنة ، و أن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً متسعاً . لأن حياة الحي لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته ﷺ إلى الله فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله . فحبك له هو الذي يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق . والجماعة التي تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبي لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر ﷺ ؛ قال : كنا في عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقي به . ولما انتقل رسول الله ﷺ ، توسل بعمه العباس [(1)] . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ﷺ عن التوسل بالنبي بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبي . ونسأل : أقال عمر : كنا نتوسل بنبيك و الآن نتوسل بالعباس ؟ أم قال : والآن نتوسل إليك بعم نبيك ؟ . ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ، لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبي ﷺ . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شئ ، وإنني أتوسل به إلى الغير لأني أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لي مطلوبي . إذن فلنبعد مسألة الشرك عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المُتوَسَّل إليه هو القادر ، وأن المُتوَسَّل به عاجز ، وهذا منتهى اليقين ومنتهى الإيمان . ولكن المتوسَّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم النبي ﷺ كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر في هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله ، لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال : « يا رب عمُّ نبينا عطشان فمن أجله نريد المطر » . إذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبي ﷺ دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبي بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف نقول : إن العمل الصالح المتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل في متاهات " [(2)] .

والموضع الآخر ذكر فيه بعض هذه القضايا التي ذكرها ، وزاد أموراً . قال : " وهنا يأتي سؤال : لماذا نقل الأمر من رسول الله — عليه الصلاة والسلام — إلى عم الرسول ؟ . ونقول لأن رسول الله قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ولا ينتفع الآن بالماء . ولكن عمه العباس هو الحي الذي ينتفع بالماء . لذلك كان التوسل بعم رسول الله ﷺ ، ولم يكن منطقياً أن يتوسلوا برسول الله ﷺ وهو ميت لا يحتاج إلى الماء . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوي

---

(1) أخرجه خ : ك الإستسقاء / ب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ج1 جـ2 ص20 (ح1010) .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص3107 — 3108 .

الجاه ، نقول لهم : إن الحديث ضدكم وليس معكم ؛ لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب إلى رسول الله ﷺ " [1] .

إذن هذا هو كلام الشعراوي حول قضية التوسل . ويمكن أن نلخص رأيه في النقاط التالية :

1 ــ إن الشعراوي يجيز التوسل بمن يمت إلى النبي ﷺ بصلة ، سواء كان العباس أو غيره

2 ــ إنه يجيز كذلك التوسل بالأموات والأولياء .

3 ــ إنه يمنع التوسل بذوي الجاه الذين لا صلة لهم بالنبي ﷺ .

4 ــ أن التوسل بالنبي والولي ليس لذاته ، وإنما لمنزلته عند الله .

5 ــ الاعتقاد بأن المتوسَّل به لا يقدر على شئ ، وأن المتوسَّل إليه هو القادر .

6 ــ إن التوسل بالأعمال الصالحة هو الوسيلة الخالصة .

والظاهر أن الشعراوي بنى نظرته إلى التوسل على جواز التوسل بالنبي ﷺ في حال حياته ، ثم عدّى ذلك إلى جواز التوسل به ﷺ ميتاً ، ومن ثَمَّ جوَّز التوسل بمن يمت إلى النبي ﷺ بصلة ، وإنما جوَّز التوسل بهم لارتباطهم به ﷺ لا لذواتهم .

والحقيقة أن مسألة التوسل أخذت حظاً وافراً من العلماء ، وتناقضت أقوالهم فيها واختلفت ما بين مجوِّز ومانع . وقد نقل صاحب كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) آراء المجيزين و أدلتهم ، وأجوبة المانعين عليهم . وأطال في ذلك كثيراً . وخلاصة ما ورد في رأي المجيزين أنهم عمموا التوسل بالنبي ﷺ حياً وميتاً ، وبالعلماء وبالأتقياء والصالحين . والمانعون منهم من عمَّم المنع ، ومنهم من استثنى التوسل بالنبي ﷺ [2] .

ونحن كمسلمين الأولى والأحرى بنا أن نحتاط لديننا من أن تدخله أي شائبة من شوائب الشرك . ولا بد أن نأخذ أي قضية تمس الناحية العقدية من منظور القرآن والسنة وفعل الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ والتابعين .

وإذا أردنا أن نقرر الرأي في هذه القضية فنقول : إن التوسل منه ما هو مشروع ، ومنه ما ممنوع .

فأما التوسل المشروع فهو أنواع :

الأول : التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته .

الثاني : التوسل إلى الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص309 .

(2) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ــ تأليف السيد نعمان بن محمود خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي (ت1317هــ) : ص433 وما بعدها .

الثالث : التوسل إلى الله تعالى بتوحيده ، كما فعل يونس عليه السلام إذ قال : ﴿ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ (من الآية 87 سورة الأنبياء) .

الرابع : التوسل إلى الله تعالى بإظهار الضعف والحاجة والافتقار إلى الله .

الخامس : التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء .

السادس : التوسل إلى الله بالاعتراف بالذنب .

وأما التوسل غير المشروع فهو كالتوسل بذاته ﷺ في حضوره أو مغيبه أو بعد موته ، أو التوسل بذوات الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم ، فهذا ليس مشهوراً عند الصحابة والتابعين . ولما أجدب الصحابة ، استسقوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود ــ رضي الله عنهما ــ ، فلم يذهبوا إلى قبره ﷺ ، بل عدلوا إلى البدل . وقد كانوا من الممكن أن يأتوا إلى قبره ﷺ فيتوسلوا به . وكذلك التوسل بجاه النبي ﷺ رغم أن جاهه عند الله عظيم ، أو بجاه غيره . وكذلك التوسل بذوات المخلوقين أو بحقهم ، والعكوف على قبور الصالحين ، والنذور للأولياء ، والذبائح على أرواحهم ، فهذه أمور غير جائزة [1] .

وإذا ما نظرنا إلى رأي الشعراوي وجدنا فيه الخطأ والصواب . فأما الخطأ فقوله بجواز التوسل بالنبي ﷺ ميتاً أو بمن يمتُّ إلى النبي ﷺ بصلة أو بالأموات أو بالأولياء والصالحين ، كل هذه الأمور غير جائزة .

وقوله بمنع جواز التوسل بذوي الجاه للسبب الذي علل به ــ وهو عدم صلتهم بالنبي ﷺ ــ هذا أيضاً غير جائز ، لأنه يلزم منه جواز التوسل بذوي الجاه ممن له صلة بالنبي ﷺ .

أما قوله بجواز التوسل بالأعمال الصالحة ، فهذا صحيح .

والذي أريد الإشارة إليه هنا أن الشعراوي متأثر بالصوفية في هذه القضية تأثراً واضحاً .

إذن لا بد أن نأخذ أي قضية عقدية من منظور القرآن السنة وفعل الصحابة والتابعين ؛ لأنهم أدرى الناس بهذا الدين وأعرف الناس به . والله أعلم .

ب) الموالاة :

لغة : النصرة والمعاونة والسلطان والنسب ، وهي ضد المعاداة ، والباب كله راجع إلى معنى القرب [2] .

اصطلاحاً : تعني التقرب للشئ ، وموادته بالقول والفعل والنية . وهي قسمان :

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى ــ لشيخ الإسلام ابن تيمية : ج1 ص310 ــ 320 ، وعقيدة المؤمن : ص129 وما بعدها ، وكتاب التوحيد ــ تأليف د . صالح فوزان الفوزان : صدر ضمن سلسلة برقم (34) ص67 ــ 71 ، ومنهاج الفرقة الناجية : ص56 ــ 58 .

(2) انظر لسان العرب : ج5 ص4920 ــ 4921 ، ومعجم مقاييس اللغة : مادة (ولي) .

ـ موالاة حقة : وهي التقرب إلى الله ورسوله والمؤمنين ، وموادتهم بالقول والفعل والنيـة .
وعرفها بعضهم بقوله : هي حب الله ورسوله والصحابة الموحدين ونصرتهم [1] .
ـ وموالاة باطلة : وهي موالاة الكافرين . وهي : " التقرب إليهم ، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا "[2] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ ﴾ (من الآية 55 سورة المائدة) ، وقـال تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (من الآية 22 سورة المجادلة) .

والشرك يدخل عندما تخرج موالاة المؤمن عن هذا الإطار المشروع لها ، وتنتقل موالاته إلى غير الله ورسوله والمؤمنين ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْـهُمْ تُقَـاةً ﴾ (من الآية 28 سورة آل عمران) يقول الإمام الشعراوي في تفسير هذه الآية : " إن الكـافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك تستنيم لهم ، وتطمئن إليـهم ، وربما تسللوا بلطف ودقة فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين في ذلك ؛ لأنهم ما داموا كافرين فليس هناك التقاء في الأصل بين الإيمان والكفر ؛ لذلك يقول الحق : « ومـن يفعل ذلك فليس من الله في شئ » . إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيـب مـن نصرة الله له ، لماذا ؟ لأنه اعتقد أن هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شئ له . لذلك يحذرنـا الله ويزيد المعنى وضوحاً ، أي : إياكم أن تغتروا بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء "[3] .

وقد بين ـ رحمه الله ـ أن الموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معـك فـي الغاية ، وهي الإيمان . واليهود والنصارى والمشركون مختلفون معك في الإيمان ، فلا يصح موالاتهم ولا أن يأمنهم المسلم .

والذين يتخذون المشركين واليهود والنصارى أولياء ونصراء ومعينين ، فلا بد أن يقعوا فـي شرك النفاق ؛ لأنهم سيكونون مع المسلمين بألسنتهم ، ومع الكافرين بقلوبهم [4] .

وهكذا تكون قد أفردت الله بالعبادة وحده ، ولم تشرك معه غيره في شئ من خصوصياته .

---

(1) العقيدة الإسلامية : ص34 .
(2) الإيمان ـ د . محمد نعيم ياسين : ص145 .
(3) تفسير الشعراوي : ج3 ص1411 ـ 1412 .
(4) انظر : تفسير الشعراوي : ج5 ص3195 ـ 3197 .

المطلب الثاني : توحيد الربوبية :

أولاً : تعريف الربوبية لغة واصطلاحاً :

لغة : رب القوم : سائسهم . ورب الشئ : مالكه . والـرب : السيد والمالك . والرُّبوبية والرُّبوبية : الاسم من الرب . والمربوب : المملوك والعبد . والرَّبَّاني : الحَبْر ، أو العارف بالله [1] .

اصطلاحاً : هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شئ ، ولا رب غيره [2] .

فتوحيد الربوبية إذن إقرار بأن الله خالق كل شئ ومليكه والقادر عليه والمدبر لشئون الكون ، وهو سبحانه واحد لا يشاركه أحد في ملكه أو صفاته . وهذا النوع من التوحيد حق لا ريب فيه ، والقلوب مفطورة على الإقرار به . ولا ينكر ذلك إلا من كان جاحداً مستكبراً ؛ منكراً بلسانه ، مقراً بجنانه . قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (من الآية 14 سورة النمل) [3] .

يقول الإمام الشعراوي : " ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (25) ﴾ (سورة لقمان) والحق سبحانه يبلغ نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض . ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن الله هو الخالق . وهي إجابة الفطرة الأولى " [4] .

ثانياً : الأدلة على وجود الله :

الأدلة على وجود الله كثيرة جداً ، فكل شئ في الكون فيه دليل على وجود الخالق سبحانه والشعراوي في تفسيره كثيراً ما يورد الأدلة على وجود الله تعالى ، فمن ذلك :

دليل الخلق : معلوم أن الله خلق آدم من تراب ثم خلق من آدم حواء ، ثم كانت البشرية من نسلهما . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً .. (1) ﴾ (سورة النساء) .

يقول الإمام الشعراوي : " ونريد أن نفهم هذه ــ أي « بث منهما » ــ كي نأخذ منها الدليل على وجود الخالق ، فهو « بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » والجمع البشري الذي يظهر من الاثنين سيبث منه أكثر ، وبعد ذلك يبث من المبثوث الثاني مبثوثاً ثالثاً ، وكلما امتددنا في

---

(1) المنجد : ص243 .

(2) الإيمان ــ ياسين : ص6 .

(3) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص79 ، والإيمان ــ للشرقاوي : ص163 ــ 165 .

(4) تفسير الشعراوي : ج6 ص3463 .

البث تنشأ كثرة ، وعندما تنظر لأي بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جداً من تعداده الآن ... فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان ، وكلما رجعت إلى الماضي يقل (1) ، فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسِلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين ، والاثنان هما آدم وحواء .
فعندما يقول الحق : إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أن تسلسِل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟ ... لا بد أن أحداً خلقهما ، وهو قادر على هذا ، وهو الله " (2) .
وقد بين ــ رحمه الله ــ أن العقل يستطيع أن يهتدي إلى وجود قوة وراء العالم ، لكن لا يستطيع أن يهتدي إلى اسمها . يقول ما نصه :
" إن الإيمان فطري . إن قُصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطري أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم الرتيب ، الذي لا يدخل تحت طاقتك ، ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام ، والقوة العظمى القادرة التي وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة والعلم والحكمة ، وبكل صفات الكمال . لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطي العقل اسم هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها " (3) .
فهذان دليلان من الأدلة التي يسوقها الشعراوي أثناء التفسير على وجود الله (4) .

ثالثاً : الفرق بين عطاء الربوبية ، وعطاء الألوهية :

كثيراً ما يفرق الشعراوي بين عطاء الربوبية وعطاء الألوهية . يقول ــ رحمه الله ــ :
" عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعاً ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ، ويتولى تربيتهم جميعاً ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمناً أم كافراً . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب ، فإن الأسباب تعطيه ولا تعطي المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب ، أو لا يُحسن استخدامها ، فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط " (5) .

---

(1) تصديق هذا قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) ﴾ (سورة الصافات) وهذا يدل على أن البشرية في تزايد .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص1989 ــ 1990 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2275 .

(4) للاستزادة من معرفة الأدلة على وجود الله انظر : كتاب الإيمان ــ للشرقاوي : ص115 وما بعدها ، والعقيدة الإسلامية وأسسها : ص96 وما بعدها ، والأدلة المادية على وجود الله ــ للشيخ الشعراوي .

(5) تفسير الشعراوي : ج3 ص1580 .

وقال في موضع آخر : " والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ، هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد . والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولي للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو للمؤمن والكافر . ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية فسبحانه يربي الماديات التي تقيم حياته " (1) .

وعطاءات الربوبية متنوعة وكثيرة ، كالرزق والخلق والعقل وغيرها .

المطلب الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه بأسماء ، ونعت نفسه بنعوت الجلال والجمال ، والعظمة والكمال . ولفظ « الله » اسم يدل على الذات الإلهية الجامعة لجميع صفات الكمال والمنزهة عن أية صفة من صفات النقصان التي لا تليق بالألوهية والربوبية .

والأسماء الحسنى ثلاثة أقسام : قسم سمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء من الملائكة أو غيرهم ، ولم ينزله في كتابه وقسم أنزله في كتابه فعرفه عباده ، وقسم استأثر به في علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه .

وصفات الله تعالى منها ما هو صفات ذات ، وهي الصفات الثبوتية ؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة ، وصفات أفعال ؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة (2) .

والله سبحانه وتعالى منزه عن المثل والمثيل والشبيه . فلا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شئ .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (من الآية 11 سورة الشورى) .

أولا : الاسم الأعظم :

ما هو الاسم الأعظم ؟

اختلف العلماء في تحديد الاسم الأعظم ، فبعضهم قال : هو الاسم الذي يناسب حال الداعي ، فعندما تطلب الرحمة تسأله باسمه الرحمن أو الرحيم ، وكذلك عندما تطلب العزة تسأله باسمه العزيز ، وهكذا . وقيل : هو اسم معين . والقائلين بهذا اختلفوا حول تحديده ، فبعضهم قال : إنه « الله » ، وبعضهم قال : « الرحمن الرحيم الحي القيوم » ، وبعضهم

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3463 .

(2) انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص157 ، والعقائد الإسلامية : ص71 ، وأسماء الله الحسنى – للإمام الشعراوي : ج1 ص27 .

قال : « الأحد الصمد » ، وقيل غير ذلك ، وكل منهم استدل بأدلة من السنة على ما ذهب إليه . وقد رجح بعضهم أن يكون الاسم الأعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى إذا دعا به الإنسان استجاب الله له [1] .

وقد ذهب الشعراوي إلى أن الاسم الأعظم هو الاسم الذي حوى جميع كمالات الأوصاف ، وهو لفظ الجلالة « الله » [2] . وإلى هذا ذهب صاحب كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها)[3].

ولو نظرنا إلى الأحاديث الواردة في الاسم الأعظم ، فسنجد أنها لا تحدد بشكل واضح الاسم الأعظم ، والذي أميل إليه أنه دعاء مركب إذا دُعي الله تعالى به استجاب وإذا سُئل به أعطى .

ثانياً : الأسماء الحسنى توقيفية :

يرى الشعراوي أن الأسماء الحسنى توقيفية ،لا مجال للعقل فيها ,وهذا ما قرره السلف . يقول ــ رحمه الله ــ : " أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها ، ويجب الوقوف فيها على ما جاء من الكتاب والسنة " [4] .

ثالثاً : رد المتشابه من الصفات إلى المُحكَم :

منهج الشعراوي في الصفات منهج السلف ، وهو الوقوف عند النص ، فلا يؤول ولا يعطل ، ولا يمثل وإنما يأخذها في نطاق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (من الآية 11 سورة الشورى) . فمثلاً عند تفسيره لقوله الحق سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ (من الآية 158 سورة الأنعام) نجده يقول : " عليكم أن تفسروا كل شئ بالنسبة لله بما يليق بذات الله في إطار « ليس كمثله شئ » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شئ منسوباً لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجئ يختلف بقدر الجائين ، فمجئ الطفل غير مجئ الشاب ، غير مجئ الرجل العجوز ، غير مجئ الفارس ، فما بالنا بمجئ الله سبحانه ؟ !! إياك ــ إذن ــ أن تفهم المجئ على ضوء مجئ البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شئ بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه في إطار « ليس كمثله شئ » ، ولذلك قل : له سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، في إطار « ليس كمثله شئ » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة في قوله : « يأتي ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل

---

(1) انظر : الإيمان ــ للشرقاوي : ص179 ــ 181 ، وأضواء حول اسم الله الأعظم : ص28 وما بعدها .

(2) انظر أسماء الله الحسنى : ج1 ص75 .

(3) انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص157 .

(4) أسماء الله الحسنى : ص 115 بتصرف .

البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شئ » "[1] .
ويقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (من الآية 255 سورة البقرة) : " فإذا قيل لله يد ، قل : هو له يد كما أن له وجوداً ؛ وبما أن وجوده ليس كوجودي فيده ليست كيدي بل افهمهما في إطار « ليس كمثله شيء » ، فإذا قال : « وسع كرسيه » نقول : هو قال هذا ، وما دام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة في إطار « ليس كمثله شيء » . فلا تقل له كرسي وسيقعد عليه مثلنا ، لا . لقد وجدنا من قال : أين يوجد الله ؟!! متى وجد ؟!! وقلنا ونقول : « متى » و « أين » لا تأتي بالنسبة لله ، إنها تأتي بالنسبة لكم أنتم لماذا ؟ لأن « متى » زمان ، و « أين » مكان . والزمان والمكان ظرفان للحدث ، فالشيء الحادث هو الذي له زمان ومكان ... وما دام الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن « متى » و « أين » وليدة حدث . وقوله الحق : « وسع كرسيه » نأخذه في إطار « ليس كمثله شيء » "[2].
وهذا دأبه ــ رحمه الله ــ في الصفات ، لا يؤول ولا يعطل ولا يشبه ولا يمثل ، وإنما ينزه لكننا نجده يؤول الكرسي بالسلطان ، والقهر بالغلبة والقدرة . فيقول : " والعلماء قالوا عن الكرسي : إنه ما يعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟ نعم . وهل المقصود سلطانه وقدرته ؟ نعم ، لأن كلمة « كرسي » توحي بالجلوس فوقه .والإنسان لا يجلس عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، لذلك يسمونه « كرسي المُلك » لأن الأمر الذي يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسي ، فعندما تقعد على الكرسي ، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله السلطان والقهر والغلبة والقدرة " [3] .
وليت الشعراوي بقي على ما اتخذه منهجاً في الصفات ، لكنه أوّل الكرسي بالسلطان والقهر بالغلبة والقدرة ، وقاس ذلك على كرسي الإنسان . ولا أدري ما الذي جعله يعدل عن منهجه ؟ .

رابعاً : رؤية الله :

قال أهل السلف والخلف وهم من الفرقة الناجية على أن رؤية الله في الدنيا ممتنعة ، ورؤيته في الآخرة جائزة . والشعراوي أكد هذه الحقيقة . يقول ــ رحمه الله ــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾ (سورة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7ص4013 .
(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1103 .
(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1104 .

الأنعام) : " وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه سـواء في الدنيا أم في الآخرة ؟ قـال بعضـهم : لا أحـد يـرى الله بنـص الآيـة « لا تدركـه الأبصار » [1] . ونقول : لكن هناك آيات في القرآن تقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَـاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) ﴾ (سورة القيامة) و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدها ... وحين يحتـج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة ؛ لأن ربنا سبحانه قال لموسى : ﴿ لَـنْ تَرَانِـي وَلَكِـنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ (من الآية 143 سورة الأعراف) . فلمـاذا لـم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَـى صَعِقًـا ﴾ (من الآية 143 سورة الأعراف) ، إذن فالله يتجلى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق فـي الدنيـا فلا " [2] .

وهكذا يقرر الشعراوي رأي السلف والخلف من أهل السنة والجماعة ، وكلامه فيه إشارة إلـى المعتزلة ومن نحا نحوهم في منع رؤية الله في الدنيا والآخرة ، ويرد عليهم بالحجة القويـة ، والبرهان الساطع .

ثم إنه يقول بعد ذلك في تفسير الآية نفسها : " لقد اختلف العلماء عند هذه الآيـة ، وتجلـى خلافهم إلى أبعد حد ، فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم فـي غـير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفـي الإدراك ، والإدراك إحاطـة ، والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة " [3] .

خامساً : صفة الكلام :

صفة الكلام صفة ثابتة لله ﷻ ، وقد وردت نصوص في القرآن تؤكد أن الله كلم بعضـاً من خلقه ، وكلم الملائكة ، وموسى عليه السلام [4] ، لكن طرق كلامه سـبحانه متنوعـة . يقـول

---

(1) قال في شرح العقيدة الطحاوية : المخالف للرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفـون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعـة . (شـرح العقيدة الطحاوية : ص189) .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3842 ــ 3843 .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3843 .

(4) انظر : علم الكلام ــ لابن حزم الظاهري : ص76 .

وقد ذكر صاحب شرح العقيدة الطحاوية أن هناك أدلة كثيرة على تكليم الله لأهل الجنة وغيرهم . وأن أفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم . فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة ، وأعلى نعيمـها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به . انظر شرح العقيدة الطحاوية : ص170 ــ 171 .

تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) ﴾ (سورة الشورى) ، فهذه هي الطرق التي يكلم الله بها البشر .

ونتناول رأي الشعراوي في ذلك من زاوية كلام الله لموسى عليه السلام في قوله ﷻ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ...(143) ﴾ (سورة الأعراف) . يقول الإمام الشعراوي في تفسير هذه الآية : " وهنا في كلام موسى نقول : إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب ، وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك ؛ لأنه غيب لم يُكشف لنا عنه ، ونترك الأمر فيه إلى الله .... وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر ، فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ؛ لأن كل شئ يخص الله إنما نأخذه في إطار « ليس كمثله شئ » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى عليه السلام تميُّز له ، ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي ﴾ (من الآية 144 سورة الأعراف) " (1) .

سادساً : تحامل عطية زاهدة على الشيخ الشعراوي :

معلوم بلا شك أن أي إنسان يصل إلى أي مرتبة من العلم ، يكون قد استقى علمه عن غيره ، غير بعض المعلومات التي يستنبطها بعقله . هذا الكلام أمهِّد به للرد على أحد الكتاب الذين تفانوا في نقد الإمام الشعراوي والتشهير به ، على غير نقد بنَّاء ، ومنهج سليم .

نقل صاحب كتاب (اللهيب الشاوي في تأديب الشيخ الشعراوي) قول الإمام الشعراوي عن صفتي الرحمة في اسميه (الرحمن والرحيم) : " فأنت تقول رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا ، ولكنه في الآخرة مثلاً رحيم . إذن الرحمة للمؤمنين وحدهم ، وتصبح متعلقات الصفة أو من تشملهم الرحمة أقل عدداً ممن تشملهم في الدنيا " (2) .

كلام الشعراوي هنا يبين فيه الفرق بين (الرحمن ، والرحيم) . وقد سبقه العلماء في هذا المعنى . فما وجه الاعتراض على هذا النص ؟

قال الكاتب : " فهل نجح الشيخ في تطبيق الفكرة المسروقة بدون سرقة ؟ لا طبعاً ، ثم لا طبعاً . فالله لا يهدي كيد الخائنين ، فكيف ينجح وهو يسرق العلماء ثم لا يوفر فرصة إلا ويتطاول عليهم ، ولا يذكر رأياً لصاحبه . فقد سرق فكرة أن « الرحمن متعلق بالرحمة في

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص4341 .

(2) انظر كتاب اللهيب الشاوي في تأديب الشيخ الشعراوي ــ تأليف عطية زاهدة : ص156 ، وقد رجعت إلى كتاب (معجزة القرآن) ص397 ، فوجدته قد نقل الكلام عنه مختصراً .

الدنيا ، وأن الرحيم تتعلق برحمته في الآخرة » من الرازي وغيره ، وذلك معروض في التفاسير في شروحهم لسورة الفاتحة ولسورة الرحمن " [1] .

وأقول للكاتب الكريم : هل هذا يعتبر سرقة ؟ إذا اعتبرناه سرقة ، فمعنى ذلك أن علماءنا كلهم سارقين ، وهذا غير صحيح . والمثال على ذلك كتاب الإتقان للسيوطي ، الذي استفاد فيه كثيراً عن البرهان للزركشي دون أن يسند تلك الأقوال لصاحبها الزركشي . ومن المعلوم أن الشعراوي كان داعية ، وأقواله في التفسير وغيره كان أغلبها عبارة عن دروس ومحاضرات ، والمستمع بطبعه لا يريد الخوض في الخلافات بين العلماء ، إنما يريد أن يأخذ صفوة الكلام وخلاصته ، وهذا ما كان يفعله الشعراوي . مع العلم بأن الأولى أن يذكر الشعراوي عمَّن نقل القول . لكنه ترك الأولى ليس سرقة كما قال الكاتب .

ونسأل الكاتب : أين تحامل الشعراوي وتطاوله على العلماء ؟ أم أنه افتراء عليه ؟ وماذا تقصد من قولك : « فالله لا يهدي كيد الخائنين » في هذا السياق بالذات ؟ .

وأضع بين يدي قارئي الكريم مفهوماً عن هذا الكتاب ومؤلفه .

أقول : كان الكاتب يسئ الظن كثيراً بالشعراوي ، وسوء ظنه دفعه إلى التعصب والتحامل على الشيخ ، مما أدى به الحال إلى الابتعاد عن الموضوعية في النقد . حتى وصل به الحال إلى أن يرى ما يقوله الشيخ مجانباً للحق ، وبعيداً عن الصواب . وهذه نظرة خاطئة . والكاتب إن كان مصيباً في جانب ، فهو مخطئ في جوانب كثيرة .

والكاتب كان كثير السخرية بالشيخ ، لاذع الأسلوب ، يستعمل من الألفاظ مالا يليق بمقام الجاهل فضلاً عن العالم . وعنوان الكتاب رمزٌ يدل على باطنه . وكما قالوا : الجواب يظهر من عنوانه . وعنوان الكتاب يعطيك صورة الشيخ المجرِم ، ويقف الكاتب على رأسه بالعصا في طرفها لهب ، يؤدبه على كل خطأ يصدر منه . فإذا ما انتقلنا إلى باطن الكتاب وجدنا أساليب السخرية والتهكم بالشيخ تنتابه من حين إلى آخر ، وينتقي من الألفاظ ما لا يليق بصاحب الأخلاق ذكرُه .

إن نقده الممزوج بألفاظ السخرية والاستهزاء نقد تجريح وليس نقد تصحيح . وأقول : إن المسلم مأمور بالستر ، لا أن ينبش عن أخطاء الآخرين وزلاتهم ليبرزها ويشهّر بها ، وينسى في المقابل إيجابياته . هذه ليست موضوعية في النقد ، فما بالك إذا كانت هذه الأخطاء أكثرها يقوم على الظن السئ ؟

وكنت أتمنى لو أن الكاتب ألف كتابه في الذود عن الشيخ الشعراوي ، والتماس العذر له ،

---

(1) اللهيب الشاوي : ص157 .

أخذاً بالقاعدة التي تقول : التمس لأخيك عذراً .

وغالب الظن أن الدافع لتأليف هذا الكتاب هو دافع شخصي ، فالكاتب فلسطيني مثلنا ، وقد قال في مقدمة كتابه : " ويكفي أن تعلم أخي القارئ الكريم أن الشعراوي قد تحامل وتهجم على شعب فلسطين ، وذلك في رده على الانتقادات العلمية التفسيرية التي نشرتها لي مجلة « المجتمع » الكويتية عام 1975م . وذلك لأنه لم يجرؤ أن يقول للناس بأنه على خطأ مبين "[1].

فهلاَّ ذكر لنا الكاتب الكريم شيئاً من كلام الشعراوي في تهجمه على الشعب الفلسطيني حتى نصدقه ؟ وهل صحيح أن من أخلاق العلماء أن يهبط أحدهم إلى سياسة التهجم ، وليس على فرد بعينه ، بل على شعب بأكمله من أجل انتقادٍ وُجِّه إليه من أحدهم ؟! اللهم إلا أن يكون هذا العالم جاهلاً .

ثم لعل سكوت الشعراوي عن الرد على المؤلف الكريم أخذاً ببيت الشعر القائل :

إذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

وأخيراً أقول : أرجو أن يقع كلامي هذا من الكاتب بمكان ، وأن يرجع المؤلف إلى صواب عقله ، وقوام رشده ، هذا إذا كان حياً ، وإن كان ميتاً فأسأل الله له المغفرة وللشيخ الشعراوي ولأموات المسلمين ، آمين .

---

(1) اللهيب الشاوي : ص6 .

المبحث الثاني : منهجه في الغيبيات :

=========================

*** تعريف الغيب لغة واصطلاحاً :**

لغة : غاب عنه : بَعُد عنه وباينه . والغيب : مفرد غيّاب وغيُوب : كل ما غاب عنك [1] .

اصطلاحاً : كل ما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذُكِر في القرآن وما أخبر به الرسول ﷺ [2].

*** معنى الغيب عند الشعراوي :**

الغيب هو كل ما غاب عنك ، فالمشهود ليس غيباً ، أي أن ما تشهده العين لا يعتبر غيباً ، بل لا بد أن يكون بعيداً عن عينيك . والغيب قسمان :

القسم الأول : الغيب المطلق : وهو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

القسم الثاني : الغيب النسبي : وهو الغيب الذي يعلمه البشر ، فإذا سُرق مني شئ مثلاً ، فإنني لا أعلم من السارق ، إنه غيب عني ، وقد لا تعلم الشرطة من هو السارق ، ولكن الذي سرق يعلم أنه السارق ، والذي أُخفيت عنده المسروقات يعلم من السارق ، والذي بيعت له المسروقات يعلم من السارق . إذن فالغيب النسبي هو غيب يعلمه غيري ، ولكني لا أعلمه [3] .

*** منزلة الغيب في الشريعة :**

يقول ــ رحمه الله ــ : " والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله أخبرك بها " قال : " والغيبيات هي أرضية الحركة الإيمانية ، أو أساس الإيمان " [4] .

*** حواجز الغيب :**

حواجز الغيب ثلاثة :

أولها : حاجز المكان : أي أن أشياء تحدث في نفس اللحظة ، ولكن لا أعرف عنها شيئاً ؛ لأنها تحدث في مكان ، وأنا في مكان آخر .

ثانيها : حاجز الزمن الماضي : وهو شئ حجبه عني زمن مضى ، فأنا لم أشهده .

---

(1) المنجد : ص563 .

(2) تفسير ابن كثير : ج1ص39 .

(3) انظر : الغيب ــ للإمام الشعراوي : ص6 ، ص11 ، 15 . وانظر تفسير الشعراوي : ج1 ص253 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص730 ، 731 .

ثالثها : حاجز المستقبل : وهو ما سيحدث غدا [1] .

وسوف نتناول منهج الإمام الشعراوي في الغيبيات من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : الملائكة :

الملائكة خلق من خلق الله تعالى خلقهم من نور ، ليست لهم أجسام مادية يدركها الإنسان بحواسه ، وهم ليسوا كالبشر ؛ فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون ، مطهرون من الشهوات الحيوانية ، منزهون عن الآثام والخطايا ، وهم عباد الله المكرمين ، لا يعصون الله ما أمرهم ، لا في صغيرة ولا في كبيرة ، وهم يفعلون ما يؤمرون . وقد خلقهم الله متفاوتين في الخلق ؛ فمنهم ذو الجناح ومنهم ذو الجناحين ، ومنهم من هو أكثر من ذلك . والملائكة موكلون بالكون والإنسان فكل حركة في العالم تدخل في اختصاصهم . وواجبنا نحوهم هو الإيمان بهم إيمانا إجماليا بمن لم يذكره القرآن والسنة ، أما من ذكر منهم آمنا به إيمانا تفصيليا [2] .

والشعراوي قد بين لنا أن الملائكة غيب عنا ، آمنا بهم لأن الله أخبرنا عنهم . يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8) ﴾ (سورة الأنعام) : " ما الملك ؟ الملك جنس من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذي آمنا به أخبرنا أن له ملائكة مثلما أخبرنا أن هناك جنا ، والملائكة من جنس الغيب " [3] .

وقد قال في موضع آخر : " إذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت ، وأن هناك من رآهم [4] فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن ، وأن يثق في القائل وهو صادق ، فيؤمن

---

(1) معجزة القرآن ــ للإمام الشعراوي : ص107 ، وانظر تفسيره : ج3 ص1460 .

(2) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص299 ــ 301 ، وعلم الكلام : ص40 ــ 41 ، والإيمان ــ ياسين : ص26 وما بعدها ، والإيمان ــ للشرقاوي : ص43 وما بعدها ، والعقيدة في صفحات : ص53 ــ 55 .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3513 بتصرف .

(4) روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس في حديث الطويل ، وفيه : " بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه . فخر مستلقيا . فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ... الحديث " ك الجهاد والسير / ب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ج3 ص1383 ــ 1385 (ح1763) . وحيزوم : ذكر محمد فؤاد عبد الباقي في حاشية الصحيح أن لها معنيان : الأول : أنها زجر =

بما قال ولا يبحث عن الكيفية " [1] .

أولاً : وظيفة الملائكة :

ذكر الشعراوي أن للملائكة وظائف منوطة بهم ، فكل مَلَك له مهمته ، وله وظيفته . فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...(30) ﴾ (سورة البقرة) قال : " والله سبحانه وتعالى عندما يحدث الملائكة عن ذلك ـ أي أن يجعل في الأرض خليفة ـ فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمراً ، والحفظة الكرام ، وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فجاء الإعلام عنهم لأن لهم عملاً يرتبط بالإنسان على سطح هذه المعمورة .

وقد يقول بعض الناس : إن حياة الإنسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول : ما يدريك أن وراء كل ناموس مَلَك ؟ " [2] .

وفي موضع آخر قال : " وهل سجد كل الملائكة لأدم ؟ لا ، وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه . وتلك المهمة قد أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) ﴾ (سورة الانفطار) وقوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) ﴾ (سورة ق) ، وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) ﴾ (سورة النازعات) . إذن هناك من الملائكة من سيسجل على الإنسان أعماله . وكل ما يقوله وكل فعل يفعله ، بل ويكتبون هذه الأفعال . ومنهم من سيحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينفذ أقدار الله في الأرض . هؤلاء جميعاً لهم مهمة مع الإنسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الإنسان " [3] .

= للفرس . والثاني : أنها اسم فرس المَلَك . وذكر ابن هشام في سيرته أن ابن إسحاق ذكر بإسناده عن أبي داود المازني ـ وكان قد شهد بدراً ـ قال : إني لأتبع رجلاً من الشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفتُ أنه قد قتله غيري " . السيرة النبوية ـ لابن هشام : ج1 جـ2 ص236 .

(1) تفسير الشعراوي : ج8 ص5004 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص241 بتصرف قليل . وانظر شرح العقيدة الطحاوية : ص299 ـ 301 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص255 . وقد ذكر الإمام الآلوسي في تفسيره مثل الذي ذهب إليه الشعراوي من أن الملائكة العالين لم يشملهم الأمر بالسجود ، قال : " وقيل : إن العالين صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون ، مستغرقون بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله ، لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق غيره ، لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام . أو هم ملائكة السماء ، ولم يؤمروا بالسجود ، وإنما المأثور ملائكة الأرض " روح المعاني : ج13 جـ23 ص333 .

والحقيقة أن كلام الشعراوي غير مسلَّم به من أن السجود لم يشمل إلا من كانت له مهمة مع الإنسان . وأرى أن الآيات خلاف هذا ؛ لأن الله سبحانه قال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) ﴾ (سورة ص) وهي تفيد عموم الملائكة ، وأن أحداً منهم لم يتخلف عنه . ولا يجوز أن نصرف هذا المعنى عن الآية إلا بوجود قرينة صارفة ، وحيث لا توجد قرينة فالنص على عمومه . ومعنى كلمة ﴿ عالين ﴾ في الآية ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (من الآية 75 سورة ص) كما ذكر الشوكاني وغيره : " أي المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله ، المتعالين عن ذلك " (1) .

ثانياً : صفات الملائكة :

الملائكة صنف من خلق الله ، خلقهم من نور ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ لأنه لا شهوة لهم ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولهم قدرة على التشكُّل والخروج من صورتهم النورانية إلى صورة البشر .

يقول الإمام الشعراوي : " وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث مع خليل الله إبراهيم عليه السلام ... لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرَّب العجل ، ورآهم لا يأكلون ، إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبرٍ ببشارة من الله .... وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول مَلَكاً وتمثل لها بشراً سوياً لينبئها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالمَلَك يتجسد في صورة بشرية " (2) .

وقال عند كلامه عن قصة الملكين ــ هاروت وماروت ــ الذيْن ورد ذكرهما في الآية 102 من سورة البقرة ، حينما رد على الذين يقولون بأنهما شربا الخمر ، وفعلا الفاحشة ، قال : " هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة ؛ لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله " (3) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) ﴾ (سورة البقرة) قال : " وقوله تعالى : « إن كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ إن الملائكة خلق من نور ، يسبحون الله ، ويفعلون ما يؤمرون ، نقول : إن قوله « إن كنتم صادقين » فيما قستم عليه الأحداث ، أو فيما قلتموه ضرباً من الغيب . فإن كانوا قد قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان في الأرض كالجن مثلاً الذين

---

(1) فتح القدير : ج4 ص551 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3516 ــ 3517 . وانظر تأكيداً لذلك كتاب العقائد الإسلامية : ص111 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص495 .

خلقوا قبل الإنسان ، يقول الحق تعالى : إنكم أخطأتم في قياسكم هذا . أو إن كنتم صادقين فيما تنبأتم به من الغيب ؛ فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى . فالقياسان جانبهما الصواب .

وليس هذا طعناً في الملائكة ، ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب " (1) .

فهذه صفات للملائكة يذكرها الشعراوي في سياق التفسير .

ثالثاً : رده على منكري وجود الملائكة :

يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) ﴾ (سورة الأنفال) . يقول الإمام الشعراوي في تفسير هذه الآية :

" وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن ، وقال : إنها القوى الميكانيكية في الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي ، فسبحانه يترك في مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبي إلى الذهن .... ومثال ذلك : كان اكتشاف الميكروب وهو موجود من قبل أن يُكتشف ، وكان يدخل في أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دلَّ ذلك على أنه كان موجوداً وإن كنا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حُدِّثتَ بأن لله خلقاً موجوداً ، وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه " (2) .

وهذا رد علمي منه ـ رحمه الله ـ على الذين ينكرون الملائكة ، ويؤولونها بما يخالف حقيقتهم .

المطلب الثاني : الجن :

الجن نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان ، ولكنهم مجردون عن المادة البشرية ، مستترون عن الحواس ، لا يُرَوْن على طبيعتهم ، ولا بصورتهم الحقيقية ولهم قدرة على التَّشكُّل . والمادة التي خلقوا منها هي النار ، وقد خُلقوا قبل آدم عليه السلام . وهم طوائف ، فمنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم الكافر وهم الأكثرية . والجن مفتقرون إلى الغذاء والطعام كسائر الحيوانات ، وهم يتوالدون ويتناكحون ، ولهم قدرة على التلبس بالإنسان الكافر أو العاصي ، وعلى استراق السمع من

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص247 .

(2) تفسير الشعراوي : ج8 ص4588 .

الملأ الأعلى . وأن الصالحين منهم سيدخلون الجنة وسينعمون فيها . والجن قوم لا يعلمون الغيب . وواجبنا نحوهم هو الإيمان بهم لأنه ركن أساسي في الدين ؛ لثبوت الأدلة القطعية على وجودهم (1) .

أولاً : الجن يرانا ولا نراهم :

هناك سؤال يحتاج إلى إجابة ، وهو أن الإنسان هل يمكن أن يرى الشيطان على صورته التي خلقه الله عليها ؟ ونجد الإمام الشعراوي يجيب عن هذا السؤال من خلال نصوص القرآن . يقول ــ رحمه الله ــ : " وبما أننا لا نرى الشيطان وهو يرانا ، ولا نعرف أين هو ، بينما هو يعرف أين نحن ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾(من الآية 27 سورة الأعراف) فلا بد أن نستعيذ بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره"(2)

وفي موضع آخر بيّن لنا الشعراوي أن الشيطان لا يظهر على صورته الحقيقية ، وهو يملك القدرة على التشكل ، والإنسان ربما يراه إذا خرج من صورته الحقيقية إلى الصورة التي تشكل فيها ، فعندئذٍ يراه الإنسان ، وهو في ذلك تحكمه الصورة .

يقول ــ رحمه الله ــ : " والشياطين لهم قدرة على التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه في صورة مادية ... وهو في هذه الحالة تحكمه الصورة ، فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ... ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها ، وهذا هو السر في إنه لا يبقى في تشكله إلا لمحة ثم يختفي في ثوانٍ " (3) . إذن فالشيطان إذا تمثل في صورة مادية ، أمكن للإنسان أن يراه . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **إن عفريتاً من الجن جعل يفتك (4) عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة . وإن الله أمكنني منه فَذَعَتُّه (5) . فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد ، حتى تُصبحوا تنظرون إليه أجمعون « أو كلكم » ثم ذكرتُ قول أخي سُليمان : رب اغفر لي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي . فردَّه الله خاسئاً** " (6) .

---

(1) انظر : علم الكلام : ص41 ــ 42 ، وعقيدة المؤمن : ص204 وما بعدها ، والعقائد الإسلامية : ص133 وما بعدها ، والعقيدة الإسلامية وأسسها : ص280 وما بعدها ، وتفسير الشعراوي : ج6 ص3720 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص29 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص493 .

(4) يفتك : الفتك : البطش أو القتل على غفلة . المنجد : مادة « فتك » .

(5) ذعته : أي خنقته . لسان العرب : مادة « ذعت » .

(6) **مس** : ك المساجد ومواضع الصلاة /ب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ... ج1ص384 (ح541) .

ثانياً : الشيطان والجن :

عندما نقول شيطان ، فهل هذا يعني أنه مخلوق آخر غير الجن ، أم أنه من جنسهم ؟ ومن هو إبليس ؟ يقول الإمام الشعراوي مجيباً على ذلك : " إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة ؛ لأن الملائكة لا يعصون الله ، ولأن الجن لهم اختيار كالإنسان تماماً . إن بعض العلماء يقسمون الأجناس المختارة إلى ثلاثة أقسام : الشياطين والجن والإنس ، ونقول لهم : إن هذا التقسيم غير صحيح ؛ لأن الجنسين المختارين من الله هما الإنس والجن ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) ﴾ (سورة الرحمن) . وفي سورة الجن نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) ﴾ (سورة الجن) وهكذا نرى أن الجن منه من هو صالح ، ومن هو فاسق ، وأن فَسَقَةَ الجن هم الشياطين " (1) .

وقال : " الشياطين هم العصاة من الجن ، والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) ﴾ (سورة الجن) وقوله سبحانه عن الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ (من الآية 14 سورة الجن) إذن الجن فيهم المؤمن والكافر ، والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي ، والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله " (2) .

إن الخلق الراقي ينقسم إلى أربعة أقسام : الملائكة والإنسان والجن والشياطين .

فالملائكة : عالم روحاني مستقل له خصائصه وصفاته وأحواله كما علمنا .

والجن : نوعان : شياطين لا خير فيهم ألبتة . وجن منهم الصالح ومنهم الفاسد ، فحالهم كحال الناس ، ومنهم البار ومنهم الفاجر ، ومنهم الكافر . بيد أن الشياطين أصلهم جن .

إن كل من يخبث ويتمرد وينقطع عن الخير من أفراد الجان يصبح شيطاناً ، فإذا عتا قيل فيه مارد ، وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت (3) .

وهكذا يظهر لنا الفرق في التسمية ، فالشيطان هو الكافر من الجن الذي تمرد على منهج الله .

ثالثاً : المس الشيطاني للإنسان :

لقد ضرب الله بالمس الشيطاني للإنسان مثلاً لآكل الربا ، حيث قال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

---

(1) الشيطان والإنسان ــ للإمام الشعراوي : ص13 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص488 ــ 489 .

(3) انظر : عقيدة المؤمن : ص213 .

الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (من الآية 275 سورة البقرة) ، وعن تخبط الإنسان من المس يقول الشعراوي : " و « لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » فكأن الشيطان قد مس التكوين الإنساني مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنساني له استقامة ملكات مع بعضها البعض ، فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسّه الشيطان فسد تآزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركاته غير رتيبة وغير منطقية " (1) .

لكن هل المس الشيطاني هو نفسه تلبس الشيطان للإنسان ؟ هذه مسألة بحاجة إلى تحقيق .

بدايةً نقول : إن الشيطان له القدرة على أن يجري في عروق الإنسان مجرى الدم ، والحديث في ذلك صريح وصحيح . فقد قال المصطفى ﷺ : " **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم** " (2) . وقد رد الشعراوي على منكري دخول الشيطان في عروق الإنسان ، حيث قال بعد ذكر الحديث السابق : " وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون : كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ، ويجري منها مجرى الدم ؟ ..." ثم تكلم عن الميكروبات ، وعن دخولها عروق الإنسان وجريانها فيه مجرى الدم . ثم قال : " فإذا قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » فلا تتعجب ولا تكذِّب ؛ لأنك لا تحس به . فالله أعطاك في عالم الماديات ما هو أكثر كثافة في الخلق ، ويدخل في جسدك ولا تحس به "(3).

فالشعراوي يثبت في هذا المثال أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم بالدليل العلمي ، وفي المثال السابق يثبت أن المس الشيطاني يؤثر في التكوين الإنساني بحيث يجعل حركات الإنسان غير رتيبة . لكن هل يستطيع الجن أن يتلبس بالإنسان ؟ الشعراوي ينكر هذه القضية ويبين أن كل ما يفعله الجن بالإنسان هو فقط وسوسة . يقول مجيباً على أسئلةٍ موجهة إليه بهذا الخصوص : " إن طبيعة الجن تختلف عن طبيعة الإنسان ، فالجن مخلوق من نار ، والإنسان مخلوق من طين ، وبالتالي لا يمكن أن يدخل الجن جسد الإنسان ، وأن الجن لا سيطرة له على الإنسان ، ولا يعلم الغيب ، ولا يتلبس بالإنسان ، وكل ما يفعله أنه ينزغ في الإنسان بالوسوسة " (4) .

وقد أكد الشعراوي هذه القضية بطرق أخرى أكثر من مرة في سياق كلامه عن نفس

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1187 .

(2) أخرجه **خ** : ك الاعتكاف / ب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ج1 جـ2 ص317 (ح2038) .

و **مس** : ك السلام / ب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة ... ج4 ص1712 (ح2174) و(ح2175) .

(3) تفسير الشعراوي : ج8 ص5005 ، 5006 .

(4) رحلات الشعراوي في أوربا وأمريكا ــ سعيد أبو العينين : ص78 ــ 79 .

الموضوع . وقد أنكر بعض المتأخرين كذلك هذه المسألة ــ تلبس الجن بالإنسان ــ .
وخلاصة رأي الشعراوي ؛ أنه يثبت المس الشيطاني الظاهري للإنسان ، بحيث يؤثـر في ملكاته لتكون حركاته غير رتيبة . وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم دون أن يحس الإنسان به . وأنه ينكر تلبس الشيطان بالإنسان .
والحقيقة أن قضية تلبس الشيطان بالإنسان قضية مسلَّم بها . وفصل الخطاب فيها أن الجـن يتلبس بالإنسان ، والواقع يثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك . إن حالات الصرع التي لا يكـاد يخلو منها مكان من الأمكنة في هذه الأيام ، بل ولا زمان من الأزمنة منـذ فجـر التـاريخ ــ ونعني بالصرع هنا : الحالات التي تسببها الشياطين ؛ لأن هناك صرع يمكـن معالجتـه بالأدوية ــ ، ثم تَكَلُّم الجان على لسان الشخص الذي يحل فيه ، ويتلبس به ، وإخباره بـأمور لم يكن الإنسان المصاب يعلمها ، حتى إن بعضهم ليتكلم بلغات لم يكن المصاب يعرف منـها حرفاً واحداً ، ثم خروج الجن من الجسد بعد تهديده وتخويفه من الراقي ، مع ما يحدثه مـن أثر كالجرح الذي يدلل على خروجه . هذا كله يؤكد تلبس الجن بالإنسان ، وكما قالوا : ليـس مع العين أين . فلا عجب من هذه الظاهرة ، ما دام الواقع أثبتها بما لا يدع شكاً ، ولا يبقـي في النفس ريباً [1] .
وعلى أيٍّ ، فهذا هو منهجه فيما يتعلق بالجن .

المطلب الثالث : السحـر :

السحر علم لا طائل منه ، ولا يعود على صاحبه إلا بالوبال في الدنيا ، والخسران المبين فـي الآخرة .

أولاً : تعريف السحر لغة واصطلاحاً :

لغة : السِّحْر : هو إخراج الباطل في صورة الحـق ، ويقـال : هـو الخديعـة . والسَّـحَر والسُّحْرة : وقت ما قبل الصبح [2] .

اصطلاحاً : هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببهـا للمسحـور مـا

(1) أكد هذه الظاهرة على هذا النحو الذي ذكرناه الشيخ أبو بكر الجزائـري . (انظـر عقيـدة المؤمـن : ص204) . وقد عُقِدت محاورات حول هذا الموضوع في التليفزيون الفلسـطيني ، واستُدعي المؤيـدون والمعارضون لحدوث هذه الظاهرة ، وكانت حجة المؤيدين أقوى مـن حجـة المعـارضين ، علمـاً بـأن المعارضين كانوا قلة قليلة لا تكاد تُذكر . وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على تأكيد حدوث هذا الأمر .

(2) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة (سحر) .

يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع كمن يرى السراب فيظنه ماء [1] .

وهذا التعريف للسحر ينقصه ما يدل على أن السحر له حقيقة ، وليس تخييل .

ثانياً : معنى السحر عند الشعراوي :

يقول الإمام الشعراوي : " الكلمة مشتقة من « سَحَر » وهو آخر ساعات الليل ، وأول طلوع النهار ، حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شئ غير واضح . هكذا السحر شئ يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع .... وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وفرعون ، ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ، ولكن عينيه لا يسحرهما أحد " قال : " إذن فالسحر تخيل ، والساحر يرى الشئ على حقيقته ؛ لذلك فإنه لا يخاف ، بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون أن الشئ قد تغيرت طبيعته ؛ ولذلك سجد السحرة ؛ لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحراً ، ولكنها فوق طاقة البشر " [2] .

وقال أيضاً : " السحر تأثيره على العين ، فالعين هي التي تُسحَر لترى أشياء ليست واقعة ، ولا هي حادثة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (من الآية 116 سورة الأعراف) ، إذن فهو خداع النظر ، العين تُسحَر والنظر يُخدَع ، والمادة لا تتغير " [3] .

والسحر الذي يقصده الشعراوي هنا هو ما يسمى بالشعبذة ، حيث تظهر الأشياء على غير حقيقتها [4] . أما عن كون السحر هل له حقيقة أم لا ؟ فقد اختلفوا في ذلك ؛ فقيل : إنه خداع لا أصل له ولا حقيقة . وهو قول المعتزلة وأبي حنيفة . وذهب من عداهم إلى أن السحر له حقيقة مؤثرة [5] .

والصحيح أن السحر واقع في حياة الناس ، وله حقيقة تؤثر في المسحور ، وإلا فما فائدة قوله تعالى : ﴿ يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (من الآية 102 سورة البقرة) ؟ والواقع يثبت أن له حقيقة مؤثرة ، إذ هناك من توفي بسبب السحر ، ولولا الكفر المترتب على السحر لما جعل الله جزاء الساحر القتل .

---

(1) فتح القدير : ج1ص153 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص492 ، 493 .

(3) السحر والحسد ــ للإمام الشعراوي : ص24 ــ 25 .

(4) انظر : تفسير ابن كثير : ج1 ص139 .

(5) انظر : فتح القدير : ج1 ص153 .

ثالثاً : علاقة السحر بالجن :

لقد أنزل الله ملكين من السماء ، وجعل وظيفتهما تعليم السحر ، وهذان الملكان هما (هاروت وماروت) ، ثم أخذت الشياطين تعلم الناس السحر ، ويقول الإمام الشعراوي : " الثابت أن للشياطين علاقة بالسحر ، وأنهم هم الذين علموه ونشروه بعد أن نزل به الملكان ببابل هاروت وماروت . والله تبارك وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن الشياطين بعد أن نزل السحر فتنوا به الناس ؛ لأنه فتنة وكفر .... والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ (من الآية 102 سورة البقرة) ، وما دام الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا أن الشياطين يعلّمون الناس السحر ، فلا بد أن للشياطين دخلاً كبيراً بالسحر " [1] . وقال : " والساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان ، وهو مخلوق من نار خفيف الحركة ، قادر على التشكل وغير ذلك " [2] .

إذن عِلْم السحر عند الشياطين ، والساحر يستعين بهم فيما لا يعود عليه بفائدة ، ولا يعود على المسحور إلا بالضرر . ولذلك كان السحر كبيرة من الكبائر ، وواحد من السبع الموبقات التي أمرنا النبي ﷺ أن نجتنبها . عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : " **اجتنبوا السبع الموبقات** . قيل : يا رسول الله ! وما هن ؟ قال : " **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** " [3] .

رابعاً : السحر يضر ولا ينفع :

والسحر يضر ولا ينفع ، عن هذا يقول الإمام الشعراوي : " أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يُفزع كيانه ؛ لأنه ينتهي إلى قوة خفية ، إذ ليس أمام الذي يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منها " [4] .

وقال في موضع آخر : " الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يُسخِّر الجن ، يدعي أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة ؛ لأن هذا يغريه على الطغيان " قال : " إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع ، فهو لا يجلب نفعاً أبداً حتى لمن يشتغل به ، فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر ، فهم أفضل منه ... وتجد شكله غير طبيعي ، وحياته غير مستقرة ، وأولاده منحرفين . وكل من يعمل

---

(1) السحر والحسد : ص36 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص494 .

(3) **مس** : ك الإيمان / ب بيان الكبائر وأكبرها ج1ص92 (ح89) .

(4) تفسير الشعراوي : ج4 ص2167 .

بالسحر يموت فقيراً لا يملك شيئاً ، وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة في آخر حياته . إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر . والذي يشتغل بالسحر يموت كافراً ، ولا يكون له في الآخرة إلا النار " [1] .

وهكذا يظهر لنا ضرر السحر ، سواء على المسحور ، أو على الساحر .

خامساً : الفرق بين المعجزة والسحر :

قال ــ رحمه الله ــ في تفريقه بين عصا موسى والسحر : " الساحر يلقي العصا فيراها الناس حية ، وهو يراها عصا ؛ لأن الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى لأنها تغيرت وصارت حية فعلاً ، ولذلك قال له الله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى (21) ﴾ (سورة طه) فلو كانت من جنس السحر لما أوجس في نفسه خيفة ؛ لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق " [2] .

والمعجزة لا دخل للرسول بها ، وإنما هي من فعل الله تعالى يجريها على يدي الرسول تصديقاً له في دعواه . قال ــ رحمه الله ــ عن سحرة فرعون : " فلما رأوا عصا موسى تتحول إلى حية هائلة ، عرفوا أن هذا ليس سحراً ولكنه حقيقة ... ولا يقدر أن يحول العصا إلى حية حقيقية إلا الله سبحانه وتعالى ، فعرفوا أن ما حدث أمامهم هو معجزة ، لا يقدر عليها إلا الخالق ، وعرفوا أن موسى عليه السلام رسول من الله وليس ساحراً " [3] .

فهذه أبرز القضايا التي تناولها الشعراوي عن السحر . وقد اتضح لنا أن منهجه ــ رحمه الله ــ في ذلك ، وهو منهج أهل السنة والجماعة ، وهو لا يخرج عن رأي السلف في تصوره للجن .

المطلب الرابع : عذاب القبر ونعيمه :

معلوم أن بين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولى ، والبعث الذي تبتدئ به الحياة الآخرة فترة زمنية تسمى « البرزخ » . وفي هذه الفترة مرحلة من مراحل الجزاء الرباني بالثواب والعقاب ، وهما من الحقائق الغيبية التي تثبت بالدليل اليقيني المتواتر . ولهذا ، فقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص494 ، 496 .

(2) تفسير الشعراوي : ج3 ص1472 ــ 1473 .

(3) السحر والحسد : ص29 .

الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به [1] .

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾ (سورة هود) : " والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام : حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ ، ساعة يبعثون يبدأ الزمن الثالث . والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء مجرد عرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة ، وفيها الحساب على العمل فيؤدي إما إلى الجنة وإما إلى النار .... ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه وتعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) ﴾ (سورة غافر) وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : " **القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار** " [2] . إذن فهنا زمنان ، زمن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، وزمن دخولهم النار ، وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب " [3] .

ويقول ــ رحمه الله ــ : " وهل يوجد عذاب لأصحاب القبور ؟ والجواب : إنه لا عذاب إلا بعد الحساب . وإن كان الإنسان ــ وهو في قبره ــ يرى مقعده من النار ومقعده من الجنة ، لماذا ؟ ليعرف المؤمن فضل الله تعالى عليه ؛ لأنه نجَّاه من النار ، ويدرك هذا الفضل عندما يرى النار ولهيبها ، ويرى الجنة ونعيمها " [4] .

---

(1) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص399 ، والعقيدة الإسلامية وأسسها : ص642 ــ 643 ، وكبرى اليقينيات الكونية : ص311 .

(2) أخرجه : **تر** : ك صفة القيامة ، عن أبي سعيد الخدري : ج4 ص639 ــ 640 (ح2460) قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . والطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة : ج8 ص326 (ح8613) . وقال الهيثمي عن إسناد الطبراني : فيه محمد بن أيوب بن سويد وهو ضعيف . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــ للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ) : ج3 ص46 .

(3) تفسير الشعراوي : ج11 ص6522 ــ 6524 . وتأكيد هذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة . وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار . يُقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " . ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها / ب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه .. ج4ص2199 (ح2866) .

(4) الحياة والموت ــ للإمام الشعراوي : ص55 .

وإذا كنا نتفق مع الإمام الشعراوي في إدراك النعيم للمؤمن عندما يرى مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فلا نتفق معه في أنه لا عذاب إلا بعد الحساب ؛ لأن الأحاديث صريحة في عذاب القبر ونعيمه . فهذا الإمام مسلم ــ رحمه الله ــ يروي بإسناده عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتاً ، فقال : " يهود تُعذَّب في قبورها " [1] .

وروى أيضاً عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : مر رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : " أما إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ... الحديث " [2] .

والأحاديث في ذلك أشهر من أن تُذكر ، فلا حجة للشعراوي فيما ذهب إليه ، وقد علمنا أن عذاب القبر ونعيمه ثبت بالدليل اليقيني المتواتر .

الشهيد حي يُرزق :

يقول الإمام الشعراوي : " الشهيد في القتال هو الذي يُقتل في المعركة ، وهذا سيكون حياً ويُرزق عند ربه ، وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاماً وتراباً ، وهذا يعني أنه سلب الحياة ، لا إن الله وضح أن الشهيد حي عنده ، وليس حياً عندنا ... ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) ﴾ (سورة آل عمران) . إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها " [3] .

فالشهيد وإن فارقت روحه جسده ، فإنه يبقى في دائرة الأحياء عند الله . وقد قال ﷺ عن الشهداء : " **أرواحهم في جوف طير خُضْر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شئ نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات . فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسْألوا ، قالوا : يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتَل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا** " [4] .

فهذه هي أبرز القضايا التي تناولها الشعراوي في هذا المطلب .

---

(1) **مس** : ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها / ب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ج4 ص2200 (ح2869) .

(2) **مس** : ك الإيمان / ب الدليل على نجاسة البول ... ج1 ص240 ــ 241 (ح292) .

(3) تفسير الشعراوي : ج3 ص1784 ــ 1785 .

(4) **مس** : ك الإمارة / ب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ... ج3ص1502 (ح1887) .

المطلب الخامس : البعث والحساب :

يعتبر يوم القيامة من أخطر قضايا العقيدة ؛ لأن الإنسان إذا وقر في قلبه أن الله سيحاسبه على كل فعل يفعله ، وكل قول يقوله يوم الحساب ، حينئذٍ يهذب أقواله وأفعاله ، ويحسّن سلوكه ، فتستقيم بذلك أمور الحياة ، وتصلح أمور الآخرة .

يقول الإمام الشعراوي : " إن الدين كله بكل طاعاته ، وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً في الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، وليحاسب المخطئ ويثيب الطائع ، هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الإيمانية " (1) .

ولو نظرنا إلى القرآن الكريم ، لوجدناه يهتم بهذا اليوم اهتماماً بالغاً . ومن مظاهر الاهتمام به أن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما يربط الإيمان به بالإيمان بالله ﷻ ، وأنه سبحانه أكثر من ذكر اليوم الآخر في القرآن الكريم ، حتى إنك لا تكاد تمر على صحيفة من صحائف القرآن إلا وتجد فيها حديثاً عن اليوم الآخر . ومن مظاهر الاهتمام به كذلك كثرة ما سماه به الله من الأسماء ، كالقيامة والساعة والصاخة ..... إلى غير ذلك من الأسماء (2) .

ولم يكن هذا الاهتمام قد جاء عبثاً ، وإنما جاء لحِكَمٍ سامية ؛ أهمها : أن يجعل الإنسان لحياته غاية وهدفاً ، هذه الغاية هي فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، والتحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، أي تحقيق معنى الخلافة (3) .

ويقول الإمام الشعراوي : " إن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدي ، فإن استقر في القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التي تسير على ضوء منهج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى " (4) .

وهكذا تكون الاستقامة في الكون عندما يعلم الإنسان أن الله سيقتص من الظالم للمظلوم ، وسيأخذ لكل ذي حق حقه .

أولاً : البعث والحساب ممكن عقلاً :

إن من العدل الإلهي أن يكون هناك بعث وحساب ، لئلا تُهدر الحقوق ، وتضيع المظالم .

يقول الإمام الشعراوي : " إن المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شك فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب لكان الذين انحرفوا في الحياة الدنيا ،

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص73 .

(2) انظر : الإيمان ــ ياسين : ص58 ــ 59 ، والإيمان ــ للشرقاوي : ص291 وما بعدها .

(3) انظر : العقائد الإسلامية : ص264 ــ 265 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص1143 .

وخاضوا في أعراض الناس ، وأخذوا أموالهم ، وعاثوا في الأرض فسادا هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا في سذاجة ، فالمنطق يقتضي أنه ما دام قد وجد أناس ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدي عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حسابا " [1] .

إذن ، البعث والحساب حقيقة مسلم بها عقلاً . إن الذي خلق الإنسان من عدم ، وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، ووهبه الحياة ومقوماتها إلى الوقت الذي يسلب عنه هذه الحياة ، فإيجاد الإنسان من الطين أمر ممكن ، وبعثه بعد موته أمر ممكن أيضاً ، وقدرة الله تتعلق بالممكنات إيجاداً وعدماً ، فالذي خلق الإنسان من لا شئ أول مرة قادر على أن يبعثه بعد موته مرة أخرى [2] .

وهكذا نعرف أن العدل الإلهي ، والمنطق السليم يقتضي أن يكون هناك بعث وحساب .

ثانياً : مبدأ الحساب قائم على كون الإنسان مختاراً :

هناك قضية مهمة يقوم عليها الحساب ، ألا وهي أن الإنسان مخلوق مختار لأفعاله . يقول ــ رحمه الله ــ : " إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً . فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان ، وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل ، وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة ... لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة " [3] .

إذن الحساب يقوم على كون الإنسان مختاراً ، وهذا كمال العدل الإلهي .

ثالثاً : رد الشعراوي على منكري البعث :

أثيرت حول البعث والنشور شبهات كثيرة ، وأنكر البعث والحساب خلق كثير ، ولا يزالون ، وربما استندوا على حجج هاوية ، ولعل من أقوى حججهم في ذلك ، قولهم : هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض ، ألا تذهب عناصره إلى كائنات أخرى مثل شجرة أنتجت ثمرة أو غير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن ، فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كل إنسان من جديد ؟

ويرد الإمام الشعراوي على هذه الحجة الداحضة بقوله : " هذه أقوى حجة للفلاسفة في استبعاد أمر البعث والميعاد يوم القيامة . لكنهم لم يفطنوا إلى أن العناصر الخام في ذاتها لا

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2511 .

(2) انظر : نظرات في علم الكلام عرض ونقد ــ د . أحمد عبد الخالق : ص160 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص452 .

تتميز . بمعنى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق الإنسان ، فإنما يخلقه مكوناً من 16 عنصراً ، وهي العناصر التي تتكون منها الأرض ، وحين يموت تذهب في الأرض فتصير من جملة عناصرها . إن التكوين الشخصي لكل إنسان لا يعني أن الإنسان مكون من عناصر أخيه ، صحيح أن العناصر واحدة ، ولكن المختلف فيه نسبة هذه العناصر ، فهذا 67% ، وهذا 67.1% ، وهذا 67.01% . إذن فاختلاف الشخصيات إنما ينشأ لا من تلك العناصر ، وباختلاف النسب تختلف الشخصيات . فأنت إذا جئت لإنسان وحللته ، وبعد ذلك قلت : فيه ذرات كذا ؛ أوكسجين ، كربون ، هيدروجين ، نيتروجين ، ماغنيسيوم ، فوسفور ، صوديوم ، بوتاسيوم يود ، كل عنصر بنسبة كذا . ثم حللت إنساناً آخر وجدت فيه أيضاً هذه العناصر ، ولكن بنسب تختلف عن بعضها ، بدليل أن الإنسان تحصل له انحرافات صحية ، فيذهب إلى الطبيب فيحلل له ، فيجد أن العنصر الفلاني ناقص عما ينبغي أن يكون ، فيعطيه مثلاً الفوسفور ، أو يعطيه الحديد ، أو يعطيه اليود " . إلى أن يقول : " إذن فاختلاف الشخصيات إنما ينشأ من اختلاف نسب العناصر " (1) .

فهذا رد منطقي منه ــ رحمه الله ــ على منكري البعث من الفلاسفة الذين احتجوا بتلك الحجة الباطلة . فيرد الشعراوي عليهم بأن جنس الإنسان كله مكون من 16 عنصراً ، لا يختلف فيها إنسان عن إنسان آخر ، وإنما الذي يختلف هو نسبة بعض العناصر من حيث الزيادة أو النقصان . فكيف يُقال بعد ذلك أن أجزاء إنسان دخلت في أجزاء إنسان آخر ؟ .

وفي موضع آخر يقول : " وقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أن ينكروا قضية البعث ، وهم في هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بنفس الكلام الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى . واقرأ قوله تعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ (من الآية 24 سورة الجاثية) .... والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين " (2) .

وهكذا يظهر لنا كيف بيَّن الشعراوي أهمية البعث ، وأنه ممكن شرعاً وعقلاً ، ورد على المنكرين له بحجج دامغة .

---

(1) تفسير القرآن العظيم ــ للشعراوي : جـ2 ص109 ــ 110 بتصرف . وانظر تفسير الشعراوي : ج9ص5727 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص226 ــ 227 . وانظر : نظرات في علم الكلام : ص160 .

المطلب السادس : الجنة والنار :

الجنة أو النار نهاية كل إنسان ، فالجنة جزاء المؤمنين ، والنار جـزاء الكـافرين . والجنـة والنار مخلوقتان من مخلوقات الله ﷻ ، خلقهما قبل الخلق ، وهما موجودتـان الآن ، وهمـا شيئان ماديان . ونعيم الجنة ، وعذاب النار باقيان إلى الأبد ، فلا نهاية لـهما أو لأحدهمـا . هذه أمور لا بد من أن يعتقدها المؤمن . ونحن كبشر محدودي الإدراك لا سـبيل لنـا إلـى وصف الجنة ونعيمها ، ولا النار وأهوالها ، وإنما نقول : إن الجنة فيها أنواع لا تُحصى مـن النعيم المادي والروحاني ، وأن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلـب بشر . وأنها درجات ، وأعلى نعيم الجنة فيها رؤية الله ﷻ .

وأن في النار أنواعاً رهيبة من العذاب المادي والروحاني ، وأنها دركات ، والمنـافقون فـي الدرك الأسفل منها [1] . وكل فريق خالد فيما قدم لنفسه . يقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَـةً فِـي جَنَّـاتِ عَـدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) ﴾ (سورة التوبة) .

يقول ـــ رحمه الله ـــ عن خلود أهل الجنة وأهل النار : " إن الجنة والنـار لـهما خطـان ، وبمجرد أن يُحاسب الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذي يحاسب من الكفـار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ، ويبقى فيها خالداً ... والذيـن عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداءً وخلوداً . أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنـة إلا بعد أن ينالوا جزاءهم من العقاب ، وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين في الجنة ناقصاً مـن البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم في النار ناقص من الآخر ؛ لأنـهم لم يخلدوا فيها " [2] .

وهكذا تكون نهاية المؤمن الخلود في الجنة سواء دخل النار ابتداءً أو لم يدخلها . وأن الكـافر يخلد في النار أبداً . لكن دخول العصاة النار ليس على إطلاقه كما قال الشعراوي ، إذ هنـاك أسباب تمنع من وقوع العقاب أو دخول النار ، والتي منها التوبـة ، وشـفاعة الشـافعين ، ورحمة رب العالمين ، ودعاء الصالحين ، وعذاب القبر .. إلى غير ذلك من الأسباب [3] .

---

(1) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص420 ، والإيمان ـــ ياسين : ص95 ، والعقيدة الإسلامية وأسسـها : ص660 ـــ 661 ، وكبرى اليقينيات الكونية : ص358 ـــ 362 والعقائد الإسلامية : ص291 وما بعدها .

(2) تفسير الشعراوي : ج9 ص5323 ـــ 5324 .

(3) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص327 ـــ 330 . فقد ذكر أحد عشر سبباً تمنع من دخول النار .

أولا : الفرق بين نعيم الجنة ونعيم الدنيا :

شتان بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، شتان بين نعيم زائل ونعيم دائم . إن الفرق بينهما كالفرق بين النقيضين . ولقد ذكر الإمام الشعراوي في طيات تفسيره فروقا بينهما ، وهي :

1 ـ نعيم الدنيا زائل ، ونعيم الآخرة دائم . وعن هذا يقول : " الفوز في الدنيا كالنجاح أو غير ذلك هو فوز معرض لأن يضيع . وهو عرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذي لا ينتهي . وهذا هو الفارق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة " (1) .

2 ـ نعيم الدنيا محدود ، ونعيم الآخرة غير محدود . وقد أشار إلى هذا بقوله : " إن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، والجنة كما نعلم من قول رسول الله ﷺ : " **إن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر** " (2) " إلى أن يقول : " وهكذا نعلم أن في الجنة نعيما لا توجد ألفاظ تؤدي كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أن في النار عذابا لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه " (3) .

فعدم وجود ألفاظ تعبر عن المسميات في الجنة دلالة على عدم محدودية نعيمها .

3 ـ نعيم الدنيا لا يمكن الحصول عليه إلا بعد جهد ومقدمات وأسباب له ، بينما نعيم الآخرة بدون أسباب . يقول ـ رحمه الله ـ : " ومهما ارتقى الإنسان في الابتكار والاختراع فلن يصل إلى أي خير مما في الآخرة ؛ ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المعطي الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى " (4) .

4 ـ وفوق كل هذا أن أعلى منزلة لأصحاب الجنة أن يرى الإنسان ربه رأي العين ، وهذا ما يستحيل في الدنيا . وعن هذا يقول : " والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائما " (5) .

ثانيا : خروج العصاة من النار :

سبق في بداية هذا المطلب أن ذكرت مثالا على هذا من تفسيره ، ويقرر ذلك أيضا ، فيقول : " إن المؤمن الذي عصى الله لن يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقضي فترة في

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3539 .

(2) أخرجه مس : ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج4 ص2175 (ح2825) .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص3579 . وانظر : علم الكلام : ص36 ـ 37 .

(4) تفسير الشعراوي : ج6 ص3542 ـ 3543 بتصرف .

(5) تفسير الشعراوي : ج9 ص5325 . وانظر : عقيدة المؤمن : ص369 .

النار ثم يدخل الجنة " [1] .

ثالثاً : رده على منكري النعيم المادي :

يطرح الشعراوي شبهة حول نعيم الجنة ، ويرد على القائلين بأنه نعيم روحاني وليس مادي . فيقول : " ... أما أن يُقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحي أو نعيم الخواطر ، أو ما نسميه آمال النفس ، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك ، فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث ، فكل هذا غير حقيقي ، ولكنهم يقولون هذا الكلام ؛ لأنهم إذا ما تصوروا أن نعيم الجنة كالخواطر ، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة ، أي سيكون عذاب الخواطر ، وفي هذا تصور لعذاب سهل ؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً . ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون واقعاً يشبهه في الدنيا ، وإلا ما وُجد في أنفسنا ما يجعلنا نرغب في نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار . لذلك فإن نعيم الجنة حق ، وعذاب النار حق " [2] .

فهذا رد منطقي منه ــ رحمه الله ــ على المنكرين للنعيم في الجنة ، لأنه لو لم يكن كذلك ، لكان عذاب النار مثله عذاباً روحياً ، فأين الإحساس والتذوق للعذاب ؟ والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (56) ﴾ (سورة النساء) . إن الجلود تتبدل بعد احتراقها ليظل العذاب مستمراً ، فأنى يُقال بعد ذلك : عذاباً روحياً ، ونعيماً روحياً ؟! .

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا المبحث منهجه ــ رحمه الله ــ في أمور الغيب ، وكيف أنه رد على من أنكر شيئاً منها .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص681 . ذكر الميداني أن آخر من يخرج من عذاب النار يوم القيامة رجل يُسمى « جهينة » . انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص660 .

(2) تفسير الشعراوي : ج8 ص5026 ــ 5027 .

المبحث الثالث : منهجه في القضاء والقدر :

مدخل إلى المبحث :

من المعلوم بداهة أن الله خلق كل شئ فقدره تقديراً ، وأن كل شئ موجود أوجده الله على غير مثال سبق . والله ﷻ يتصرف في ملكه كيف يشاء دونما منازع ، فلا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

أ) معنى القضاء والقدر :

القضاء : هو علم الله ﷻ في الأزل بالأشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل .

والقدر : إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها .

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء . والأمر محتمل ، والخَطْب فيه يسير (1) .

ب) فائدة الإيمان بالقضاء والقدر :

للإيمان بالقضاء والقدر فوائد عظيمة ، ذُكر منها :

1 ــ إنه طمأنينة للقلب وهدوؤه ، وراحة البال .

2 ــ عدم اليأس ، فلا ييأس الشخص على ما فاته .

3 ــ التواضع وخفض الجناح لأهل الإيمان ، فإذا علم المرء أن ما هو فيه من النعيم والفضل إنما هو من الله تعالى ، تواضع لله وخضع .

4 ــ إنه يرزق الشخص القناعة ، ويكسبه الشجاعة ، ويورثه خصال الخير ، ويبعده عن خصال الشر (2) .

5 ــ إنه يثبت للشخص صفة الإيمان ، وينفي عنه صفة الكفر من هذه الزاوية ، وهذا يترتب عليه الفلاح في الآخرة .

وسوف أتناول منهجه ــ رحمه الله ــ في القضاء والقدر من خلال عدة أصول :

أولاً : المشيئة والإرادة :

لا بد في البداية أن نفرق بين مشيئة الله الكونية والمشيئة الشرعية ؛ لأن مشيئة الإنسان تدخل تحت نوع واحد من هاتين المشيئتين . يقول ــ رحمه الله ــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

---

(1) كبرى اليقينيات الكونية : ص160 .

(2) انظر كتاب القدر ــ تأليف أبي عبد الله مصطفى بن العدوي : ص81 وما بعدها .

خَاسِرِينَ (21) ﴾ (سورة المائدة) : " وما الفرق بين الكوني والتشريعي ؟ ـ أي المشيئة الكونية والتشريعية ـ إن الكوني يقع لأنه لا معارض في الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها ، ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعاً مصلياً ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها . لكن الإرادة الكونية هي فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان " (1) .

فهذا هو الفرق بين الإرادتين ـ الكونية والشرعية ـ . ونلاحظ أن إرادة الإنسان ومشيئته لا تتعدى الإرادة التشريعية ، إذ ليس له طاقة فيما يختص بالإرادة الكونية ، ولذلك خلقه الله مختاراً لأفعاله .

ثانياً : أفعال العباد بين الجبر والاختيار :

معلوم أن أفعال العباد مزيج بين الجبر والاختيار ، فلا هو الذي يختار كل أفعاله وحركاته وفق مشيئته كما قالت المعتزلة ، ولا هو مقهور مقسور على أفعاله كما قالت الجبرية ، وإنما هو مزيج بين هذا وهذا (2) .

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (من الآية 78 سورة النساء) : " ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء في أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أي فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذي يجري على عباده الأفعال ؟ . فإذا كان العبد هو الذي يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب والعذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذي يجري كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ . ودخل العلماء في متاهات كبيرة " ويجيب الشعراوي على هذا السؤال . وخلاصة ما ذكر في المسألة قوله : " إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا ـ غالباً ـ يعرف العضلات التي تتحرك لتحمل هذا الشئ ، فالذي فعل حقيقة هو الله . واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ، أم شراً ، فالفاعل الحقيقي لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر . فاليد صحيح أن الإنسان ليس له دخل في العمل ذاته ولكن له دخل في توجيه الطاقة الصانعة للعمل ، فالثواب أو

(1) تفسير الشعراوي : ج5ص3050 ، وانظر تأكيد ذلك وتفصيله : شرح العقيدة الطحاوية : ص114 ـ 116
(2) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص436 ـ 437 .

العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة " (1) .

إن أفعال العباد تتوقف على أمرين : وجود هذا الفعل في الخارج ، واكتسابك له عن طريق انبعاثك نحوه . فأنت مريد مختار بوصفك كاسباً ومنبعثاً إليه ، لا بوصفك خالقاً وموجداً لمقوماته وعناصره (2) .

وهكذا نعرف أن الإنسان مخلوق مختار لفعله في إطار ما خلقه الله له . ولذلك كانت حجة المشركين باطلة فيما زعموه من أن شركهم كان بمشيئة الله . فقد أخبرنا الله عنهم فقال : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ (من الآية 148 سورة الأنعام) . وهنا نجد الشعراوي يرد عليهم بأن قولهم « لو شاء الله ما أشركنا » صحيح المعنى ، لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختيار ، وفي إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية ، بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي ، وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ، فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار (3) .

فحجة المشركين في أن الله أجبرهم على الشرك والكفر باطلة .

ثالثاً : الهدى والضلال :

وهي مسألة وطيدة الصلة بأفعال العباد والمشيئة . والهداية ثمار عمل صالح ، والضلال ثمار عمل قبيح . وإسناد الهداية والإضلال إلى الله من حيث إنه وضع نظام الأسباب والمسببات ، لا أنه أجبر الإنسان على الضلال أو الهداية . وحينما نرجع إلى الآيات نجد المعنى واضحاً لا لُبس فيه ولا غموض (4) .

وقد تكلم الإمام الشعراوي عن هذه المسألة التي وقعت فيها الحيرة والخلاف ، فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)﴾ (سورة الأعراف) قال : " والمعركة الخاصة بقضية الهدى والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة حتى الآن ؛ لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟ وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة . ونقول لكل مجادل : لماذا

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4ص2442 ، 2444 . وتصديق ذلك وتأكيده انظر نظرات في علم الكلام : ص110

(2) انظر : كبرى اليقينيات الكونية : ص163 .

(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج7 ص3979 .

(4) انظر : العقائد الإسلامية : ص106 ــ 108 ، وعقيدة المؤمن : ص451 .

قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولمـــاذا لا تذكـر الثـواب إن أحسنت وآمنت ؟ " .

ثم تكلم بعد ذلك عن مسألة خلق أفعال العباد على نحو ما سلف ذكره . ثم قال بعدها :

" وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهي للجميع ؛ للمؤمن والكافر ؛ لأن الحـق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به فـإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه " (1) .

فالهداية إما هداية دلالة ، وإما هداية معونة . والأولى عامة ، والثانية خاصة بالمؤمنين .

وفي موضع آخر يقول : " إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، فهو « يهدي » أي يدل النـاس على طريق الخير ، وهناك هداية أخرى معنوية ، وهي من الله ولا دخل للرسول ﷺ فيـــها ، وهي هداية المعونة " (2) .

ولهذا نجده ــ رحمه الله ــ كثيراً ما يحل الإشكال الواقع في مسألة الهداية ، خاصة ما يوهـم التعارض بين الآيات . على سبيل المثال ما ورد عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾ (سورة البقرة) ، حيث بيَّن ما يُوهم التناقض بين قولـــه تعـــالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (من الآية 56 سورة القصص) ، وقولــــه تعالى : ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) ﴾ (ســورة الشـورى) ، وحـل الإشـكال الظاهري بينهما بأن الهداية في الآية الأولى هي هداية المعونة ، وفي الآيـــة الثانيـــة هدايـــة الدلالة (3) .

رابعاً : زيادة الإيمان ونقصانه :

زيادة الإيمان ونقصانه قضية ثابتة شرعاً . قال في شرح العقيدة الطحاويـــة : " والأدلـــة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً ..." ثم شـــرع فـــي ذكر الأدلة وبيانها (4) .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص4470 ، 4471 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص911 . وانظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل : ج2جـ3ص44 ــ 45 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص122 ، وانظر ج2 ص911 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية : ص342 وما بعدها . ومن الأدلة على ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحـه عن أبي هريرة ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : " **لا يزني الزاني حين يزني وهـــو مؤمـــن ، ولا يســرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** " . ك الإيمـــان / ب بيـــان نقصان الإيمان بالمعاصي ... ج1 ص76 (ح57) . فالإمام النووي ــ رحمه الله ــ أخذ من هذا الحديـث أن الإيمان ينقص بالمعاصي ، ويزيد بالطاعات . وانظر : علم الكلام : ص83 ــ 85 ، فقد ذكر ابن حزم =

والذي يهمنا هو رأي الشعراوي في هذه المسألة . يقـــول ـــ رحمـــه الله ـــ : " واختلـــف العلماء
فيما بينهم في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال : إن الإيمان لا يزيـــد ولا ينقص ، ومن العلماء من قال : إن الإيمان يزيد وينقص . والذين قالوا بأن الإيمان لا يزيـــد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقمة العقدية ، وهي الإيمان بالله . والذين قـــالوا بـــأن الإيمان يزيد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التي ينزلها الله ، وأخذوا ذلك من قولـــه الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّـــا الَّذِيـــنَ آمَنُـــوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) ﴾ (سورة التوبة) ، فكل آية تنزل بأحكام جديدة فهي تزيـــد الإيمان " [1] .
إذن رأي الشعراوي في هذه المسألة هو التوفيق بين العلماء ، وبيَّن أن اختلافـــهم صـــوري وليس جوهري .
وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) ﴾ (سورة الأنفال) أكد ما ذكره هنا من أن الزيـــادة والنقصان في توابع التكليفات الشرعية والامتثال لها ، لا في أمور الاعتقاد [2] .

خامساً : الحسن والقبيح :

معلوم أن الله خلق الشئ ووصَفَه من حيث الحُسْن والقُبْح . وحُكْمُنا على الشئ بأنه حســـن أو قبيح ليس لذات الشئ ، وإنما لصفاته . فالحُسْن والقُبْح إذن حالان اعتباريان زائدان علـــى ذات الشئ ، وليس لهما ذاتية معينة . فالصدق ـــ مثلاً ـــ ليس حسن لذاته ، وإنما باعتبـــار أن النفوس جُبِلت على احترامه والاشمئزاز من الكذب ، أو أنه يحقق فوائد مختلفة للصـــادق ، أو لكونه يثاب صاحبه يوم القيامة . فالحُسْن يظهر من خلال هذه الأمـــور لا لـــذات الصـــدق . وعلى ذلك يكون الحسن والقبيح اعتباريين زائدين على ذات الشئ [3] .
وهنا يرد سؤال وهو : ما مقياس الحسن والقبيح ؟ هل هو الشرع أم العقل ؟
أجاب الإمام الشعراوي عن هذا السؤال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـــاقَ بَنِـــي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّـــاسِ حُسْنًا ... (83) ﴾ (سورة البقرة) . يقول ـــ رحمه الله ـــ : " والحسن هو ما حسنه الشـــرع ؛

= مجموعة من الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه .

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3390 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج8 ص4571 ـــ 4572 .

(3) انظر : كبرى اليقينيات الكونية : ص149 ـــ 152 باختصار .

ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسَّنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقـــول : مـــا حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع ؛ لأن العقل قد يختلف في الشئ الواحد ، هذا يعتبره حسناً ، وهذا يعتبره قبيحاً " [1] .

إذن فالحسن هو ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

وهكذا يظهر لنا بجلاء منهجه ــ رحمه الله ــ في القضاء والقدر ؛ كالمشيئة والإرادة وأفعـال العباد والهدى والضلال وما يتعلق به من قضايا .

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص431 .

المبحث الرابع : منهجه في الرسل :

لقد اصطفى الله من خلقه رسلاً يبلغون الناس رسالاته ، ويبينون لهم التكليفات الإيمانية التي أرسلهم بها ، والتي تحمل التشريعات والتوجيهات الربانية للبشر بما يصلح لهم حياتهم ، ويوصلهم إلى مرضاة الله رب العالمين .

وفي هذا المبحث سوف نتناول منهج الإمام الشعراوي في الرسل من خلال عدة نقاط :

أولاً : الإيمان بالرسل :

يجب الإيمان بالأنبياء والرسل إجمالاً ، وبالخمسة والعشرين المذكورين في القرآن تفصيلاً [1] . وقد أشار الإمام الشعراوي إلى مثل هذا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ﴾ (سورة الأنعام) . وقد ذكرت الآيات قبلها ثمانية عشر نبياً . يقول ـ رحمه الله ـ : " وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلاً " [2] . وأكد ـ رحمه الله ـ ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) ﴾ (سورة النساء) . وبين أن هؤلاء الرسل الخمسة والعشرين ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (من الآية 24 سورة فاطر) [3] .

إذن كلامه فيه إشارة إلى أن الإيمان بالخمسة والعشرين رسولاً المذكورين في القرآن يجب أن يكون تفصيلاً ، أما بقية الرسل والأنبياء غيرهم فيجب الإيمان بهم إجمالاً .

ثانياً : الرسل من جنس البشر :

إن جميع الأنبياء وعيسى ومحمداً ـ عليهم السلام ـ عبيد لله تعالى مخلوقون ، وهم ناس كسائر الناس ، مولودون من ذكر وأنثى . إلا آدم وعيسى ، فإن آدم خلقه الله تعالى من تراب بيده ، لا من ذكر ولا من أنثى . وعيسى خلق في بطن أمه من غير ذكر [4] .

إن الرسول قدوة للبشر ، وأسوة سلوكية لهم ، وحتى يستجيب البشر للمرسلين لا بد أن

---

(1) انظر : الإيمان ـ للشرقاوي : ص253 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3770 . وانظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص415 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج5 ص2831 .

(4) علم الكلام : ص32 . وانظر كتاب : الإيمان ـ للشرقاوي : ص256 .

يكونوا مثلهم ، لا يتميزون عنهم إلا بالرسالة ومستلزماتها .

يقول الإمام الشعراوي : " إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلهاً ؛ لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال . ويأمر من أُرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلهاً فإن المرسل إليهم – وهم البشر – لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله ، وطبيعته تختلف . ولذلك لا يستطيعون التأسي والاقتداء به ، فالأسوة لا تتأتى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسَل إليهم ، أي يكون بكل أغيار البشر " (1) .

فالرسول إذن لا بد أن يكون من جنس البشر ، وتجري عليه قوانين البشر .

ثالثاً : الرسل رجال :

لابد أن نلاحظ أن القرآن قد نص على كون الرسل والأنبياء رجالاً وليسوا نساءً . فقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (7) ﴾ (سورة الأنبياء) . وهذه الصفة اعتبرها البعض من الصفات الضرورية للأنبياء (2) . يقول الإمام الشعراوي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ... (109) ﴾ (سورة يوسف) : " لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ... (109) ﴾ (سورة يوسف) ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحام بلاغ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سكناً . كما أن الرسول يُفترض فيه ألا يسقط عنه تكليف تعبدي في أي وقت من الأوقات ، والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدي أثناء الطمث ، ومهمة الرسول تقتضي أن يكون مُستوفي الأداء التكليفي في أي وقت " (3) .

رابعاً : مهمة الرسل :

مهمة الرسل هي تبليغ الناس منهج الله ، وبيان ما تحمله هذه الرسالة من حلال وحرام حتى تنتظم حركة الإنسان في الحياة .

ولما كانت أمم الأرض في القرون الأولى على شكل شعوب وقبائل متفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض في نواحي الأرض ، اقتضت حكمة الله سبحانه أن يرسل لكل أمة رسولاً مبشراً ومنذراً ؛ لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة (4) .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3416 – 3417 .

(2) انظر : كبرى اليقينيات الكونية : ص202 .

(3) تفسير الشعراوي : ج12ص7129 .

(4) انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص520 .

والإمام الشعراوي قد تطرق الحديث منه في مواضع متفرقة من تفسيره إلى هذا الموضوع . يقول ــ رحمه الله ــ : " الحق سبحانه في إرساله للرسل ، وفي تأييد الرسل بالمعجزات ، وفي إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان في الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس ، حتى لا يقول واحد : أنت لم تقل يا رب كيف نسير على منهج ما .... لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذي يبين الحلال والحرام : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (من الآية 42 سورة الأنفال) "[1] .

وعند تفسير قول الحق سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) ﴾ (سورة المائدة) أكد أن مهمة الرسول هي البلاغ[2] .

إذن هذه هي مهمة الرسول ؛ تبليغ منهج الله ، وبيان الحلال والحرام للناس ؛ لئلا يكون لأحد بعد ذلك حجة على الله .

خامساً : الفرق بين النبي والرسول :

معلوم أن الفرق بين النبي والرسول هو التبليغ ؛ لأن النبي مرسل بشرع من قبله ، ومأمور بتطبيقه ، ولم يؤمر بتبليغه ، بينما الرسول يجيء بشرع جديد ليطبقه ويأمر الناس بتطبيقه . ولذلك قالوا : إن الرسول أخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول[3] . وهذا ما قرره الإمام الشعراوي في تفسيره . فقد قال عندما فسر قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) ﴾ (سورة النساء) :

" إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله ولكن الفارق أن الرسول يجئ بشرع يؤمر به ، ويؤمر هو ــ أيضاً ــ بتبليغه للناس ليعملوا به ، لكن النبي إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذي سبقه ، فهو مرسل كأسوة سلوكية "[4] .

وقد أكد ــ رحمه الله ــ هذه القضية في أكثر من موطن في تفسيره[5] . إذن جوهر الفرق بين النبي والرسول هو التبليغ .

سادساً : أفضل الرسل :

يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2747 . وانظر : تفسير ابن كثير : ج2 ص378 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج6 ص3416 . وانظر كتاب : الإيمان ــ للشرقاوي : ص253 ــ 254 .

(3) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ص158 . وانظر : نظرات في علم الكلام : ص114 .

(4) تفسير الشعراوي : ج4 ص2457 .

(5) انظر تفسيره : ج3 ص1561 ــ 1562 .

بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ....(253) ﴾ (سورة البقرة) . وهذه الآية دلت على أن هناك مفاضلة بين رسل الله . والثابت بالسنة أن محمداً ﷺ هو خير المرسلين ، بل وخير خلق الله أجمعين . فقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : " **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع** " (1) .

وقال ﷺ : " **إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم** " (2) .

فنبينا ﷺ سيد الخلق ، وهو صفوة من صفوة من صفوة . لكن علينا أن نتنبه إلى أنه لا يجوز تفضيل نبي على نبي مع التعيين ؛ لئلا يكون هناك انتقاص للمفضول (3) .

والشعراوي قد أشار إلى تفضيله ﷺ على الأنبياء قبله من عدة جهات . يقول ـ رحمه الله : " وإذا أردنا أن نعرف مناطات التفضيل ، فإننا نجد رسولاً يرسله الله إلى قريته ، مثل سيدنا لوط مثلاً ، وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ولكن هناك رسول واحد قيل له : أنت مرسل للإنس والجن ، ولكل من يوجد من الإنس والجن إلى أن تقوم الساعة ، وهو محمد ﷺ .

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد ﷺ ، وإذا نظرنا إلى المعجزات التي أرسلها الله لرسله ليثبتوا صدق بلاغهم عن ربهم نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أي مادية محسوسة ، بينما معجزته ﷺ غير محسة ، وإنما هي معقولة .

وفي مناط التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا ينقلون الأحكام عن الله ، أما الرسول محمد ﷺ فهو الرسول الوحيد الذي قال الله له : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (من الآية 7 سورة الحشر) . فهو ﷺ قد اختصه الله بالتشريع أيضاً ، فهذه مزية له " (4) . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4) ﴾ (سورة النجم) .

سابعاً : حاجة الرسل إلى المعجزات :

تعتبر المعجزات الحجة الناطقة على لسان الرسول ليثبت صدقه في دعواه ، وهي ضرورية له . وحاجة الرسول إليها أكثر من حاجته إلى غيرها .

---

(1) **مس** : ك الفضائل / ب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ج4 ص1782 (ح2278) .

(2) أخرجه **مس** : ك الفضائل / ب فضل نسب النبي ﷺ ... ج4 ص1782 (ح2276) .

(3) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص161 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص1072 ـ 1073 بتصرف .

يقول صاحب (العقائد الإسلامية) : " ومن ثم كانت المعجزة ضرورية ، وإظهارها واجباً ، ليتم المقصود من تبليغ الرسالة ، وتُقام به حجة الله على الناس " [1] .

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لقوله سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .... (49) ﴾ (سورة آل عمران) : " إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأي أحد أن يقول : « أنا رسول من عند الله » بل لا بد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله " [2] .

وفي موضع آخر يقول : " ولذلك يكون مجئ الرسول ضرورياً ، وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صدقه " [3] .

إذن فالرسول بحاجة ماسة إلى معجزة لتثبت صدقه في دعواه ، وليقطع الطريق أمام كل دجال كذاب يزعم النبوة كمسيلمة الكذاب ، ولذلك لم يترك الله أحداً من رسله بدون معجزة .

ثامناً : الرسل جاءوا بعقيدة واحدة :

لقد أرسل الله الرسل لينذروا أقوامهم أنه لا إله إلا الله ، هذا الأصل الذي جاء من أجله الرسل جميعاً ، بل ولأجله خُلِقت الدنيا وجُعِلت الجنة والنار . فقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (من الآية 36 سورة النحل) فلا خلاف في العقائد التي دعوا إليها ، ولا خلاف في روح العبادات ، والاختلاف بين الرسل إنما هو في المناهج التي كُلِّفوا بتبليغها . فعن هذا يقول الإمام الشعراوي : " إن الدين يأتي بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحدة ، لكن الذي يختلف هو الحكم التشريعي " [4] .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ....(136) ﴾ (سورة البقرة) يقول ـ رحمه الله ـ : " البلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم عليه السلام حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .... ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، هذه ملة إبراهيم ، وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحي الله إليه ، والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له " [5] .

---

(1) العقائد الإسلامية ـ سيد سابق : ص208 .

(2) تفسير الشعراوي : ج3 ص1471 .

(3) تفسير الشعراوي : ج3 ص1573 ، وانظر : ج3 ص1492 .

(4) تفسير الشعراوي : ج3 ص1573 . وانظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص520 ـ 521 .

(5) تفسير الشعراوي : ج1 ص608 .

ولذلك فإن من ادعى أن هناك تناقض بين الرسالات كانت دعوته باطلة ؛ لأن الاختلاف بين الرسل يكون في أمور التشريع ، وأمور التشريع هذه ينزلها الله حسب ما يقتضيه حال النـاس في عهد كل رسول .

يقول الإمام الشعراوي : " كل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشـريع ، وكـل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعاً ، ولذلك كان الحق رحيماً بنا ؛ لأن ركب الرسـل قـد تواصل واستمر في الكون منذ آدم ، وإلى محمد ﷺ ، والمنهج الذي جاء به كـل رسـول لا تناقض فيه أبداً ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسـول قد أتى ليناقض موكب رسول آخر " (1) .

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا المبحث كيف عرض الشعراوي للإيمان بالرسل ووظيفتـهم ، وحاجتهم إلى المعجزات لإثبات رسالاتهم .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج3 ص1569 .

المبحث الخامس : منهجه في عرض المسائل الكلامية :

أولاً : موقف العلماء من علم الكلام :

اختلف الناس في علم الكلام هل هو حرام أو مباح أو مندوب ، على أقوال . وقد نقلها الإمام الغزالي (ت505هـ) في كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) فقال : " اعلم أن للناس في هذا غلواً وإسرافاً ، فمن قائل إنه بدعة أو حرام ، وإن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل : إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات " . وقد نقل أقوال السلف في علم الكلام ، من ذلك قول الإمام الشافعي ﷺ : حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام . وقال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ : علماء الكلام زنادقة . وقال الإمام مالك ﷺ : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال بعض أصحابه : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا [(1)] .

ولا نريد أن نتوسع في بيان رأي الناس وأدلتهم في علم الكلام ، وإنما أحببت أن أعطي صورة لعلماء السلف المشهورين عند الناس بالثقة والصدق والأمانة . وكلامهم عن هذا الصنف من العلم حق ؛ لأنه لا طائل تحته ، ولا فائدة فيه ، لأنه لا يعلمه إلا خواص الناس دون عوامهم .

ثانياً : فائدة علم الكلام :

إن تعلُّم هذا العلم إذا كان على قدر الضرورة ومجاراة الخصوم في مناحيهم في القول فلا بأس ، بشرط ألا يكون على حساب الكتاب والسنة . " فقد اعترف كبار علماء الكلام بوقوعهم في الحيرة والشك والندم ، وأقروا بأنه لا سبيل أقرب من سبيل القرآن "[(2)] .

وقد قال صاحب كتاب (نظرات في علم الكلام) : " وهذه الدراسة ليست مطلوبة من كل الناس ، بل من فئة من المسلمين للذب عن الدين ، والدفاع عنه ، ودعوة المخالفين لاعتناق الإسلام والدخول فيه . أما الواجب على باقي المسلمين فهو المعرفة الإجمالية " [(3)] .

---

(1) إحياء علوم الدين ــ لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت505هـ) : ج1 ص126 ــ 127 . وانظر : تلبس إبليس ص77 وما بعدها .

(2) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص208 ــ 210 .

(3) نظرات في علم الكلام : ص18 .

ثالثاً : منهج الشعراوي في علم الكلام :

والشيخ الشعراوي يُحمد على عدم سلوكه هذا المنهج ، فقد كانت له منثورات مبعثرة في طيات تفسيره حول وجود الله ، والطرق والأدلة الفلسفية والمنطقية الموصلة إلى الإيمان به سبحانه ، وما تتصف به الذات الإلهية من الصفات التي أطلقها الفلاسفة وعلماء الكلام عليه .

والشعراوي لم يسلك طرقهم في هذا ، وإنما هي منثورات جاءت عابرة في تفسيره .

والمثال على ذلك ما جاء عند تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) ﴾ (سورة البقرة) ، يقول ما نصه : " وقول الحق « إله واحد » أي ليس له ثان ، والفارق بين « واحد » و « أحد » هو أن « واحد » تعني ليس له ثان ، و« أحد » يعني ليس مركباً ولا مكوناً من أجزاء ، ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه « كلّ » أو « كلي » لأن « كل » يقابلها « جزء » و« كلي » يقابلها « جزئي » ، و « كل » هو أن يجتمع من أجزاء ، والله متفرد بالوحدانية ، وسبحانه منزه عن كل شئ ، وله المثل الأعلى ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه ، إن الكرسي « كل » مكون من خشب ومسامير وغراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه « كرسي » أو على المسامير أو على الغراء أو على الطلاء ؟ لا . إذن كل جزء لا يطلق على « الكل » ، بل ينشأ من اجتماع الأجزاء .

و « الكلي » يُطلق على أشياء كثيرة ، لكن كل شئ منها يحقق الكلي ، فكلمة « إنسان » نقول عنها « كلي » ؛ جزئياتها محمد وزيد وبكر وعمر وخالد ، فنقول زيد إنسان ، وهو قول صحيح ، ونقول عمر إنسان وذلك قول صحيح . والله سبحانه وتعالى لا هو « كلي » لأنه واحد ، ولا هو « كل » لأنه أحد "[1] .

فهذه قضية منطقية في بيان أن الله واحد وأحد .

ومثال آخر : تفسيره لآية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ... (255) ﴾ (سورة البقرة) . يقول : " ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » علم على واجب الوجود ، وعندما نقول : « الله » فإن الذهن ينصرف على الذات الواجبة الوجود . وما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن . والقسم الواجب هو الضروري الذي يجب أن يكون موجوداً ، والحق سبحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص682 — 683 .

يتحدى بها سبحانه أن يُسمى به سواه " [1] .

ومن ذلك أيضاً مناقشته دعوى الشرك ، وذلك في معرض تفسيره لسورة الإخلاص . لقد ناقشهم بطريقة منطقية عقلية ، معتمداً على دليل التمانع المعروف لدى الفلاسفة وعلماء الكلام . ففي سياق تفسيره تطرق الحديث منه إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (من الآية 22 سورة الأنبياء) ، ثم قال : " هناك عند الفلاسفة وأهل الكلام شئ اسمه الضدان ، وشئ اسمه النقيضان . ما هو الضدان ، وما هو النقيضان ؟

قد يبدو لأول وهلة أن المعنى متفق . وليس الأمر كذلك . الضدان أمران لا يجتمعان أبداً ، ولا يرتفعان معاً ، كالسكون والحركة ، فالشئ لا يخلو عن كونه ساكن أو متحرك ، ولا يمكن أن يكون ساكناً متحركاً في آن واحد . لكن النقيضين صحيح أنهما لا يجتمعان ، لكنهما قد يرتفعان ، كالأبيض والأسود لا يجتمعان ، فشاركا الضدين في هذا ، لكن الخلاف في أنهما قد يرتفعان معاً ، فيكون الشئ ذا لون آخر " [2] .

وقد طبق الشعراوي هذا الدليل على قضية تعدد الآلهة ، وخلاصة رأيه :

1 ــ إذا كان هناك إلهان ، وأراد أحدهما أن يخلق شيئاً متحركاً ، والأخر يريده ساكناً ، فهذا الشئ لا بد أن يكون إما متحركاً أو ساكنًا . فإذا مضى عليه أمر أحد الإلهين ، فمعنى ذلك أن الإله الآخر يكون عاجزاً ، وإذا ثبت العجز انتفى عنه أن يكون إلهاً ، فثبتت الألوهية لواحد منهما .

2 ــ ربما يتفق الإلهان ، فيأخذ هذا نصف المُلك ، والآخر يأخذ نصفه الباقي ، وهذا يُثبت العجز لهما معاً ؛ لأن كليهما لا يستطيع أن يتصرف في ملك صاحبه ، فثبت العجز لكليهما ، وبالتالي لا يصح أن يُطلق عليهما إله .

قال : " إذن المسألة سواء بالاتفاق أو بالاختلاف لا تنفع أن يكون له شريك . فقضية إثبات الإله هي التي شغلت الأديان كلها ، وليست قضية إثبات الوجود ؛ لأن إثبات الوجود أمر فطري " [3] .

ففي هذا المثال أثبت الشعراوي الوحدانية بطريقة المناطقة والفلاسفة وعلماء الكلام .

وفي مسألة الصفات يقول عن صفة الكلام في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... (253) ﴾ (سورة البقرة) : " وحين

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1086 .

(2) تفسير القرآن العظيم ــ للشعراوي : جـ3 ص125 ــ 126 باختصار .

(3) انظر المرجع السابق : جـ3 ص126 ــ 127 .

تقول كلم الله ، إياك أن تغفل عن قضية كلية تحكم كل وصف لله يوجد في البشر ، فأنا أتكلم والله يتكلم ، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامي ؟ إن كنت تعتقد أن وجودي مثل وجوده ، فاجعل كلامي ككلامه ، وإن كان وجودي ليس كوجوده ، فكيف يكون كلامي ككلامه ؟ " (1) .

لكن يؤخذ على الشعراوي ما كان يكرره دائماً في مسألة الصفات ، وهو قولـــه عـــن الله « موجود في كل الوجود » أو « الله في كل مكان » . ولا أعتقد أن الشعراوي يقصد منهما إلا الخير . بدليل أنه أوضح مقصده من ذلك فقال تحت عنوان « الله في كل مكان » :

" الحق سبحانه لا يختص بمكان ، لأنه لا يحل في مكان ، إذ كيف يحل بمكـــان ، والمكـــان مخلوق من مخلوقاته ﷻ ، وهل يجوز أن يحل الخالق في المخلوق ، وقد كان الخـــالق ولـــم يكن هناك مخلوق على الإطلاق ، وفي هذا يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾ (سورة البقرة) . فـــهو ســـبحانه وتعـــالى موجود في كل مكان دون أن يحل في مكان ، فأينما كنتـــم ستجـــدون الله مقبـــلاً عليكــــم بالتجليات " (2) .

إن الشعراوي ينفي حلول الله ، ووجوده في كل مكان بذاته . وكلامه هنا عن الجهة ، على أن الله حيثما وليت وجهك تجده تجاهك . وهذا ما أفادته الآية التي استدل بها . وإن كان لفـظ الجهة فيه تفصيل عند العلماء (3). وكلامه يشير إلى أن الله في كل مكان بقدرته ، وإرادتـــه ، وعلمه ، وسمعه ، وبصره . وطالما بيَّن قصده منها فلا بأس ، وإن كنت أرى أن الأولى عدم استعمال مثل هذه الألفاظ في حق الله لئلا نوقع أنفسنا في الشُّبُهات .

هذا ، وقد مرَّ معنا في مبحث القدر بعض المقالات الكلامية كما في الهدى والضلال ، ومـــا ورد في أفعال العباد .

وعلى أية حال ، فالشعراوي مُقِل في مسألة الكلام ، ولا يخوض فيما خاض فيه الفلاسفـــة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1074 .

(2) أسماء الله الحسنى : ج1 ص101 .

(3) ذكر في شرح العقيدة الطحاوية أن لفظ الجهة قد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معـــدوم . والموجود إما الخالق أو المخلوق . فإذا أُريد بالجهة أمر موجود غـــير الله تعـــالى كـــان مخلوقـــاً ، والله لا يحصره شئ ، ولا يحيط به شئ من المخلوقات . وإن أُريد بالجهة أمر عدمي ، وهو ما فوق العالم ، فليـــس هناك إلا الله وحده . (انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص221) .

وقال ابن تيمية : " فلفظ الجهة قد يراد به شئ موجود غير الله فيكون مخلوقاً ، كما إذا أريد بالجهـــة نفـــس العرش ، أو نفس السموات . وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى ، كما إذا أريد بالجهـــة مـــا فـــوق العالم " . (الرسالة التدمرية : ص45) .

وعلماء الكلام ، وعلينا أن نعرف أن سلوك الشعراوي الطريق العقلي في التفسير لا يعني أنه سلك طرق المتكلمين فيه .

خلاصة الفصل :

من خلال ما سبق بيانه يظهر لنا منهج الإمام الشعراوي واضحاً جلياً في عرض آيات العقيدة ؛ في تناوله لقضايا التوحيد الثلاثة : الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، ومنهجه في الغيبيات من ملائكة وجن وسحر ، وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث والحساب ، والجنة والنار . كذلك اتضح لنا منهجه في القضاء والقدر ، والرسل ، وكيفية عرضه للمسائل الكلامية وإقلاله منها . وظهر لنا أيضاً أنه سلفي العقيدة ، لكنه متأثر بالصوفية خاصة في قضية التوسل .

والله الموفق والمستعان .

الفصل الخامس

التفسير الفقهي و الاجتماعي

فيه مبحثان :

المبحث الأول : التفسير الفقهي عند الشعراوي .

المبحث الثاني : التفسير الاجتماعي عند الشعراوي :

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : موقفه من الأنظمة الحديثة .

المطلب الثاني : موقفه من المستشرقين والحاقدين .

المطلب الثالث : موقفه من الحكم .

المطلب الرابع : اليهود وفساد المجتمعات .

المطلب الخامس : موقفه من قضية المرأة .

المطلب السادس : موقفه من قضية التقليد .

المطلب السابع : نقده للبدع والعادات الاجتماعية .

مقدمة الفصل :

يُعتبر الفقه الإسلامي من أهم مقومات المجتمع . فهو نظـــام يحكـــم ســـلوك الأفـــراد ، وضابط يضبط أفعالهم وتصرفاتهم . خصوصاً وأنه تشريع رباني ، أي أنه ــ سبحانه ــ يعلم ما ينفعهم وما يضرهم ، فيشرع لهم ما فيه صلاحهم وقوام حياتهم .

ونحن في هذا الفصل سوف نتناول منهج الإمام الشعراوي في تفسير آيـــات الأحكـــام ؛ وذلك من خلال بيانه ــ رحمه الله ــ للأحكام الفقهية ، والإعجاز التشريعي في علاج مشـاكل المجتمع ، وبيانه لعلل الأحكام ، والحكمة من التشريع ، والخلافات الفقهيـــة بيـــن العلمـــاء ، ومقارنة التشريع الإسلامي بالتشريع الوضعي . ثم نورد بعض الفتاوى المعاصرة لفضيلته .

وبعد ذلك نتكلم عن عرضه للقضايا الاجتماعية المتنوعة ، مثل : موقفـــه مـــن الأنظمـــة الحديثة ، وموقفه من المستشرقين والمشككين والحاقدين على الدعوة ، وكذلك مـــن الحكـــم ، وبيانه لفساد المجتمعات ودور اليهود الفعال في ذلك ، ثم موقفه من قضية المرأة ، وقضيـــة التقليد ، ونقده للبدع والعادات الاجتماعية .

والله المستعان

المبحث الأول : منهجه في التفسير الفقهي :

لقد جرت سنة الله في الكون أن يرسل رسلاً يحملون منهج الله إلى البشرية . هذا المنهج فيه صلاح الناس في حياتهم الدنيا ، وفوزهم ونجاحهم في حياتهم الآخرة .

وسوف نرى في هذا المبحث منهج الشعراوي في الجوانب الفقهية التشريعية ، ومدى مباينة فقهنا عن القوانين الوضعية . وذلك كالآتي :

أولاً : الأحكام الفقهية وبيان أهميتها :

الأحكام الفقهية أوامر ونواه صادرة من الله تعالى إلى المؤمنين ؛ لتكون لهم منهج حياة مع ترتيب الثواب والعقاب عليها . وقد عبَّر عنها الشعراوي بقوله : « افعل ولا تفعل » ، حيث كان كثيراً ما يحث في تفسيره على الأخذ بمنهج الله وتطبيقه .

يقول ــ رحمه الله ــ : " إذن فهو سبحانه يأتي في « افعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس في الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها تنام ، يقول الأمر التعبدي : قم فصل . وإن كانت شهوة النفس بأنها تغضب ، يقول الأمر الإيماني : لا تغضب .

إذن فالحكم إنما جاء بافعل ولا تفعل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً ضاراً ، فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألا يفعل فعل خير ، فيقول له : افعل . إذن فكل حركات الإنسان محكومة بـ « افعل ولا تفعل » " [(1)] .

ومن حكمة الله ﷻ في التكاليف أن جعلها موافقة للفطرة الإنسانية ، ولا تخرج عن طاقة البشر .

وعن موقف المكلَّف تجاه هذه التكليفات يقول : " إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس ، وأمرك بأشياء فيها مشقة . وهذه محتاجة إلى الصبر " [(2)] .

وقد بين الشعراوي لنا لمن جاءت هذه التكليفات . فقال : " ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ .... فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذي لديه قدرة تمكنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أي غير مكره " [(3)] .

فشرط التكليف إذن العقل والبلوغ والاختيار . ويؤكد صاحب كتاب (إسلامنا) ما قاله الإمام الشعراوي ، وذلك أن الإنسان حتى يصل إلى غاية العبادة ، زوده الله بالعقل

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1274 ــ 1275 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص648 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص703 .

والاختيار ، وأمده بالوحي ، وجعله بهذا أهلاً لحمل مسئولية العبادة ، ليقطع عــذره ، ويقيـم عليه الحجة [1] .

ويبين الإمام الشعراوي أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما أهم مصـــادر التشـريع . وقال بأنه لا يجوز الأخذ بأحدهما دون الآخر ؛ لأن الله يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيـمُ (13) ﴾ (سورة النساء) ، فقرن الحق طاعته بطاعة رسوله ﷺ ، وأذن له بالتشريع [2] . فإن لـم نجـد الحكم في القرآن ولا في السنة المطهرة ، أو ورد نصّ لكنه يحتمل أكثر مـن معنـى فنلجـأ حينئذٍ للاجتهاد . وهذه ميزة لأمة محمد ﷺ ، فأمِن لها أن تصل بالاجتـهاد لمـا يحسـم أي خلاف [3] .

ولا بد أن نعلم أن الشعراوي لم يكن يخوض في تفاصيل الأحكام ، ولا يتعرض لخلافـات العلماء فيها ، وكان نادراً ما يذكر آراء أصحاب المذاهب أو أقوال السلف في ذلـك . وكمـا قلنا إن أكثر تركيزه على الحث على الأخذ بالتكاليف الشرعية .

وأذكر فيما يلي منهجه في بعض القضايا الفقهية من خلال عدة أصول :

أ) الفقه المتعلق بالعبـــادات :

الزكاة :

الزكاة فريضة من فرائض الإسلام ، وهي أساس هام من الأسس التي يُبنى عليها الديـن ، بل هي الركيزة الثالثة التي يرتكز عليها هذا الدين ، بعد الشهادتين والصلاة ، كما أخبر بذلـك الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قـــال :

---

(1) انظر كتاب : إسلامنا ــ للشيخ سيد سابق : ص113 ــ 114 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج4 ص2039 بتصرف . قال ﷺ : " **لا أُلْفِيَنَّ أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيـه أمرٌ مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعنـاه** " . انظـر تخريجـه ص93 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص908 بتصرف . عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه إلى اليمـن ، قال : " **أرأيت إن عرض لك قضاء ، كيف تقضي ؟** " قال : أقضي بكتاب الله . قال : " **فإن لم يكـن فـي كتاب الله ؟** " قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : " **فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟** " قال : أجتهد رأيـي ولا آلو . قال : فضرب صدره ، ثم قال : " **الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله** " . أخرجه **تر** : ك الأحكام / ب ما جاء في القاضي كيـف يقضـي ج3 ص607 ــ 608 (ح1327) و(ح1328) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وليس إسناده عندي بمتصل .

دو : ك الأقضية / ب اجتهاد الرأي في القضاء ج3 ص303 (ح3592) و(3593) .

دي : ب الفتيا ج1 ص72 (ح3593) . والحديث يدل على جواز الاجتهاد عند عدم وجود النص .

قال رسول الله ﷺ : " **بُني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان** " [1] .

وقد رغب الإسلام في أدائها ، ورهب من منعها أشد ترهيب .

والزكاة فيها تزكية لنفس المتزكِّي ، وتطهير لماله ، ومواساة للفقراء والمساكين . وقد تكلم الشعراوي عن الزكاة فقال : " لذلك نجد زكاة الركاز وهي الزكاة المفروضة على ما يوجد في باطن الأرض من ثروات ؛ كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها . لقد جعل الحق نصاب تلك الزكاة عشرين في المائة ، أي الخُمس . بينما الذي يحرث الأرض ، ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو ، فنصاب الزكاة هو العُشر على ما أنتجته زراعته . وأما الذي يزرع على ماء الري فعليه نصف العشر . والذي يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتِج يشتري منه ، ثم يوفر السلعة على البائع فهذا نقول له عليك اثنان ونصف في المائة (2.5%) فقط . إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد ، كأن الحق يحمي الحركة الإنسانية من حمق التقنين البشري " [2] .

إن الحكمة الربانية في تحديد نسب الزكاة روعيت فيها مصالح المسلمين جميعاً ، أغنياء وفقراء . وهذا ما يرتفع به هذا الدين فوق كل المبادئ التي عرفتها الإنسانية . وإن نظرة عجل إلى الشيوعية والرأسمالية تجعلنا ندرك عظمة الإسلام ، وروعة مبادئه ، وسمو تشريعاته . ونحن نجد اليوم كلتيهما تئن من حاضرها ، وتراجع حساباتها ... فالحكمة في تشريع الزكاة هدفت إلى عدم التسلط على الأغنياء ، والنيل منهم ، وعدم محاباة الفقراء ، أو تحميلهم الأذى . ومع أن الله هو الذي وهب المال لهذا الإنسان ، فإنه سبحانه مع ذلك كله لم يرهقهم فيما كلفهم من نفقة هذا المال [3] .

هذا ، وقد وقف الشعراوي وقفة طويلة مع مصارف الزكاة ، المُبَيَّنة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) ﴾ (سورة التوبة) . وبين دور الزكاة في علاج كثير من مشاكل المجتمع . منها مشكلة الغارمين . والغارم : من استدان في غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنِه ، ولم يمهله صاحب الدّيْن ولم يسامحه ، وفي هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن ، وبذلك يبقى اليُسْر في المجتمع ، وتبقى نجدة الناس

---

(1) **مس** : ك الإيمان / ب بيان أركان الإسلام ج1 ص45 (ح16) .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص945 .

(3) إعجاز القرآن الكريم : ص304 ـــ 305 .

للناس في ساعة العسرة . أو أن الغارِم هو الذي أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفض الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية . فيأخذ من بيت المال حتى يشيع في النفوس تصفية الخلافات ، ويشاع الحب بين الناس [1] .

لقد عرف التاريخ المالي ألواناً كثيرة من الضرائب قبل الإسلام ، كانت تُجبى من طوائف الشعب المختلفة طوعاً أو كرهاً ، ثم تُجمع في خزانات الأباطرة والملوك ، لتُنفَق على أشخاصهم وأقاربهم وأعوانهم .... ضاربين عرض الحائط بكل ما تحتاجه فئات الشعب العاملة والضعيفة من الفقراء والمساكين . فلما جاء الإسلام وجه عنايته الأولى إلى تلك الفئات المحتاجة ، وجعل لهم النصيب الأوفر في أموال الزكاة خاصة ، وفي موارد الدولة عامة ، وكان هذا الاتجاه الاجتماعي الرشيد سبقاً بعيداً في عالم المالية والضرائب والإنفاق الحكومي لم تعرفه الإنسانية إلا بعد قرون طويلة [2] .

ب) الفقه المتعلق بالمعاملات :

أكل أموال الناس بالباطل :

لقد حرم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل ، وكل مصدر من مصادر الرزق الحرام فصاحبه آكل للمال بالباطل . وأفظع مصدر رزق حرام هو الربا . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...(275) ﴾ (سورة البقرة) . وقد قال الإمام الشعراوي : " و « الربا » هو الأمر الزائد ، وما دام هو الأمر الزائد يعني هو لا يحتاج أن يأكل الربا ، فهذا تقريع له " [3] .

إذن صاحب الربا إذا كان عنده مال ، فلماذا يترك ماله ويأكل الربا ؟ ولذلك بشَّع الله صورة آكل الربا فشبهه بصورة من تخبطه الشيطان من المس ، فتكون حركته غير رتيبة .

يقول الإمام الشعراوي : " وما المناسبة بين هذه الصورة ــ الذي يتخبطه الشيطان من المس ــ وبين عملية الربا ؟ إن أردنا في الآخرة ميزة ، فساعة ترى واحداً مصروعاً فاعرف أنه من أصحاب الربا ، هذا في الآخرة ، وفي الدنيا تجد أيضاً أن له حركة غير منطقية ، هستيرية " [4] .

إن الناظر إلى المجتمعات الربوية يدرك ذلك . إنهم لا يقومون في الحياة ، ولا يتحركون

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج9 ص5220 ــ 5228 .

(2) فقه الزكاة ــ د . يوسف القرضاوي : ج2 ص543 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1184 .

(4) تفسير الشعراوي : ج2 ص1187 .

إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة . والعالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية [1] .

إن آثار الربا في المجتمع سيئة للغاية ، إنه نكسة خُلُقية ، يولِّد الحقد والضغائن بين الفقراء والأغنياء ، ويقضي على بقية المعروف بين الناس ، وتنعدم به المودة في المجتمع ؛ فإذا ما رأى إنسان فقير إنساناً غنياً عنده مال ، ويشترط الغني على الفقير المُعدَم أن يعطيَه ما يأخذه وأن يزيد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير ؟! " [2] .

هذا ، وقد ناقش الإمام الشعراوي قول القائلين بأن المحرم من الربا هو ما كان أضعافاً مضاعفة ، وبين بطلان هذا القول . والظاهر أنه رد على الشيخ محمد عبده الذي حرم ربا النسيئة دون ربا الفضل . وذلك عند تفسيره لآيات الربا في سورة البقرة . فقد قال الإمام محمد عبده : " قد عُلِم مما تقدم في تفسير الآيات أنها نزلت في وقائع كانت للمرابين من المسلمين قبل التحريم ، فالمراد بالربا فيها ما كان معروفاً في الجاهلية من ربا النسيئة ، أي ما يؤخذ من المال لأجل الإنساء أي التأخير في أجَل الديْن . فكان يكون للرجل على آخر ديْن مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمن شئ اشتراه منه أو قرضاً اقترضه ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مال يفي به ، طلب من صاحب المال أن يُنسئ له في الأجل ويزيد في المال ، وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافاً مضاعفة ، فهذا ما ورد في القرآن بتحريمه ، ولم يحرم فيه سواه . وقد وصفه في آية آل عمران التي جاءت دون غيرها بصيغة النهي ، وهي قوله عز وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) ﴾ (سورة آل عمران) . وهذه أول آية نزلت في تحريم الربا . فهو تحريم لربا مخصوص بهذا القيد ، وهو المشهور عندهم " [3] . قال : " ولا يدخل الربا المحرم الذي لا يشك فيه من يعطي آخر مالاً يستغله ، ويجعل له من كسبه حظاً معيناً ؛ لأن مخالفة الفقهاء في جعل الحظ معيناً قبل الربح قلّ أو كثر لا يدخل ذلك في الربا الجلي المركب المخرب للبيوت ، فإن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب العمل معاً ، وذلك الربا ضارّ بواحد بلا ذنب سوى الاضطرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع ، فلا يمكن أن يكون

---

(1) انظر : في ظلال القرآن : ج1 ص326 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص1190 .

(3) تفسير المنار ـــ محمد رشيد رضا : ج3 ص113 ـــ 114 .

حكمهما في عدل الله واحداً " [1] .

إذن المحرم من الربا عند الإمام محمد عبده هو ربا النسيئة الموصوف بأنه أضعاف مضاعفة ، أما إذا كانت المعاملة المالية بين طرفين عن تراضٍ منهما بعد تحديد النسبة فلا بأس به .

والإمام الشعراوي قد رد على مثل هذا الرأي بقوله : " وكانوا يتعللون ويقولون : إن النص إنما يتكلم عن الربا الأضعاف المضاعفة ، فإذا منعنا القيد في الأضعاف لا يكون حراماً ، أي أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً ، وأن يرده أضعافاً فقط لا أضعافاً مضاعفة ، حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً . ولهؤلاء نقول : إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآني ، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا ما شاءوا دون أن يضع في النص ما يحول دون هذا التلصص ، ولو فطنوا إلى أن الله يقول في آخر الأمر : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (من الآية 279 سورة البقرة) . هذا القول الحاسم يوضح أن الله لم يستثن ضعفاً ولا أضعافاً . إذن فقول الحق : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) ﴾ (سورة آل عمران) . إن هذا القول الحكيم لم يجئ إلا ليبين الواقع الذي كانوا يعيشونه ولم يستثن الله ضعفاً أو أضعافاً ؛ لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن أخذ الإنسان رأس ماله فقط ، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف أو الضعف أو الضعفين ، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات .

وكانوا يتعللون على أن اتفاق الطرفين على أي أمر يعتبر تراضياً ويعتبر عقداً . قد يكون ذلك صحيحاً إن لم يكن هناك مشرع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضي . فهل كلما تراضى الطرفان على شئ يصير حلالاً ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً ؛ لأنهما طرفان قد تراضيا . وكل ذلك لا يتأتى ـــ أي رضاء الطرفين ـــ إلا في الأمور التي ليس فيها تشريع صدر عن المشرع الأعلى ، وهو الله الحي القيوم " [2] .

إذن ، كلام الشعراوي فيه رد على الشيخ محمد عبده في التمييز بين رباً ورباً .

وعن معاملة البنوك الربوية يقول : " فلا يقول واحد على سبيل المثال : أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا ؛ لأني أريد أن أتاجر في مائة ألف جنيه ، وليس معي إلا ألف جنيه .

---

(1) نقله الدكتور عبد المجيد المحتسب من مجلة المنار . انظر اتجاهات التفسير في العصر الراهن : ص178 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1190 ـــ 1191 .

وهذا ما هو حادث في كل الناس . هنا أقول : لا ، عليك بالتجارة في الألف التي تملكها ، ولا تقل أنا مضطر للتعامل في الربا . فالمضطر هو الذي يعيش في مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذي لا يملك مالاً أن يقترض من المرابي إن لم يجد من يقرضه ليشتري دواء أو طعاماً أو شيئاً مضطراً إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابي ، لا على المقترض ؛ لأنه مضطر " (1) .

ومن مظاهر أكل الأموال بالباطل – كما يراها الشيخ – ما يسمى بالفنون الجميلة كالرقص والغناء والخلاعة . ولا يعني كون الحكومات لم تمنعها أنها صارت حلالاً ، لا ؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك تجد الفساد إنما ينشأ في الحياة من مثل هذا السلوك . ويذكر الشيخ أنه يسمع كثيراً ممن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد الاستغناء عنها . ويرد عليهم : إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عمل حلال ، والذين يقولون : هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، لا بد أن يلتفتوا إلى أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يظن هذا الإنسان أن عمله هو الذي سيرزقه ، إنما الذي يرزقه هو الله بسبب هذا العمل . فلا يقل أحد : إن العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقي ، ولن أستطيع العيش لو تركته سواء كان تلحيناً أو عزفاً أو تأليفاً للأغاني الخليعة ، أو الرقص ، أو نحت التماثيل . لا تجعل هذا مصدراً لرزقك (2) .

ج) الفقه المتعلق بالأحوال الشخصية :

المواريث :

وهو من أعظم العلوم وأجلّها . وقد ورد الترغيب في تعلم هذا العلم . عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال : " **العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة** " (3) .

وقد عرض الشيخ الشعراوي لهذا العلم في تفسيره دون خوض في التفاصيل والخلافات بين العلماء . يقول – رحمه الله – : " والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة في المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2926 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص800 – 801 .

(3) أخرجه **دو** : ك الفرائض / ب ما جاء في تعليم الفرائض ج3ص119 (ح2885) . **جه** : ك الفرائض / ب الحث على تعليم الفرائض ج4ص283 (ح2719) قال أحمد شاكر (محقق سنن ابن ماجه) : إسناده ضعيف لضعف حفص بن عمر بن أبي القطان . وذكره ابن كثير في تفسيره ج1ص433 وقال : فيه نظر . ورواه الحاكم في المستدرك : ك الفرائض ج4ص369 (ح7949) .

نساءً فوق اثنتين لهن ثلثا ما ترك » أي أنه إن لم ينجب المورث ذكراً وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن تأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة ، فالآية تعطيها النصف من الميراث « وإن كانت واحدة فلها النصف » . وبقي شئ لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنتين في إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث . فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقي أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شئ آخر ، لتعرف أن القرآن يأتي كله كمنهج متماسك ، فهناك آية أخرى في سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر ، ليترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176) ﴾ (سور النساء) . لقد جاء الحق هنا بأختي المورث ، وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد ــ ابن أو بنت ــ ، فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ . إن ابنتي المورث ألصق به من أختيه ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف ، وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثي ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد . ومن العجيب أنه جاء بالجمع في الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى في الآية التي تورث الأخوات ، لنأخذ المثنى هنا ــ في آية توريث الأخوات ــ لينسحب على الجمع هنا ، ونأخذ الجمع هنا ــ في آية توريث البنات ــ لينسحب على المثنى هناك " (1).

وقال عند تفسير الآية الأخيرة من سورة النساء : " ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ (176) ﴾ (سورة النساء) أي إن الكلالة هي أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهي ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4ص2026 ــ 2028 .

الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هو ذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أي أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين " [1] .

هذا بالنسبة لتوزيع التركة . أما بالنسبة للوصية والدَّيْن فقد قال : " الحق قال : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ، ولنا أن نلاحظ أن في كل توريث هذه « البَعْدِيَّة » أي أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدين . ولنا أن نسأل : أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟ والإجابة : لا شك أنه الدين ؛ لأن الدين إلزام بحق في الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تُقدم الوصية ـ وهي التطوع ـ على الدين ، وهو للإلزام في الذمة " [2] .

هذا ، وقد بين الشعراوي أن الله قدر المصلحة في تحديد الأنصباء . فقال : " فإياك أن تحدد الأنصباء على قدر ما تظن من النفعية في الآباء أو من النفعية في الأبناء ، فالنفعية في الآباء تتضح عندما يقول الإنسان : لقد رباني أبي وهو الذي صنع لي فُرَص المستقبل . والنفعية في الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان : إن أبي راحل ، وأبنائي هم الذين سيحملون ذكري واسمي ، والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ؛ فليس لك شأن بهذا الأمر : « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً » . وما دمت لا تدري أيهم أقرب لك نفعًا فالتزم حكم الله الذي يعلم المصلحة وتوجيهها في الأنصبة كما يجب أن تكون " [3] .

د) الفقه المتعلق بالحدود :

يعد تطبيق الحدود صيانة للمجتمع من الانحراف والانجراف وراء الرذيلة . فمن هذا المنطلق شرع الله حدوداً وعقوبات لمرتكبي المخالفات . فتشريع القصاص مثلاً فيه حياة المجتمع ، وتشريع حد الزنا فيه صيانة للأعراض ، وهكذا باقي الحدود ؛ ليصبح المجتمع مضرب مثل في الأخلاق والقيم والنزاهة والفضيلة . ويرحم الله الأستاذ سيد قطب حيث يقول.: " الإسلام لا يقيم بناؤه على العقوبة ، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة للجريمة ، وعلى تهذيب النفوس ، وتطهير الضمائر "[4] .

وأضرب مثلاً من تفسير الشعراوي بحد السرقة الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) ﴾ (سورة المائدة)

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5ص2880 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4ص2033 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4ص2029 .

(4) في ظلال القرآن : ج4 ص2490 .

يقول الإمام الشعراوي مبيناً معنى السرقة : " أولاً ما هي السرقة ؟ إنها أخذ مال مقوّم خفية ، فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً " (1) .

وقال عن تحديد الشرع للسرقة : " وحدد الشرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار في ذلك الزمن كان يكفي لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد . بل إن الدرهم كان يكفي أن يقيم أود أسرة في ذلك الوقت . وكيف نقوِّم ربع الدينار في زماننا ؟ . إن كان لا يكفي لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، وما دام الدينار كان في ذلك الزمان ذهباً ، فربع الدينار ترتفع قيمته ..... وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدراً لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما أنه لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة في الحصول على القوت .... والدرهم جزء من اثني عشر جزءاً من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم " (2).

وقال عن تحديد اليد التي يكون فيها القطع : " وكان القطع لليد اليمنى ؛ لأنها عادة التي تباشر مثل ذلك العمل " (3) .

ويتكلم الشعراوي عن فلسفة التشريع في حد السرقة فيقول : " وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ، ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المراد من الجزاء العبرة والعظة ، ومقصد من مقاصد التربية ، وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة في سياسة الحياة " (4) .

وعن تشريع القصاص يقول الشيخ الشعراوي : " إن العقوبات حين شرعها الله لم يشرعها لتقع ، وإنما شرعها لتمنع . ونحن حين نقتص من القاتل نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين ، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه ؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمته . إذن فالقصاص من القاتل عبرة لغيره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع " (5) .

فالحدود ليس الغرض منها العقوبة وحسب ، وإنما ردع كل من تسول له نفسه أن يرتكب حداً .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5ص3118 .
(2) تفسير الشعراوي : ج5ص3119 .
(3) تفسير الشعراوي : ج5ص3122 .
(4) تفسير الشعراوي : ج5 ص3123 .
(5) تفسير الشعراوي : ج2 ص752 .

وهكذا يبين الشعراوي أن الحدود صيانة للمجتمع ، وحياةً للأفراد .

هــ) الفقه المتعلق بالأَيْمان :

تُطلق اليمين ويراد بها اليد اليمنى ، ويراد بها القوة ، ويراد بها كذلك الحَلِـف . وسـمي الحَلِف يميناً ؛ لأن المتحالفين كأن أحدهما يصفق بيمينه على يمين صاحبه [1] .

وقد تكلم الشعراوي عن معنى « عرضة » في قوله تعـالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُـوا اللهَ عُرْضَـةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) ﴾ (سورة البقرة) . فقـال : " كأن الحق يقول : « أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والـبر والتقوى » . فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول : أنا أقسمت ألا أبر هـذا الإنسان . إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر . ويريد الحق بذلـك القـول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز في منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بيـن النـاس . ومـن حلف على شئ فرأى غيره خيراً منه فليفعل الخير وليكفِّر عن يمينه [2] لماذا ؟ لأن المؤمـن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير ، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله " [3] .

والشعراوي ينبه إلى أن المؤاخذة لا تكون في اليمين اللغو . قال عند تفسير قولـه تعـالى : ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّـمُ الأَيْمَـانَ ... (89) ﴾ (سـورة المائدة) : " وعلينا أن نلحظ التعاقد في قوله الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمـانك » . وعندما ننظر إلى معنى : « اللغو » نجده الشئ الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبـي ؛ مثل قول الإنسان في اللغة العامية : لا والله ، أو : والله أن تأتي للغداء معنا . هذا هو اللغو . أي هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنـا علم سبحانه أن هناك كلمات تجري على ألسنتنا لا نعنيها " [4] .

وعن كفَّارة اليمين المعقد يقول : " والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » إذن فهناك استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهي تستدعي المؤاخذة . فكيف تكـون

---

(1) معجم مقاييس اللغة : ج6ص158 ـــ 159 . وقد أشار الشعراوي إلى مثل هذا . انظر تفسير الشعراوي : ج2ص975 .

(2) هذا كلام مقتبس من حديث النبي ﷺ نصه : " **من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذي هو خير ، وليترك يمينه** " . مس : ك الأيمان / ب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منـها ... ج3ص1273 (ح1651) .

(3) تفسير الشعراوي : ج2ص971 .

(4) تفسير الشعراوي : ج6ص3362 .

المؤاخذة وهي عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بنص ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة ومنعها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . والكفارة هي ستر للعقوبة . فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة ما دام عقَّد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة فقط حين تحنث في القسم فلم تبر فيه ، فتكون الكفارة في هذا المجال كالآتي : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد ... وفي الإطعام لعشرة مساكين من أواسط ما نطعم به الأهل . قد يقول قائل : هل الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن من أهله من يأكل في الوجبة الواحدة ثلاثة أرغفة ، فيكون الأوسط في مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم كلحم ودسم . وكذلك الكسوة ؛ أن يكسو الإنسان الذي يكفر عن يمينه عشرة مساكين بما يستر العورة وتصح به الصلاة ؛ كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أي ملابس تسترهم . وها نحن أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة تأتي في المرتبة قل الأخيرة ، ويأتي بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . إذن فالحق لم يرتب الكفارة ، وإنما علينا أن نختار منها الكفارة الملائمة " [1] .

وعن حفظ اليمين يقول : " ويأتي الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانك » . والحفظ هو عدم التضييع . أما كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجري اليمين على لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يحنث في اليمين . وهذا يقتضي ألا يحلف الإنسان على شئ بقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيجند كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذي أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانك » " [2] .

هذا ، وقد تكلم الشعراوي عن اليمين الغموس ، فقال : " أما اليمين الغموس فهي الحلف والقسم الذي تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل " [3] .

ولا بد أن نعلم أن الجمهور ذهبوا إلى أنه لا كفارة في اليمين الغموس [4] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6ص3364 ــ 3365 باختصار .

(2) تفسير الشعراوي : ج6ص3365 ــ 3366 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2ص974 .

(4) فتح القدير : ج2ص89 .

وبهذا يتبين لنا كيف كان عرض الشعراوي للأحكام الفقهية . لقد تناولها ــ رحمه الله ــ من الجانب الاجتماعي أكثر من تناوله لها من الناحية الفقهية ــ كما رأينا ــ وبين أثرها في المجتمع . والحقيقة أن هذا الموضوع ــ الفقهي والاجتماعي ــ بحاجة إلى دراسة علمية وبحث مستقل ؛ لأن الشعراوي له ضلع بارز في هذا الجانب .

ثانياً : الإعجاز التشريعي في علاج مشاكل المجتمع :

لقد كان للقرآن دور واضح في علاج مشاكل المجتمع ، خاصة المشاكل المستعصية التي كانت عادة مألوفة في الجاهلية ؛ كالرق وشرب الخمر والثأر ونحوها . فعالج القرآن هذه المشاكل بطريقة جديدة غير لم يعرفها البشر . إنها طريقة الله خالق البشر .

وأذكر فيما يلي مثالاً من تلك المعالجات القرآنية بينها الشعراوي في تفسيره . وهي ظاهرة الرق . فعن تصفية الإسلام لهذه الظاهرة يقول الشيخ : " وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام . وجاء الإسلام بالعتق ليصفي الرق . فجعل من فك الرقبة كفارة لبعض الذنوب ، وجعل من مصارف الزكاة عتق للعبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة . وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعجز عن سداد ما عليه من ديْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له . وإذا فُعِلت جناية ، فالجاني يأخذ العفو من المجني عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرِق شئ فإن السارق لا يعاقب ، بل يعطي أحد أولاده عبدًا للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق . وهكذا كانت منابع الرق في العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر . وقد كان الرق يتزايد . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، لكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ بالمنع عند الصلاة . ثم حرمها تحريماً قاطعاً .

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق ، وجعل المصدر الوحيد هو الحرب المشروعة من ولي الأمر . أما من ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة . فالذي يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد أجره عند الله ، أعتق رقبة . وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى تنتهي في سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهي الرق فعلاً ، وإن لم يُنْهِه شكلاً . فإذا كان عند أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقي عبده ، فلا بد أن يلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطعَم ، فإن كلفه

يعينه ، وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده " [1] .

ويؤيد ذلك أنه ﷺ قال : لا يقلن أحدكم : " **عبدي وأمتي ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي** " [2] ، وذلك لرد الاعتبار النفسي عند الرق ، وحتى يشعر بأنه يُعامل معاملة الأب .

ومن طرق تحرير الرق التي شرعها الإسلام نظام المكاتبة . ومعنى المكاتبة في الشرع : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً ، فإذا أداه فهو حر .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك في سورة النور ، حيث يقول : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ (من الآية 33 سورة النور) .

والمكاتبة لها أحكام ، وهي :

1 ـــ إذا طلب السيد من العبد المكاتبة فلا يُجبَر العبد عليها ؛ لأنه قد لا يملك المال الذي يدفعه للسيد مقابل العتق ، أو أنه لا يملك الأمانة والصلاح والقدرة في الاعتماد على النفس في مزاولة الحياة الحرة .

2 ـــ وإذا طلب العبد من السيد المكاتبة ، فقد اختلف العلماء في ذلك على قولين :

الأول : ذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر في الآية أمر إرشاد واستحباب .

الثاني : وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده المكاتبة أن يجيبه إلى ما طلب ، أخذاً بظاهر الآية [3] .

والراجح وجوب مكاتبة السيد لعبده إذا علم فيه خيراً ، أي صلاحاً وأمانة ووفاءً وقدرة على الكسب والاعتماد على النفس ؛ لظاهر النص ، ولقوة أدلة القائلين بهذا الرأي .

وهكذا يتبين لنا كيفية معالجة الإسلام للرق .

ثالثاً : بيان علة التشريع :

قد يدرك الإنسان علة التشريع ، وقد لا يدركها ؛ ومن هنا لم يُكلِّف الحق سبحانه الإنسان بالبحث والتنقيب عن علل الأحكام وحكمة التشريع . ونحن نُقبل على الأحكام لأن الله أمرنا بها لا لعلتها .

والشعراوي قد أشار إلى مثل هذا عند الكلام عن الميتة ولحم الخنزير . قال : " وحين

---

(1) تفسير الشعراوي : ج9 ص5223 ـــ 5225 باختصار . وانظر ج6 ص3381 ـــ 3383 ، ج2 ص745 .

(2) مس : ك الألفاظ من الأدب وغيرها / ب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ج4 ص1764 (ح2249) .

(3) انظر : تفسير ابن كثير : ج3 ص276 ـــ 277 ، وفتح القدير : ج4 ص36 ـــ 37 ، ودراسات في القرآن وعلومه : ص79 .

يحرم الله « الميتة » فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله ؛ لماذا حرم الميتة ؟ لأنه يكفينا أن الله قال : إنها حرام .... وهب أننا لم نهتد إلى حكمة التحريم ، ولم نعرف الأذى الذي يصيب الإنسان من أكل الميتة ؟ هل كان الناس يقفون عند الأمر حتى تبدو علته ، أم كانوا ينفذون أوامر الله بلا تفكير ؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق ، ونفذوها دون تردد . إذن فما دام الله يخاطبنا ، فبمقتضى حيثية الإيمان يجب أن نتقبل عنه الحكم ، وعلة قبول الحكم هي صدوره من الذي حكم . أما أن نعرف علة الحكم ، فهذه عملية إيناس للعقل ، وتطمين على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصح أن يجعل إيمانه رهناً بمعرفة العلة " (1) .

فالشعراوي بين أن الإنسان يأخذ الأحكام لأنها صادرة من الله ، وما دامت صادرة من الله ففيها النفع للإنسان ، وقد ظهرت علل كثير من الأحكام ، وهذه تؤنس العقل ، وتؤكد لنا عملية الإيمان .

ومن الحِكَم التشريعية لبعض الأحكام حكمة توزيع الطلقات على مرات ثلاث ، فعن هذا يقول الشعراوي : " وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا في العبارة الواحدة ، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع ، وإعطاء الفرصة لا يأتي في نَفَس واحد وفي جلسة واحدة . إن الرجل الذي يقول لزوجته : أنت طالق ثلاثاً لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ، ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة . ولكن عظمة التشريع في أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان ، فربما أخطأ في المرة الأولى ، فيمسك في المرة الثانية ويندم " (2) .

وهكذا يبين الشعراوي الحكمة من التشريع .

رابعاً : الخلافات الفقهية بين العلماء :

لم يكن الشعراوي يتوسع في المسائل الخلافية بين الفقهاء ، ولم يكن يورد آراء أصحاب المذاهب ولا أقوال السلف والخلف في الخلافات الفقهية إلا ما ندر . ويرجح أحياناً بين الآراء ، ولا يتعصب لمذهب معين .

فعلى سبيل المثال ، لقد احتدم الخلاف بين الفقهاء وعلماء السلف في مسألة الطلاق ، وكثير من المفسرين نقل الخلاف بين العلماء فيها ، لكننا لا نجد الشعراوي ينقل تلك الخلافات . فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (من الآية 228

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص715 . وانظر ج3 ص1479 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص990 ، وانظر ج9 ص5241 .

سورة البقرة) هذه الآية فيها خلاف بين العلماء في تعيين معنى « قروء » ، فماذا قال الشعراوي في معناها ؟ قال : " وقول الحق سبحانه وتعالى : « ثلاثة قروء » . ما المقصود به ؟ الحيض أو الطهر ؟ إن المقصود به الطهر ؛ لأنه قال : « ثلاثة » بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتي مع المذكر ، ولا تأتي مع المؤنث ، و « الحيضة » مؤنثة ، و« الطهر مذكر . إذن « ثلاثة قروء » هي ثلاثة أطهار متواليات " (1) .

فلم ينقل الشعراوي هنا خلافاً بين العلماء ، لكن كلامه يشير إلى أن هناك خلاف بينهم . وقد رأينا كيف أنه اعتمد على اللغة في الترجيح .

ومن ذلك مسألة الرضاع في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ ... (23) ﴾ (سورة النساء) فما هي حدود مسألة الرضاع ؟ . قال : " قال العلماء : يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تنشئ خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلاً ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أي امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوماً وليلة ، ويكتفي بها ، وأن يكون ذلك في مدة الرضاع " (2) .

إذن لم يذكر هنا من العلماء إلا أبا حنيفة ، ولم يتوسع في الخلاف بينهم في مسألة الرضاع ، ولم يرجح رأياً على آخر . وقد رجح فيما بعد الرأي القائل بخمس رضعات مشبعات يحرمن . وربما اعتمد على حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، فقد قالت : " كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نُسخن بخمس معلومات . فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يُقرأ من القرآن " (3) .

وإذا أردنا أن نتبين من صحة قولنا في عدم توسع الشعراوي في مسائل الخلاف بين العلماء فلنقارن بين تفسيره وتفسير أحد العلماء الذين توسعوا في ذكر الخلافات الفقهية ، مثل تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، فقد ذكر الإمام القرطبي عند تفسير الآية نحواً من إحدى وعشرين مسألة ، وذكر الخلافات الدائرة بين العلماء فيها (4) .

ومن ذلك أيضاً تفسيره لآية الوضوء في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص984 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2096 .

(3) أخرجه النسائي في السنن الصغرى : ك النكاح / ب القدر الذي يحرم من الرضاع ج3 جـ 6 ص100 (ح3307) ، والكبرى : ك النكاح / ب القدر الذي يحرم من الرضاعة ... ج3 ص298 (ح5448) .

(4) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ج5 ص105 وما بعدها .

إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... (6) ﴾ . فلو نظرنا إلى تفسير الشعراوي للآية ، لما وجدناه يتطرق الحديث منه إلى المسح على الخفين ، وهي مسألة ضرورية في الوضوء ، ولا خاض في متاهات الخلاف بين العلماء في قضايا الوضوء ، بل كان يقول : " ولا نريد أن ندخل في متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء " [1] . بينما لو نظرنا إلى تفسير القرطبي ــ مثلاً ــ ، لوجدناه يذكر في تفسير الآية اثنين وعشرين مسألة ، وأورد الخلافات الدائرة بين العلماء حول كل مسألة .

ونذكر من كلا التفسيرين ما أورداه حول قوله تعالى في الآية : « وأرجلكم إلى الكعبين » ، فقد ذكر الشعراوي في تفسيرها أنها معطوفة على المغسولات ــ الوجه واليدين ــ ، وذكر حدود الكعب ، ولم يذكر خلافاً بين العلماء في ذلك ، بينما القرطبي تلكم عن خلاف الناس في تحديد الكعبين ، ثم عن تخليل الأصابع ، وتكلم عن دلالة الآية على المسح على الخفين ، وذكر الآراء الواردة في ذلك بتوسع [2] .

الرد على القول بزواج المتعة :

خالفت فرقة الشيعة السلف في القول بزواج المتعة ، وأباحوا هذا اللون من الزنا ، وقالوا إنه لم يجر عليه نسخ ولا تبديل . واستدلوا على ذلك بقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (من الآية 24 سورة النساء) ، فهذا إمام من أئمتهم صاحب تفسير (مجمع البيان في تفسير القرآن) يقول عندما عرض لتفسير هذه الآية الكريمة سالفة الذكر : " قيل : المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة ، وقيل : المراد نكاح المتعة . وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم . وهو مذهب أصحابنا الإمامية . وهو الواضح " [3] . ثم راح يعلل ذلك ، ويحشد من الأدلة والبراهين على إثبات صحة ما ذهب إليه ، وأنَّى له ذلك . فماذا كان رد الإمام الشعراوي على مثل هذا القول ؟

قال : " العلة في تحريم زواج المتعة أن المُقْدِم عليه لا يريد به الاستمرار في الحياة الزوجية ، وما دام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة . والذين يبيحون زواج المتعة مصابون في تفكيرهم ؛ لأنهم يتناسون عنصر الإقبال بديمومة على الزواج ، فما الداعي لأن تقيد زواجك بمدة ؟ إن النكاح الأصيل لا يُقيد بمثل هذه المدة . وتأمل حمق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج ، إنما المسألة هي تبرير زنى ، وإلا لماذا يشترط

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2960 .

(2) انظر : تفسير القرطبي : ج6 ص100 ــ 103 ، و تفسير الشعراوي : ج5 ص2955 ــ 2956 .

(3) مجمع البيان في تفسير القرآن ــ للإمام أبي علي ، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (ت548هـــ) ج2 تتمة الجزء الرابع والخامس والسادس ص71 ، وانظر : ص72 ــ 73 .

في زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر ؟! " [1] .

وهكذا يوجه الشعراوي نقده اللاذع للشيعة الذين يحلون زواج المتعة .

خامساً : مقارنة بين التشريع الإسلامي والقانون الوضعي :

لا وجه مقارنة بين التشريع الإسلامي والقوانين الوضعية ، والبوْن بينهما واسع لا حدود له . ونحن هنا نبين منهجية الشيخ الإمام الشعراوي في المقارنة بين التشريعين ، ولسنا ننقص من قدر شريعتنا السمحة ، كما قال الشاعر :

ألم تر أن السيفَ يَنقُصُ قدرُهُ   إذا قيل : إن السيف أمضى من العصا

وإنما نزيد من سموها ونرفع من شأنها ؛ لأن وجود المنافِس يُعلي من شأن منافِسه ، وكما قالوا : الضد يظهره الضد .

أما الشعراوي فقد كان يتحيَّن الفرص أثناء التفسير ليعقد مقارنة بين التشريع السماوي والتشريع الأرضي . وهذه أمثلة أسوقها للدلالة على ذلك :

عن قصور القانون الوضعي يقول : " والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يضع الاحتمالات ، و ليس كالمشرعين من البشر الذين تضطرهم أحداث الحياة بعد التشريع إلى أن يغيروا ما شرعوا ؛ لأنه حدثت أقضية بعد تطبيق التشريع لم تكن في بالهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث في الكون من القضايا التي تضطرهم وتلجئهم إلى أن يغيروا القانون .... لكن الحق سبحانه وتعالى ساعة قنن ، فهو يقنن تقنيناً يحمل في طياته كل ما يمكن أن يستجد من أقضية دون حاجة إلى تعديل ؛ لأن الإسلام جاء منهاجاً خاتماً ولا منهج للسماء بعده ، لذلك كان متضمناً كافة الاحتمالات " [2] .

إن العقل البشري مهما بلغ من الكمال فهو قاصر ؛ لأن نظرته غير شمولية ، سواء إلى المستقبل الذي هو غيب بالنسبة له ، أو إلى الإنسان الذي يريد أن يقنن من أجله . ونحن نحترم العقل البشري ، ونحترم سعيه لضبط السلوكيات في المجتمع بوضع التقنينات ، فهذه نزعة خير ، لكن هذه التقنينات إن صلحت لأفراد فهي لا تصلح لآخرين ، وإن صلحت لمجتمع فهي لا تصلح لبقية المجتمعات . ولن تصلح كذلك للأجيال القادمة ؛ لأنها لن تواكب مستحدثات الأمور . ومن هنا ندرك مدى قصور المناهج البشرية ، ولذلك نجد إجراء التعديلات على القوانين من حين لآخر . لكن الشريعة الإسلامية ؛ لأن واضعها هو الله ، وهو الخالق للإنسان ، العالم بما يصلح له وما يُصلِحه ، لذا فهو يضع تشريعاً شاملاً وعاماً

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص1015 ، ج4 ص2115 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص718 ـ 719 مختصراً .

ومستمراً ما بقيت الأجيال ، خصوصاً وأن التشريع السماوي يتسم بالمرونة .

ويقول الإمام الشعراوي أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾ (سورة الأنعام) : " والفرق بين تشريع السماء وقانون الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطنه . وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض " (1) .

أرأيت كيف أظهر الشعراوي الفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض ؟ إن تشريع الأرض يتركز على الأفعال الظاهرة ، ولا يهتم بالباطن ، لكن التشريع السماوي ينصَبُّ على ظاهر الفرد وباطنه ، وهذا فيه حفظ للفرد من نفسه فضلاً عن حفظه من غيره ، وأنّى للقانون الوضعي ذلك !! .

وثمة مثال ثالث يظهر فيه الشعراوي الفرق بين التشريع الإلهي والقانون البشري وهو قوله ـ رحمه الله ـ : " إن تعديل أي قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة في المجتمع .... أما تشريع الله فهو يحمي المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين قانون وضعي بشري جاء لينقذنا من الأحداث ، وتشريع رباني إلهي يقينا من تلك الأحداث . فالمقنن البشري كمثل الطب العلاجي ، أما التشريع السماوي فهو كالطب الوقائي ، والوقاية خير من العلاج " (2) .

معنى هذا أن القانون البشري يأتي بعد وقوع الجريمة أو الفعل الضار في المجتمع ، أما التشريع السماوي فيأتي قبل حدوث الفعل . فالتوجيه الرباني للإنسان بأن يفعل أو لا يفعل يكون سابقاً لحدوث الفعل ، ولو أن الإنسان سار على هذه التوجيهات الربانية ، لما حدث هذا الفعل الضار أصلاً .

وهكذا يبين لنا الشعراوي مدى قصور منهج البشر وعدم صلاحيته في التطبيق ، وأن منهج الله صالح للتطبيق إلى يوم الدين . وشتان بين هذا وذاك .

سادساً : فتاوى الشعراوي حول بعض القضايا المعاصرة :

أ) قضية نقل الأعضاء :

أفتى فضيلته بتحريم نقل الأعضاء أخذاً بالأحوط ، وخالف في ذلك علماء عصره . وقد أشار صاحب كتاب (من القرية إلى العالمية) إلى هذا ، ونقل أقوال بعض العلماء

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص3907 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2365 .

المعاصرين الذين قالوا بجواز نقل الأعضاء من الحي إلى الحي ، والتحريم القاطع لنقلها من الميت إلى الحي .

وكان رأي الشعراوي مُنْصبًّا على كون الإنسان مِلكاً لله ، وليس مِلكاً لنفسه . ولا يحق له أن يتصرف في شئ من هذا الجسد الذي لا يملكه ، مع حثه على التداوي والأخذ بأسباب الشفاء . ونظر للقضية من زاوية أخرى ، وهي أن الإنسان يقلل من كفاءة جسمه ، ولا يعطي حياة للإنسان المريض ، إذ معظم حالات نقل الأعضاء تفشل ولا تؤدي واجبها ، ويظل صاحبها شقياً طوال الشهرين أو الثلاثة التي يعيشها . ولهذا يُصِرُّ ــ رحمه الله ــ على رأيه [1] . ويؤكد ذلك بعد أكثر من تسع سنوات كما في كتاب (الشعراوي بين السياسة والدين) حيث يقول : " ... وذلك عندما أكدتُ أن نقل الأعضاء من الحي إلى الحي حرام ، ومن الميت إلى الحي حرام " [2] .

والحقيقة أن المسألة فيها تفصيل ، وقد قال الشيخ يوسف القرضاوي فيها ما يكفي ويشفي ، فقد فصَّل القول فيها على أتم وجه ، متناولاً لها من جوانب متعددة : من ناحية مدى جواز تبرع المسلم بعضو من جسمه وهو حي ، وتبرعه لغير المسلم ، وبيع الأعضاء ، وهل تجوز الوصية بجزء من البدن بعد الموت ؟ وهل يجوز للأولياء والورثة التبرع بجزء من ميتهم ؟ وحق الدولة في ذلك ومدى جوازه ، وزرع عضو من كافر لمسلم ، وزرع عضو من حيوان نجس في جسم إنسان ، وزرع الخصية . كل هذه الأمور تناولها ــ جزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين ــ ، فقال فيها ما يشفي الغليل ، فانظر إليه [3] .

وأذكر هنا خلاصة فتواه حول : هل يجوز للمسلم أن يتبرع بعضو من جسمه وهو حي ؟ وهل يجوز أخذ عضو ما من الميت ؟

والجواب : إن جواز التبرع من الحي إلى الحي ليس مطلقاً ، بل مقيداً بشروط :

الأول : ألا يعود عليه بالضرر ، فلا يجوز التبرع بعضو وحيد في الجسم كالقلب أو الكبد ، ولا يجوز التبرع بالأعضاء البارزة في الجسم ؛ كالعين .

الثاني : ألا يعود بالضرر على أحد له حق عليه لازم ، كحق الزوجة أو الأولاد ، أو الزوج أو الغرماء .

الثالث : أن يكون التبرع من المكلف البالغ العاقل ، فلا يجوز للصغير أن يتبرع بمثل ذلك ؛

---

(1) انظر كتاب : من القرية إلى العالمية : ص84 ــ 89 .

(2) الشعراوي بين السياسة والدين : ص70 .

(3) انظر : فتاوى معاصرة ــ د . يوسف القرضاوي : ج2 ص531 وما بعدها .

لأنه لا يعرف مصلحة نفسه ، وكذلك المجنون .

أما نقل الأعضاء من الميت إلى الحي ففيها تفصيل :

أولاً : إذا أوصى الميت بذلك فلا بأس ، أما إذا أوصى بعدمه ، فلا يجوز حينئذٍ أن نأخذ شيئاً من جسمه .

ثانياً : إذا لم يوصِ ، فيُستأذن من ورثته ، فإن أذنوا جاز ذلك ، وإلا فلا يجوز أخذ شئ من جسده . ولا يبعد أن يجوز ذلك للدولة إذا تأكدت من عدم وجود أولياء للميت ، وإلا وجب استئذانهم .

أما قضية بيع الأعضاء فلا يجوز . [1] .

والحقيقة أن ما قاله الدكتور القرضاوي أمر معقول ومقبول .

ب) قضية الاستنساخ :

قال ــ رحمه الله ــ : " الاستنساخ هو أخذ خلية من إنسان للحصول على طفل . نقول : كيف خلق الله حواء ؟ أخذ جزءاً من آدم ، وعمل منه حواء ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (من الآية 1 سورة النساء) فماذا يمنع أن نأخذ جزءاً من إنسان ليكون طفلاً ، هذا ما نفعله في النبات منذ آلاف السنين بدون مشكلة ، إذن فالاستنساخ ورد في الإنسان ، وفي النبات ، والله يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (36) ﴾ (سورة يس) . إذن فهناك خلق لا نعلم من أين يأتي . ثم الذي يستنسخ يأخذ خلية ممن ؟ يأخذها من الأصل . إذن فالأصل المخلوق لله فيه صلاحية أن يحدث منه هذا ، أما في الاستنساخ فليس هناك عملية خلق ، ولكن هناك عملية استفادة من الإمكانية التي خلقها الله ، ولا تخرج عن طلاقة القدرة " [2] .

كأن الشعراوي يجيز الاستنساخ في هذا الموضع . لكن نُقِل عنه المنع . حيث يقول :

" الاستنساخ موجود في النبات ، وممكن في الحيوان ، أما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف . فهو يتطلع لأسرة مكونة بقدرة الله وحده من ذكر وأنثى . ولكي يتكاثر الناس على مبدأ . فطفولة الإنسان طويلة ولها مقومات بخلاف الحيوان ، وعليه فلا استنساخ في الإنسان "[3]

إذن فالشعراوي يمنع الاستنساخ في الإنسان ، ويجيزه فيما دون الإنسان .

وفكرة الاستنساخ : أخذ خلية من أي نسيج من أنسجة جسم الحيوان ، وتؤخذ نواة الخلية ،

---

(1) انظر : فتاوى معاصرة : ج1 ص531 ــ 437 .

(2) انظر حاشية (الفتاوى الكبرى) : ج1 ص231 .

(3) الشعراوي بين السياسة والدين : ص71 باختصار .

وتحقن في بويضة مفرغة مع نواتها ، وتوضع بعد ذلك في رحم أنثى نفس الكائن ، عند نجاح الإخصاب تنقسم البويضة ، وينتج الجنين الذي يصبح فيما بعد نسخة طبق الأصل من الكائن المأخوذ منه الخلية .

وقد وقف العلماء ضد الاتجاه لتطبيق التجربة على الإنسان ، لما يؤدي إليه من مخاطر ؛ لأن عملية استخراج صورة عديدة من أصل واحد يفتقد ضوابط الأسرة والبنوة والأخوة ، وتفتح الباب أمام جرائم التزوير ، وانتحال شخصيات الغير ، وأن الإنسان ليس وليد مزرعة كما يمكن أن يكون الحال بالنسبة للأبقار والأغنام ، والإنسان في هذه الدنيا كرمه الله ، وجعله خليفة في أرضه ؛ ليقيم الحق والعدل ، ويعمر الكون بالطريقة التي شرعها الله ، وهي الزواج الصحيح (1) .

إن عملية الاستنساخ في الإنسان محرمة تحريماً قاطعاً ، لما يترتب عليها أحكاماً شرعية خطيرة . والمثال على ذلك أن الإنسان الذي استنسخناه ، من يكون أبوه ؟ هل هو الذي تم الاستنساخ منه أم والده ؟ وينبني على معرفة والده أمور : منها قضية الميراث ، ومحارمه من النساء . فمن هنا كان التحريم . والله أعلم .

ج) طفل الأنابيب :

حول طفل الأنابيب يقول : " الطفل الصناعي أمر يثور حوله الجدل في هذه الأيام ، وأنت إذا أردت أن تصنع بشراً ، فالمفروض أن تأتي بالمادة الحية تصنعها أولاً ، ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتُيسِّر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم ، لا يكون هذا أبداً فيه صناعة أو طفل صناعي ، أنت أخذت ما خلقه الله تعالى من الرجل وما خلقه الله تعالى للأنثى . إذن ، أنت لم تفعل شيئاً سوى أنه كان هناك سبب مانع للحمل ، واستطعت أن تتغلب عليه بما كشفه الله تعالى لك من علم ، ولكن المادة الحية والرحم الذي نما فيه الطفل هما خلق الله سبحانه وتعالى ، فأين ما خلقت أنت من طفل صناعي ، أو طفل الأنابيب ؟
إنك لم تخلق شيئاً ، وإذا كان الله قد يسر لك سبلاً لتعالج عقماً باستخدام ما خلقه الله لاستمرار حياة البشر في الأرض ، فأنت لم تخلق شيئاً . ولو أردت فعلاً أن ترينا أنك تستطيع أن تخلق طفلاً صناعياً ؛ فابدأ أولاً بخلق المادة الحية ، والعلم كله عاجز أن يخلق خلية حية واحدة " (2) .

فالذي يظهر من خلال كلامه السابق جواز التلقيح الصناعي بما يسمى بـ « طفل

---

(1) انظر : الاستنساخ ـ إعداد مكتبة الأهرام للبحث العلمي : ج1 ص12 .

(2) الفتاوى الكبرى : ج1 ص230 ، ومعجزة القرآن : ص105 ـ 106 .

الأنابيب » .

ولقد وضع العلماء للتلقيح الصناعي شروطاً كي يكون جائزاً ، أهمها :

ــ أن يكون التلقيح بذات مني الزوج ، ولا يجوز استبداله من رجل آخر ، وإلا دخل في معنى الزنا .

ــ أن تكون البويضة من الزوجة لا من امرأة أخرى ، وإلا دخل أيضاً في معنى الزنا .

ــ ولا بد أن يكون الطبيب المشرف على عملية التلقيح خبيراً مسلماً أميناً [1] .

فإذا تمت هذه الشروط كان التلقيح الصناعي جائزاً ــ والله أعلم ــ .

فهذه أبرز القضايا المعاصرة التي أخذت جهداً من العلماء . ونالت جدلاً بينهم . عرفنا رأي الشعراوي فيها ، وعرفنا أيضاً من خلالها أن الشعراوي يُعمِل عقله في كل مستجدّ على وفق ما يَفهمه من كتاب الله تعالى .

---

(1) انظر : الفقه الواضح من الكتاب والسنة ــ د . محمد بكر إسماعيل : ج2 ص476 ــ 477 .

المبحث الثاني : التفسير الاجتماعي عند الشعراوي :

أخذ هذا الجانب من التفسير عند الشعراوي حظاً وافراً . والقرآن كان يتنزّل بما فيه صلاح المجتمع ، وكان التركيز على الجانب الإصلاحي في العهد المدني أكثر من العهد المكي . والجانب الاجتماعي وثيق الصلة بالجانب الفقهي لما للفقه من بالغ الأثر على المجتمع . حيث إن الله أنزل منهجه لإصلاح الإنسان في هذا الكون ، وضبط سلوكه فيه ، فكان المنهج قانون صيانة للمجتمع . والشعراوي مزج في تفسيره بين الجانبين . وفيما يلي نبين منهجه ــ رحمه الله ــ في التفسير الاجتماعي ، وذلك من خلال عدة مطالب :

المطلب الأول : موقفه من الدعوات الحديثة :

تحركت نوازع الشر في صدور شرذمة من البشر ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، وخدعهم بأن قامت تلك الشرذمة باختراع أنظمة ، لها أفكارها ومعتقداتها . ويعلم الله أن مبدأها قائم على الهوى والضلال والانحراف ، وأن هذه الأفكار هدفها هدم القيم والأخلاق من المجتمعات ، ودفعها نحو الرذيلة والفساد ، فلا تأتي بالخير أبداً .

واعلم أن اليهود وراء كل ضلال . فلا يهدأ لهم بال ، ولا يستقر لهم حال إلا بعد أن يروا الناس غارقين في المعاصي ، وهائمين في الردى والشهوات . فقاموا باختراع المذاهب الهدامة ، والأنظمة المبتدعة الرامية إلى هدم الإسلام . فالشيوعية مثلاً من صنع اليهود ، ومؤسسها هو ماركس ، وقد ثبت أنه من أصل يهودي . ولينين الذي من أصل يهودي كذلك والشيوعية فكرة قائمة على المادة ، ويبدو أن هذه الفكرة أو الفلسفة اتخذت من الدين عدواً ، فدعى أنصارها إلى التحرر ونبذ الأديان ، وأنكروا وجود الله . وقد قال لينين قبل قيام الثورة الشيوعية سنة 1917م : " كلما تحررنا من الدين ازددنا اقتراباً من الواقع الاشتراكي . ولذا يجب علينا أن نحرر عقولنا من خرافة الدين " (1) . وقال أيضاً بأن الدين أفيون الشعوب ، الذي يُخدِّر أعصاب معتنقيه ظلماً . لكن أقول : إن الباطل سرعان ما يزول وينهار . والواقع يؤكد ذلك ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)﴾ (سورة الإسراء) وخذ مثالاً كذلك الماسونية ؛ من الذي يقف وراءها ؟ إنهم يهود . وهي إحدى المنظمات الصهيونية

(1) انظر : الشيوعية الصنم الذي هوى : ص8 وما بعدها . وأساليب الغزو الفكري ص110 وما بعدها .

السرية . وتاريخ الماسونية الذي تتداوله معارف الماسونيين ينبئ عن أصالتها الدينية اليهودية (1) .

وتاريخ اليهود خير شاهد على ذلك ؛ لقد أنكروا المعجزات ، وكذبوا المرسلين ، وقتلوا الأنبياء ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وأوقعوا العداوات بين الخلق ... إلى غير ذلك من المنكرات التي لا حصر لها ولا عدد .

يقول الإمام الشعراوي : " فالرأسمالية الشرسة من اليهود ، والشيوعية الشرسة من يهود ، وهؤلاء الذين يدّعون أنهم أنبياء من بعد رسول الله ﷺ إنما يحدث لهم ذلك بفعل يهود . وكذلك الجمعيات التي تتخفى وراء أسماء « الماسونية والروتاري والليونز » كلها من يهود " (2) .

وفي إحدى المواضع من تفسيره تكلم عن القاديانية ؛ فذكر أنه أسسها ميرزا غلام أحمد القادياني ، وهو فارسي ادعى لنفسه النبوة ، وكان غاية في الذكاء ، فادعى أنه جاء ليخفف التكاليف الشرعية . والمطلع على أفكار هذه الطائفة يجد الدعوة الصريحة للانحلال .

وتكلم الشعراوي كذلك عن البهائية (البابية) ، وهي فرقة تأسست على يد علي محمد الشيرازي ، وقد دعت إلى الانحلال الأخلاقي . وممن انضم إلى هذه الفرقة امرأة تسمى (قرة العين) ، وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته . وذكر الشعراوي من مقولاتها : المرأة زهرة خُلقت لتُشَم وتُضم ، فلا يُمنع ولا يُحدّ شامها ولا ضامها . وما دامت زهرة إذن تُجنى وتُقطَف ، وإلى الأحباب تُهدى وتتحف . وقالت : لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم .

ويتكلم الشعراوي عن بعض كتب البهائية ، وما فيها من الانحلال الخلقي والكيد للإسلام .

وكان من ضمن تلك الكتب ، كتاب (الأقدس) الذي ألفه علي محمد الشيرازي واعتبره فوق القرآن وقال : إن القرآن انتهت مدته ، ويوضح الشعراوي أن هذا الكتاب يقرر أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود ، وأن موسى سيد الرسل جميعاً . ويبين أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، والدليل على ذلك أنهم أقاموا له حفل تكريم في بريطانيا ، ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزي ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار . وذكر الشعراوي من مقولات الباب (علي محمد الشيرازي) : مطرود من يدعي أنه جاء بشريعة بعد شريعتي إلا بعد مرور ألف سنة . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمي نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء

(1) انظر أساليب الغزو الفكري : ص177 وما بعدها . وقد ذكر من المنظمات الصهيونية : البهائية ، وجمعية شهود يهود ، ونادي الصلبان المزدهر ، ونوادي الروتاري .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3271 . وانظر ج1 ص437 .

بشريعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى عبد البهاء . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه « شوقي » ، وكان يقيم بعكا . وكان رئيس البهائية في الآونة الأخيرة يهودي اسمه « بترسون » [1] .

هذا ، وقد وجه الشعراوي نقده إلى هذه الأنظمة بأنها وُضعت لجلب المصلحة الخاصة بأفرادها ، وجلب المنفعة لهم دون غيرهم . يقول ــ رحمه الله ــ : " إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية . ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن حينما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى " [2] .

وقد بيَّن ــ رحمه الله ــ أن الشيوعية تمتص مال الأغنياء ، والرأسمالية تمتص عرق الغير ، وهذه كلها مذاهب نابعة من الهوى [3] .

وحينما يُقال : مذاهب نابعة من الهوى ، فمعنى ذلك أن انعكاسها سيكون سلباً على المجتمع . ويرحم الله الأستاذ الشهيد سيد قطب ، إذ وضح مدى تهافت المذهب الشيوعي ، وما تركه هذا المذهب من ضياع القيم والانحلال الأخلاقي ، والتحلل من كل قيمة تصد الشهوات عن الانطلاق بلا حدود ولا قيود ، وهذا الانحطاط والانحلال لم يقتصر على مس المؤيدين وحسب ، بل تعدى ذلك إلى المعارضين في أوربا وأمريكا .

وانحلال القيم كان عملية تبرير للدولة لأنْ تمد يدها إلى الأفراد ، وتتسلط عليهم ، مع عدم قدرة الأفراد مواجهة الدولة ، حيث لا قيم ثابتة يلوذ بها الأفراد ، ولا دستور ثابت يتحاكم إليه الجميع .

وفي نظير إطلاق يد الدولة تجاه الأفراد من كل قيد ، تطلق الدولة شهوات الأفراد من كل قيد ؛ ليجدوا في هذا الانطلاق الحيواني تعويضاً عن قيمهم المسلوبة وحرياتهم وحقوقهم المسلوبة . إنه انطلاق حيواني شهواني يقابله انطلاق استبدادي للسلطة ، واحدة بواحدة [4] .

ويقول الإمام الشعراوي عن الماسونية : " يُقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر في سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع . وما خفي من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية . وقد ينضم إليهم بعضٌ ممن لا

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3224 ــ 3226 ، ج6 ص3227 بتصريف . للتزود من أخبار القاديانية والبهائية انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص708 وما بعدها .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص881 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج2ص777 .

(4) انظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ــ سيد قطب : ص99 .

يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشاركوا في عمل الخير الظاهر ، ونقول لكل واحد من هؤلاء : انظر إلى دينك ، تجده يحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسبه إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامي ؟! " (1) .

ومن ناحية أخرى تكلم الإمام الشعراوي عن كيفية ممارسة مثل هذه الأنظمة وتطبيقها على الشعوب فقال : " ونحن في حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادئ الباطلة هم الذين يمسكون السياط (2) من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم . وكلٌّ من أصحاب هذه المبادئ الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السَّوْط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادئ . ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادئ الباطلة معتقداً أن مبدأه سليم لقال : أطرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهم الخيار " (3) .

إذن ، مثل هذه المبادئ قائم على القهر والسلطان والقوة . ولولا ذلك لدُفنت في مهدها . إن هذه الأنظمة عوامل فساد في الأرض ، ولا تعود على الناس بالخير أبداً .

يقول الإمام الشعراوي : " وهذا السعي في الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف في الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة ، أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس " (4) .

وضرب ــ رحمه الله ــ المثل على ذلك بما حدث لروسيا التي كانت تمد العالم بالقمح ، ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة ، وتنتظر من يبيع لها القمح ؛ لأنها تبنت الفكرة الماركسية . وهكذا يبين الشعراوي مدى فساد هذه الأنظمة ، والمبادئ الهدامة ، التي تدعو إلى الانحلال الأخلاقي ، وتهدف إلى هدم الإسلام ، وجلب المنفعة لفئة من الناس دون غيرهم .

المطلب الثاني : موقفه من المستشرقين والحاقدين :

كان المفسرون القدامى أيام كانت الخلافة الإسلامية يقفون لأصحاب البدع والضلالات ، ويردون عليهم بدعهم وضلالاتهم . ولهذا نجد النقد اللاذع من أنصار السلف الموجه إلى تلك

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2076 ، وانظر ج5 ص2908 .

(2) السياط : جمع سَوْط ــ بسكون الواو ــ . وأصلها يدل على مخالطة الشيء الشيءَ ، والسَّوْط : آلة للضرب ، سمي بذلك لمخالطته الجلد . يُقال : سُطتُه بالسوْط : أي ضربته . انظر معجم مقاييس اللغة مادة (سوط) ج3 ص115 ــ 116 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص1111 .

(4) تفسير الشعراوي : ج6 ص3272 .

الفرق الضالة ؛ كالشيعة والمعتزلة ، ومن نحا نحوهم . لكن فيما بعد مُنِي الإسلام بشرذمة من البشر يوجهون له الطُّعُونات ، ويثيرون حوله الشُّبَه والشكوك ، فقيض الله لهؤلاء الشرذمة من يرد كيدهم إلى نحورهم ، ويدفن حقدهم في صدورهم .

إننا إذا ما نظرنا إلى الأهداف العامة للمستشرقين والمبشرين وغيرهم من المشككين ، لوجدناها لا تخرج عن الكيد للإسلام والمسلمين ، وتقويض العقيدة الإسلامية ، وإحلال المفاهيم الغربية محلها ، والحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره ووصول مفاهيمه إلى الغرب بصورة صحيحة . إضافة إلى تشويه صورة الإسلام ، وتجزئة المسلمين ، إلى غير ذلك من الأهداف المنكرة . وجنَّدوا لكيدهم جنوداً من الداخل والخارج لتحقيق تلك الأهداف . وقد مدت الصهيونية يد العون لكل من حارب الإسلام ، ولطخ يده بدماء المسلمين (1) .

وقد حظي تفسير الإمام الشعراوي بقسط وافر من الردود على هؤلاء المستشرقين والمشككين ، حيث وقف لهم بالمرصاد ، يطرح شبههم وشكوكهم ، ثم يفنِّدها ، ويرد عليها . قال ــ رحمه الله ــ عن أعداء الدعوة : " وكانوا من بعد ذلك يحاربون الإسلام بالاستشراق وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام " . قال : " إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام تأتي من الغرب ، ولكنهم يحاولون الطعن من باب خفي ، كأن يقولوا : إن محمداً عبقري نادر في تاريخ البشرية ، ويبنون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ونجد مثالاً على ذلك رجلاً أوربياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم في العالم ، ويضع محمداً ﷺ على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً ، ولكن لماذا لم تؤمن برسالة محمد بن عبد الله " (2) .

إن أعداء الإسلام قد يئسوا أن يقاتلوا المسلمين بالمواجهة العسكرية ، ولجأوا إلى غزو المسلمين فكرياً ، وقد نجحوا إلى حد كبير في ذلك . وهاهي بلاد الإسلام تشكو وتعاني آثار الغزو الفكري حتى الآن ، ولذلك دعا الشعراوي إلى إعداد العدة اللازمة لمواجهة هؤلاء الغزاة فكرياً ، قال : " والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوماً مادياً ، بل المرابطة تعني : الإعداد بكل ما يمكن أن يَرُد عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفِد ، لماذا ؟ لأن المسألة ليست كلها غزواً بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذي يتسرب إلى النفوس من حيث لا

---

(1) انظر : أساليب الغزو الفكري : ص20 وما بعدها ، وأجنحة المكر الثلاثة ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ص17 وما بعدها .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3274 .

تشعر " [1] .

نعم ، لا بد من إعداد العدة اللازمة لدفع صيحات الباطل ، وكل ما يتسرب إلى الصف الإسلامي من أفكار أهل الباطل من المستشرقين وأمثالهم ، ولذلك نجد من العلماء المسلمين ــ حفظهم الله ــ من انبرى لدراسة مخططات أعداء الإسلام وأساليبهم ، وكشف النقاب عن تلك المخططات أمام الملأ ؛ كي يعلمها كل مسلم ، ويتحرى أن يقع في شئ من شراكها .

ويذكر صاحب كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) أنه تأسس للاستشراق معاهد ، وتألفت له جمعيات تعاونية في الأعمال المتعلقة بالدراسات الشرقية والعلوم الشرعية ، ودخلت تلك الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى ، فكان لها فروع حتى مستوى تحصيل شهادة الماجستير والدكتوراة . وأخذ فريق من المستشرقين يؤلف المؤلفات المتعلقة بالعلوم الإسلامية لخدمة أهداف الاستشراق الأساسية الرامية إلى تشويه صورة الإسلام ، وتشويه التاريخ الإسلامي ، ووضع الشبهات ، وتوجيه الانتقادات الملفقة إلى أحكام الإسلام وشرائعه ... إلى غير ذلك من المكائد [2] .

يقول الإمام الشعراوي ــ رحمه الله ــ : " وكان المستشرق يؤلف كتاباً ، ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله ﷺ ، وقد يكتفي هذا المؤلف بأن يدس في الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارئ يثق به . وعندما علموا أنَّنا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين ، وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها في مناهج تعليمنا ، وفي برامجنا ، وفي وسائل الإعلام والصحافة ، فوجد الغرب أن أيسر طريق الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين " [3] .

هذه التي أشار إليها الشعراوي مصيبة حلت بالمسلمين في هذه الأيام ، فأن تحارب فئة من أبناء المسلمين الإسلام ؟ هذه كارثة !! . والعجيب أن هذا أمر يحدث . ولذلك نجد الشعراوي ينبه أبناء المسلمين من الوقوع في مثل هذا . قال : " وهم أخذوا بعضاً من أبناء البلاد الإسلامية ليربوهم في مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجعلوا من هؤلاء الشباب دعاة لقضاياهم في إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ؛ لذلك نقول لشبابنا : احذروا أن تكونوا عوناً للمفسدين وتدَّعوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة بالطلاء الخارجي ، ولكن

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص1976 .

(2) انظر : أجنحة المكر الثلاثة : ص84 ــ 85 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص2277 بتصرف يسير .

انظروا إلى عمق القضايا " [1] .

فلا بد أن يتنبه المسلم لدينه ، ولا يغترَّ بهؤلاء المستشرقين ، ولا بالتقدم التكنولوجي الذي وصل إليه الغرب .

أمثلة من شُبَه الخصوم وردها :

كما قلنا وقف الشعراوي لشُبه خصوم الدعوة من المستشرقين والمشككين وغيرهم من الحاقدين ــ بالمرصاد ، فكان يعرض شُبَهِهم ، ويفندها ويرد عليها .

ومن تلك الشُبَه ما أثاروه حول قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9) ﴾ (سورة الصف) . قال الإمام الشعراوي : " ويستمر هؤلاء الكارهون للإسلام في قولهم ويضيفون : إن إسلامكم لم يظهر على الدين كله حتى الآن ، بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام ؟ ونقول لهم : أوَيظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام جميعاً ؟ لا ، لو فطنوا إلى قول الله : « ولو كره المشركون » لعلموا أن إظهار الإسلام على الدين لا بد أن يلازمه وجود كافرين كارهين ، وما دام الإسلام موجوداً مع كافرين كارهين ، فهو لن يظهر عليهم كدين ، ولكنه يظهر عليهم ــ أي يغلبهم ــ كنظام يضطرون إليه ليحلوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة ، فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون " [2] .

وفي موضع آخر رد الشعراوي شبهة المستشرقين ، حينما قالوا : إن محمداً بلَّغ قومه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (من الآية 116 سورة النساء) ، ولكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال في آية أخرى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) ﴾ (سورة الزمر) ، يحاولون بذلك نسبة القرآن إلى محمد ﷺ ، ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيات . فرد عليهم الشعراوي بأن قولهم هذا ناجم عن جهل في اللغة ، وأن اللغة ليست عندهم ملَكة ، فلو كانت اللغة عندهم ملكة لفهم الواحد منهم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن الشرك لا يدخل في هذا الأمر كله ؛ لأنه كافر في القمة ، ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريمتين ، والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة المعاني القرآنية [3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3274 ــ 3275 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص995 .

(3) تفسير الشعراوي : ج5 ص2635 مختصراً .

فهذا نزر يسير من كم كبير من الأمثلة في تفسير الشعراوي لرد الشُّبه المثارة حول الإسلام .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن الشعراوي ألف كتاباً في نقض أباطيل المستشار محمد سعيد العشماوي في كتابه (الخلافة الإسلامية) . وقد أورد فيه نصوصاً من أباطيل المستشار حول الخلافة الإسلامية والخلفاء ، ورد عليها ، وأخرجها في كتاب بعنوان (الأنوار الكاشفة لما في كتاب العشماوي من الخطأ والتضليل والمجازفة) .

إذن ، يتبين لنا من خلال ما سبق موقف الإمام الشعراوي من المستشرقين وخصوم الدعوة . وقد كان موقفه ــ رحمه الله ــ موقف الناقد البصير ، حيث كان يطرح شبههم ، ويفندها ويرد عليها بالحجة الدامغة .

المطلب الثالث : موقفه من الحكم :

إن الشعراوي يتكلم عن الحكم ، وله آراء صائبة فيه ، لكن الشئ الذي وقع فيه هو المهادنة الواضحة للحكام ، وعدم مواجهتهم بكلمة الحق ، وهي أنهم لا يحكمون بشرع الله ، ولا يدينون دين الحق . ومعلوم أن دور العلماء في مثل هذه المواقف أن يوجهوا النصح للحكام ، ويبينوا لهم جوانب التقصير ، لكن ربما يشفع له مقالاته تجاه الحكم ، حسب ما سيظهر لنا إن شاء الله تعالى .

أولاً : التزام الحاكم والمحكوم بشرع الله :

قال ــ رحمه الله ــ : " يجب على الحكومات إعلان الإسلام منهجاً لحكمها ، فإذا كانت الحكومة قد استطاعت السيطرة على أمتها بالمحافظة على نظام ارتضته ولو كان بشرياً ، فمن باب أولى يمكنها تطبيق الإسلام منهجاً في أمتها . إن الفيصل بيني وبين الحكومة هو أن تحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى " (1) .

وحينما سُئل : هل نحن في حاجة إلى أن نُحكم بالإسلام حالياً ؟ قال : ليس نحن فقط ، وإنما الدنيا كلها يجب أن تُحكم بالإسلام (2) .

ونحن لو نظرنا إلى الحكومات العربية في هذه الأيام ، لوجدنا فسادها واضحاً ، وبُعدها

---

(1) الشعراوي بين السياسة والدين : ص11 ــ 12 باختصار .

(2) المرجع السابق : ص72 .

عن شرع الله منهجاً وواقعاً لا شك فيه ؛ لذلك لا نستبعد أن تبيح هذه الحكومات ما حرمه الله . وقد سُئل فضيلته عن موضوع الخمر . علماً بأنه قد أصبح اليوم في بعض الدول العربية مشروباً يباع في المحلات كأي مشروب آخر ، معروضاً للناظرين . فسُئل فضيلته عن موضوع الخمر ؟ فأجاب : " إن الدولة لم تشرع الخمر . صحيح أنها لم تحرمه ، فتكون قد تركت الولاية لك ، فلا تشربها . الدولة لم تُرغِم المرأة على أن تتبرج ، وبالتالي فإن الولاية لها . أكثر الأشياء تركتها الدولة لاختيارك أنت ، فداوم ولايتك على نفسك ، وافعل ما تستطيعه .

ثم أقول : الذي في يد الدولة اترك الدولة مسئولة عنه ، وتُسأل هي عنه أمام الله ، لو أن كل واحد نفذ ولايته على نفسه لسقط الحاكم غير المسلم وحده " [1] .

إن رأي الشعراوي هذا ليس صحيحاً من أكثر جوانبه ؛ لأن سكوت الدولة عن ارتكاب المحرمات هو إقرار منها بإباحتها ، ولو منعت الدولة بيع الخمور والتبرج وغيرها من المحرمات ، وعاقبت كل من ارتكب مخالفة شرعية ، لكان هذا سداً لأبواب الفتنة والانحراف ، أما أن تترك الدولة الأمور منسابة هكذا دون حساب ولا عقاب ، فهذا أمر غير مقبول شرعاً .

وكذلك الطريقة التي قال بها الشعراوي لإسقاط الحاكم غير الإسلامي ، وهي أن ينفذ كل واحد الولاية على نفسه حتى يسقط الحاكم وحده ، من شأنها أن تُبقِي الحكومات الفاسدة على فسادها ، بل وتبقي لها سيادتها ؛ لأنها لا تغيِّر من الواقع شيئاً ، ولا تعمل على تحريك ساكن . والإسلام يطالب بإقامة الخلافة الإسلامية على الأرض ، وتطبيق شرع الله مهما كلف الثمن .

لكن إذا لم يحكم ولي الأمر بالإسلام فما هو دور المحكوم حينئذٍ ؟

رأيه في ذلك أن يقوم المحكوم في بداية الأمر بنُصحه وتوعيته وتنبيهه على ضرورة الحكم بالإسلام ، فإن لم يستجب كانت غاية ما يقوم به المحكوم هو تقويمه بالسيف [2] .

ثانياً : شروط الحاكم :

هناك شروط وصفات لولي الأمر لا بد أن يكون متصفاً بها ، عندئذٍ تجب طاعته ، وإلا فيجب خلعه . وقد تكلم الشعراوي بشئ عن ذلك ، فقال : " الحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة

---

(1) عالم عصره في عيون معاصريه : ص122 ـــ 123 .

(2) الشعراوي بين السياسة والدين : ص14 ، 23 .

رسوله ، فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط " [1] .

وأكد الشعراوي على ضرورة الوفاء بحق ولاية الأمر ، ورعاية حقوق الرعية ، فيسهر الحاكم على مصالح الناس ، ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوقهم . وساعة نرى الحاكم متكالباً على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم لا مغرم [2] .

فالحاكم لا بد أن يكون مؤمناً مطيعاً لله ورسوله ، ويكون عدلاً أميناً ، يقوم بالمسؤولية التي وُسِّدت إليه .

ويَجمُل بهذا المقام أن نسوق فيه كلمة للأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ . يقول : " فأما أولو الأمر منكم ، فالنص يعين من هم ؟ ﴿ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم ﴾ (من الآية 59 سورة النساء) أي من المؤمنين ، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحدّ الإسلام في الآية ؛ من طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وإفراد الله ــ سبحانه ــ بالحاكمية ، وحق التشريع للناس ابتداءً ، والتلقي منه وحده فيما نص عليه ، والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء مما لم يرد فيه نص ؛ لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه .

والنص يجعل طاعة الله أصلاً ، وطاعة رسوله أصلاً كذلك ــ بما أنه مرسل منه ــ ، ويجعل طاعة أولي الأمر منكم تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله ، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم كما كررها عند ذكر الرسول ﷺ ؛ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله ، بعد أن قرر أنهم « منكم » بقيد الإيمان وشرطه .

وطاعة أولي الأمر منكم بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من الله ، والذي لم يرد فيه نص بحرمته " [3] .

وهكذا يتوافق رأي الشعراوي مع رأي الأستاذ سيد قطب ــ رحمهما الله ــ .

هذا إذا كان الحاكم متصفاً بتلك المواصفات ، وحينئذٍ تجب طاعته . أما إذا كان الحاكم فاقداً لتلك الشروط ، متسلطاً على الشعب ، متعدياً لحدود الإسلام ، فحينئذٍ لا طاعة له علينا ، ونحن برآء منه ؛ لأن فساد الكون ينشأ إذا وُسِّد الأمر لغير أهله . وفي هذا يقول الإمام الشعراوي : " وأول مظاهر الفساد أن يوكل الأمر إلى غير أهله ؛ لأنه إذا أُعطي الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول ﷺ [4]: " **إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر**

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2360 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج3 ص1399 .

(3) في ظلال القرآن : ج2 ص691 .

(4) أخرجه خ : ك العلم / ب فضل العلم ... ج1 جـ1 ص25 (ح59) .

الساعة " " [1] .

وإذا نظرنا إلى حكام الدنيا في هذه الأيام لما وجدنا واحداً أهلاً لمنصبه ؛ وذلك لابتعادهم عن الحكم بما أنزل الله في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية . فالإسلام كل لا يتجزأ ، لا يجوز الاحتكام إلى الإسلام في الأحوال الشخصية المدنية فقط ، ونترك تحكيم الإسلام في جوانب هامة من المجتمع . قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65) ﴾ (سورة النساء) .

ثالثاً : الحاكم ليس قدوة في كل شئ :

إن الحاكم ليس قدوة وأسوة للشعب في كل ما يفعله ؛ لأن هناك من يتخذ من فعل الحاكم مبرراً ومسوغاً لأن يعمل مثله ، ويرد الشعراوي على هؤلاء قائلاً : " هناك أناس كثيرون يرون في فعل الحاكم مبرراً لأن يفعلوا مثله ، وهذا أمر خاطئ ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته . لا تقل : إن الحاكم قد شرع أعمالاً ، وتُلقي عليه تبعة أفعالك " [2] .

وفي موضع آخر يقول : " حين يُقنن الفساد فذلك نتيجة أن الحاكم يقر ذلك . ويأخذ الناس حكم الحاكم كأمر نهائي ، مثال ذلك : بعض من الحكام لم يحرموا الربا ــ لعله يقصد البنوك الربوية ــ ويتعامل به الناس بدعوى أن الحكومات تحلله ، فلا حرج عليهم ، ومثل هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحلل ما حرمه الله ، وإن حللت ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والحاكم محكومون بقانون إلهي " [3] .

معنى كلامه أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهكذا تظهر لنا نظرته ــ رحمه الله ــ تجاه الحكم . قد نجد عنده مهادنة للحكام . لكن لعل كلامه هذا يبين عدم رضاه عن الحكومات عامة ، والعربية منها خاصة . فالله أعلم .

المطلب الرابع : موقفه من يهود :

اليهود مبعث كل فساد ، ومثار كل فتنة ، وسبب كل رذيلة ، ومنشأ كل بدعة . يبذلون الغالي والنفيس من أجل إعاثة الفساد في الأرض . مع أن الله قال لهم : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص219 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص799 .

(3) تفسير الشعراوي : ج2 ص804 .

مُفْسِدِينَ ﴾ (من الآية 60 سورة البقرة) ، لكن يبدو أن هذا داءٌ فيهم متأصل ، ورثوه كابراً عن كابر ، ولا شفاء له إلا السيف .

لقد حقدوا على الإسلام والمسلمين ، وخاصة على سيد المرسلين ﷺ ، لأنه جاء من نسل إسماعيل ، ولم يأت من نسل يعقوب ــ عليهما السلام ــ ، ويعلم الله أنه لو أتى من نسل يعقوب ما تغيَّر فكرهم ، ولا تغير موقفهم تجاهه ، ولعاملوه كما يعاملون بقية الأنبياء ــ عليهم السلام ــ .

ولقد ظهر حقدهم على الإمام الشعراوي لأنه يقول كلمة الحق ، ويفسِّر كتاب الله على خلاف هواهم وأمزجتهم ، حتى شكا مناحيم بيجن ــ رئيس الوزراء الإسرائيلي ــ أحاديث الشيخ في التليفزيون ؛ لأنه دائم الهجوم على اليهود ، وقال : إن هذا من شأنه أن يعطل عملية السلام . وقال الشيخ ــ رحمه الله ــ : والصحف الأمريكية التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية هاجمتني هي الأخرى ، وكتبت تقول : أسكتوا هذا الرجل ! . ولكنني لن أسكت (1) .

وقد سبق أن أشرنا إلى القول بأن اليهود لهم ضلع بارز في إنشاء المذاهب المنحرفة كالشيوعية الرأسمالية والماسونية وغيرها . والمحافل الماسونية وإن كانت تظهر بالثوب الحسن ، لكنها ذات نوايا خبيثة .

ولقد كان لليهود باع طويل في التحكم في الإعلام العالمي ، حتى استطاعوا أن يُخضِعوا معظم وسائل الإعلام في العالم تحت سيطرتهم ، لا يبثون فيها إلا ما يريدون . ولو نظرنا إلى البرامج التي تُذاع في شتى القنوات لوجدناها فعلاً تخدم مصالح يهود . وبعض القنوات التي يطرب لها الناس ، ويظنون أنها نزيهة ، أقول : إن مثل هذه القنوات أشبه ما يكون بآلة تنفيس على الشعوب المسلمة ، كالبالون تماماً ينتفخ حتى إذا ما أوشك على الانفجار ، جاءت هذه القناة التي يُظَن نزاهتها لتنفسه حتى لا ينفجر ؛ لأن اليهود وغير اليهود يعلمون أنه إذا انفجر الشعب المسلم ، فلن يستطيع أحد أن يقف أمامه ، ومن ثم يكون الزوال لدولة إسرائيل المزعومة .

لقد كان للجانب الإعلامي الذي تسيطر عليه الصهيونية العالمية جانب كبير في وقف المسلمين عن الاندفاع إلى تحرير أراضيهم المُغتَصبة ، وقدسهم الأسير . وفي المقابل يعملون جاهدين من أجل إضلال الشباب ، وإفساد أفكارهم ، حتى يظلوا نياماً . والعجيب أن المسلمين غارقون في الفساد والانحراف ، لا يتنبهون ، بل لا يريدون أن يتنبهوا إلى ما يدور حولهم من الكيد الصهيوني ، والتخطيط المفبرك . كأنما أُغشيت على وجوههم قطع من

---

(1) انظر : الشعراوي الذي لا نعرفه : ص176 ــ 179 .

الليل مظلماً .

وقد أشار الشعراوي إلى شئ من هذا حينما قال : " علينا أن نرقب كل فساد في الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام أثراً واضحاً . لقد كان من اجتراء الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمئن شعب الله المختار ، فثمانون في المائة من وسائل الإعلام في العالم خاضعة لإرادتنا ، ولا يمكن أن يُعلم فيها إلا ما نُحب أن يُعلم " (1) .

وعن سر سكنتهم الأرض الموضحة في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ (من الآية 104 سورة الإسراء) ، يقول : " فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون لأنهم لو كانوا مجتمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها ، ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام " (2) .

وحتى تتساوى القوى في الكون لا بد أن يكون هناك من يقف للمدّ الفسادي الناشئ عن اليهود . وقد أخبرنا الحق بأن هناك من يقف أمامهم إلى يوم القيامة . حيث قال : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (من الآية 167 سورة الأعراف) وهنا يقول الإمام الشعراوي : " والكلام هنا بالنسبة لبني إسرائيل . يبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين في أن يفعلوا ، فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب " (3) .

والتاريخ يحدثنا أن يهود ذاقوا الأمرين بسبب أعمالهم مع الله ، ذاقوا من البابليين ، ثم من النصارى ثم من المسلمين ، وفي العصر الحديث لا تنسى « هتلر » زعيم ألمانيا ، الذي أذاقهم سوء العذاب ، وشردهم في البلاد (4) .

ومن أمثلة الإفساد عند اليهود الإيقاع بين الأوس والخزرج . عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، أحبط على اليهود خطة حياتهم ، فاليهود كانوا متمثلين في بني النضير ، وبني قريظة ، وبني قينقاع . وكان في المدينة الأوس والخزرج وبينهما حروب دائمة قبل الإسلام . فقسم اليهود أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج ، حتى يضمنوا استمرار العداوة بين القبيلتين . فكانوا كلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3275 .

(2) تفسير الشعراوي : ج7 ص4420 .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص4413 ـــ 4414 .

(4) التفسير الواضح ـــ د . محمد محمود حجازي : ج1 جـــ9 ص38 .

من جديد ، وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم [1] .
ولما جاء الإسلام وحد بين الأوس والخزرج ، وألف بين قلوبهم ، فأراد اليهود أن يعيدوا الأمر على ما كان عليه في الجاهلية ، فقالوا : لنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، فقام أحدهم اسمه شاس بن قيس ، وأرسل فتى من اليهود ، وجلس بين جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم بعاث ــ بضم الباء ــ وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، انتصر فيه الأوس على الخزرج ، واستطاع الفتى اليهودي أن يهيج الحمية في صدور الأوس والخزرج ، وحدث النزاع بينهما ، وحصل التباغض ، وقالوا : السلاح .. السلاح . ثم بلغ ذلك النبي ﷺ فجاء إليهم ، وأخمد نار الفتنة ، ورد كيد اليهود إلى نحورهم ، وحقدهم إلى صدورهم [2] .
إذن عمل اليهود هو إعاثة الفساد في الأرض ، وإشاعة الفتن بين المسلمين .

سبب ضياع القدس :

سئل الإمام الشعراوي عن سبب ضياع القدس ؟ فقال : " نحن الذين أضعناها . القدس تحتاج إلى موقف إسلامي قوي لتعلم إسرائيل أننا على قلب رجل واحد . القدس تحتاج إلى وحدة العرب ونبذ الخلافات والنزاعات " [3] .

فهذه دعوة من الشعراوي للمسلمين بالتوحد ضد الكيان اليهودي ، ورد القدس إلى المسلمين .

ومن الجدير بالذكر أن يهود لم تستول على القدس والأراضي الإسلامية دفعة واحدة ، وإنما كان ذلك وفق خطوات ، وضمن أساليب خبيثة . فقد قاموا بشراء جزء قليل من الأراضي الفلسطينية وسيطروا بالقوة على الباقي ، كما أنهم دخلوا في سلك الاستشراق الماكر ، لما رأوا فيه من بغيتهم في الوصول إلى البلاد التي يحلمون بالسيطرة عليها ، فقام فريق منهم بالتخصص بالدراسات الشرقية ، وتابعوا المسيرة ضمن الخطط اليهودية ، حتى احتل اليهود عددا وفيرا من كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى وأخذوا يخدمون الأغراض اليهودية الصهيونية في هذا المجال تحت ستار أغراض المستشرقين المسيحيين .

إضافة إلى ذلك استطاعت الحركة الصهيونية أن تبني أجهزة متعددة في مختلف

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص237 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج3 ص1650 ــ 1651 . وحادثة الإيقاع بين الأوس والخزرج ذكرها ابن هشام في سيرته ج1 جـ2 ص162 وما بعدها ، والطبري في تفسيره : ج3 جـ4 ص16 .

(3) الشعراوي بين السياسة والدين : ص68 .

المجالات ؛ الزراعي والعمالي والتعليمي والثقافي والاقتصادي والإعلامي والعسكري [1] .
وعامل آخر هام من العوامل التي ساعدت على تثبيت شجرة يهود الخبيثة في الأراضي المقدسة ، وهي الاستعمار الإنجليزي ، الذي عمل على تسليم الأراضي ليهود أولاً بأول ، وما إن خرج الاستعمار حتى حل مكانه الاحتلال اليهودي .
وبهذا يظهر لنا موقف الشعراوي من يهود ، وقد أظهر لنا نواياهم الماكرة ، وأفعالهم الخسيسة ، وآثارهم الخبيثة في المجتمعات .

المطلب الخامس : موقفه من قضية المرأة :

لقد كرَّم الإسلام المرأة ، وحفظ لها كيانها في المجتمع ، بعد أن كانت مهدورة الحق ، بل كانت تشكّل نقطة العار في المجتمع الجاهلي . وكانت النظرة إليها نظرة احتقار ، لا رأي لها ، وجودها كعدمه . فلما جاء الإسلام رفعها من تلك المنزلة الدنيئة ، وتعالى بها إلى منزلة كريمة ، وأعاد لها كيانها في المجتمع ، وجعلها الركن الأهم في تكوين الأسرة .
يقول الإمام الشعراوي : " إن الحق عز وجل يمتنّ على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالتهم قبل الإسلام ؛ فقد كان الرجل يطلق امرأته ويعيدها ، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط . وكان يحرم عليها المعاشرة الزوجية شهوراً ، ويتركها تتعذب بلوعة البعد عنه ، ولا تستطيع أن تتكلم . وكانت المرأة إذا مات زوجها تُنفى من المجتمع فلا تظهر أبداً ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة . وقبل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها ، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الحرص على عرضه وشرفه ، أو خشية الفقر .
باختصار كان الزواج أقرب إلى المهازل منه إلى الجد . فجاء الإسلام ، وحسم الأمور ، حتى لا تكون فوضى بلا ضوابط وبلا قوانين . فاذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام ، وانظروا إلى ما أنعم عليكم من نظام أسري يلهث العالم شرقاً وغرباً ليصل إلى مثله " [2] .
فالإسلام جاء ليكرم المرأة ويعززها ، ويبني بها الأسرة بناءً سليماً .
ويتجلى تكريم الإسلام للمرأة من خلال عدة أمور :
أحدها : مساواتها بالرجل في الجنس ، فهي مغرس النوع الإنساني ، وبمقتضى ذلك تستحق

---

(1) انظر : دراسات فلسطينية : ص62 ــ 66 ، وأجنحة المكر الثلاثة : ص85 .
(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص1001 ــ 1002 .

الإكبار والاحترام .

ثانيها : إن المرأة إذا كانت مساوية للرجل في الجنس فهي مساوية له كذلك في تكاليف الإيمان والعمل الصالح .

ثالثها : إن باب الرقي الروحي مفتوح أمامها ، وأنها تستطيع أن تنال من ذلك ما ينال الرجل

رابعها : إن الإسلام دعا إلى العلم ، وجعل طلبه عبادة ، ومدارسته تسبيحا ، والبحث عنه جهادا ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة . فإذا كان العلم بهذه المثابة ، فالمرأة والرجل فيه سواء لأنها مكلفة مثل الرجل [1] .

فهذه مناطات تكريم للمرأة في الدين الإسلامي والحنيف .

أولا : دور المرأة في بناء المجتمع :

خلق الله الزوجين الذكر والأنثى ، وجعل سعيهما شتى . قال تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) ﴾ (سورة الليل) ، كل واحد منهما له مهمته في هذه الحياة الدنيا . ومهمة الرجل تناسب بنيته وطبيعته ، كما أن مهمة المرأة تناسب بنيتها وطبيعتها .

وقد جعل الإسلام المهمة الأولى للمرأة القيام بمهام بيتها وأسرتها . يقول الإمام الشعراوي بعد أن تطرق الحديث عن قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (من الآية 117 سورة طه) قال : " إن هذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة ، فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود إلى بيته ، تذهب تعبه وشقاءه . أما مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده " [2] .

وقال أيضا : " إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هي : جماد ونبات وحيوان وإنسان . ومجال الرجل هو العمل مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان ومع الإنسان ، أما مجال المرأة فمع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها حاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟ " [3] .

ولهذا كان خروج المرأة للعمل تحميلا لها فوق طاقتها ، وزيادة لها في المشقة ، فتصبح بدلا من أن تقوم بأعباء بيتها ، تزيد في تحمل أعباء العمل إلى أعباء البيت . ولذلك نجد الشعراوي يعلق على خروج المرأة للعمل فيقول : " والواحدة منهن تعود من عملها متعبة لتجد أنها لا بد أن تعد الطعام ، وترعى شئون بيتها وأولادها ، فإذا انتهت من هذا كله ،

---

(1) انظر كتاب : إسلامنا : ص209 ــ 313 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص267 .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص1983 بتصرف .

وعاد الزوج إلى البيت ، وجد زوجته في غاية الإرهاق ، والزوج له مطالب ، وأهم هذه المطالب أن يجد سكناً في بيته . والمرأة تستقبله لتمحو عنه تعب النهار وشقاءه . ولكنه بدلاً من ذلك يجد زوجته مرهقة ، لا هي سكن ولا هي مستريحة الأعصاب ، ولا هي قادرة على أن تستقبل زوجها بابتسامة . مهمتها فسدت ، كل هذا لأننا خرجنا عن المفهوم الحقيقي لمهمة المرأة في الحياة " (1) .

وحينما سُئل ـــ رحمه الله ـــ عن عمل المرأة قال ـــ من ضمن إجابته على هذا السؤال : " وإذا كانت المرأة قد خرجت إلى العمل في العصر الحديث ، فلنا أن نلحظ أن طاقتها على إدارة بيتها تقل ، وأن رعايتها لأبنائها تقل ، وأن توترها يزداد ، وإحساسها بالذنب تجاه الأسرة يتغلب على مشاعرها ، ثم متاعب العمل مع متاعب البيت في آن واحد ، مما يجعلها تشكو من الإرهاق وتبدد سعادتها مع الانسجام المفروض أن تحققه مع أسرتها " (2) .

إذن سعادة المرأة في التزام مهمتها ، والقيام بوظيفتها المحددة لها . فإذا زيد عليها في العمل كانت المشقة والعناء . ليس ذلك من جهتها وحسب ، وإنما من جهة الأسرة ككل . ولذلك كانت الآثار المترتبة على عمل المرأة سيئة ، خاصة على الطفل . وفي هذا يقول الإمام الشعراوي : " إن قضية عمل المرأة قد أضاعت الأجيال من الأولاد ، فافتقد الابن حنان الأم ورعايتها ، ونشأ في حالة اضطراب نفسي ، نشهدها الآن في الأجيال الشابة التي بعدت عن حنان الأم ورعيتها . وتعليم أولادها القيم في الحياة " . ثم تكلم ـــ رحمه الله ـــ عن دُور الحضانة ، والفرق بين حنان الأم وحنان المشرفة في الحضانة ، ثم قال : " عندما يبتعد الطفل عن حنان أمه ، فهو ينشأ قاسياً عليها ، فاقد الإحساس بالانتماء إليها . روابط الأسرة عنده مفككة ، فاقداً للقيم الاجتماعية ، ولشعور التضامن والانتماء وغير ذلك . وينتج عن ذلك رعيل متشرد ، كما نراه على مسرح الأحداث والحوادث " (3) .

لكن قد تكون هناك ضرورات تُجبِر المرأة للخروج إلى العمل ، فما رأي الإمام الشعراوي في ذلك ؟

قال ـــ رحمه الله ـــ : " إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟ " (4) .

---

(1) المرأة في القرآن ـــ للإمام الشعراوي : ص22 ـــ 23 ، وانظر تفسيره : ج1ص267 .
(2) الفتاوى الكبرى : ج2 ص902 .
(3) المرأة في القرآن : ص21 ، 22 .
(4) تفسير الشعراوي : ج11 ص6527 ، وانظر الفتاوى الكبرى : ج2 ص903 .

فالمرأة لها أن تعمل عند الضرورة ، " فإذا فقدت عائلها الأول ــ والدها ــ والعائل الثاني ــ زوجها ــ ، فعلى الدولة أن تقوم برعايتها إذا لم يكن لها مال تنفق منه ، ولا يكلفها الإسلام أن تقوم بالأعمال التي هي من خصائص الرجال وحدهم "[1] . لكن إذا لم تقم الدولة بكفالتها ، واضطُرَّت إلى العمل فلا بأس ، خصوصاً وأن الدول في هذه الأيام لا تأبه بالضعفاء والمساكين ، ولا تهتم بالمحتاجين .

ثانياً : المساواة بين الرجل والمرأة :

ناقش الشعراوي دعاة المساواة بين الرجل والمرأة مناقشة عقلية منطقية ، فقال : " الذين يقولون : نسوي الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل ، نقول لهم : المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التي لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها معطلة لا يقوم بها أحد ، إذن فأنت حملتها فوق ما تطيق وأنت مخطئ ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى " [2] .

نعم ، إن فكرة التسوية التامة في كل الأمور بين الرجل والمرأة من عمل المفسدين ، ومن شأنه أن يفسد الأوضاع الاجتماعية . والحكمة الراقية لا بد فيها من ملاحظة بعض الفروق التنظيمية المناسبة للفروق التكوينية بين كلٍّ من صنفي الرجال والنساء ، وهذا ما سلكه الإسلام . فما بال دعاة التسوية التامة بين الجنسين يحاولون أن يرجعوا بالناس إلى الوراء ، فيدفعوا كلاً من الرجل والمرأة إلى المشاركة في كل مهمة من مهمات الحياة سواء أكانت مناسبة للتكوين الفطري ، أو غير مناسبة . وسواء أكانت ملائمة لخصائص الصنف أو لم تكن ملائمة له ؟!

إن هؤلاء هم الرجعيون حقاً ، الذين ينادون بالرجعة الفكرية والنفسية والروحية ، الفردية والاجتماعية إلى المنحدرات [3] .

وعند كلامه ــ رحمه الله ــ عن آيات المواريث عند قوله تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ (من الآية 11 سورة النساء) قال : " والذين يقولون : هذا ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذي يخصها سيبقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها ، فأيهما أكثر

(1) إسلامنا : ص219 .

(2) تفسير الشعراوي : ج4 ص2179 ، وانظر الفتاوى الكبرى : ج2 ص668 .

(3) انظر : أجنحة المكر الثلاثة : ص494 ــ 495 .

حظاً في القسمة ؟ إنها الأنثى " [1] .

وهكذا يظهر لنا موقف الشعراوي السديد من قضية المرأة .

المطلب السادس : موقفه من قضية التقليد :

التقليد سنة كونية محمودة إذا لم تخرج عن الدائرة المحددة لها ؛ لأن النشء لا غنى له عن التقليد . لكن متى يكون التقليد مذموماً ؟ يكون مذموماً إذا بلغ الإنسان رشده فلم يُعمِل عقله أو فكره في الاختيار بين البدائل ، أي أنه يفعل الشئ دون اقتناع . ويخرج عن هذا تقليد النبي ﷺ ، إذ تقليده ﷺ عبادة ، وهو ما يسمى بـ « الاتباع » . والتقليد ينشأ عند الإنسان منذ نشأته في بيئة من البيئات الاجتماعية ، فيكتسب منها معارف ومهارات وأخلاقاً كثيرة ، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ، ومنها ما هو صالح ، ومنها ما هو فاسد . وبمقتضى نشوئه في البيئة يتكون في نفسه إلفٌ لها مهما كان وصفها . وهذا يخلق في نفسه التعصب لأهله وعشيرته وقومه وأهل بيئته ، وجميع ما في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق ، بعيداً عن منهج التفكير السليم ، دون أن يسمح لعقله أن يميز بين الحق والباطل ، والصالح والفاسد . ونظرة واحدة إلى المعتقدات الوثنية في الهند والصين وأفريقيا وغيرها ، سنجد أن العامل فيها هو التقليد الأعمى ، والتعصب لما كان عليه الأسلاف من المعتقدات الموروثة ، ولذلك ذمهم الله في مواضع عديدة من القرآن [2] .

والشعراوي ــ رحمه الله ــ مدح التقليد في مواطن المدح ، وذمه في مواطن الذم . يقول ــ رحمه الله ــ : " والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعمِل عقله أو فكره في شئ ليقتنع به ، ويبني عليه سلوكه .... والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه " . قال : " فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أن لا يُعمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

الحالة الثانية : أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف " [3] .

وهذا التقليد الذي تكلم عنه الإمام الشعراوي مذموم ؛ لأنه مانع للعقل من الانطلاق ، ومعوق له من التفكير ، والحق يقول : ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2025 .

(2) انظر : العقيدة الإسلامية وأسسها : ص685 ــ 686 .

(3) تفسير الشعراوي : ج10 ص6137 ، 6138 .

دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (171) ﴾ (سورة البقرة) .

يقول الشيخ محمد عبده عند تفسير هذه الآية : " والآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ..... ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بأنهم « صم » لا يسمعون الحق سماع تدبُّر وفهم ، « بكم » لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم ، « عمي » لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه الحق . « فهم لا يعقلون » مبدأ ما هم فيه ، ولا غاية ما يُطلب من الإنسان ، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ولذلك اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون . فالعاقل لا يقلد عاقلاً مثله ، فأجدر به ألا يقلد ضالاً هو دونه " (1) .

ويقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (170) ﴾ (سورة البقرة) : " وهذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي ، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم . والتقليد هو نشأة طبيعية في الإنسان ؛ لأن الإنسان حين يخرج للوجود ممداً بطاقة الحياة ، فهذه الطاقة تريد أن تتحرك ، وحركتها تأتي دائماً وفق ما ترى من حركة السابق لها . فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلا إذا رأى في البيئة المحيطة به إنساناً يفعل ذلك . وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين حوله ، ولذلك تجد الأطفال دائماً يقلدون آباءهم في معظم حركاتهم ، ويقلدون أجدادهم وإخوانهم . وربما تجد الطفل يعاون جدَّه على الطاعة ، فساعة يسمع الطفل المؤذن ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلي ، فيذهب ويأتي بالسجادة ويفرشها له ، ويقف مقلداً له . والبنت تقلد أمها أو جدتها ، وهكذا . إذن فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود " (2) .

وفي موضع آخر يقول : " وكذلك أقول دائماً : إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون

---

(1) تفسير المنار : ج2 ص94 وما بعدها . وقد شدد الشيخ محمد عبده النكير على التقليد والمقلدين ، وإذا كانت حملة المعتزلة على التقليد والمقلدين تنصب على العقائد ، فإن الشيخ محمد عبده وسَّع هذه الدائرة ، فجعل حملته تنصب على التقليد والجمود عند أقوال الأئمة الأربعة المجتهدين أصحاب المذاهب . في المقابل دعا الإمام محمد عبده إلى الاجتهاد ، ونادى بفتح بابه ، وكان يلح عليه إلحاحاً شديداً ، وكان يرى أن قفل باب الاجتهاد لا مسوغ له ، فضلاً عن أنه منافٍ لمبادئ الشريعة . وهذا في الحقيقة أمر ليس على إطلاقه ؛ لأن الاجتهاد له شروط لا بد من توافرها في المجتهد ، منها العلم باللغة ، والعلم بالقرآن والسنة ، والعلم بمقاصد الشريعة . وهذه الشروط لا تتوافر إلا في القليل من العلماء .

انظر : علوم التفسير : ص41 ـــ 44 ، واتجاهات التفسير في العصر الراهن : ص142 ـــ 148 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص700 ـــ 701 بتصرف .

التربية . فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ، ويقلد الآباء ، لكن فور أن تكون له ذاتية يبدأ في التمرد . وقد يقول للآباء : أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرب النشء القيم الدينية الصحيحة ، فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات " [1] .

وهكذا تظهر لنا خطورة قضية التقليد ، لما لها من أهمية عظمى في تربية النشء .
وصلاح النشء يكون بصلاح آبائهم . وإنك لتنظر إلى المجتمعات فتجد آثار قضية التقليد بادية عليهم . وعلى سبيل المثال تجد الأب مدخنا ، يحمل علبة السجائر ، ويدخن أمام أولاده ، فيقلده أبناؤه ، وما إن ترى الطفل منهم قد وصل سن البلوغ إلا وقد وجدته يحمل علبة السجائر ويدخن . إذن الطفل حينما يرى أباه يصلي ويفعل الخير ، فإنه يقلده في فعل الخير وفي الصلاة ، وإذا رأى أباه لا يصلي ، ولا يفعل الخير ، بل ويفعل المنكرات والمحرمات ، فإن طفله ينشأ على ما نشأ عليه أبوه .
ويقول الإمام الشعراوي : " والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ، ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يؤذن للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ؛ لأن الأسوة السلوكية تتضح عليه ، بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته " [2] .

لكن المصيبة إذا بلغ الإنسان مبلغ الفهم والإدراك ، وبقي على التقليد . فلم يعمل عقله وفكره في الاختيار ، ولم يرد من أحد أن يصوب له خطأه . كما قال المشركون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (من الآية 23 سورة الزخرف) ، وتقليد هؤلاء تقليد اقتداء وليس تقليد اهتداء ، فلو كان تقليدهم تقليد اهتداء لميزوا بين الحق والباطل ، ولكنهم مقتدون لا يميزون بين حق وباطل ، ولا بين هدى وضلال [3] .
وبهذا العرض يتبين لنا كيف كان عرض الشعراوي لقضية التقليد ، وكيف بين لنا مدى

---

(1) تفسير الشعراوي : ج10 ص6138 .
(2) تفسير الشعراوي : ج7 ص4486 .
(3) انظر تفسير الشعراوي : ج10 ص5827 .

خطورتها ، ولذلك نبه على الاهتمام بالنشء .

المطلب السابع : نقده للبدع والعادات الاجتماعية السيئة :

من المعالجات الاجتماعية لدى الشعراوي نقده للبدع والعادات السيئة في المجتمع . معلوم أن المجتمع ــ أي مجتمع ــ لا يخلو من عادات وتقاليد ، قد تكون هذه العادات والتقاليد حسنة ، وقد تكون سيئة . والمصلحون في المجتمع لا بد أن يوجهوا نقدهم لتلك العادات السيئة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد وجه الشعراوي انتقاداته البنَّاءة لتلك العادات السيئة في المجتمع .

مثال ذلك : تشبُّه النساء بالرجال والرجال بالنساء . وهذه عادة موروثة عن الغرب . وعنها يقول الشعراوي : " ونجد من الرجال من يستأنث ــ أي أنه يحاول أن يكون أنثى ــ وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ، ويتزين بزينتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد ــ وهو شاعر وزميل لي ونشأنا معاً ــ رأى هذه الظاهرة ، فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتي من الذين اللاتي حِرْتُ بين الفتى وبين الفتاة

الشاعر يعلق حيرته ؛ لأنه لا يستطيع أن يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ؛ لأن الفتى يتشبه بالفتاة ، والفتاة تتشبه بالفتى . وبعض النساء يقمن بإجراء لتغيير الخلقة ؛ كنزع شعر الحواجب من منابته ، وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، فتتحول إلى شكل قبيح ، وتنسى أن الجمال إبداع وتقاسيم ، فقد يكون سر جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفاً ، وقد يكون سر الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .... وقد تريد المرأة حمرة خديها في لون الورد ، فتضع عليهما بعضاً من المساحيق . ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ؟ وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ؟ وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن ، وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدها ، ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التي يتم خنقها بطبقات من البلاستيك الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعي ؟ إن الأظافر ذات لون أراده الله بحكمة ،

لها نظام ، فلماذا تحرم أظافرها من الحياة الطبيعية .... ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يعجب بها " (1) .

فهذه بدع سيئة تحدث في المجتمع المسلم .

ومن ذلك أيضا : إضاعة الوقت في اللعب واللهو ، وعن الفارق بين الألعاب في الزمان الأول والألعاب في عصرنا يقول : " فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا ؟ إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار . وهي لعبة لا تعلم أحدا شيئا ؛ لأنها لعبة لذات اللعب ، وهي لعبة تعتدي على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادة . فهي تبدأ في زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعدادا كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمنع وتحول وتعطل البعض عن عمله ، والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك ، بينما نجد بعضا من ميادين الجد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يفيق الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم في شئ ما . وأقول هذا الرأي وأطلب من كل رب أسرة أن يحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم بهدوء ووعي حتى يتنبه كل فرد في الأسرة إلى مسئولياته . وليعرف أنها لون من اللهو ، وتأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج .

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولتأخذ كل أمر بقدره " (2) .

ومن ذلك أيضا نقده لشارع في القاهرة يسمى « عماد الدين » ، وهذا الشارع كان مليئا بالموبقات والمنكرات ، وقد كانت التحذيرات من زيارة ذلك الشارع ، فقال الشعراوي متعجبا من عدم مطابقة الاسم للمسمى :

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة أن يظلم اسما مسمى ضده جبلا

فشارع كعماد الدين تسمية لكنه لعناد الدين قد جعلا (3) .

وهكذا يوجه الشعراوي الانتقادات للعادات والبدع السيئة في المجتمع ، والتي لا فائدة منها .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص2651 ــ 2652 .

(2) تفسير الشعراوي : ج6 ص3589 .

(3) انظر : تفسير الشعراوي : ج6 ص3597 ــ 3598 .

خلاصة الفصل :

بهذا العرض المفصل يظهر لنا منهج الإمام الشعراوي في الجانبين : الفقهي والاجتماعي ، وتبين لنا كيفية عرضه للفقه من خلال بيانه للأحكام الفقهية من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية وحدود وأيمان . وكذلك بيانه للإعجاز التشريعي في علاج مشكلات المجتمع ، وبيانه لعلة التشريع والحكمة منه ، ورأينا عدم توسعه في الخلافات الفقهية بين العلماء . ثم مقارنته بين التشريع السماوي والتشريع الوضعي البشري . وقد ضربنا مثلاً لبعض الفتاوى المعاصرة التي أفتى بها الإمام ــ رحمه الله ــ . وعرفنا أن الشعراوي يربط بين الفقه والواقع الاجتماعي .

ثم بينا منهجه في التفسير الاجتماعي من خلال موقفه من الأنظمة الحديثة ، والمستشرقين والمشككين والحاقدين على الدعوة ، وموقفه من قضية الحُكم ، ومن اليهود وإفسادهم للمجتمعات ، وموقفه من قضية المرأة ، وقضية التقليد ، ثم نقده للعادات والبدع السيئة في المجتمع .

والله المستعان

الفصـــل السادس

منهجـــه فـــي التفســير العلمـــي

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : موقفه من التفسير العلمي .

المبحث الثاني : العلوم الطبيعية :

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : علم الفلك .

المطلب الثاني : علم الأحياء .

المطلب الثالث : علم الجغرافيا .

المطلب الرابع : علم البحار .

المطلب الخامس : علم الفيزياء .

المبحث الثالث : العلوم التجريبية :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : علم الطب .

المطلب الثاني : علم الكيمياء .

المطلب الثالث : علم النفس .

مقدمة الفصل :

نتكلم في هذا الفصل بمشيئة الله تعالى عن موقف الشعراوي من التفسير العلمي بأنواعه ، سواء العلوم الطبيعية أو التجريبية . ونبين منهجه فيها . وقبل البدء في بيان منهجه ــ رحمه الله ــ في ذلك ، نذكر رأي العلماء في التفسير العلمي .

اختلف العلماء في التفسير العلمي على آراء ثلاثة [1] :

أولاً : المجيزون :

وقد استدلوا بأدلة منها :

ــ قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ (101) ﴾ (سورة يونس) .

ــ حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده** " [2] .

ثانياً : المانعون :

وقد استدلوا بأدلة منها :

ــ أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم لم يتكلموا فيه .

ــ أنه تكلف وتمحل وتحميل للألفاظ فوق ما تحتمل .

ــ أن ما يسمى بالحقائق العلمية غير ثابت ، والجديد منها ينقض القديم ، وإنزالها على القرآن يقتضي تناقضه .

ثالثاً : جواز التفسير العلمي بشروط [3] **:**

أحدهما : أن يكون التفسير بالحقائق الثابتة التي لا تحتمل النقض .

ثانيهما : وجود الترابط والانسجام بين ظاهر اللفظ القرآني وتلك الحقيقة العلمية .

وهذا هو الرأي الراجح الذي يثلج له الصدر ، ويرتاح معه الضمير .

فإذا تبين لنا ذلك ، فلننظر إلى منهج الشعراوي في التفسير العلمي .

---

(1) انظر في ذلك : مناهل العرفان : ج2 ص69 وما بعدها . والتفسير والمفسرون : ج2 ص454 وما بعدها واتجاهات التفسير في العصر الراهن ص247 وما بعدها . والتفسير ومناهج المفسرين ــ لأستاذيَّ الدكتور جمال الهوبي ، والدكتور عصام زهد : ص207 وما بعدها .

(2) أخرجه **مس** : ك الذكر والدعاء / ب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ... ج4 ص2074 (ح2699) .

(3) انظر كتاب : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ــ أ . د . يوسف القرضاوي : ص360 ، والتفسير ومناهج المفسرين : ص207 وما بعدها .

المبحث الأول : موقفه من التفسير العلمي :

أولاً : رأيه في التفسير العلمي :

إن الشعراوي مولع بالتفسير العلمي ، فحيثما أُتيحت له الفرصة أثناء التفسير للكلام عن الإشارات العلمية أو الكونية تكلم عنها . لكنه لا يأخذ كل شئ على أنه مسلمات ، بل مذهبه في ذلك أن ما وافق ديننا وقرآننا أخذنا به ، وما خالف ديننا وقرآننا ضربنا به عرض الحائط .

عن ذلك يقول : " وكانت لفتة أخرى من الله تبارك وتعالى ، أنه لا تناقض مطلقاً بين القرآن وبين العلم . فإذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم ، فالقرآن على حق ، والنظرية باطلة " (1) .

وعندما تعرض لتفسير قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... (54) ﴾ (سورة الأعراف) قال : " وخلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث . فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يُقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق " (2) .

هكذا رد الشعراوي هاتين الفرضيتين ، أو النظريتين .

إذن الشعراوي يقول بالتفسير العلمي ، بشرط عدم وجود مخالفة بينه وبين الآية التي أشارت إليه .

ثانياً : القرآن معجزة دائمة ، وعطاء متجدد :

معلوم أن القرآن جاء معجزة لكل جيل ، وأن الإعجاز فيه مستمر حتى قيام الساعة ، ولذلك يكشف الحق سبحانه من الأسرار المكتنزة فيه بما يتناسب والعقل البشري في كل زمن من الأزمنة . يقول الإمام الشعراوي : " ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة ، بل هو معجزة حتى قيام الساعة . والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله ، ولذلك جاء القرآن يعطي إعجازاً لكل جيل فيما نبغوا فيه . إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية ، نجد القرآن الكريم قد أشار إليها بإعجاز مذهل ، بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن ، ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص25 .

(2) تفسير الشعراوي : ج7 ص4162 .

آيات الله في الأرض ، ولا يقدر على هذا الإعجاز المذهل إلا الله سبحانه وتعالى "[1] .

وقال في موضع آخر : " والقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة ، حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشري ، فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهمًا لعطاءات القرآن لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للإنسان عن سر جديد في الكون ظهر إعجاز في القرآن ، لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز ، وقد تكون الإشارة إلى آية واحدة أو بضع آيات . ولكن هذه الآية أو الآيات تعطينا إعجازاً لا يستطيع العلم أن يصل إلى دقته "[2] .

فهذه إشارة واضحة وصريحة منه إلى الإعجاز العلمي ، وعطاء القرآن المتجدد لكل جيل .

وقال في موضع ثالث : " رسول الله ﷺ ــ وهو الذي عليه القرآن نزل ــ فسر وبين كل ما يتعلق بالتكليف الإيماني ، وترك ما يتعلق بغير التكليف للأجيال القادمة . ويمر الزمن ويفتح الله لعباده من أسرار آياته في الأرض ما يشاء . فيكون عطاء القرآن متساويًا مع قدرة العقول ، لماذا ؟ لأن الرسالات التي سبقت الإسلام كانت محدودة الزمان والمكان ، أما القرآن الكريم فزمنه حتى يوم القيامة ولذلك فلا بد أن يقدم إعجازاً لكل جيل ، ليظل القرآن معجزة في كل عصر "[3] .

فهذه طرف من أقواله ــ رحمه الله ــ ، كلها يبين أن عطاء القرآن متجدد ، فيعطي كل جيل بما يتناسب ومرحلة الاستقراء العقلي ، ليثبت لكل عصر أن القرآن معجزة دائمة حتى قيام الساعة .

ثالثاً : سبق القرآن للكشوفات العلمية ، وبيان أثره على منكري الإسلام :

كان للقرآن الكريم السبق في مجال العلم ، حيث تضمنت آياتُه إشاراتٍ متفرقةً حول قضايا العلم المختلفة ، وحث على إعمال الفكر والنظر في الآيات الكونية ، وما هذه الكشوفات العلمية إلا أدلة وبراهين تثبت صدق القرآن .

قال صاحب كتاب (تفسير الآيات الكونية) : " لقد تعرض القرآن في آيات كثيرة منه ــ نحو سبعمائة آية ــ إلى مسائل هي من صميم العلم . وذكر جانباً من الحقائق العلمية كقضايا عامة ، ودخل في تفاصيل بعض الحقائق الأخرى ، وبذلك نبَّه الأذهان إلى أهمية البحث ،

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص12 ــ 13 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص9 ــ 10 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص12 .

وإعمال الفكر " [1] .

وقد أشار الإمام الشعراوي إلى أن ما توصل إليه العلم الحديث مسبوق بإشارات القرآن إليه ، مما جعل بعض منكري الإسلام يعتنقون الإسلام .

يقول ــ رحمه الله ــ : " ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى في كونيات الحياة التي أتيحت للعقل البشري في القرن العشرين ، نجد أن القرآن الكريم يشير إليها ؛ لأن العمر في الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة ، وما دام إلى أن تقوم الساعة ، يظل القرآن حتى قيام الساعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) ﴾ (سورة فصلت) أي أن القرآن له عطاءان في الإعجاز : العطاء الأول آيات في الآفاق . وهذه هي الآيات الكونية . والعطاء الثاني « آيات في أنفسهم » وهذه هي الآيات التي تتعلق بأسرار الجسد البشري . وقوله « حتى يتبين لهم أنه الحق » أي أن القرآن هو الحق . ولذلك يمكن أن نقول أن آيات الكون ستأتي موافقة لآيات القرآن الكريم .... ولقد أعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين ، فبرع المسلمون الأوائل في العلوم ..... وأعطى غير المؤمنين مما نشهده الآن من نهضة علمية في دول الغرب ، وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى : « حتى يتبين لهم أنه الحق » أي أن آيات الكون ستجعل المنكرين للقرآن الكريم يعترفون أنه الحق ، ذلك أن المؤمن يعرف أن القرآن هو الحق ، لكن المنكر للإسلام يكشف الله له آية في أمر معجز ، يبين له أن هذا الدين حق .

ولقد حدث أخيراً في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أن أعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الإسلامي " [2] .

وتأكيداً لما ذكره الإمام الشعراوي أن الطبيب الفرنسي « موريس بوكاي » قام بعمل دراسة حول الكتب المقدسة : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن . تحت عنوان : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . فبدأ بدراسة التوراة أولاً ، فوجد أن أسفارها جميعها تتعارض مع العلم الحديث ، وكذلك الإنجيل . ثم انتقل الحديث عن القرآن الكريم ، فذكر أن القرآن لم يعتره تحريف أو ضياع أو تبديل ، فكان أن أعلن إسلامه [3] .

---

(1) تفسير الآيات الكونية ــ د . عبد الله شحاتة : ص16 .

(2) تفسير الشعراوي : ج1 ص18 ــ 19 بتصريف .

(3) انظر : إعجاز القرآن الكريم : ص150 ــ 158 ، وتفسير الآيات الكونية : ص52 ــ 53 ، ص299 ــ 302 .

وفي كتابه (ما أصل الإنسان .. إجابات العلم والكتب المقدسة) توصل إلى مثل النتيجة سالفة الذكر ، وهي أن الأيدي قد لعبت في التوراة والإنجيل ، وأن القرآن لم يعتره تحريف ، وأنه منسجم مع العلم تمام الانسجام [1] .

رابعاً : تبرير عدم تفسير النبي ﷺ للآيات الكونية :

برر الشعراوي عدم تفسير النبي ﷺ للآيات الكونية بسببين :

الأول : لئلا تُصرف العقول عن أساسيات الدين إلى جدل في أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها آنذاك .

الثاني : حتى لا يجمد القرآن ، لأنه ليس بعد تفسير النبي ﷺ تفسير .

يقول ــ رحمه الله ــ : " ولو أن رسول الله تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضاً لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن ، فإنه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين إلى جدل في أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها . ولكن الحق تبارك وتعالى ترك في الكون أشياء لوثبات [2] العقول في العلم ، بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطًا يربط آيات الله في الكون وآياته في القرآن الكريم . ولو أن رسول الله ﷺ فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن ؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد رسول الله ﷺ . وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد . ولكن ترك رسول الله ﷺ للتفسير ، أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم إلى قيام الساعة . وهكذا كان المنع هو عين العطاء ، وهو معجزة أخرى من إعجاز القرآن الكريم "[3] .

خامساً : تسخير العلم لخدمة الدين :

كان الشعراوي ــ رحمه الله ــ يأتي بالقضايا العلمية ، تسخيراً لخدمة قضية دينية .

فعلى سبيل المثال جاء بقضية اكتشاف الميكروب ليقرب بها قضية الغيب من الأفهام ، على شاكلة تقريبه للملائكة والجن ؛ لأن بعض الناس أنكروا وجودهما . فقال الإمام ــ رحمه الله ــ في رده عليهم : " ألا تؤمن إلا بالمُحَس بالنسبة لك ؟ فما رأيك في الميكروبات التي ظهرت الآن بعدما اختُرع الميكروسكوب ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كانت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسِّك وغير مُدرَك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناس غير

---

(1) انظر : ما أصل الإنسان .. إجابات العلم والكتب المقدسة ــ د . موريس بوكاي : ص234 وما بعدها .

(2) وثَبَات : جمع وثب أي : قفز . المنجد : ص886 .

(3) تفسير الشعراوي : ج1 ص14 .

مُدركة ، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها ؟ فما المشكلة في هذا ؟ " [1] .

لقد أخذ الشعراوي من اكتشاف الميكروب دليلاً حسياً على وجود الملائكة والجن ، وهما من أمور الغيب .

وقد ذكرنا فيما قبل عند الكلام عن الجن ودخولهم في جسم الإنسان ، ذكرنا كلام الشعراوي في هذه المسألة . وقد أتى أيضاً بالشاهد العلمي على هذه القضية ، وهو الميكروب حينما يدخل جسد الإنسان ، ويجري في عروقه [2] .

إذن كان الشعراوي يأتي بالقضية العلمية لخدمة قضية دينية . وهكذا نرى موقفه ــ رحمه الله ــ من التفسير العلمي .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج4 ص2172 ، وانظر ج9 ص5728 ــ 5929 .

(2) انظر هذه المسألة : ص253 .

المبحث الثاني : منهجه في العلوم الطبيعية :

وسوف نتناوله من خلال عدة مطالب .

المطلب الأول : علم الفلك :

علم الفلك علم يبحث في الأجرام العلوية . وهو من العلوم الطبيعية . وقد احتوى القرآن في ثنايا آياته إشارات إلى الظواهر الفلكية في الكون .

والشعراوي بطبعه لم يترك تلك الآيات تمر هكذا دون أن يتعرض لما أشارت إليه . على شاكلة تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (189)﴾ (سورة البقرة) . يقول ــ رحمه الله ــ : " قال العلماء المعاصرون في تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليوناً وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل ، فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ، ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً ..... ويكبر حجم نوره كلما سبحت الأرض بعيداً عنه . وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كلية يظهر في السماء بدراً كاملاً . ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب جزءاً من الشمس ، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس فلا يظهر منه شئ ...... وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ، ثم يكبر حتى يصير بدراً ؟ فقال الحق عز وجل : « قل هي مواقيت للناس والحج » . إنهم يسألون عن الأهلة ودورتها ، فقطع الله عنهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال : « قل هي مواقيت للناس والحج » . إن هذا الأمر هو الذي يستطيع العقل في ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم "[1].

إن الإجابة العلمية على سؤالهم عن الأهلة ربما تمنح السائلين علماً نظرياً في الفَلَك ، إذا هم استطاعوا ، بما كان لديهم معلومات قليلة في ذلك الحين ، أن يستوعبوا هذا العلم ، ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك ؛ لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات .

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص808 ــ 809 .

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية ، ولا تفيدها كثيراً في المهمة التي جاء القرآن من أجلها [(1)] .

وهكذا يسترشد الشعراوي بما يقرره العلم من حركة الأرض ، وما ينتج عنها من تغير في حالات القمر بين الزيادة والنقصان .

وفي موضع آخر من تفسيره يتكلم عما يترتب عن الشمس والقمر من حسابات في الزمن . يقول عند تفسيره لكلمة « شهر » من قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ... (185) ﴾ (سورة البقرة) : " ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس ، فالشمس هي سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار . ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذي يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذي يأتي في أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما في تحديد الزمن " [(2)] .

إننا نجد الشعراوي قد حالفه التوفيق في القضايا العلمية التي طرحها ، لكن قد لا يحالفه التوفيق في بعض القضايا التي يطرحها ، لكونها بعيدة عن الصواب . وهذا مثال أضربه من تفسيره يؤكد ذلك .

قال : " ولقد أثبت العلم أن كل مجرَّة من المجرات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ متعددة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكلٌّ مخاطبٌ بالأرض التي هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن في هذا العالم العالي توجد أراض ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً .... ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هو كل ما علاك فأظلك ، والأرض كل ما أقلك . وما دامت سبع سموات ، والسماء الأولى سماء كبير وفضاء ، وتأتي بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى ، ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله " [(3)] .

هذا كلام الشعراوي ، وقد تبدو لك غرابته من أول نظرة . إذ قوله بوجود عدد من الأراضي ، ولكل سماء أرض ، وأن كل أرض أرسل الحق سبحانه لهم رسولاً ، هذا كلام

---

(1) في ظلال القرآن : ج1 ص181 .

(2) تفسير الشعراوي : ج2 ص772 . وقد أشار صاحب كتاب (تفسير الآيات الكونية) إلى مثل هذا . انظر ص82 ــ 83 .

(3) تفسير الشعراوي : ج7 ص4164 ــ 4165 .

مستبعد جداً ، ولا أدري كيف يمر الشعراوي على قضية كهذه ، ويأخذها على أنها مسلَّمة ، ولم يبين ضعفها وبطلانها .

هذا ، وقد أشار صاحب كتاب (التفسير العلمي للآيات الكونية) إلى مثل هذا عند كلامه عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (من الآية 12 سورة الطلاق) ، أشار إلى أن المقصود من الآية الكريمة أنه تعالى خلق سبع سموات غير أرضية ، وخلق أراضين متعددة ، منها الأرض التي يسكنها الناس ، وهي تشبه السموات السبع في بعض الصفات ، وليس في كل الصفات ، على أن « مثلهن » في الآية بمعنى : ما يشبههن في صفة أو أكثر (1) .

وهذا لعمري تكلف وتمحل وتحميل للآيات ما لا تحتمل . وأبسط ردٍّ على ذلك ما حدث لرسولنا ﷺ من الإسراء والمعراج ؛ فقد عُرِج به ﷺ إلى السموات السبع سماء بعد سماء ، ويرى في كل سماء بعض الأنبياء وبعض المشاهد ، ثم بعد ذلك إلى سدرة المنتهى ، ثم إلى حيث انتهى علم الخلائق . وعندها يكلم الله ، وتُفرض على أمته ﷺ الصلوات . ثم يرجع بعد ذلك إلى حيث أتى . فكيف نوفق بين هذا الصحيح من السنة وبين ما ذكره الشعراوي وغيره ؟! . إنه كلام ظاهر البطلان ، فلو كان الذي قالوه مقصوداً لأخبرنا الله عنه صراحة .

وقد أخرج ابن جرير الطبري ــ رحمه الله ــ عن قتادة قال : بينما النبي ﷺ جالس ..... قال : " **أتدرون ما هذه السماء ؟** " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " **هذه السماء موج مكفوف ، وسقف محفوظ** " ، ثم قال : " **أتدرون ما فوق ذلك ؟** " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " **فوق ذلك سماء أخرى** " حتى عدَّ سبع سموات ، وهو يقول : " **أتدرون ما بينهما ؟ خمسمائة سنة** " . ثم قال : " **أتدرون ما فوق ذلك ؟** " ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :

---

(1) انظر : التفسير العلمي للآيات الكونية ــ حنفي أحمد : ص130 ــ 132 . وقد ذكر الأستاذ سيد قطب في توجيه معنى الآية قولين : **الأول** : إرادة العدد ، أي أن السموات سبع ، والأرضين سبع ، ولا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحتها . **والثاني** : أن معنى « مثلهن » أي أن هذه الأرض من جنس السموات ، فهي مثلهن في تركيبها وخصائصها . ثم قال : " وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا ؛ لأن علمنا لا يحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق : هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علماً يقينياً .. وهيهات ..! ". في ظلال القرآن : ج6 ص3606 .

وقال ابن عاشور : " وجمهور المفسرين جعلوا المماثلة في عدد السبع ، وقالوا : إن الأرض طبقات ، فمنهم من قال : هي سبع طبقات مُنبسطة ، تفرق بينها البحار . وهذا مروي عن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه . ومنهم من قال : هي سبع طباق ، بعضها فوق بعض ، وهو قول الجمهور ، وهو يقرب من قول علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) من إثبات طبقات أرضية ، لكنها لا تصل إلى سبع طبقات " . التحرير والتنوير ــ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : ج13 جـ28 ص340 .

" **فوق ذلك العرش** " قال : " **أتدرون ما بينهما ؟** " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " **بينهما خمسمائة سنة** " . ثم قال : " **أتدرون ما هذه الأرض ؟** " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " **تحت ذلك أرض** " . قال : " **أتدرون كم بينهما ؟** " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " **بينهما مسيرة خمسمائة سنة** " حتى عدَّ سبع أرضين . ثم قال : " **والذي نفسي بيده لو دُلي رجل بحبل حتى بلغ أسفل الأرض السابعة ، لهبط على الله** " . ثم قال : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) ﴾ (سورة الحديد) [1] .

فلا حجة لمن ذهب إلى أن العدد غير مقصود من الآية .

المطلب الثاني : علم الأحياء :

علم الأحياء يبحث في الكائنات الحية وتفاعلها مع بعضها البعض ، والظروف البيئية المحيطة بها ، ثم علاقة كل ذلك بالإنسان . فمجال هذا العلم إذن الإنسان والحيوان والنباتات والبيئة المحيطة بهم . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العلم بإعجاز مذهل . والشعراوي بطبعه يبين دائماً الإشارات العلمية التي أفادتها تلك الآيات .

فعن التكاثر يقول : " كل موجود أراد به الحق التكاثر فهو يخلق منه الزوجين ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (من الآية 36 سورة يس) . ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بُعد ، والريح هي التي تحمل حبوب اللقاح ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (من الآية 22 سورة الحجر) فتأتي الريح بحبوب التلقيح من أي مكان . مثال ذلك عود الذرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنثويته في شئ واحد ، فقمة العود فيها الذكورة ، ويخرج من كل « كوز » لنبات الذرة قدراً من الخيوط الرفيعة ، وهذه هي حبال الأنثوية . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى تلك الخيوط ، وكل خيط يأخذ من حبوب اللقاح كفايته لتنضج الحبوب . وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب " [2] .

---

(1) تفسير الطبري : ج12 جـ28 ص99 .

(2) تفسير الشعراوي : ج5 ص3068 ـــ 3069 . تأكيد أن الرياح من أهم عوامل التلقيح في بعض النباتات، انظر كتاب : الله والعلم الحديث : ص156 .

وهكذا بيّن الشعراوي طريقة الإخصاب في نبات الذرة ، وكيف أن الهواء كان عاملاً طبيعياً من عوامل التلقيح في النباتات .

ولو نظرنا إلى صدر كلامه ـ رحمه الله ـ ، لوجدناه يشير إلى قضية توصل إليها العلم الحديث ، وهي أن كل شئ قائم على الزوجية ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) ﴾ (سورة الذاريات) [1] . والإنسان واحد من هذه المخلوقات ، بدأ تكاثره من التراب ، ثم بدأت مرحلة التكاثر فيه بالزوجية ، ثم يكون نطفة ، ثم علقة ، فمضغة ، فعظام ، ثم تُكسى العظام لحماً ، ثم يخرج خلقاً آخر ، على صورة حسنة وهيئة مليحة [2] .

وعندما فسر ـ رحمه الله ـ قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ (59) ﴾ (سور الأنفال) . تحدث عن السبق المذكور في الآية ، وعن ملكات الإنسان ساعة يواجه أحداثاً مفاجئة ، حيث تكون له قوة وقدرة أكبر من قوته وقدرته الطبيعية . وعلل السبب في ذلك بقوله : " لقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هي الغدة الكظرية ، إذا وقع في مأزق مفاجئ تفرز مادة « الإدرينالين » . هذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته ، ولكن إذا ما زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التي يحتاجها الجسم " [3] .

وعن عملية التبخير والتكثيف يقول : " وعملية التبخر هي تقطير للماء . فأنت إذا ما أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان ، فتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها لتعود إلى مياه من جديد . إذن فالماء له دورة ، نروي به الزرع ، فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون [4] ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته في عملية النتح ، ثم يجف بعد أن تخرج منه

---

(1) انظر : وجوه من الإعجاز القرآني ـ مصطفى الدباغ : ص172 ـ 173 .

(2) انظر مراحل تطور خلق الإنسان كتاب (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) ـ د . محمد البار : ص131 وما بعدها .

(3) تفسير الشعراوي : ج6 ص4774 .

(4) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) ﴾ (سورة الأنعام) .

قال الدكتور حامد قنيبي : " إذا تابعنا عملية خلق النبات حسب تسلسلها في آية الأنعام ـ 99 وجدناها موضحة بعوامل خلق ثلاثة ، وهي كما يأتي :

1 ـ عامل الخلق الأول لكل النبات هو الماء : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ » .

المياه بالتبخر ..... وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطَّرة ، ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء حوالي ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقي « اليابس » لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذي يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف " [1] .

وقد رد نظرية داروين ، وبين بطلانها . قال : " الوجود بحلقاته أربع ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، لا ترتقي فيه حلقة إلى الأعلى منها ؛ بل تقف عند حد معين ، وتلك هي الشبهة التي أصابت بعض المفكرين في أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد .... والذي يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) ﴾ (سورة الذاريات) أي أن كل المخلوقات مخلوقة ابتداءً من الله ، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر . ونقدم هذا الدليل العقلي لغير المتدينين ، فنقول : لماذا لم تؤثر الظروف التي أثرت على القرد الأول ليصير إنساناً في بقية القرود لتكون إنساناً ؟! .

وهكذا تتهدم النظرية ــ نظرية داروين ــ من أولها لآخرها ، وأيضاً علماء الأجناس يهدمونها الآن " [2] .

ونظرية التطور هذه أول من فكر بها هو « لاراما » الفرنسي الذي قال بأن الإنسان لم يكن إنساناً منذ الأزل ، وإنما كان حيواناً شبه القرد ، وهكذا الحيوان والنبات ، وأنها كلها نشأت من أصل واحد . ثم جاء بعده « داروين » الإنجليزي الذي أيد هذه النظرية ، وعمل على نشرها . لكنه رجع بعدها وأقر بوجود الله [3] .

وهكذا يبين الشعراوي القضايا المتعلقة بعلم الأحياء ، ويرد ما توصل إليه بعض الباحثين من النظريات والفرضيات فيما يتعارض مع القرآن والعلم .

= 2 ــ عامل الخلق الثاني : هو المادة الخضراء التي تشير إليها الآية بكلمة (خضراً) « أخرجنا منه خضراً » .

3 ــ عامل الخلق الثالث : وهو إخراج الحب والثمر المتباين والمختلف حجماً وشكلاً ، بين قمح وعنب ورمان وزيتون .. " . المشاهد في القرآن الكريم ــ د . حامد صادق قنيبي : ص116 ــ 117 . وقد عقد بحثاً عن مشاهد النبات من منظور قرآني ، وبعده كذلك عقد بحثاً آخر عن مشاهد الحيوان . انظر ص108 وما بعدها .

(1) تفسير الشعراوي : ج9 ص5725 .

(2) تفسير الشعراوي : ج8 ص4635 .

(3) انظر كتاب : الله والعلم الحديث : ص201 .

المطلب الثالث : علم الجغرافيا :

علم الجغرافيا أحد العلوم الطبيعية . وهو يختص بدراسة جميع الظواهر والتغيرات الطبيعية ؛ كالطقس والمناخ والتضاريس . وقد تعرض الشعراوي لهذا العلم خلال تفسيره مبيناً بعض الظواهر الطبيعية التي يبحثها هذا العلم .

والمثال على ذلك حركة الرياح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) ﴾ (سورة البقرة) . يقول الإمام الشعراوي : " ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير ، أي توجيه الرياح إلى نواحٍ مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب . وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيباً ، وعندما نتأمل عملية الاستطراق في الهواء ، نجد أنها تعطي اعتدالاً مزاجياً للهواء ، فمرة يأتي من ناحية حارَّة ، ليهب على المناطق الباردة ، ومرة يأتي من المناطق الباردة ، فيهب على المناطق الحارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله ، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر " [1] .

فهذا كلام الشعراوي يحمل في طياته بيان حركة الرياح ، ويمزج ذلك بالصبغة الدينية .

ومن الإشارات العلمية ، ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ... (125) ﴾ (سورة الأنعام) . فهذه الآية الكريمة فيها إشارة علمية توصل إليها العلم الحديث ، وهي أن الهواء يقل كلما صعدنا إلى أعلى ، حتى يصل إلى حد ينقطع معه وجود الهواء ، وهو الغلاف الجوي . وفيه إشارة كذلك إلى الجاذبية الأرضية .

يقول الإمام الشعراوي : " وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول العمل ، والثاني لمناهضة الجاذبية ، ولذلك يضيق صدره ؛ لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً " [2] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص691 . وتأكيد ذلك انظر : تفسير الآيات الكونية : ص65 .

(2) تفسير الشعراوي : ج7 ص3933 .

وتكلم كذلك عن تكوين الأودية ، فقال : " والوادي هو المكان الذي يكون بين الجبال ، ولماذا يكون الوادي خصباً بين الجبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية (1) ، فالحرارة تأتي بعد البرودة ، والحرارة تجعل القشرة الأرضية تتمدد ، والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحي . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن « الغَرِين » (2) أو الطمي ، كالذي كان يأتي من الحبشة ، والذي أحدث خصوبة وادي النيل " . قال : " ونحن نرى أن للجبال قمة ، ولها قاعدة . وبين كل جبل وجبل يوجد وادي ، ونعرف أن ضيق الوادي يكون في أدناه ، واتساع الوادي يكون في أعلاه ، والجبل عكس الوادي ، فضيق الجبل يكون في القمة ، واتساعه في القاعدة ، أي قمة الجبل أقل اتساعاً من قاعدته " (3) .

وهكذا يبين الشعراوي كيفية تكوين الوديان ، وكون مجراها يكون محصوراً ، ويكون من أعلى إلى أسفل . ويتكلم في موضع آخر عن موارد المعادن ، وكون الجبال مصدراً من مصادر استخراجها .

يقول : " ومن يتأمل هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن القوت . فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أي آلات تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً في الجبال . وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

---

(1) ذكر حنفي أحمد في كتابه أن التغيير المستمر في سطح الأرض يكون بعوامل طبيعية مختلفة ، بعضها عوامل خارجية ، وبعضها عوامل داخلية . ومن أهم العوامل الخارجية التعرية ، وهو اسم يُطلق على ما يصيب الصخور السطحية بالمؤثرات الخارجية ؛ كدرجة الحرارة ، وحركة المياه ، وأمواج البحار ونحوها وهذه كلها تعمل على تفكيك وتفتيت سطوح الصخور ، ثم تنتقل الصخور المتفتتة مع جريان السهول والأنهار من مكانها إلى مكان آخر .

ومن نتائج عملية التعرية : تفكك سطوح الجبال ، وتكوين الوديان ، وتكوين طبقة لينة على سطوح الوديان والسهول ، وتكوين صخور رسوبية مبسوطة على أرض البحار .

أما العوامل الباطنية فهي مثل : التقلصات البطيئة المستمرة في سطح الأرض ، والتقلصات العنيفة المتقطعة في القشرة الأرضية . وهي بدورها تؤدي إلى أمور منها : حدوث الزلازل والبراكين .

انظر : التفسير العلمي للآيات الكونية : ص114 وما بعدها .

(2) الغَرين : ما بقي في الحوض من مائه وطينه . معجم مقاييس اللغة : مادة « غرن » .

(3) تفسير الشعراوي : ج4 ص1950 .

إذن ، فالمطمور في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للترف فوق الاقتيات " [1] .

واتساقاً مع ما ذكره الشعراوي يقول صاحب كتاب (تفسير الآيات الكونية) في تفسير الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (من الآية 29 سورة البقرة) : " أي خلق للإنسان الأرض وما عليها من بحار وأنهار وأشجار ونبات وتربة وهواء وفضاء وأرزاق ، وما في داخلها من بترول ومعادن ومياه وغير ذلك . ويرى بعض العلماء أن ما خلق الله لنا في باطن الأرض يحتاج منا إلى علم وفن وفكر ومعرفة بأساليب استخراجه وتصنيعه والاستفادة منه . فلا يكفي أن نستخرج البترول ، بل يجب أن تنشأ حوله دراسات علمية وعملية ، لتكون فائدته أشمل ، ولتحقق ما أراده الله من خلافة .

الإنسان في الأرض ، والاستفادة التامة بنعم الله علينا ، واستخدام النعمة فيما خلقها الله من أجله ، وهو عين الصواب ، وصورة واضحة من خلافة الإنسان في الأرض .

ينبغي أن يجيد المسلمون دراسة طبقات الأرض وذخائرها وأن يعتمدوا على أنفسهم في استخراج كنوزها ، وتصنيع خيراتها ، وبذلك يحققون توجيه الوحي الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (من الآية 29 سورة البقرة) " [2] .

فالأرض والجبال إذن مصدر من مصادر استخراج المعادن النافعة للإنسان .

المطلب الرابع : علم البحار :

لم يتوسع الشعراوي في هذا العلم ، وإنما له إشارات حول بعض القضايا المتعلقة به .

وعلم البحار من العلوم التي أفردها العلم المعاصر بالدراسة والبحث . ولو نظرنا إلى بعض البرامج التليفزيونية حول هذا العلم ، لوجدنا الاهتمام الخاص به واضحاً .

ومن بديع ما يُذكر هنا ما قاله صاحب كتاب (تفسير الآيات الكونية) . قال عن الحكمة في جعل مياه المحيطات مالحة : " لو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض ، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح ، وبالتالي ما كانت حياة " [3] .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج10 ص6237 .

(2) تفسير الآيات الكونية : ص62 . وانظر كتاب المشاهد في القرآن الكريم : ص68 وما بعدها . فقد عقد بحثاً حول الآيات التي يذكر فيها الجبال .

(3) تفسير الآيات الكونية : ص50 .

وقد أشار الإمام الشعراوي إلى أن العلماء حالياً يحاولون اكتشاف لغات الأسماك ودراستها [1] ، ويؤكد ذلك أن هناك برامج تليفزيونية أوضحت دورة حياة بعض أنواع الأسماك ، وكيفية انتقالها من بحر إلى بحر ، وقطعها المسافات الشاسعة للوصول إلى مكان معين من أجل وضع البيض ، ثم العودة إلى حيث أتت . ولا زالت الدراسات مستمرة حتى الآن حول عالم البحار .

وقد تكلم الشعراوي عن نوع من الأسماك رآه في السعودية ، هذا النوع ــ كما قال ــ لا يتجاوز حجمه عقلة الأصبع ، ولا يكبر أبداً . والعجيب أنه أيضاً لا يُؤكَل . وطالما أنه لا يؤكل فما فائدته إذن ؟ . لما زار الإمام تلك الأماكن التي يوجد فيها هذا النوع من الأسماك ، سألهم عن فائدته ؟ فقالوا : إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه في الأماكن التي لا يقوم الإنسان بتنقيتها . قال : فجربنا حقيقة ما قالوا ؛ وألقينا بعضاً من مخلفات الطعام ، فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا ندري ، وتلقف هذه البقايا ، ولا تتركها حتى تنهيها [2] .

إذن كل شئ خلقه الله له فائدة فعلاً ، وله مهمة . وهذه الأسماك مهمتها تنقية المياه .

وقد حكى صاحب كتاب (الله والعلم الحديث) أن هناك نوع من حيوانات البحر يسمى « قريص البحر » ، وهي كائنات صغيرة يبلغ عدد الموجود منها في الميل المكعب الواحد نحو رقم يبلغ سبعة عشر عددا ، أي بلايين البلايين . وهناك « الدوركال » الذي يبلغ طوله 120 قدماً [3] .

ولما فسر الشعراوي قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ... (96) ﴾ (سورة المائدة) تكلم عن الأسماك من الناحية الفقهية ، لكن كلامه فيه إشارة إلى بعض الفوائد من تلك الأسماك ، فقال : " إذن فالمقيم يأكل السمك الطري ، والذي في سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ..... ولكن هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرجان والحيوانات التي نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك . فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر " [4] .

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج6 ص3609 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص698 .

(3) انظر كتاب : الله والعلم الحديث : ص93 .

(4) تفسير الشعراوي : ج6 ص3404 . وقد عقد الدكتور حامد قنيبي بحثاً حول الماء من منظور قرآني . انظر : المشاهد في القرآن الكريم : ص81 وما بعدها .

فهذا كلامه فيه إشارة إلى الفوائد من تلك الأسماك سواء للأكل ؛ طرياً أو مجففاً ، أو لاستخراج الزينة منها كما في اللؤلؤ والمرجان .

وعجيب أمر اللؤلؤ ، هذا الحيوان الذي يعيش في أعماق البحار ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار . وهو يختلف في تركيبه عن غيره ، إذ له شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، تعمل كمصفاة ، تسمح بدخول الماء والهواء المذاب والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، فإذا دخلت ذرة رمل أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ، وعلى حسب حجم الذرة التي دخلت يختلف حجم اللؤلؤة (1) .

فعلم البحار عجيب وحريٌّ بالدراسة والبحث .

المطلب الخامس : علم الفيزياء :

يبحث علم الفيزياء في تفسير الظواهر الطبيعية ، ومن ثم صياغة القوانين بناءً على هذا التفسير . كما أنه يهتم بدراسة الجسيمات والموجات .

ولقد كان للعرب السبق في شتى مجالات العلوم ؛ ذلك أن القرآن بَيْنهم ، ويحثهم على العلم والتزود من شتى العلوم والمعارف . فاخترعوا ، واكتشفوا ما أذهل الغرب . لما كانوا مستمسكين بدينهم وعقيدتهم ، فلما تولوا وأعرضوا كان السبق للغرب في مجال العلوم ، وأصبحنا ننبهر بمخترعاتهم وكشوفاتهم . لكن أقول : رجعة صادقة إلى الدين الحنيف ، واستمساك بالعقيدة الصحيحة ، نفوق عليهم بإذن الله ، وكما قال الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (من الآية 282 سورة البقرة) .

وعلى أيٍّ ، فإن الشعراوي يعرض لهذا العلم أثناء تفسيره ، على شاكلة قوله : " إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذُهل لها العالم الغربي . ويحكي لنا التاريخ عن هديةٍ من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا ، وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطاناً . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذي صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه قطرة بثقلها على شئ يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء ، وكان ضبطها في منتهى

---

(1) انظر كتاب : الله والعلم الحديث : ص96 ــ 97 .

الدقة . وحين رآها الناس في بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج لا حصر لها ولا عدد في نطاق قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (من الآية 53 سورة فصلت) " (1) .

فهذه فكرة صناعة الساعة .

وفي عالم البصريات نرى عالماً مسلماً له باع عريض في هذا العلم . يقول الإمام الشعراوي : " وهَبْ أنك في مكان مظلم ، ويوجد شئ آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى مَن يوجد في النور ، وهذه المسألة لم يفطن لتفسيرها علماء ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي . حتى جاء الحسن ابن الهيثم (✿) العالم الإسلامي ، واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبق من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ، لرأى الإنسان في الظلام " (2) .

إذن بيَّن الشعراوي بطلان النظرية القديمة من خلال رأي ما توصل إليه العالم المسلم ابن الهيثم ، وهو أن الأشعة تسقط على الأشياء ثم تنعكس على العين فتراها .

وفي موضع آخر يتكلم الشعراوي عن الألوان ، فيقول : " ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف ، وكذلك اللون الأبيض ؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر ، البرتقالي ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق ، النيلي ، والبنفسجي . واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية ؛ لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت منها أشعة لعينيك ، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التي تأتي عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها ، فتراه مظلماً . والأبيض هو مزيج من ألوان متعددة ، إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض ، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً ، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك ،

---

(1) تفسير الشعراوي : ج5 ص3043 ــ 3044 .

(✿) هو أبو علي محمد بن الحسن ، وقيل : هو الحسن بن الحسين بن الهيثم . مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثاني . نزل مصر وجاور فيها إلى أن مات سنة ثلاثين وأربعمائة . وصنف التصانيف الكثيرة التي تزيد على السبعين منها : (مساحة الجسم المتكافئ) و (الأخلاق) و (المرايا المحرقة) و (ارتفاعات الكواكب) . انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ــ للعلامة المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي الشهير بابن الملا ، المعروف بحاجي خليفة (ت1067هـ) : ج1 ص138 . والأعلام : ج6 ص83 ــ 84 .

(2) تفسير الشعراوي : ج10 ص6032 ــ 6033 .

والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك " [1] .

وأزيد عبارة على ما قاله الشعراوي ، وهي أن الأبيض مزيج من جميع ألـــوان الطيــف ، والدليل على ذلك أننا لو مزجنا بعض الألوان دون البعض الآخر لا يعطي لوناً أبيضاً .

وهكذا من خلال هذا العرض يظهر لنا منهج الإمام الشعراوي في العلوم الطبيعية .

---

(1) تفسير الشعراوي : ج7 ص4455 ــ 4456 .

المبحث الثالث : العلوم التجريبية :

العلوم التجريبية علوم تخضع للتجربة ، ويكون للإنسان فيها دخل . وسوف نتناول منهج الشعراوي في العلوم التجريبية من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : علم الطب :

هو ذلك العلم الذي يختص بإيجاد السبل العلاجية التي تصيب جسم الكائن الحي . وقد وردت الإشارة إليه في كتاب الله . فقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (من الآية 83 سورة الإسراء) . وطالما قال الله تعالى أن من القرآن ما هو شفاء ، فمعنى ذلك أن في القرآن شفاء من كل داء ـــ إلا داء الهرم ـــ .

والقرآن الكريم قد دل الإنسان على ما فيه شفاؤه ، فقال : عن العسل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ (من الآية 69 سورة النحل) ، وكأنه يدل الناس على التداوي بالعسل .

وقد أثبت العلم الحديث أن العسل له فوائد عظيمة ، خصوصاً من الناحية العلاجية .

قال صاحب كتاب (وجوه من الإعجاز القرآني) : " وقد أثبتت البحوث العلمية على أنه يُعطى للمعالجة بكافة الطرق ، وأنه يُعطى بصفته مقوياً ومغذياً ، حيث يحتوي على ما يقرب من نصفه سكر عنب (جلوكوز) وهذه الكمية منه تُعتبر أكبر نسبة وجدت لهذا النوع من السكر في أي غذاء آخر . كما يُعطى العسل ضد التسمم من الزرنيخ والزئبق وضد تسمم أمراض أعضاء الجسم كالتسمم البولي ، وتسمم أمراض الكبد والمعدة والأمعاء . كما يوصف للحميات والحصبة والالتهاب الرئوي والسحائي ، وفي حالات الذبحة الصدرية ، وفي التهاب الكلى الحاد والأورام الخبيثة واحتقان المخ ... كما أثبت الطب أنه وشمعه فيهما مادة قادرة على شفاء تصلب المفاصل والرسغين . كما أنه استخدم بنجاح لتغطية آثار الجروح الناتجة عن التئامها بعد العملية . وتبيَّن أن في العسل مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، فلا تُخلِّف ندوباً وتشويهاً بعد العمليات الجراحية . كما ثبت أن عسل النحل الملكي له القدرة على إفناء جيمع أنواع الجراثيم ، كما ثبت أنه من أغنى المواد الغذائية وأكثرها فائدة للإنسان " [1] .

---

(1) وجوه من الإعجاز القرآني : ص178 ـــ 179 . وانظر كتاب : الله والعلم الحديث : ص173 وما بعدها

كل هذه فوائد للعسل اكتشفها العلم الحديث .

أما الإمام الشعراوي فقد كان يبين ما توصل إليه العلم من اكتشافات حول عالم الطب ، وعلى سبيل المثال ، عند تفيسره لقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) ﴾ (سورة البقرة) . فقد تطرق الحديث منه إلى طفل الأنابيب ، فقال : " إنهم عندما تحدثوا عن أطفال الأنابيب ، وهي عملية لعلاج العقم أكثر من أي شئ آخر . ولكنهم صوروها تصويراً جاهلياً ، وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التي يكون المهبل عندها مسدوداً أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعي ، يأخذون هذه البويضة من رحم الأم ، ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج ، ثم يزرعونها في رحم الأم . إنهم أخذوا من خلق الله وهي بويضة الأم والحيوان المنوي من الرجل ، وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح خارج الرحم ومع ذلك يسمونه طفل الأنابيب ، كأن الأنبوبة تخلق طفلاً !! والحقيقة غير ذلك . فبويضة الأم ، والحيوان المنوي للرجل هما من خلق الله " [1]

فهذا بيان لما توصل إليه علم الطب من التلقيح الصناعي ، وهو ما يسمونه طفل الأنابيب ، وتعليق الشعراوي على التسمية جاء لأن بعض الناس ظنوا أن للإنسان دخل في خلق هذا الطفل ، ونسوا أن الذي خلق البويضة والحيوان المنوي هو الله ، فهو يرد عليهم بهذه الحجة ، ويقول لهم : إذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا إنساناً أن يموت .

ومن الأمور التي فيها إشارة طبية قوله تعالى في اعتزال الحائض : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .... (222) ﴾ (سورة البقرة) .

لقد بين الشعراوي أن الآية أوضحت أن دم الحيض أذى للرجال والنساء . فوضع الحق العلاج الأمثل لتجنب الأضرار الناجمة من الجماع في حالة الحيض ، وهو الاعتزال ؛ لأن الحيض يعطي قذارة للرجل في مكان حساس وهو الفرج ، فإذا وصلت إليه الميكروبات فإنها تصيبه بأمراض خطيرة . ذلك أن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة أو للرجل إن جامع زوجته في فترة الحيض . فوضع التشويع العلاج لهذه القضية بعدم حصول الجماع [2] .

والحيض له دورة تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يوماً . ويبتدئ عند الفتيات من السنة الثالثة عشر أو الرابعة عشر في بلادنا المعتدلة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ، ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهي حين تبلغ الأنثى سن

---

(1) تفسير الشعراوي : ج1 ص224 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص966 .

الخامسة والأربعين أو الخمسين .
والطمث يسبب الآلام والضعف الجسماني للمرأة ، وقد تتضاعف أعراضه ، وتشتد وطأتها بما يسبب تعباً شديداً للحائض ، فتشعر بمغص شديد تصحبه أعراض هستيرية ، قد تنتهي بالإغماء ، ولهذا جاء التحريم للجماع في حال الحيض مع التشنيع على من يفعل ذلك[1] .
إن الحق سبحانه وتعالى وضع الوسائل الوقائية لكثير من الأمراض بالتشريع ، ونظرة واحدة إلى المحرَّمات ، وإلى ما توصل إليه العلم الحديث ، سنصل إلى حكمة الله في التحريم . والمثال السابق دليل على هذا . وقد سُئل الشيخ الشعراوي في بعض رحلاته عن الحكمة في إباحة التعدد للرجل دون المرأة ، فقال : أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسياً ؟ قالوا : نعم ، في بعض الولايات . فقال : بماذا احتطتم لصحة الناس ؟ قالوا : بالفحص الطبي الدوري المفاجئ . قال : لماذا ؟ قالوا : حتى نعزل المصابة بأي مرض . قال لهم : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟ قالوا : لا . فقال لهم : لماذا ؟؟ فسكتوا ، قال : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال في المكان الواحد [2] . فألزمهم الحجة وهذا بيان منه ــ رحمه الله ــ أن التشريع علاج وقائي .
إن الزنا واحد من الكبائر ، وفاحشة تجر على مرتكبيها المصائب والأوبئة . ومن هذه المصائب مرض الزهري ، وهو ثالث مرض في العالم منوط به إزهاق النفس . وحيثما وجدت جريمة زنا ، وجدت الإصابة بهذا المرض . ونسبة الإصابة بهذا المرض في لندن عاصمة بريطانيا وحدها حوالي 10% من هذا المرض ، وفي عاصمة فرنسا ــ باريس ــ حوالي 15% . وقال أحد العلماء وهو « بنكسن » أنه في ألمانيا بأجمعها نجد في كل خمسة رجال رجلين مصابين بهذا الداء . وفي أمريكا 3000 شخص يُقضى عليهم من هذا الداء سنوياً . وهذا المرض معدٍ بمجرد اللمس ، سواء عن طريق الزنا أو غيره .
ومن الأمراض الخطيرة الناتجة عن الزنا : السيلان والقرحة الرِّخْوة ، والقرحة الأكَّالة ، وأمراض أخرى لا يُستهان بها [3] .

هذا ، وقد تعجب البعض من الحكمة من خلق بعض المخلوقات ، ثم تحريم أكلها ؛ كالخنزير والثعابين ونحوها . عرض الشعراوي لذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا

(1) انظر : القرآن والطب ــ تأليف الدكتور الحاج محمد وصفي : ص70 ــ 71 .
(2) انظر تفسير الشعراوي : ج4 ص2058 .
(3) انظر : القرآن والطب : ص82 وما بعدها .

النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّـــهُ لَكُـمْ عَـدُوٌّ مُبِيـنٌ (168)﴾ (سورة البقرة) ، فقال : " كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق في الأرض قد خُلق ليؤكـــل ، وما علموا أن لكل مخلوق في الأرض مهمــــة ، فـــهم الآن يمســـكون الحيـات والثعـــابين ليستخلصوا منها السموم ؛ حتى يقتلوا بها الميكروبات التي تقتل الإنسان " (1) .

إذن كل مخلوق في الكون له فائدة سواء أُكل أم لم يؤكل . وانظر إلى الخنزير وقد حـــرم الله أكله ، لقد توصل العلم إلى أنه يحتوي على الأمراض التي تنتقل إلى الإنسان إذا مـــا أكلـــه ، مثل الدودة الشريطية . وربما هناك أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية (2) .

إذن لا زال اكتشاف الأسرار المكتنزة في كتاب الله تعالى مستمراً ، وكل يوم يظـــهر لنـــا جديد ، ليظل القرآن معجزة خالدة إلى يوم القيامة .

المطلب الثاني : علم الكيمياء :

علم الكيمياء أحد العلوم التجريبية ، وهو يختص بدراسة المادة وخواصـــها . ويعتـــبر علـــم الكيمياء أكثر العلوم اتصالاً بالحياة . فهو يدخل في جوانب الحياة المختلفة . وأكثر تركــــيزه على التراكيب والتفاعلات بين المواد ، ابتداءً من أصغر وحدة في المادة وهي الذرة .

وتفسير الشعراوي حظي ببعض الإشارات العلمية في الآيات القرآنية في الكيمياء .

لقد بين القرآن أن الإنسان مخلوق من طين كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِيـنٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) ﴾ (سورة الأنعام) ، وما دام الإنسان خلـق من طين ، فهذا يعني أن عناصره التي يتكون منها هي نفســـها عنـــاصر الطيـــن . ويبـــن الشعراوي ذلك بقوله : " وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوي على العديـــد مـــن العناصر . وأكبر كمية من هذه العناصر هي الأكسيجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثـــم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنيسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم الســـيلوز ثم المنجنيز ، وغيرها . والعناصر في الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها في تركيب

(1) تفسير الشعراوي : ج2 ص697 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج2 ص717 . وإذا أردت الاستزادة في هذا الموضوع فانظر كتاب : القـــرآن والطب : ص183 وما بعدها . حيث ذكر أن من الأمراض التي يصاب بها آكلي لحـــم الخـــنزير : مـــرض تينياسوليم الذي تسببه الدودة الشريطية ، ومرض التريخينا وهو من الأمراض الفتاكة ، والبـــاراتيفود الـــذي تسببه جراثيم الباراتيفود ، وأمراض أخرى .

الإنسان ، إنما تدخل في تركيب ما ينفع الإنسان " [1] .

ومن ذلك أيضاً اكتشاف صناعة الزجاج من الرمل ، فقد استطاع الإنسان بعلمه وإمكانياته وقدراته أن يصنع الأكواب ، بعد ما يسَّر الله له اكتشاف الوسيلة لصهر الرمال ، ووسيلة لتنقية الزجاج ، وأسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب . وهذا أخذ من الإنسان جهداً كبيراً [2] .

ومن الجوانب الصناعية كذلك التي تكلم عنها الشعراوي ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) ﴾ (سورة البقرة) . لقد تكلم عن الصباغة ، وبيَّن أنها تعني إدخال لون على شئ بحيث يغير من لونه . وأن عملية الصباغة تتم فيما له شعيرات كالقطن أو الصوف ؛ لأن هذه الشعيرات تشبه الأنبوبة في تركيبها . وما دامت تشبه الأنبوبة ، فمعنى ذلك أن الصبغة ستدخل في هذه الشعيرات ، وسيتم تغيير لون القماش بطريقة سهلة ، بخلاف ما إذا كانت الصباغة في الألياف الصناعية فإنها لا تُمْسك لوناً ؛ لأن شعيراتها ليس لها مسام ، حتى وإن أمسكت اللون ، فإنها سرعان ما يزول عند غسل القماش [3] .

ومن الإشارات القرآنية كذلك ما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40) ﴾ (سورة النساء) . فقد أوضح ــ رحمه الله ــ كيفية وصول العلم إلى تفتيت الذرَّة . لقد كانوا قديماً ينظرون إلى الذرة على أنها أصغر شئ ، ولا يمكن تحطيمه ، ولم يلتفتوا إلى أن أي شئ له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . وحاول بعض المشككين أن يبطلوا إعجاز القرآن بزعمهم أن القرآن قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7) ﴾ (سورة الزلزلة) على أن الذرة أصغر شئ يذكره القرآن . ونسوا أن الله تعالى قال في موضع آخر : ﴿ ... وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) ﴾ (سورة يونس) . فبين لهم أن هناك أصغر من الذرة . وهذا ما توصل إليه العلم الحديث [4] .

يقول صاحب كتاب (التفسير العلمي للآيات الكونية) : " كان المعتقد حتى أواخر القرن التاسع عشر بصفة قاطعة أن ذرات العناصر المختلفة هي أقل ما يمكن أن يوجد مستقلاً في الحالة

---

(1) تفسير الشعراوي : ج6 ص3496 .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج6 ص3499 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج1 ص612 .

(4) انظر تفسير الشعراوي : ج4 ص2244 ــ 2247 .

المطلقة من أنواع المواد المختلفة ، وأنها وحدات مصمتة غير قابلة للتجزئة " [1] .
هذا ما كان سائداً في ذلك العصر ، واستمر الحال على ذلك إلى أن جاء العالم « رذَرفورد» وأعوانه ، واكتشفوا جسيمات « ألفا » ذات السرعة الكبيرة جداً . وتمكنوا بواسطتها من تفتيت الذرة . وأعلنوا نتائج دراساتهم في العقد الثاني من القرن العشرين [2] .
فهذا ما توصل إليه العلم ، ونرى أنه لا تعارض بين القرآن الكريم وبين ما توصل إليه العلم بل إن ما توصل إليه العلم هو تأكيد لما أشارت إليه الآيات الكريمة ، وبيان لإعجاز القرآن المتجدد .

المطلب الثالث : علم النفس :

علم النفس علم يختص بدراسة سلوك الكائن الحي ، سواء كان إنساناً أو غيره . وسواء كان هذا السلوك ظاهرياً كالحركات ، أو باطنياً كالتفكير والذكاء ، ويقوم بتفسير تلك السلوكيات ، والتنبؤ بها . كما أنه يقوم بإيجاد الحلول للمشكلات المختلفة .
والنفس حقيقة لا تُدرك ، وماهية لا تُعقل ، ولا تقع تحت الحس . وقبل البدء في بيان منهج الإمام الشعراوي في علم النفس ، نجيب على هذا التساؤل : هل النفس هي الروح ؟
الجمهور على أن مسماهما واحد . وقيل : بينهما تباين . والحق أن يُقال : إن مدلولهما يتّحد تارة ، ويختلف تارة . والسياق هو الذي يحدد المراد . وعلى سبيل المثال ، قول الحق سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) ﴾ (سورة الشعراء) . فالروح هنا يقصد بها جبريل عليه السلام . وغالب ما يُسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن [3] .
ورأي الشعراوي ينحو إلى هذا ، فيقول : " والنفس ـ كما نعلم ـ تطلق على اجتماع الروح بالمادة . وهذا الاجتماع هو ما يعطي النفس الإنسانية صفة الاطمئنان ، أو صفة الإمارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتي الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية " [4] .
وعلى رأي الشعراوي تكون النفس أعم من الروح .

ونعود إلى ما يهمنا ، فنقول : إن العلم الحديث اتجه نحو دراسة الجوانب النفسية في الإنسان ، وتكيفه مع البيئة التي يعيش فيها . والمؤثرات والانفعالات ، والإدراكات

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية : ص77 .
(2) انظر المرجع السابق : ص79 .
(3) انظر كتاب : الروح ـ للإمام ابن القيم الجوزية (ت751) ص544 . وشرح العقيدة الطحاوية : ص394
(4) تفسير الشعراوي : ج4 ص2371 .

والسلوكيات ، وكل الجوانب النفسية التي تطرأ على هذا الإنسان . أي أنه يدرس كل حالة يمر بها الإنسان ، وكل تغير يطرأ على سلوك الفرد إلى أن يموت .

ولو نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن بعض آياته تشير إلى قضايا يدرسها علم النفس ؛ كدوافع السلوك والانفعالات النفسية مثل الخوف والغضب والحب والكره والبغض والفرح وغيرها من الانفعالات . وكذلك الإدراكات والتفكير والتعلم والعلاج النفسي إلى غير ذلك من القضايا التي يتناولها علم النفس . وهناك من العلماء من قام باستقراء هذه الآيات ودراستها من منظور علم النفس [1] .

والشعراوي عرض لهذا العلم في تفسيره . وسبق قبل قليل أن أشار إلى أنواع النفس (النفس المطمئنة ، والنفسي اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء) وبين مهمة كل نفس من هذه الأنفس في الفرد . فالنفس اللوامة تلوم صاحبها كلما فعل الشر . والنفس الأمارة تتمادى بالإنسان في الوقوع في الشر . والنفس المطمئنة هي التي تطمئن إلى منهج الله . وطالما وُجِدت النفس المطمئنة في المجتمع كان فيه الخير [2] .

ويتكلم الشعراوي عن سبق القرآن في مجال علم النفس . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) ﴾ (سورة المائدة) . لقد تكلم ـــ رحمه الله ـــ عن الحواس الخمسة الظاهرة : السمع ، البصر ، التذوق ، الشم ، واللمس . والحواس غير الظاهرة ؛ كالإحساس بالعطش والجوع والمقارنة بين ثقلين بحاسة العضل ، وحاسة البيْن التي يميز بها الإنسان درجة نعومة أو سُمْك أي نوع من القماش . وتكلم عما تُحدثه بعض الحواس من النفس من آثار كالحب والميل والبُغض والنفرة . وأن هذه مقرها الوجدان . ثم تكلم عن الإدراك والوجدان والنزوع . وربط ذلك بالناحية الشرعية فقال : " فالإدراك مباح ، والوجدان أمر مباح . أما النزوع فهذا هو الأمر الذي تتدخل فيه الشريعة " . قال : " ولنا أن نكرر أن الإدراك مباح إلا في إدراك جمال الأنوثة ، فالشرع يتدخل من البداية " . ويستمر كلامه عن الإدراك والنزوع والوجدان . إلى أن يقول : " وقد جاءت الآية الكريمة قبل أن يأتي علماء النفس ليفسروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع . فها هو ذا الحق يقول : « وإذا سمعوا » وهذا إدراك بحاسة الأذن . وما المسموع ؟ يجيب القرآن : « ما أنزل إلى

---

(1) انظر مثلاً كتاب : القرآن وعلم النفس ـــ د . محمد عثمان نجاتي . فهو كتاب قيم في علم النفس من منظور قرآني .

(2) انظر تفسير الشعراوي : ج6 ص3287 ، ج9 ص5328 ، 5329 . وانظر هذه التصنيفات للنفس كتاب الروح لابن القيم : ص550 .

الرسول » . وهذا هو سبب الوجدان الذي يأتي في قوله تعالى : « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فكيف يكون نزوعهم بعد هذا الوجدان ؟ إنهم : « يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . هذه هي العملية النزوعية .

والقرآن الذي نزل من أربعة عشر قرناً ، جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتي به العلم " [1] .

وهكذا يكون سبق القرآن في مجال العلم النفسي .

وكما رأينا أن القرآن كان له بالغ الأثر على نفوس سامعيه ، حتى فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق . ولذلك أقول : إن القرآن الكريم خاصة ، والإيمان بالدين يعد من أهم العوامل التي يتم شفاء النفس بها .

يقول صاحب كتاب (الله والعلم الحديث) : " وقد قرر علماء النفس أن الإيمان أهم عامل من عوامل شفاء مرضى النفس ، كما أنه خير وقاية منه ، ويقول « وليم جيمس » أستاذ الفلسفة بجامعة « هارفارد » : إن أعظم علاج للقلق بلا شك هو الإيمان " [2] .

وهذا ما يلجأ إليه الأطباء النفسانيون ، حيث تم في أمريكا توجيه مرضى النفس إلى الإيمان بالله ، ليجدوا في ذلك الشفاء من الأمراض النفسية .

هذا ، وعندما فسر الشعراوي قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) ﴾ (سورة الأنفال) تطرق الحديث منه إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (من الآية 78 سورة النحل) . وتكلم عما أشارت إليه الآية من جوانب تتعلق بعلم النفس لعملية الحفظ ، وقال بأن التلميذ الصغير أسرع حفظاً من الشاب الكبير . ثم قال : " وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هي مركز الشعور . والأمر الذي تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به في ذهنك فوراً . وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت في موضوع آخر ، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد في بؤرة الشعور " [3] . ثم تكلم بعدها عن المحسوسات والمعنويات ، وعن الذكاء والغباء عند الإنسان .

---

(1) انظر تفسير الشعراوي : ج6 ص3339 ـ 3340 بتصريف . وانظر : ج7 ص3881 ـ 3882 .

(2) الله والعلم الحديث : ص196 .

(3) انظر تفسير الشعراوي : ج8 ص4621 ـ 4622 .

وهكذا يظهر لنا مدى اهتمام الشعراوي بالجوانب النفسية .

خلاصة الفصل :

بهذا العرض المفصل يظهر لنا منهج الإمام الشعراوي في التفسير العلمي . لقد كان ـ رحمه الله ـ يذكر القضايا العلمية التي تشير إليها الآيات ، ويبين إعجاز القرآن الكريم فيها ، وهي عطاء من عطاءات القرآن المتجددة التي تعطي أهل كل زمان ما يتناسب مع عقولهم ، وتدركه أفهامهم .

وقد كان للإعجاز العلمي دور هام في إسلام عدد من المنكرين الجاحدين . وكان ـ رحمه الله ـ يسخر العلم في خدمة الدين .

ورأينا كذلك كيف كان عرضه ـ رحمه الله ـ للعلوم الطبيعية ؛ كعلم الفلك وما يهتم به هذا العلم من دراسة الظواهر الفلكية وتفسيرها ، وكذلك علم الأحياء ، وما يختص به هذا العلم من دراسة الكائنات الحية وبيئتها وعلاقتها مع الإنسان ، وعلم الجغرافيا والبحار والفيزياء .

وتبين لنا منهجه في العلوم التجريبية ؛ كعلم الطب والكيمياء ، وعلم النفس . هذه العلوم التي أشار إليها القرآن بإعجاز عجيب ، دون أن ينقض العلم تلك الآيات فيما أشارت إليه ، ودلَّت العقول عليه .

وعرض الشعراوي لتلك العلوم على اختلافها وتمايزها إن دل على شئ فإنما يدل على سعة علم الرجل ، وثقافته الواسعة ، وإلمامه بالعلوم المتنوعة .

والله الموفق والمستعان

SUMMARY

The study handles Al Shaerawi's method in interpretation. It is made clear throughout the study AL Shaerawi's way interpretation and in the call to Allah as well as the language which he used to converse people with and his distinctive style in interpretation and his ideal way in the call and rehabilitation.

The study uncovers the various different means used to interpret the quran such as: linguistics, rhetoric, physical and empirical sciences. The study is made up of an introduction, seven chapters and conclusion. The introduction is about the definition of interpretation, its emergence and the methods of enterpretators.

Chapter one deals with AL Shaerawi's life (from his birth till his death). It also exposes both his effort in studying and in his call to Allah, his position and respect many scientists.

Chapter two tackles the methods and basics of transitional interpretation.

Chapter three deals with his method in interpretation using mind in interpreting the basic of mind interpretation, language interpretation and address language.

Chapter four talks about AL Shaerawi's interpretation for the belief, handling the uniqueness issue, metaphysics, fate, messengers, philosophy and logic.

Chapter five deals with AL Shaerawi's method in interpretation from sociological and philological point of view.

Chapter six tackles AL Shaerawi's method in scientific interpretation from the view point of physical and empirical sciences.

Chapter seven is about the impact of AL Shaerawi's interpretation in interpretation and the call to Allah and the scientific position for this interpretation. The chapter contains the results of the study and recommendations.